

ابن الفارض
والحب الإلهي

د. محمد مصطفى حلمي

تليجرام : هنا سور الأزبكية

ابن الفارض

والحب الإلهي



تأليف

د. محمد مصطفى حلمي

أستاذ الفلسفة والتصوف

بكلية الآداب بجامعة القاهرة

الكتاب: ابن الفارض والحب الإلهي

الكاتب: د. محمد مصطفى حلمي

الطبعة: ٢٠٢٠

الطبعة الثانية

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

دار الكتب المصرية

فهرسة إثناء النشر

حلمي ، مصطفى، محمد

ابن الفارض والحب الإلهي / د. محمد مصطفى حلمي

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٥١٤ ص، ١٨ سم.

أ – العنوان رقم الإيداع : ٢١٩٢٢ / ٢٠١٩

ابن الفارض

والحب الإلهي




أهم جروبات على تليجرام
باحثون
هنا سور الأزبكية
غواص في بحر الكتب
قناة مصر الثقافية و الفنية

الإهداء

إلى ولدي مؤنس

أنت يا بني موضع الحب من قلبي ، ومعقد الرجاء في نفسي ، محا اللـه بنور أنسك ظلمة وحشتي، وغمر بفيض حبك كل مهجتي. وفي هذا الكتاب نفحات صادقة من الحب ، ولمعات مشرقة من الأنس ، أهديها إليك، آية على حبي لك ، وأنسي بك ، وأملي فيك ،

والداك

محمد مصطفى حلمي

تليجرام

مكتبة

غواص في بحر الكتب



تقديم

إن بحوث التصوف، وما تحتاج إليه من عناء وجهد، ومن إلمام واسع بمصطلحات القوم التي يديرونها بينهم . ومن إدراك دقيق يوازن بين أذواقهم الغيبية وبين آراء غيرهم من أهل النظر الخالص أو النظر المشترك، يعد في الحقيقة أمرا خطيرا يفتقر إلى اطراح الهوى واستعمال النصفة والعدل في الحكم، ويتطلب أيضا أن ينزل الباحث حيبا عن بعض نظراته المادية . ليتيسر له أن يعيش آونة في هذا الجو الروحي .

ولقد لقيت المتصوفة من قديم الدهر عنتا شديدا ، وذلك من جراء غموض ألفاظهم وإشاراتهم ، وما توهمه ظواهرها من الضلال والزيغ ، ولقد اضطر ابن عربي لكي يضمن لنفسه بعض السلامة والعافية أن يضع شرحا لديوانه " ترجمان الأشواق " يبين فيه مقاصد كلامه ومراميه ، ويظهر ما خفي من معانيه ، ويعين ما التبس منها ، لئلا يتأولها المتأولون على غير الوجه الذي أراد .

لذلك كان اغتباطي عظيما بإقدام الأستاذ الجليل الدكتور محمد مصطفى حلمي ، على كتابته في هذا الموضوع الشائك ، الذي يبحث في " ابن الفارض " الصرفي المصري ، ويدرس " ابن الفارض " الشاعر المصري الذي فنن بجمال مصر واستهوته مغانيها وربوعها إذ يقول :

وطنـــي مـــصر وفيهـــا وطـــري   ولنفـــسي مـــشتهاها مـــشتهاها

وكان لجبل المقطم ووادي المستضعفين به من الأثر البالغ في نفسه ما منحه بحق لقب " سلطان العاشقين " .

إن لابن الفارض مكانته الظاهرة اللامعة بين المتصوفة ، بل هو يعد في نظرنا الصوفي المصري الأول بلا منازع، كما يعد رأسها لـشعراء الـصوفية مـن العـرب وقـد ظفـر ديوانـه بمـا لم يظفـر بـه ديـوان آخـر مـن تـواتر الـشراح والمفسرين، وعنيت أجنـاس شـتى مـن الأوربيـين وغـيرهم بنقـل شـعره إلى لغاتهم، وما زال شعره إلى اليوم يتغناه الصوفيون ويتناشدونه في حلقاتهم .

إن ابن الفارض لم يسلَم - كما لم يسلم غيره من المتصوفة - مـن طعـن الطاعن عليه ، وقد انبرى له الإمام ابن تيمة وأمعن في نقده وتجريحه، كما تصدى له كثير مـن الفقهـاء يتهمونـه بـالكفر والزندقـة، ولكـن واضـع هـذا الكتاب قد وفـق في كثـير مـن الأمـر إلى أن يكـشف وجـه الحـق عـن هـذه الطعون التي وجهت إلى ابن الفارض، وأن يخلق منهـا تمجيـدا لهـذا الـصوفي ورفعا لشأنه .

إن إعجابي بالأستاذ المؤلف وتقديري لـه يرجـع العهـد بـه إلى سـنوات مضين منذ كان يعد هذه الرسالة الجامعيـة التـي كـان لي حـظ الاشـتراك في نظرها ومناقشتها ، وكان الأستاذ موفقا جد التوفيق في تحليل موارد صـوفية ابن الفارض التي طبعته بهذا الطابع الخاص ، كما ظهرت براعتـه واضـحة في بيان تـأثير ابـن عـربي في تلاميـذه الـذين تولـوا شرح ديـوان ابـن الفـارض ،

فذهبوا في تأويل ألفاظه الصوفية إلى مذهب شيخهم ابن عربي ، وخالطوا في ذلك بين المذهبين وهم لا يشعرون .

وفي هذا الكتاب ، الذي يعد الأول من نوعه في العربية ، كثير من التحقيقات التي تقتضي صاحبها من الصبر والجلد قدرا لا يستهان به ، ومن أبرعها ما صنع في تحقيق مولد ابن الفارض الذي اضطربت فيه الروايات اضطرابا ، ومنها تحقيقه راوية المقري في " نفح الطيب " ، التي تنص أن ابن عربي طلب إلى ابن الفارض أن يضع شرحا لتائيته الكبرى ، فأجابه ابن الفارض بقوله : " كتابك الفتوحات الملكية شرح لها " . وقد بين الأستاذ ما في تلك الرواية من استحالة مادية بطريقة تحمل على الإعجاب .

ونحن إذ نهنئ المؤلف بما وفق إليه في هذا الكتاب ، نرجو أن يديم الله توفيقه ، وأن يكون قدوة للشباب الجامعي في البحث عن أعلام الثقافة المصرية العربية .

مصطفى عبدالرازق



مقدمة

التصوف ناحية طريفة ممتعة من نواحي الحياة الإسلامية ، لكنه على ما فيه من طرافة وما يثيره في الشعور والعقل من متاع ، لم يعرف به الباحثون من الشرقيين العناية التي تكفي للكشف عن شخصياته ومذاهبه، وعما كان لهذه الشخصيات والمذاهب من آثار قيمة في حياة الفكر والروح . وهو لما يمتاز به من هذه الطرافة ، وما يثيره في النفس من هذا المتاع ، قد أقبل عليه كثير من المستشرقين ، فدرسوه دراسة علمية منظمة كان من ثمراتها كثير من البحوث الحصبة القيمة ، على نحو ما فعل الأساتذة : ماسينيون في فرنسا ، ونيكلسون في إنجلترة ، ونلينو ودي ماتيو في إيطاليا ، وكثير غيرهم في بلاد أوربا وأمريكا المختلفة ، فأنت إذا أردت أن تعرف شيئا عن نشأة التصوف الإسلامي وتطوره ، والعوامل التي أثرت فيه ، وأعانت على تغذيته وتنميته ، أو عن حياة رجاله العامة والخاصة ، وما كان لهم من آثار في توجيه الحياة الدينية والروحية والعقلية والاجتماعية، فلن توفق من ذلك إلى كثير مما كتب في لغتنا العربية ، واصطنع فيه كاتبه المنهج العلمي الصحيح ، ولعل كل ما تستطيع أن تبلغه هو هذه الكتب التي تحدثك عن طبقات الصوفية حديثا هو أدنى ما يكون إلى حديث الأساطير الخيالية منه إلى حديث الحقائق الواقعية ، وهذه الأسفار والدواوين التي خلفها أصحابها من الصوفية أو المتصوفة ، وهذه الشروح التي وضعها الشراح على هذه الأسفار والدواوين ، وذهبوا فيها مذاهب شتى ، وسلكوا من مسالك التفسير والتأويل ما كان يزيد أحيانا

الأمر تعقيدا ، والمعنى غموضا وخفاء ، وما كان أحرانا ، والتصوف جزء من تراثنا الإسلامي ، أن نكون أبر به ، وأكثر إقبالا من غيرنا عليه .

على أنني لا أرمي من وراء هذا إلى إنكار ما بذله بعض الباحثين عندنا من جهود موفقة في الكشف عن بعض نواحي الحياة الصوفية الإسلامية ، ولا إلى الغض مما لبحوثهم من قيمة علمية : فقد عكف الصديق الفاضل والزميل المحترم الأستاذ الدكتور أبو العلا عفيفي على دراسة الصوفي المسلم الكبير محيي الدين بن عربي ، فبسط فلسفته الصوفية ، وحللها إلى عناصر تحليلا علميا قيما : وذلك في بحثه المكتوب بالإنجليزية وعنوانه " فلسفة محيي الدين بن عربي الصوفية " فضلا عما له من بحوث أخرى نشرت بالعربية في كل من " مجلة كلية الآداب بجامعة الإسكندرية " ، كذلك عني الأستاذ الدكتور زكي مبارك بالإبانة عن أثر التصوف في الأدب والأخلاق . ولكن عناية هذين الباحثين ببعض نواحي التصوف الإسلامي وشخصياته ، ليست شيئا بالقياس إلى ما ظفرت به الحياة العقلية أو الأدبية أو السياسية في الإسلام من جهد الباحثين ، ووفرة مؤلفاتهم فيها .

ولعل السبب الذي يرجع إليه إهمال الباحثين منا لدراسة التصوف الإسلامي ، هو اعتقاد الكثيرين أن أذواق الصوفية وأحوالهم لون من ألوان الهذيان ، وأن مذاهبهم وأقوالهم ضرب من الكلام الذي لا معنى له ولا غناء فيه . ولو قد التزم الذين يرون هذا الرأي حدود القصد والاعتدال في أحكامهم ، وأنعموا النظر فيما أثر عن الصوفية من أذواق وأحوال ، وما

خلفوه من آثار وأقوال ، ودرسوا هذا كله على ضوء المنهج العلمي الصحيح ، لغيروا رأيهم في التصوف والصوفية ، ولوجدوا أن المواجيد والأذواق ، والرموز والإشارات التي حفلت بها الآثار الصوفية منظومة ومنثورة . إنما هي تعبيرات عن حياة روحية راقية ، وحالات نفسية رائعة ، ومذاهب منطوية على كثير من المبادئ والمعاني ليست أقل قيمة من كثير من المذاهب الفلسفية الخالصة المؤسسة على النظر العقلي والاستدلال المنطقي ، ولتبينوا أن للعاطفة منطقا ، كما أن للعقل منطقا ، وأن منطق العاطفة قد ينتهي بالخاضع له إلى نتائج لها طرافتها وجدتها اللتان لا تقلان عن طرافة النتائج التي ينتهي إليها منطق العقل وجدتها .

وإذا كانت تلك هي الحال التي انتهت إليها دراسة التصوف الإسلامي عندنا ، وكان لابد لنا من أن نعني بهذه الدراسة عنايتنا بغيرها من الدراسات العلمية والفلسفية والأدبية ، فقد اتخذت من عمر بن الفارض - وهو واحد من هؤلاء الصوفية الذين أذعنوا لسلطان العاطفة - موضوعا لهذا البحث الذي حاولت فيه أن أكشف عن سيرة الرجل وحياته العامة والخاصة ، وما يتصل بهذه من أحوال وبتلك من أحداث ، وعن حقيقة حبه الذي قضى حياته هاتفا به مرتلا لأنشودته . وعما عسى أن يكون في هذا الحب من المعاني الروحية والمثل الأخلاقية والمنازع الفلسفية، لاسيما أن حب هذا الشاعر الصوفي مسألة من أدق المسائل وأشدها غموضا وتعقيدا ، اختلف الناس حولها في زمان الشاعر نفسه ، واختلفوا فيها بعد زمانه ، وما يزالون مختلفين فيها حتى الآن ، يقرأ بعضها ديوانه على أن الشاعر يتغنى فيه حبا إنسانيا يدور حول معشوقة آدمية ، ويقرؤه

بعضهم الآخر على أن ناظمه إنما يهتف فيه بالحب الإلهي ويرمـي مـن وراء رموزه وإشارته وكناياته إلى المحبوبة الحقيقية أو الذات العليـة . ومـن هنـا جاء بحثي في ثلاثة أقسام :

١- تناولت في القسم الأول ترجمة ابن الفارض وأطـوار حياتـه ، وروح العصر الذي عاش فيه ، ومكانه في بيئته ومبلغ تأثره بعـصره . وحللـت فيـه حياته الصوفية ، وما اختلف عليها من الأحوال النفسية والأذواق الروحيـة ، وما أخذ به نفسه من رياضات ومجاهدات كانت سـبيله إلى تـصفية نفـسه وتنقية قلبـه عـلى الوجـه الـذي مكنـه مـن التحقـق بالوصـول إلى محبوبـه الأسمى وشعوره بالفناء فيه والاتحاد به . وبينت في هذا القسم أيضا آثـاره التي يتألف منها ديوانه الضئيل الجليل معا ، ومـا أثـاره هـذا الـديوان مـن حركـات الـشرح والتأويـل في البيئـات الـصوفية الإسـلامية ، ومـن حركـات الترجمة والنقل والتعليق في البيئات العلمية الأوربية ، وما انتهى إليـه أمـر هذا الديوان من حكم على صاحبه بالإلحـاد والخـروج عـلى تعـاليم الكتـب والسنة تارة ، ومن دفاع عنه وتبرئة له مـما نـسب إليـه مـن حلـول واتحـاد وغيرهما من المذاهب التي تنافي روح الإسلام وتخالف تعاليمه تارة أخرى .

٢- وعرضت في القسم الثاني لحب ابـن الفـارض وطبيعتـه ، والكـشف عما إذا كان هذا الحب كله حبا إلهيـا ، أم حبـا إنـسانيا ، أم هـو مـزاج مـن الحبين . وهنا انتهيت إلى أنه لا يبعد أن يكون الشاعر الصوفي قد بدأ حياته العاطفية إنـسانا كغـيره مـن النـاس ، يحـب مـثلهم الجـمال الإنـسان ، ثـم

أصابه ما يصيب العشاق في بعض الأحيان من إخفاق وخيبة أمل ، فإذا هـو يتسامى بحبه عن الجمال الإنساني المعين إلى الجـمال الإلهـي المطلـق حيـث وجد فيه عزاء قلبه وراحة روحه وسعادته التي لا تعدلها سعادة . ثم بينت بعد هذه الأطوار النفسية والصوفية التي تعاقبت على نفس الشاعر في حبه الإلهي ، وكيف كان في أول عهده بالحياة الروحية ما يكونه عادة كل سـالك في بداية الطريق من تعلق بنفسه ، وخضوع لـسلطان حـسه ، وانـدفاع مـع إشباع الرغبات والحظوظ ، ثم كيف أخذ نفسه بالمجاهـدة والرياضـة حتـى خلص شيئا فشيئا من سلطان النفس ونير المادة ، وحتى زهد في كل شـئ إلا في شئ واحد هو المحبوبة الحقيقية أو الذات العلية ، التي انتهى من إقباله عليها وإعراضه عما سواها إلى شعوره بالفناء فيها وشهوده الوحـدة الذاتيـة التي تنفي معها التفرقة بين المحب والمحبوبة .

٣- وعكفت في القسم الثالث على دراسـة حـب شـاعرنا مـن الناحيـة الفلسفية ، فحاولت أن أحلله إلى عناصره الصوفية التي تنطوي على بعـض المعاني الميتافيزيقية والأخلاقية وما إلى ذلك مما انتهيت فيـه إلى تقريـر أن الأذواق والمواجيد الروحية ، والرياضات والمجاهدات الصوفية ، على الرغم مما تتصف به من صفات الذاتية أو الشخصية ، يمكن أن يشتمل في قرارها على بعض النزعات الفلسفية والمثل الأخلاقية ، فقد أبنـت في هـذا القـسم عن علاقة الحب والمعرفة عند ابن الفارض ، واجتهـدت في أن أظهـر كيـف أن لهـذا الـشاعر نظريـة ، أو بعبـارة أدق نظـرة في المعرفـة ، كـما عرضـت الصور المختلفة لمذهبه في الوحدة : وحدة المحب والمحبوبة ، وحدة اللــه والعالم ، وهما هاتان الوحدتان اللتان أطلقت عليهما اسم "وحدة الشهود"

تمييزا لهما عما يعرف عند الفلاسفة وبعض الصوفية باسم " وحدة الوجود " (وذلك لأن ابن الفارض لم يكن يدرك هذه الوحدة إلا في حال الشهود فقط) ، ووحدة الخلق كما تمثلت منذ الأزل في الحقيقة المحمدية التي يسميها ابن الفارض " بالقطب " وبغير القطب من الأسماء التي سنعرض لها في موضعها من هذا البحث ، ووحدة الأديان التي تتضمن أرقى مبادئ الحب والتعاطف والإخاء والمساواة . وأخذت نفسي في هذا كله بإظهار ما عسى أن يكون من ابن الفارض موافقا لتعاليم الكتاب والسنة أو مخالفا لها، وماذا كان في كل ما صوره الشاعر في ديوانه عامة ، وفي قصيدتيه الحافلتين " التائية الكبرى " و " الخمرية " خاصة ، من تأثر ببعض العناصر الأجنبية ، ومن سبق إلى تقرير بعض النظرات الفلسفية التي اهتدى إليها من جاء بعده من الفلاسفة والمفكرين الذين اصطنعوا العقل بقدر ما اصطنع هو الذوق .

وقد عقبت على هذه الأقسام الثلاثة بخاتمة أجملت فيها نتائج البحث في حياة ابن الفارض وأذواقه وآثاره ومذهبه في الحب ، كما عرضت للمصادر التي يمكن أن يكون قد استقى منها بعض عناصر مذهبه، ولما عسى أن يكون لسيرة ومذهب كسيرة ابن الفارض ومذهبه من قيمة وأثر في الحياة من الناحيتين الروحية والعلمية .

تلك إلمامة موجزة بأهم العناصر التي تتألف منها أقسام هذا البحث الذي تقدمت به إلى كلية الآداب بجامعة القاهرة ، ونوقشت فيه بين يدي الجمهور أمام لجنة الحكم المؤلفة من حضرات الأستاذ الشيخ مصطفى

عبدالرازق، والأستاذ أحمد أمين، والدكتور طه حسين، والدكتور عبـدالوهاب عزام ، والدكتور بول كراوس، في يوم السبت ٢ مارس سنة ١٩٤٠ ، وحـصلت به على درجة الدكتوراه في الآداب (قسم الفلسفة) مع مرتبة الشرف . ولعلي بهذا أكون قد قمت بجزء من الواجب علينا نحو هذه الناحية المغمورة مـن نواحي حياتنا المصرية الإسـلامية وهـي الناحيـة الروحيـة ، لاسـيما أن ابـن الفارض بحكم صوفيته من ناحية ، وبحكم مولده ونـشأته وإقامتـه ووفاتـه في مصر من ناحية أخرى ، يعد بحـق ممـثلا للتـصوف الإسـلامي المـصري في طور من أطواره : فالكشف عـن حياتـه ، وعـن العوامـل التـي أعانـت عـلى تكوين شخصيته الصوفية ، وتأليف مذهبـه في الحـب الإلهـي ، إنمـا هـو في الحقيقة كشف عن ناحية من نواحي حياتنا المصرية في أحد عصورها ، وعن الطابع الذي طبعت به هذه الحياة في ذلك العصر . وإذا كنـت أتمنـى شـيئا فهو أن يكون قريبا ذلك اليوم الذي تتضافر فيه جهـود الـشباب الجـامعيين عندنا على هذه الناحية القيمة المغمورة معا من نـواحي تراثنـا الإسـلامي ، فيوسعونها درسا وبحثا على وجوه تكشف عما تقوم عليه ، وترمي إليه مـن معاني الحق والخير والجمال .

ولا يسعني بهذا كله إلا أن أسجل هنـا فخـورا مـا غمـرني بـه أسـتاذي الجليل الشيخ مصطفى عبدالرازق من عطف جميل، وتشجيع نبيل، وإرشاد سديد ، مذ وقع اختياري على موضوع هذا البحث . وطوال الـسنوات التـي اشتغلت به فيها حتى أتمتـه تحـت إشرافـه . فكـان ثمـرة مـن ثمـرات علمـه

وفضله ، ونفحة من نفحات قلبه وعقله . ولا يسعني أيضا إلا أن أسجل معتزا ما أفاضه على أستاذي الجليل الدكتور طه حسين من عناية بي ، ورعاية لي ، وحدب علي ، مما كان من غير شك عونا صادقا على الاستمرار في هذا البحث وإنجازه وتقديمه للمناقشة . هذا إلى ما تركه في نفسي أستاذي الجليل الدكتور منصور فهمي من أثر جميل . وما قدمه من تشجيع محمود عندما كنت في مستهل عهدي بهذا البحث .

وإن أنس لا أنسى ما كان للمغفور له أحمد زكي (باشا) علَي من فضل الإرشاد إلى كثير من المراجع الخطية والفوتوغرافية التي اشتملت عليها خزانة كتبه الخاصة، فإلى روحه الكريم أبعث بأصدق النحيات، وعلى جدثه الطاهر أستمطر أطيب الرحمات. وكذلك أذكر عون الأستاذين لويس ماسينيون ، وكارلو نلينو . فقد أرشدني كل منهما إلى كثير من مراجع البحث التي كان لها أثر كبير في تجلية بعض الغامض. وتحقيق بعض المسائل. فإليهما أصدق شكري، ولا يفوتني أن أقدم أخص عبارات الشكر والثناء إلى الدكتور أبي العلا عفيفي على ما كان له من أثر محمود في تحقيق كثير من المسائل الدقيقة التي تتصل من قريب أو من بعيد بموضوع هذا البحث، وما أبداه من ملاحظات سديدة على ما أطلعته عليه من فصوله . ومن واجبي بعد هذا كله أن أسجل ما كان للصديق الكريم والأخ العزيز كامل محمد علي من فضل في تهيئة الظروف التي أعانت على إخراج هذا الكتاب ونشره ، فله مني أصدق الشكر وأطيب الحمد .

أما الذين أعانوني على قـراءة المراجـع ، وكتابـة البحـث ، فكـانوا منـي العين التي تقرأ ، واليد التي تكتب . فأظنهم في غير حاجة إلى أن أحمد لهـم صنيعهم ، أو أن أشكر لهم ما بذلوا من جهد ، واحتملوا من مـشقة وعنـاء، والـلـه وحده قادر على أن يجزي الكل عني خير الجزاء .

محمد مصطفى حلمي

إن الغـرام هـو الحيـاة فمـت بـه   صــبًا فحقــك أن تمــوت وتعــذرا

قـل للـذين تقـدموا قـبلي ومـن   بعدي ومن أضحى لأشجاني يـرى

عنـــي خـــذوا ، وبي اقتـــدوا ولي   وتحـــدثوا بــصبابتي بــين الــورى

ولقد خلـوت مـع الحبيـب وبيننـا   سر أرق مـــن النــــسيم إذا سرى

وأبـــاح طـــرفي نظـــرة أملتهـــا   فغـدوت معروفـا وكنـت منكـرا

فدهـــشت بـــين جمالـــه وجلالـــه   وغـدا لـسان الحـال عنـي مخـبرا

فـأدر لحاظـك في محاسـن وجهـه   تلقى جميـع الحـسن فيـه مـصورا

لـو أن كـل الحـسن يكمـل صـورة   ورآه كــــان مهلًـــــلا ومكـــــبرا

" ابن الفارض "

الكتاب الأول

ابن الفارض وتصوفه

تمهيد

في مصادر ترجمة ابن الفارض وحياته الصوفية

١- ترجم الكثيرون من المتقدمين والمتأخرين لابن الفارض ، ولكن المتأمل في كثرة ما كتب عن سيرة الشاعر وحياته الصوفية ، يلاحظ أن أوفي ترجمة هي هذه التي كتبها على سبط ابن الفارض وقدمها بين يدي ديوان جده ، والتي نجدها في مستهل النسخة الخطية المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٣١٩ (أدب) . وقد أثبتت هذه الترجمة في أول نسخة الديوان التي طبعها بمرسيليا سنة ١٨٥٣ م رشيد بن غالب الدحداح اللبناني ، والتي أعيد طبعها بمصر في مطبعة بولاق سنة ١٢٨٩ هـ ، وفي المطبعة الشرفية سنة ١٣٠٦ هـ ، وفي المطبعة الخيرية سنة ١٣١٠ هـ ، وفي المطبعة الأزهرية سنة ١٣٢٩ هـ . وتذكر هذه الترجمة في النسخة الخطية وفي النسخ المطبوعة المشار إليها بعنوان " ديباجة الديوان " . وفي هذه الديباجة يحدثنا على سبط ابن الفارض عن مولد جده ونشأته ، وعن سلوكه وسياحته ، وعن إقامته ورحلته ، وهو إنما يستند في كل ما يورده إلى ما أفضى به إليه ولد الشاعر المسمى كمال الدين محمد ، إذ كان هذا الأخير ، على نحو ما تحدثنا به الديباجة ، ألصق الناس بأبيه وألزمهم له وأعرفهم بحاله ، صحبه إبَان إقامته بمصر ، ورافقه في رحلته إلى الحجاز ، ووقف على كثير مما كان يختلف على نفسه من أحوال ومواجيد . ومن هنا كانت هذه الترجمة أطول وأوفى ما كتب عن حياة ابن الفارض ، على الرغم مما يوجد من نقص في النسخ المطبوعة إذا قيس بعضها إلى النسخة الخطية الأصلية .

على أن ترجمة سبط ابن الفارض لجده ، وإن كانت كما قلنا أطوال المصادر عن حياة الشاعر ، وأوفاها بتصوير ما كان عليه من الأحوال ، وما عرض له من الأحلام ، وما تجلى عليه من المكاشفات ، وأجرى على يديه من الكرامات ، فإنها قد انطوت على كثير من الإسراف والمبالغة في الصورة التي تعطيها عن ابن الفارض ، وفيما تفيض به من عبارات المدح والثناء والإشادة بذكره وخلقه وشكله ، الأمر الذي ينبغي معه - ونحن ندرس ابن الفارض دراسة علمية - أن نقف من هذا كله ، أو من بعضه على أقل تقدير . موقف الحيطة والحذر والتردد في قبوله على ما هو عليه، وأن نفطن إلى الحقيقة الواقعة وهي أن سبط ابن الفارض وولده الذي قص على هذا السبط أخبار أبيه ، لابد أن يكون كل منهما قد خضع لسلطان العصبية ، فإذا كلاهما يتعاونان على إخراج هذه الصورة التي نتبين منها أن الشاعر إنما كان زاهدا ورعا تقيا سالكا طريق الله منصرفا عن الدنيا منذ نشأته حتى وفاته . فإذا أضفنا إلى هذه العصبية عاملا آخر من شأنه أن يحملنا على التشكيك فيما يرويه السبط نقلا عن الابن ، وهو جهلنا بشخصية كل منهما ، وقصور ما لدينا من المعلومات عنهما وعن مبلغ أمانتهما ودقتها ، رأينا إلى أي حد ينبغي أن نحتاط عندما نريد أن نتخذ من ديباجة الديوان مصدرا من مصادر ترجمة ابن الفارض . وحسبنا هنا أن نشير إلى ما ذكره البقاعي ، من أنه لا ينبغي الاغترار بما قاله سبط الشاعر في ديباجة الديوان ، ومن أنه رجل مجهول لا تقبل روايته لاسيما أنه يشهد لجده ، ولاسيما إذا كانت شهادته مخالفة لشهادة الأئمة بكفره . وإذا كان البقاعي ، على قرب عهده من عصر ابن الفارض ، قد شك في شخصية

عليَ سبط الشاعر ، وعدَه رجلا مجهولا ، فمن حقنا نحن ، وقد بعد العهد بيننا وبين العصر الذي عاش فيه شاعرنا من ناحية ، ولم تتهيأ لنا بعد المراجع الكافية التي تدلنا في وضوح واطمئنان عليَ شخصية على هذا من ناحية أخرى ، أن نكون أكثر شكا أشد تحفظا في تصديق كل ما يرويه سبط ابن الفارض عن جده ، أو من حقنا على الأقل أن ندقق في كل ما يقوله المترجم ونحققه تحقيقا علميا بحيث نتمكن من استخلاص الحقيقة التي إن لم تكن تامة قاطعة ، فليس أقل من أن تكون مقاطعة ملائمة للواقع إلى حد يصح معه الاطمئنان : فلعل كل ما نعرفه حتى الآن من أمر سبط ابن الفارض ومترجمه هو ما وقفنا عليه في ثنايا ترجمته لجده التي نحن بصددها ، حيث يتحدث عن نفسه بما يفيد أنه كان شيخا لمسجد ، وأنه عاش في القرن الثامن للهجرة .

٢- على أن هناك ترجمة أخرى لابن الفارض كتبت في العصر الذي عاش فيه الشاعر ، وهي الترجمة التي كتبها ابن خلكان في الجزء الأول من " وفيات الأعيان " . ونحن نعلم فيما نعلم من تاريخ القرن السابع للهجرة أن ابن خلكان كان معاصرا لابن الفارض ، كما نعلم من " ديباجة الديوان " أن ولد ابن الفارض المسمى كمال الدين محمد سمع أباه ، وقد سأله ابن خلكان عن تاريخ مولده ، يجيب بما أجاب به زكي الدين عبدالعظيم المنذري المحدث . وهو أن مولده كان بالقاهرة المحروسة آخر الرابع من ذي القعدة سنة ٥٧٧ هـ . ومعنى هذا أن ابن خلكان قد عرف ابن الفارض والتقى به وتحدث إليه ووقف على كثير أو قليل من أحواله وسيرته وأخلاقه . وطبيعي أن يكون ما ترجم به ابن خلكان لابن الفارض أدنى إلى الحق وأبعد عن التعصب له ، وذلك بحكم

معاصرته له من ناحية ، وكونه لا تربطه به صلة قرابة أو نسب من ناحية أخرى . وإذا كان ذلك كذلك فقد تبين إذن أن الموازنة بين ترجمة ابن الفارض التي كتبها سبطه ، وبين الترجمة التي كتبها ابن خلكان ، من شأنها أن تعيننا على استخلاص ما يمكن أن يمكن صورة صحيحة صادقة لحياة ابن الفارض ، لاسيما أن ابن خلكان كتب ترجمته في نفس العصر الذي عاش ومات فيه ابن الفارض ، في حين أن سبط الشاعر كتب ترجمته لجده بعد وفاة هذا الأخير بقرن من الزمان . ومهما يكن من القيمة التاريخية لما ترجم به ابن خلكان لابن الفارض ، فإن ترجمة الوفيات لا تصلح لأن تكون مقياسا واسع النطاق يقاس به كل ما ورد في ترجمة الديباجة ، ذلك بأن في هذا المصدر الأخير أمورا ذكرت عن الشاعر ولم يذكرها ابن خلكان ، ومن هنا كان لابد لنا من أن نعتمد في تحقيق هذه الأمور على مصادر تاريخية وصوفية أخرى من شأنها أن تكشف لنا عن روح العصر الذي عاش فيه المترجم له ، وعن التيارات الفكرية والشعورية والدينية التي كانت سائدة وقتئذ ، وعن الأثر الذي تركته هذه التيارات كلها أو بعضها في حياة ابن الفارض العامة والخاصة ، وفي مذهبه الصوفي .

٣- وثمة ترجمة ثالثة هي هذه التي أثبتها أبو الفلاح ابن العماد في كتابه " شذرات الذهب في أخبار من ذهب " . وهي تمتاز من ناحية بأنها أطول من ترجمة الوفيات وأقصر من ترجمة الديباجة ، وتمتاز من ناحية أخرى بأنها تزيد على ما تشترك فيه مع المترجمتين الآنفتي الذكر أمورا أغفلها أو لم يقف عليها كل من سبط ابن الفارض وابن خلكان . وليس من شك في أن لما يزيده صاحب الشذرات قيمة تاريخية وأدبية وصوفية لها أثرها في الإبانة عن بعض النواحي في حياة ابن الفارض ومذهبه في الحب ،

وعن الجدل الذي قام بين رجال الدين حول الرجـل وتنـازعهم أمـر عقيدتـه بينهم ، حتى لقد كفَره بعضهم ، وبرَأه بعضهم الآخر .

٤- ونحن نلاحظ أن لترجمة الـشذرات مـصدرا آخـر اسـتمدت منـه في أكثر مواطنها : هذا المصدر هو كتاب " الكواكـب الدريـة في تـراجم الـسادة الصوفية " لعبد الرؤوف المناوي . ويدل على هـذا أن صـاحب الـشذرات في سياق ترجمته لابن الفارض وغير ابن الفارض من الصوفية كـابن عـربي مـثلا يذكر في نهاية بعض الفقرات هذه العبارة : "انتهى ما ذكره المناوي".

٥- وإلى جانب هذه الترجمات التي ذكرنا ، توجد ترجمـة رابعـة كتبهـا ابـن الألـوسي البغـدادي في كتابـه "جـلاء العينـين في محاكمـة الأحمـدين"، واستقى معلوماته فيها من ابـن خلكـان صـاحب "وفيـات الأعيـان "، وابـن العماد صاحب "شـذرات الـذهب"، والمنـاوي صـاحب "الكواكـب الدريـة"، والأدفوي صاحب "الطـالع الـسعيد"، والقـوصي صـاحب "الوحيـد": فقيمـة هذه الترجمة ثانوية لأن صاحبها لم يكد يأتي بشئ جديد انفرد بـه هـو مـن سائر المترجمين . ولكنها مع ذلك تعيننا على تحقيق بعض المـسائل ، لاسـيما ما يتعلق منها برأي الفقهاء في ابن الفارض .

وهكـذا نـرى أن بـين أيـدينا مـصادر أربعـة عـن حيـاة ابـن الفـارض ومذهبه، يكمل بعضها بعضا ، ويحقق بعضها ما أورده البعض الآخـر، عـلى وجه نستخلص معه صـورة واضـحة في أكـثر نواحيهـا غامـضة في بعـضها لمـا

كان عليه شاعرنا سواء في نشأته وتربيته، أم في إقامته ورحلته، أم في سلوكه وسياحته .

٦- هذا فيما يتعلق بحياة الرجل من حيث هي حياة تبدأ بمولده وتنتهي بوفاته . أما فيما يتعلق بحياته بعد مماته إن صح هذا التعبير ، وبفهم مذهبه الصوفي وما ينطوي عليه هذا المذهب من منازع فلسفية ، وموقف رجال الدين منه وتعصب بعضهم له ، وتعصب بعضهم الآخر عليه ، فكل أولئك أشياء ، وإن كان بعض الترجمات التي أشرنا إليها آنفا ، قد أومأ إليها أو صرح بها ، إلا أن هناك مصادر أخرى قد أفاضت في هذه المسائل، وحسبنا أن نذكرها فيما يلي :

تنقسم المصادر التي من هذا النوع إلى قسمين : قسم ينظر مؤلفوه إلى ابن الفارض على أنه من القائلين بالاتحاد والحلول ووحدة الوجود ، وهو بهذا يكون خارجا على تعاليم الكتاب والسنة ، وقسم يأخذ مؤلفوه أنفسهم بالدفاع عن ابن الفارض ، ودفع الشبهة عنه ، ورد ما اتهم به من إلحاد وخروج على الكتاب والسنة إما إلى سوء نية الخصوم وحطهم على الرجل وإرجافهم به لغرض في أنفسهم ، وإما إلى سوء فهمهم لكلامه ، بحيث لم يتبينوا حقيقة ما انطوى عليه شعره من تمسك بالكتاب والسنة وتحقيق بأحكامهما ، ولم تتهيأ لهم القدرة على تذوق ما ترمي إليه رموزه وإشاراته من المعاني الدقيقة التي تجل عن فهم المدارك القاصرة .

ولعل أهم وأوفى مصادر القسم الأول هما كتابا البقاعي المسمى أحدهما " تنبيه الغبي على تكفير ابن عربي " ، وثانيهما " تحذير العباد من أهل العناد ببدعة الاتحاد " ، ويوجد الكتابان معا في نسخة فوتوغرافية محفوظة بمكتبة المغفور له أحمد زكي (باشا) : تناول البقاعي في كتابيه هذين " فصوص الحكم " لابن عربي ، و " التائية الكبرى " لابن الفارض ، فوازن بينهما ، وقابل بين ألفاظهما ومعانيهما ، وانتهى إلى أن التائية لا تختلف عن الفصوص إلا في أن الأولى شعر وهذه نثر . وإلى جانب هذا نرى البقاعي معنيا عناية خاصة بإثبات أقوال الفقهاء التي يستدل بها على تكفير كل من ابن الفارض وابن عربي .. ومن مصادر هذا القسم أيضا كتابمكك" لسان الميزان " لابن حجر العسقلاني . حط فيه على ابن الفارض، واتهمه في دينه ، ورماه بالإباحة ، وأورد بعض أقوال لمن نعي عليه من الفقهاء .

٧- وأما مصادر القسم الثاني فمنها "قمع المعارض بنصرة ابن الفارض"، وهو كتيب وضعه جلال الدين السيوطي مصطنعا فيه أسلوب المقامات وما يلتزمه كتابها فيها من سجع. وفي هذا الكتيب يدافع السيوطي عن ابن الفارض، ويعده من أولياء الله الصالحين . ومنها أيضا بعض ما كتبه الشعراني عن ابن عربي وذكر في سياقه ابن الفارض مدافعا عنه ، رادا من دونه طعن الطاعنين وإرجاف المرجفين ككتابه " اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر". ومما يدخل في هذا الباب كثير من شروح ديوان ابن الفارض التي يرى واضعوها أن شاعرنا لم يكن فيما نظم من شعر اتحاديا أو حلوليا أو قائلا بوحدة الوجود ، أو غيرها ذلك مما

يجعل الآخذ به خارجا على تعاليم الإسلام ، ونخص بالذكر من هذه الشروح شرح النابلسي .

هذه خلاصة المصادر التي اعتمدنا عليها ، واستيقنا منها العناصر التي تؤلف ترجمة وافية إلى حد ما لحياة ابن الفارض . على أن هناك مصادر تكميلية رجعنا إليها فيما يتعلق بتحقيق بعض الأشياء المتصلة بهذه الترجمة ، كأسماء الأشخاص الذين عاصرهم الشاعر ونشأت بينه وبينهم صلات من قريب أو من بعيد ، وأسماء الأماكن والبقاع التي كان بينها وبين ابن الفارض علاقة ما ، وغير ذلك من الأمور التي لابد منها ، ولا منصرف عنها ، لإخراج ترجمة وافية محققة تحقيقا علميا لشاعر صوفي له قيمته وخطره كابن الفارض ، وسنشير إلى هذه المصادر كلها في مواضعها من بحثنا هذا .

الفصل الأول

سيرة ابن الفارض

اسمه - مولده - أبوه - أصله وموطنه - عصره - أطوار حياته : الطور الأول : نشأته وتربيته - الطور الثاني : زهده وسياحته بالمقطم - الطور الثالث : سفره إلى الحجاز وسياحته بأدوية مكة، الفتح ، نظم شعره ، اتصاله بالسهر وردي ، عودته إلى مصر - الطور الرابع : انقطاع الفتح ، قصته مع الملك الكامل ، إملاء ديوانه بمصر - وفاته - قبره ومسجده .

١- أجمع الذين ترجموا لابن الفارض على أنه هو أبو حفص وأبو القاسم عمر بن أبي الحسن على بن المرشد بن علي ، كما أجمعوا على أن حموي الأصل ، مصري المولد والدار والوفاة ، وأنه كان يعرف بابن الفارض ، وينعت بشرف الدين . وبلوح لنا أن " المرشد " المذكور هنا ليس اسما لجد من أجداد الشاعر ، بل الغالب على ظننا فيه أنه هذا اللقب الصوفي الذي يطلق على الشيخ صاحب الطريقة وقد التف حوله طائفة من المريدين يهذب نفوسهم ويصفي قلوبهم ويرشدهم في طريقهم إلى الله . ويؤيدنا في هذا ما كان عليه والد شاعرنا من زهد وتقشف ، وانصراف عن متاع الدنيا وجاه المنصب، وإيثار للعزلة عن الناس، وغير ذلك من الصفات التي سنعرض لها في سياق حديثنا عنه . وإذا كانت هذه هي الحال التي انتهى إليها أمر والد ابن الفارض ، فليس بعيدا أن تكون هذه

الصفات قد انتقلت إلى الأب من الجد الذي ليس ما يمنع من أنه كان مرشدا له مريدون .

وكذلك أجمع المترجمون على أن شاعرنا يعرف بابن الفارض ، وعلى أن " الفارض " بالراء المكسورة هو الذي يثبت الفروض للنساء على الرجال بين يدي الحكام ، وأن أبا الشاعر كان يقوم بإثبات هذه الفروض فغلب عليه التقليب بالفارض ، وعرف ابنه بابن الفارض . على هذا أجمع كل من ترجم لابن الفارض ، وأجمع عليه أيضا ابن تغري بردي ، ولم يخرج على الإجماع إلا في نقطة واحدة هي أن " الفارض " ليست بالراء المكسورة ، ولكنها ، عنده ، بفتح الفاء وبعدها ألف وراء مفتوحة وضاد معجمة . على أن كتب اللغة ليس فيها ما يؤيد مذهب ابن تغري بردي : فقد ورد في كل من " القاموس المحيط " و " لسان العرب " أن الفارض والفرضي هو الذي يعرف الفرائض ، أو هو العارف بالفرائض : ومعنى هذا أن الفارض اسم فاعل من فرض ، الأمر الذي يترتب عليه أن تكول مكسورة لا مفتوحة .

٢- وبقدر ما يتفق المترجمون في ذكرهم لاسم ابن الفارض ، نراهم يختلفون في تاريخ مولده اختلافا لا يقف عند حد كونه بين الواحد منهم وبين غيره ، وإنما هو يأخذ في بعض الأحيان صورة التناقض بين المترجم الواحد وبين نفسه ، كأن يعين أحدهم في أول ترجمته سنة بعينها ، ثم هو يذكر في آخرها سنة أخرى ، على أن كلا من السنتين تاريخ لمولد ابن الفارض . ومن هذا القبيل ما وقع فيه سبط ابن الفارض إذ يحدثنا في أوائل ترجمته لجده بأن هذا الأخير ولد

بالقاهرة في ذي القعدة سنة ٥٥٦ هـ أو سنة ٦٥٠ هـ ، ثم هو يحدثنا في أواخرها بأن ولد ابن الفارض سمع أباه وقد سأله عبدالعظيم المنذري وابن خلكان ، يجيب كلا منهما بأن مولده كان بالقاهرة في آخر الرابع من ذي القعدة سنة ٥٧٧ هـ . ولكي تنتهي من تحديد تاريخ مولد ابن الفارض إلى الحق والصواب ، أو إلى ما يقارب الحق والصواب ، يحسن أن نعرض للروايات المختلفة التي ذكرها المترجمون حول هذا التاريخ ، تمهيدا لتحقيق المسألة :

(أ) يذكر ابن خلكان أن ابن الفارض ولد في الرابع من ذي القعدة سنة ٥٧٦ هـ بالقاهرة ، وتوفي بها يوم الثلاثاء الثاني من جمادي الأولى سنة ٦٣٢ هـ ، ودفن من الغد بسفح المقطم .

(ب) ويقول ابن إياس إن ابن الفارض ولد بالقاهرة في الرابع من ذي القعدة سنة ٥٧٧ هـ ، وتوفي بها في الثاني من جمادي الأولى سنة ٦٣٢ هـ ، وله من العمر أربع وخمسون سنة وستة أشهر وأيام .

(ج) ويعين ابن تغري بردي الرابع من ذي القعدة سنة ٥٧٦ هـ ، على أنه تاريخ لمولد ابن الفارض ، كما يعين الثاني من جمادي الآخرة سنة ٦٣٢ هـ ، على أنه تاريخ لوفاته .

(د) أما ابن العماد فيذهب إلى أن مولد شاعرنا كان في ذي القعدة سنة ٥٦٦ هـ ، وإلى أن وفاته كانت في جمادي الأولى سنة ٦٣٢ هـ عن ست وخمسين سنة إلا شهرا .

ويلاحظ المدقق في هذه الروايات إجماعا على الشهر الذي ولد فيه ابن الفارض من ناحية ، وعلى السنة التي وقعت فيها وفاته من ناحية أخرى ، واختلافا على السنة التي كان فيها ذلك المولد من ناحية ثالثة ، وموازنة هذه الروايات وتمحيصها ، وترجيح بعضها على بعض ، كل أولئك ينتهي بنا إلى النتائج التالية :

(ا) أن سبط ابن الفارض حين يذكر في أول ترجمته لجده سنة ٥٥٦ ، أو سنة ٥٦٠ ، وحين يذكر في آخر هذه الترجمة سنة ٥٧٧ على أن مولد الشاعر وقع في إحداها ، وحين يقول أنه تلقى عن ولد ابن الفارض أنه سمع أباه يعين للمنذري ولابن خلكان السنة الأخيرة من هذه السنوات الثلاث على أنها تاريخ لمولده ، إنما يختلف في هذا كله مع ابن خلكان نفسه الذي أثبت أن مولد ابن الفارض كان في الرابع من ذي القعدة سنة ٥٧٦ هـ .

(ب) أن ابن العماد بقوله إن ابن الفارض ولد في ذي القعدة سنة ٥٦٦، وأنه عند وفاته كان له من العمر ست وخمسون سنة إلا شهرا . وبذكره ترجمة ابن الفارض بين تراجم الذين توفوا سنة ٦٣٢ ، إنما يخالف ما أجمع عليه المترجمون الآخرون (إذا استثنينا منهم ابن تغري بردي) ، وهو أن وفاة شاعرنا كانت في الثاني من جمادي الأولى سنة ٦٣٢ هـ : فلو كان صحيحا ما رواه ابن العماد عن السنة التي ولد فيها ابن الفارض ، وعن السنة التي توفى فيها ، وعن مقدار عمره عند وفاته ، ولو أجرينا عملية حسابية يسيرة معتمدين

على هذه المعلومات التي يقدمها صاحب الشذرات . لترتب على هـذا أن وفاة ابن الفارض كانت في شوال سنة ٧٢٢ هـ ، لا في جمادي الأولى سنة ٦٣٢ هـ . وفي هذا ما فيه من الخطـأ والاضـطراب . إذ يـذكر ابـن العماد سنة ٥٦٦ هـ على أنها السنة التي ولد فيها ابن الفـارض ، وكـان ينبغي أن يذكر سنة ٥٧٦ هـ ، ليكون متمشيا مع أبسط قواعد المنطق والحساب من ناحية ، ومتفقا مع ما أثبته الثقاة من المترجمين في هذا الصدد من ناحية أخرى .

(ج) أن ابن إياس حين يذكر أن مولـد ابـن الفـارض كـان في سـنة ٥٧٧ هـ ، متفق مع سبط ابن الفارض فـيما ذكـره مـن أن جـده ذكـر للمنـذري ولابن خلكان هذه السنة عينهـا . ومختلـف بطبيعـة الحـال مـع ابـن خلكان نفسه ، شأنه في هذا كشأن سبط الشاعر سواء بسواء .

(د) أن ابن خلكان وابن تغري بردي متفقان على أن الرابع من ذي القعدة سنة ٥٧٦ هـ ، هو التاريخ الذي ولد فيه ابن الفارض .

(هـ) وهذا كله من شأنه أن يسلمنا إلى نتيجة نهائية ، هي أنـه يمكـن أن يكـون هناك تاريخان لمولد ابن الفارض : (أحدهما) الرابع من ذي القعدة سنة ٥٧٦, (وثانيهما) الرابع من ذي القعدة سنة ٥٧٧. على أننا نرجح التاريخ الأول وهو ما يذكره ابن خلكان. وذلك لأن ابن خلكان . بحكم معاصرتـه لابن الفارض ، وتحريه الدقة في ذكر تـاريخ وفـاة شـاعرنا بأنـه كـان يـوم الثلاثاء الثاني من جمادي الأولى سنة ٦٣٢ هـ ، يمكن أن يعد أوثـق مـصدر في هـذه المـسألة ، وأكـثر تحقيقـا لهـا مـن غـيره ، لاسـيما إذا لاحظنـا

أن أول جمادي الأولى سنة ٦٣٢ هـ يوافق يوم الاثنين ٢٢ يناير سنة ١٢٣٤ م ، في حين أن أول جمادي الآخرة من سنة ٦٣٢ هـ يوافق يوم الأربعاء ٢١ فبراير سنة ١٢٣٤ م ، الأمر الذي يترتب عليه أن يكون يوم الثلاثاء ٢٣ يناير سنة ١٢٣٤ م موافقا للثاني من جمادي الأولى سنة ٦٣٢ هـ ، وهو التاريخ الذي يعينه ابن خلكان لوفاة ابن الفارض ، ويترتب عليه أيضا أن يكون الذي يحدد تاريخ الوفاة على هذا الوجه المفصل فيذكر اليوم والشهر والسنة ، أوفر تدقيقا وأكثر قبولا لدينا فيما يتعلق بتاريخ المولد كذلك ، ويترتب عليه أخيرا أن يكون مولد ابن الفارض في الرابع من ذي القعدة سنة ٥٧٦ هـ الموافق ٢٢ مارس ١١٨١ م .

٣- ولعل كل ما يذكره المترجمون عن والد ابن الفارض ، ولا يكادون يزيدون عليه شيئا ، أنه قدم من حماة إلى مصر فقطنها وصار يثبت الفروض للنساء على الرجال بين يدي الحكام ، ثم ولي نيابة الحكم فغلب عليه التلقيب بالفارض ، ثم سئل بعد ذلك أن يكون قاضيا للقضاة - وهذا كما يقول المقريزي - أجل رتب أرباب العمائم وأرباب الأقلام ، ويكون صاحبها في بعض الأوقات داعيا ، فيقال له حينئذ قاضي القضاة وداعي الدعاة ، ولا يخرج شئ من الأمور الدينية عنه . ولكن أبا الشاعر رفض ، ونزل عن الحكم ، واعتزل الناس ، وآثر الانقطاع إلى الله تعالى بقاعة الخطابة في الجامع الأزهر ، وظل كذلك إلى أن وافته منيته . على هذا يتفق كل من ترجم لابن الفارض وذكر في سياق ترجمته شيئا عن حياة أبيه . ولكن سبط ابن الفارض يثبت في ترجمته ما يظهرنا على شئ مما كان

عليه أبو الشاعر من علم وعناية بتنشئة ابنه وتهذيبه ، فهو يقول على لسان ابن الفارض نفسه إنه كان يعود بعد سياحته في وادي المستضعفين بالمقطم إلى والده لأجل برّه ومراعاة قلبه ، وكان والده يومئذ خليفة الحكم للعزيز بالقاهرة ومصر المحروستين ، وكان من أكابر أهل العلم والعمل ، وكال يجد سرورا برجوع ولده إليه ، ويلزمه بالجلوس معه في مجالس الحكم ومدارس العلم . ومن هنا نتبين مبلغ ما كان لوالد شاعرنا من مشاركة في البيئة العلمية التي كانت موجودة في عصره ، والتي تصورها كل من لفظتي مدارس العلم ومجالس الحكم تصويرا ما ، ونتبين أيضا أن هذه المجالس والمدارس كانت أول ما تلقى فيه ابن الفارض ثقافته .

أما متى رحل والد ابن الفارض عن حماة إلى مصر ؟ وفي أي وقت شغل منصب الفارض ؟ ومتى تولى نيابة الحكم ؟ ومتى عرض عليه أن يكون قاضيا ؟ ولم رفض ؟ وما هي الدوافع التي حملته على أن يؤثر العزلة على منصب خطير كهذا ؟ ومتى توفى ؟ فكل أولئك أمور لم نقع فيما وصلنا إليه من المراجع على شئ منها . يضاف إلى هذا إغفال المؤرخين تعليل هذه الهجرة من حماة ، وإيثار مصر عليها ، والإقامة بها : أكانت هذه الهجرة راجعة إلى سوء الحالة الاقتصادية والاجتماعية في حماة ، وتمتع مصر وقتئذ بحال أحسن ؟ أم كانت ابتغاء الحصول على منصب من مناصب الدولة في مصر التي كان لها من الحضارة والرقي حظ موفور جعلها صاحبة المركز الممتاز بين أقسام الإمبراطورية الإسلامية . لم يعرض المترجمون لشئ من هذا أيضا ، ولو قد عرضوا له تصريحا أو تضمينا لألقوا على حياة والد الشاعر شعاعا من الضوء لعله كان يعيننا على تكوين

صورة أوضح وفكرة أوفى لما كان عليه الرجل في حياته العامة والخاصة ، ولما أحاط بشخصه من الظروف واتصل به من الأحداث ، ولما كان له من الأثر في حياة ابنه وتنشئته . ولكنهم لم يذكروا مع الأسف أكثر من أن والد ابن الفارض كان اسمه عليًا ، وكان رجلا من رجال الحكم والعلم ، وكان زاهدا ورعا ، اتخذ زهده وورعه صورة عملية في آخر حياته حين نزل عن الحكم ورفض منصب قاضي القضاة ، واعتزل الناس ، وانقطع إلى الله في قاعة الخطابة بالأزهر إلى أن قضى . ومهما يكن من شئ فالذي نلاحظه هنا أن هذه النزعة إلى الزهد في جاه المنصب لابد أن يكون لها أثرها في حياة ابن الفارض نفسه ، وأن يكون أبوه هو الذي ألقى بذورها في قلبه ، هذه البذور التي نمت وأينعت فكانت لها الثمرات التي سنتبينها عندما نعرض لأطوار حياة ابن الفارض لاسيما الطور الأول منها .

على أن المؤرخين إن كانوا لم يعللوا هجرة أبي شاعرنا من حماة إلى مصر ، ولم يعينوا بالضبط أو بالتقريب التاريخ الذي وقعت فيه هذه الهجرة، فمن حقنا أن نحاول هنا ما لم يحاوله هؤلاء المؤرخون ، وأن نذهب في تعليل هذه الهجرة تعليلا مستمدا من مجرى الحوادث ، وملائما لطبيعة الأشياء ، فنحن نعلم مما يحدثنا به المؤرخون عن حماة ، أنها كانت مدينة كبيرة عظيمة كثيرة الخيرات رخصية الأسعار ، وأنها كانت تستمتع بجمال الطبيعة ووفرة الخيرات وحسن الموقع ، وأنها ودمشق وحمص وطرابلس من المدن التي ثبتت على صدمات الأيام والليالي ، وكان لها من موقعها وملاءمة الطبيعة لها ما أبقى عليها ، كأن تكون وسط ريف خصيب وماء دافق . ونحن نعلم أيضا أن حماة خربتها الزلازل سنة ٥٦٥ هـ . فإذا كان ذلك كذلك ، فطبيعي إذن ألا يكون في حال حماة

الطبيعة والاقتصادية ما يحمل والد ابن الفارض على هجرته منها إلى مـصر ، وأن يكون تخريـب الـزلازل لهـا سـنة ٥٦٥ هـ ، قـد أفـسد عليهـا مـا كانـت تستمتع به وقتئذ من جمال طبيعتها ووفرة خيراتها ، فإذا بأبي شاعرنا يرحل عنها ملتمسا غيرها من البلاد الإسلامية التي اختار من بينها مـصر . لاسـيما أنها كانت في ذلك الحين قبلة الأمم الإسلامية وموئل الحضارة ومنبع العلـم والعرفان ، وإذا هو يتخذ منها وطنا ثانيا يـستظل بظلـه وينهـل مـن مـوارد خيره وفضله .

٤- لم يذكر واحد من المترجمين نسب ابن الفـارض بـشكل مفـصَل يـرد فروعه إلى أصلها الأول ، إلا ما يرويه سبط الشاعر من أن جده رأى في المنام النبي عليه الصلاة والسلام فسأله عن نسبه ، فإذا هو يجيبه بأنه حفظ هذا النسب عن أبيه وجده ، وعلم أنه ينتهي إلى بني سعد قبيلة حليمة مرضعة النبي . ولكن هذا الحلم لا يصلح لأن يكون دليلا قاطعا على صحة انتـساب ابن الفارض إلى هذه القبيلة العربية ، إلا إذا ثبت ثبوتا قويا أن الأحلام تعبر تعبيرا صادقا عن أشياء لها وجود واقعي ، فإذا كانت دراسة الأحلام النفسية قد أظهرتنا على أن من الأحلام ما يعبر تعبيرا صادقا عـن حقـائق ، وأن منهـا ما لا يكاد يتجاوز حدود الأوهام ، فقد يترتب على ذلك أن يكون حلـم ابـن الفارض هذا من قبيل النوع الثاني ، وأن نقف منه ومـما يعـبر عنـه موقـف التحفظ والتردد ، فلا نتخذ منه أساسا نبني عليه القول بأن ابن الفارض كان من أصل عربي .

على أن لنا في الأصل الحموي الذي ينتسب إليه أبو شـاعرنا مـا يعيننـا على إثبات عربيته : فإن ما ورثه أبناء حماة وغيرها مـن بعـض مـدن الـشام

من طول القامات واتساع الصدور ومتانة العضلات ، دليل قوي على ما يسري في أبناء هذه المدن من الدم العربي . ناهيك بأن أصحاب المزاج الدموي يكثرون في المدن الداخلية كالقدس ونابلس ودمشق وحمص وحماة وحلب وأنطاكية . وبأن أصحاب المزاج الصفراوي العصبي يكثرون في المدن الساحلية كيافا وصيدا وحيفا وبيروت وطرابلس واللاذقية والإسكندرونة . فإن صحت هذه الملاحظات وصح معها ما يصوَر به ابن الفارض في ترجمة سبطه له من أنه كان معتدل القامة جميل الوجه ، وأن وجهه كان مشربا بحمرة ، استطعنا أن نستخلص أن شاعرنا كان من سلالة عربية الأصل من ناحية ، وأن ندحض الزعم القائل بأن ما يتعاقب على نفس الصوفي من أذواق ومواجيد ، وما يختلف عليها من أحوال الغيبة والحضور ، إنما يرجع إلى ضعف في الأعصاب أو اضطراب في العقل من ناحية أخرى ، وأن نؤيد الرأي القائل بأن التصوف وما ينتهي إليه من إدراك الوحدة ونفي الكثرة ليس من خصائص الجنس الآري وحده ، وإنما يشاركه فيه الجنس السامي من ناحية ثالثة .

ومهما يكن من أمر انتساب ابن الفارض إلى أصل حموي أو عربي ، فهو مع ذلك مصري الوطن : ولد بمصر ، ونشأ فيها ، وترعرع في ظلها ، وأقام الشطر الأكبر من حياته بها ، ودفن بأرضها ، فهو مصري في مولده، مصري في نشأته وتربيته ، مصري في حياته ومماته . وليس أدل على مصريته واتخاذه من مصر وطنا له من قوله :

وطني مصر وفيها وطري ... ولعيني مشتهاها مشتهاها

فهو هنا يعلن إعلانا صريحا لا لبس فيه ولا غموض مصريته التي بإضافتها إلى أصله الحموي العربي كان لها أكبر أثر في تكييف روحه الشعرية ، وإلباسها هذا الثوب الجميل من الخفة والرقة والعذوبة وما إليها من الصفات المحببة إلى النفس والتي تتجلى في أكثر قصائد ديوانه .

٥- سبقت الإشارة إلى أن ابن الفارض ولد سنة ٥٧٦ هـ ، وتوفي سنة ٦٣٢ هـ . ومعنى هذا أن حياته تقع في الربع الأخير من القرن السادس والثلث الأول من القرن السابع للهجرة . ولهذا العصر قيمة خاصة من الناحية التاريخية ، ففيه انتقلت مصر والشام من حكم الفاطميين إلى حكم الأيوبيين ، أي أن النظام الديني في مصر والشام أصبح خاضعا لمذهب أهل السنة بعد أن كان خاضعا لمذهب الشيعة . أضف إلى هذا الحروب الصليبية التي شبت نيرانها في ذلك العصر فولدت كثيرا من القلق والاضطراب .

ملك الفاطميون مصر والشام ، فانتقلت الخلافة في عهدهم إلى القاهرة التي ظلت زهاء قرنين عاصمة الإمبراطورية الفاطمية . وما زالت دولة الفاطميين قائمة في مصر حتى سنة ٥٦٧ هـ - ١١٧١ م ، وهنا يلاحظ أن مذهب الشيعة ظل سائدا في مصر حتى ذلك التاريخ ، وحتى كان صلاح الدين الأيوبي ، فإذا هو يقضي على آثار الشيعة في المذاهب والعقائد ، وإذا هو يحيي تعاليم السنة ، ويسير على نهجه من جاء بعده من ملوك بني أيوب . والمتأمل في حياة ابن الفارض يلاحظ أن الشاعر قد أدرك منذ مولده إلى وفاته أربعة من هؤلاء الملوك هم : صلاح الدين والعزيز والعادل والكامل .

استمتعت مصر في عهد صلاح الدين بحظ من الحضارة والثقافة الدينية كان له أكبر أثر في روح العصر ، وطبعه بهذا الطابع السني الذي كان أخص خصائص ملوك الأيوبيين . عني صلاح الدين بإحياء السنة ونشر تعاليمها فأنشأ كثيرا من المدارس الفقهية بصفة عامة ، ومن المدارس الشافعية بصفة خاصة . وأبطل علوم الشيعة التي كانت تدرس بالأزهر بحكم كونه أثرا من آثار الفاطميين . ويدل على هذا ما يحدثنا به ابن خلكان من إنشاء المدارس الشافعية والمالكية والحنفية ووقف الأوقاف عليها .

توفى صلاح الدين سنة ٥٩٨ هـ ، فقسمت مملكته بين أبنائه : فكانت مصر للعزيز ، ودمشق والشام الوسطى للأفضل ، وحلب للظاهر . وكان لمصر من بين هذه الأقسام مركز ممتاز ومكانة رفيعة كما يدلنا على ذلك أن دمشق كانت تضرب نقودا باسم العزيز . ومع هذا كان بين أقسام المملكة الأيوبية شئ من التنافس مكن للعادل أخي صلاح الدين في إشباع مطامعه ، فاستطاع بمهارته وحنكته أن يستغل هذا التنافس بين أبناء صلاح الدين ، وأن يولي أبناءه هو نوابا عنه ، فأناب الكامل في مصر ، والمعظم في دمشق ، وغير الكامل والمعظم من أبنائه في غير مصر ودمشق من أقسام المملكة المترامية الأطراف . على أن مصر ما لبثت أن تعاقبت عليها المحن والأزمات ، فانخفضت مياه النيل سنة ٥٩٨ هـ = ١٢٠١ م ، وفي سنة ٥٩٩ هـ = ١٢٠٢ م ، وساءت حال المحاصيل ، وتفشي الطاعون ، واضطربت حال الأمن ، وقلقت النفوس . ولعل في هذه الحال السيئة ما كان يعين على تغذية النزعة الصوفية ، وتنمية الشعور الديني ، وهما من أخص خصائص ذلك العصر ، كما أنهما من مميزات العصور

التي تكثر فيها النكبات وتتوالى الأرزاء في كثير من الأحيان . ومهما يكن من شئ فقد كان العادل صالحا ، محافظا على الصلوات في أوقاتها . متبعا لأرباب السنة ، مائلا إلى العلماء ، حتى صنف له فخر الدين الرازي كتاب " تأسيس التقديس " ، وذكر اسمه في خطبته ، وسيَّره إليه من بلاد خراسان.

مات العادل سنة ٦١٥ هـ ، وتولى من بعده ابنه الكامل ، فكان كما كان غيره من ملوك الأيوبيين محبا للعلم والأدب ، مقبلا على أهلهما ، عاملا على إحياء السنة ، مؤسسا لكثير من المدارس العلمية والدينية وأهمها " دار الحديث " أو " المدرسة الكاملية " التي أنشأها سنة ٦٢٢ هـ . وكانت هذه المدرسة ثاني دار أقيمت لدراسة الحديث ، فإن أول دار هي تلك التي أنشأها في دمشق نور الدين محمود بن زنكي . وقد وقف الكامل هذه الدار على المشتغلين بالحديث النبوي ، ومن بعدهم على الفقهاء الشافعية . وكان من بين الذين اشتغلوا بالتدريس فيها عبدالعظيم المنذري أحد المحدثين الذين عاصروا بن الفارض واتصلوا به ، وليس أدل على حب الكامل للعلم وتشجيعه المشتغلين به من أنه كان يبيت عنده كل ليلة جمعة جماعة من الفضلاء ، يشاركهم في مباحثاتهم ، ويسألهم عن المواضع المشكلة من كل فن ، وهو معهم كأنه واحد منهم .

على أن ملوك الأيوبيين لم يكونوا محبين للعلم والأدب والدين ، عامين على نشرها وإحيائها بتشجيعهم أهلها فحسب ، بل إن منهم من شارك في العلم والأدب على نحو ما كان الملك الكامل ، إذ كان يحفظ أكثر دواوين الشعر ، والملك المعظم إذ شرح " الجامع الكبير " ، وصنف في العروض .

وثمة شئ آخر يظهرنا على عناية الأيوبيين بالتصوف : ذلك أنـه لم يكـن للصوفية قبل عصر الأيوبيين مشيخة عامة ترجع لهـا أعمالهـم وتتوحـد بهـا مقاصدهم ، بل كانت كل طريقة أو زاوية مستقلة عـن غيرهـا مـن الطـرق والزوايا ، فكثرت بذلك الفتن حتى أنشأ صلاح الدين خانقاه سعيد الـسعداء وسماها دويرة الصوفية ، وقدم شيخها على غيره مـن المـشايخ ، وولَى عليهـا أعاظم رجال الدولة وأعيانها كأولاد شيخ الشيوخ ابـن حمويـه مـع مـا كـان لهـم مـن الـوزارة والإمـارة وتـدبير الدولـة وقيـادة الجيـوش . ووليهـا ذو الرياستين الوزير الصاحب قاضي القـضاة تقـي الـدين عبـدالرحمن ابـن ذي الرياستين الوزير الصاحب قاضي القضاة تـاج الـدين ابـن بنـت الأعـز . ومـا زالت الحال كذلك إلى أن توحدت رياسـة الـصوفية بمـصر في القـرن التاسـع للهجرة فجعلت الولاية فيها للسيد محمد شمس الدين البكري ، ثـم تولاهـا من بعده ابنـه الإمـام شـيخ الإسـلام المفـسر الـشهير أبـو الـسرور البكـري ، وانتقلت من بعده إلى ذريته ، ولا تزال إلى الآن في البيت البكـري الـصديقي بمصر .

وإذا كانت هذه هي عناية الأيوبيين بعلوم الدين والتـصوف والأدب ، فماذا عسانا نجد في عهدهم من الشخـصيات التـي عـاصرت ابـن الفـارض ، وكانت تمثل روح العصر ؟ الحق أن ابن الفـارض عـاصر طائفـة صـالحة مـن العلـماء والـصوفية والزهـاد والوعـاظ ، واتـصل ببعـضهم ألوانـا مختلفـة من الاتصال . ولقد حدثنا ابن إياس عن هذه البيئة التي عاش فيهـا شـاعرنا فذكر من العلماء الصوفية والشعراء صفي الدين بـن أبي المنـصور ، وشـمس الـدين الأيـكي الـذي كـان شـيخا لخانقـاه سـعيد الـسعداء ، وسـعد الـدين

الحارثي الحنبلي المحدث ، والقاضي أمين الدين بن الرقاوي ، وجمال الدين الأسيوطي ، وشهاب الدين عمر السهروردي ، وبرهان الدين إبراهيم الجعبري ، والقاضي شمس الدين بن خلكان ، وشهاب الدين بن الخيمي ، ونجم الدين بن إسرائيل ، وقد قال ابن إياس إن أحدا من هؤلاء لم ينكر على ابن الفارض شيئا من حاله ولا من نظمه ، وإنهم كانوا معه في غاية الأدب .

ومن معاصري ابن الفارض من اتصل به اتصال مباشرا كبرهان الدين الجعبري (المتوفي ٦٨٧ هـ) الذي كان زاهدا واعظا مذكرا شافعيا ، كما كان صاحب أحوال ومكاشفات وكرامات ، وشهاب الدين محمد بن الخيمي (المتوفي ٦٨٥ هـ) الذي قال عنه صاحب الشذرات إنه كان حامل لواء النظم في وقته ، والذي كان يطارح ابن الفارض بنظم لطيف ، وشهاب الدين أبو حفص عمر السهروردي (المتوفي ٦٣٢ هـ) صاحب " عوارف المعارف " الذي انتهت إليه تربية المريدين ، وتسليك العباد ومشيخة الطرق . وقد اتصل السهروردي في إحدى حججه بابن الفارض ، وتحدث إليه ، وألبس ولديه خرقة الصوفية على طريقته المنسوبة إليه كما سنتبين هذا في موضعه من الكلام على الطور الثالث من أطوار حياة شاعرنا ، وزكي الدين عبدالعظيم المنذري (المتوفي ٦٥٦ هـ) المحدث الكبير الذي ولى رياسة المدرسة الكاملية ، وانقطع بها نحوا من عشرين سنة ، والذي كان حجة ثقة في علم الحديث ، وقد اتصل ابن الفارض بالمنذري وحدث عنه .

على أن أقوى الشخصيات التي عاصرت ابن الفارض ، وطبعت روح ذلك العصر بطابعها الخاص ونزعتها الفلسفية في التصوف ، هي شخصية محيي

الدين محمد بن علي بن عربي (المتوفي ٦٣٨ هـ) ، الذي يكاد يكون مذهبه الصوفي أقوى المذاهب أثرا فيمن عاصره ومن جاء بعده من الصوفية . ساح ابن عربي في بلاد كثيرة ، ودخل فيما دخل من هذه البلاد ، ولسنا ندري هل اتصل ابن عربي عند زيارته لمصر بابن الفارض اتصالا شخصيا ، أو أن الصلة بين الصوفي الأندلسي والشاعر المصري لم تتجاوز حد ما يرويه المقري من أن الأول طلب إلى الثاني أن يضع شرحا لتائيته الكبرى ، فأجابه ابن الفارض بقوله : " كتابك الفتوحات المكية شرح لها " . فهذه الرواية ليست من الوضوح بحيث نتبين منها أكان ما طلبه ابن عربي إلى ابن الفارض بطريق الاتصال الشخصي ، أم كان بطريق آخر كإيفاد رسول أو إرسال كتاب .

نتبين من كل ما تقدم أن ابن الفارض عاش في عصر قلق مضطرب بحكم الحروب الصليبية التي استعرت نارها فيه ، خصب منتج من النواحي الدينية والأدبية والعلمية ، سنى أحييت فيه تعاليم الكتاب والسنة بقدر ما حوربت تعاليم الشيعة .

على أن الشعور الديني الذي كان يسيطر على النفوس في ذلك العصر ، والنزعة الصوفية التي وجهت الأفكار فيه ، والتي كانت ملائمة في جملتها لتعاليم الكتاب والسنة ، لم يخلصا تماما من بعض الآثار الشيعية ومخلفات الإسماعيلية الباطنية التي تظهرنا عليها " حكمة الإشراق " لشهاب الدين يحيى السهروردي الحلبي المقتول (المتوفي ٥٨٧ هـ) ، كما يظهرنا عليها مذهب ابن عربي في وحدة الوجود . ومعنى هذا أنه ظهر في عصر ابن الفارض تياران مختلفان في التصوف : أحدهما تيار متمش مع أصول الدين ، محافظ على تعاليم الكتاب والسنة ، وثانيهما تيار خرج أصحابه على الشرع ، فلم يتقيدوا بأصوله

ومبادئه،بل أباحوا لأنفسهم حرية واسعة النطاق انتهت بهم إلى مذاهب منافية للدين . ويمثل ابن الفارض التيار الأول مع استثناء بعض أبيات للشاعر توهم في ظاهرها الخروج على الشرع ، ولكنها في حقيقتها ضرب من الشطح الذي يصدر فيه عن الواقع تحت سلطانه أقوال غريبة تبدو في ظاهرها مخالفة كل المخالفة لما جاء به الدين واحتوت عليه تعاليم الكتاب والسنة ، ويمثل السهروردي المقتول وابن عربي التيار الثاني لما يظهر في مذهبيهما من آثار الفلسفة الأفلاطونية الجديدة وبعض التعاليم الفارسية القديمة والشيعية كالقول بالإمام المختفي أو المستور .

فأنت ترى من كل ما قدمنا بين يديك أن حياة ابن الفارض على اختلاف أطوارها الأربعة التي سنتحدث عنها واحدا واحدا فيما يلي تقع من أولها إلى آخرها في عصر سنى المذهب صوفي النزعة ملائم لتعاليم الكتاب والسنة إلى حد بعيد متأثر ببعض الآراء الشيعية والمذاهب الباطنية إلى حد ما . ولننظر الآن في هذه الأطوار لعلنا نهتدي منها إلى تبين الآثار التي كانت لعصره في نشأته وتكوين صوفيته .

٦- ففي الطور الأول لحياة شاعرنا نتناول نشأته الأولى إلى أن حبب إليه سلوك طريقي الصوفية وبدأ ساحته في وادي المستضعفين بالمقطم . وقد صور لنا صاحب الشذرات هذا الطور بقوله : " ... نشأ ابن الفارض تحت كنف أبيه في عفاف وصيانة ، وعبادة وديانة ، بل زهد وقناعة ، وورع أسدل عليه لباسه وقناعه ، فلما شب وترعرع اشتغل بفقه الشافعية ، وأخذ الحديث عن ابن عساكر وعن الحافظ المنذري وغيره ، حبب إليه الخلاء وسلوك طريق الصوفية فتزهد وتجرد " . وهنا نلاحظ أن شاعرنا ، في نشأته الأولى ، كان متأثرا بهذا

الروح الديني السائد في عصره ، وبهذه النزعة الصوفية التي كانت مـن أخـص خصائص ذلك العصر من ناحية ، ومن أبرز الصفات التـي امتـاز بهـا والـده من ناحية أخرى . وليس من شك في أن نشأة كهذه كان لها أثرهـا القـوي في تهذيب نفسه ، وترقيق طبعه ، وتصفية قلبه ، بحيث جعلت منه فيما بعـد رجلا قوي الخلق نقي الـضمير ، خليقـا بـإجلال الملـك الكامـل لـه ، وإقبـال الخاصة والعامة عليـه . وهنـا نلاحـظ أيـضا أن ابـن الفـارض عنـد مـا شـب وترعرع تثقف بهذا اللـون مـن الثقافـة الدينيـة المعروفـة في عـصره ، وهـو الفقه الشافعي والحديث الشريف . أما من كان أساتذته الذين تلقى عـنهم الفقه ، فذلك ما لا يحدثنا المؤرخون بشئ منه . وأما أساتذته في الحـديث ، فقد اتفق أكثر المترجمين مع صاحب الشذرات على أن الشاعر أخذ الحـديث عن ابن عساكر وعن المنذري ، وأولهما هو القاسم بن علي بـن الحـسن بـن هبة الـلـه ثقة الدين الشافعي (٥٢٧ هـ = ١١٣٢ م - ٦٠٠ هـ = ١٢٠٣ م) ، صنف كتبا مختلفة منها : " الجامع المستقصي في فضائل المسجد الأقـصى " ، وهو أحد المصدرين الهامين اللذين استقى منهما ابن الفركاح كتابه " باعـث النفوس " ، وثانيهما هو الحافظ عبـدالعظيم زكي الـدين ، أحـد الـذين ولـوا التـدريس " بـدار الحـديث " التـي أنـشأها الملـك الكامـل ، ووقفهـا عـلى المشتغلين بالحديث ، ومن بعدهم على المشتغلين بفقه الشافعية .

٧- وهكذا مهد الطور الأول نفس ابن الفـارض هيأهـا لـسلوك طريـق الصوفية ، وجعل من صاحبها زاهدا متجردا على نحو ما يبـدو لنـا في طـوره الثاني : أما لماذا تزهد شاعرنا وتجرد ، وما الذي حبب إليه الانقطاع إلى الـلـه ، فذلك ما يذكره السيوطي من أن ابن الفـارض كـان مـن الفقهـاء الأعـلام ، وقاضيا ولي الأحكام ، وأنـه دخـل الجـامع يومـا لـصلاة الجمعـة والخطيـب

يخطب ، فوجد شخصا يغني ، فنوى تأديبه سرا ، فلما انقضت الصلاة وانتشر الناس ، خرج ابن الفارض فناداه الشخص المغني أن أقبل ، فلما أقبل أنشده :

قسم الإله الأمر بين عباده   فالصب ينشد والخلي يسبح
ولعمري التسبيح خير عبادة   للناسكين وذا لقوم يصلح

فكان هذا سبب زهده .

على أننا إن قبلنا ما يحكيه السيوطي عن سبب زهد ابن الفارض ، فإننا لا نستطيع بحال ما أن نوافقه على أن شاعرنا كان في ذلك الطور من أطوار حياته فقيها وقاضيا ولي الأحكام ، لاسيما أن ما وقفنا عليه من المراجع لم يذكر فيه شئ يثبت صحة ما يذهب إليه السيوطي هنا . ولهذا كان لابد من أن تبقى هذه المسألة معلقة إلى أن يظهر النص الصريح الذي يدل عليها ، والدليل التاريخي الواضح الذي يؤيدها . ولعل فيما ذكره ابن الفارض من أن أباه كان يجلسه معه في مجالس الحكم ومدارس العلم ، مصدرا لهذا الخطأ الذي وقع فيه السيوطي أو من روى عنه السيوطي قصة ابن الفارض مع الشاب المغني ، فظن أنه كان قاضيا ، والحقيقة أن كل ما هنالك هو أنه كان يجلس إلى أبيه فيما كان يجلس فيه من مجالس الحكم كما سنتبين هذا بعد . وأما ما وقع لابن الفارض مع هذا الشاب المغني ، وأنه كان سببا في زهده ، فذلك إن كان مقبولا ، فإنه ليس وحده كل السبب الذي زهده وحبب إليه طريق الصوفية . وإنما الذي يقبله العقل ، ويلائم طبيعة النشأة التي نشأها الشاعر ، والبيئة التي عاش

فيها ، والروح الذي كان مسيطرا على عصره أن تكون نفس ابن الفـارض قـد تهيأت بحكم هذا كله تهيئة خاصة من شأنها أن تجعلها قابلة للتأثر بكل ما يثير فيها الميل إلى طريق القوم ، ويحرك منها الإقبال عليه . ومن هنا يمكـن أن يقال إن بـذور الزهـد والـورع والتقـوى والعبـادة قـد غرسـت في نفـس الشاعر مذ كان يافعا ، وظلت كامنة فيها حتى كان ما كان من هذا الـشاب المغني معه ، فإذا هو يعمل عـلى إحيـاء هـذه البـذور وإنمائهـا وإبرازهـا في صورة قوية واضحة ، وإذا بهذه البذور تأتي أكلها في حياة شاعرنا انقطاعا إلى الـلـه ، وسياحة في وادي المستضعفين حينا وفي أودية مكة حينا آخر ، وحبـا لله ، وإعراضا عن كل ما سواه .

سلك ابن الفارض في طوره الثاني إذن طريق الصوفية ، فكان يـستأذن أباه في الـسياحة بـوادي المستـضعفين ، وهنالـك كـان يقـضي سـواد الليـل وبياض النهار ، ثم يعود إلى والده ، حتى إذا نازعته نفسه إلى السياحة عاد إليها وقضى فيها أياما وليالي ، وهكذا دواليك إلى أن كان رحيلـه عـن مـصر وسفره إلى الحجاز بناء على إشارة أستاذه أبي الحـسن البقـال . وقـد صـور سبط ابن الفارض هذا كله فيما رواه على لسان جده حيث يقول : " كنـت في أول عهدي بالتجريـد ، أسـتأذن والـدي وأطلـع إلى وادي المستـضعفين ، وآوي فيـه ، وأقـيم في هـذه الـسياحة لـيلا ونهـارا ، ثـم أعـود إلى والـدي لأجـل بـره ومراعـاة قلبـه . وكـان والـدي يومئـذ خليفـة الحكـم للعزيـز بالقاهرة ومصر المحروستين . وكان من أكـابر أهـل العلـم والعمـل ، وكـان يسر برجوعي إليه ، ويلزمني بالجلوس معـه في مجـالس الحكـم ومـدارس العلم . ثم اشتاق بعد هذا إلى التجريد فـأعود إلى الـسياحة ، ومـا برحـت

أفعل ذلك مرة بعد مرة إلى أن سئل والدي أن يكون قاضي القضاة ، فامتنع ونزل عن الحكم ، واعتزل الناس ، وانقطع إلى اللـه تعالى بقاعة الخطابة في الجامع الأزهـر إلى أن تـوفي . فعـاودت التجريـد والـسياحة وسـلوك طريـق الحقيقة فلم يفتح على بشئ .. " . فهذه صورة واضحة لما كـان عليـه ابـن الفارض في أول عهده بالتجريد ، وإنها لصورة لم تغذها البذور الصوفية التي غرستها يد الوالد في قلـب الولـد أول نـشأته فحـسب ، وإنما غـذتها كـذلك مجالس الحكم ومدارس العلم التي كان يلـزم الوالـد ولـده بـالجلوس معـه فيها ، فيثقف عقله ويهذب نفسه بأصـول الحكـم وآراء العلـم التـي كانـت شائعة في أهل ذلك العصر .

ظل ابن الفارض على هذه الحال من السياحة في وادي المستضعفين، يقوم بها حينا . ويعود منها حينا آخر ، حتى كـان يـوم حـضر فيـه مـن الـسياحة إلى القاهرة ، ودخل المدرسة السيوفية ، فوجد شيخا بقالا على بابها يتوضـأ وضـوءا غير مرتب ، فاعترض عليه ابن الفارض بأن هذا الوضوء لا يلائم قواعد الـشرع . وهنا نظر الشيخ إلى ابن الفارض وقال له : " يا عمر ، أنـت مـا يفـتح عليـك في مصر ، وإنما يفتح عليك بالحجاز في مكة شرفهـا اللــه ، فاقـصدها فقـد آن لـك وقت الفتح " ، فدهش ابن الفارض من هذا القول ، ورد على الشيخ بـأن الأمـد بينه وبين مكة بعيد . وأنه لا يجد ركبا ولا رفقة في غير أشهر الحج . قال الـشيخ وهو يشير : " هذه مكة أمامك . " قالوا : فنظر ابن الفارض معه فإذا هـو يـرى مكة ، ثم تركه وطبها ، ولم تبرح أمامه حتى دخلها في ذلك الوقت . ثـم لاحظنـا ما اشتملت عليه هذه القصة ، ولاحظنا معـه مـا قالـه ابـن الفـارض في سـياقها

من أنه علم أن هذا الرجل من أولياء اللـه . وأنه يتستر بالمعيـشة وإظهـار الجهل بلا ترتيب الوضوء ، استطعنا أن نستخلص أمرين : أحدهما أنه يمكن أن يعد هذا الشيخ البقال أستاذا لابن الفارض . أرشـده إلى طريـق الفـتح ، وهداه إلى موطن الكشف والإلهام ، وثانيهما أن هذا الشيخ كان واحدا مـن هؤلاء الصوفية الذين يأخذون أنفسهم بالتستر والاستخفاء وراء مظهـر مـن المظاهر الدنيوية . إما لأنهم لا يرغبون في أن يعرف النـاس حقيقـة أمـرهم ومكنون سرهم ، ويريدون أن يعيشوا على ما بينهم وبين اللـه مـن تحبـب وتودد ، وإما لأن الغرور وحب الظهـور لم يعبثـا بنفوسـهم فيظهـرون أمـام الناس بمظهر جذاب خلاب . وبعبارة أخرى يمكن أن يقال إنه كـان يتـأثر في حياته وسلوكه ومظهره طريق هذه الطائفة من الصوفية التي تعـرف باسـم " الملامية " ، والتي أخص خصائصها أن أفرادهـا لا يظهـرون مـما ببـواطنهم على ظواهرهم .

عـلى أن هـذه القـصة وإن جعلـت مـن هـذا الـشيخ البقـال أسـتاذا لابن الفارض ومرشـدا ، فإنهـا لا توقفنـا مـع ذلـك الكثـير مـن أمـره ، وممـا يتعلق باسمه وشخصه وعمله على وجـه واضـح . ولكـن مراجـع أخـرى قـد ورد فيها ذكر هذا الشيخ مع اختلاف بينها في اسمه : ذكـره ابـن الزيـات في آخر كلامه على قبر ابـن الفـارض فقـال : "... ثـم نـأتي إلى قـبر الـشيخ شرف الدين ، والبقعة مباركة بها جماعـة مـن العلـماء والأوليـاء : فمـنهم الـشيخ الإمـام قـدوة العـارفين ، وسـلطان المحبـين ، الـشيخ شرف الـدين عمـر بـن الفارض ، تلميذ الشيخ أبي الحسن علي البقال ، صاحب الفتح الإلهي والعلم الـوهبي " . وذكـره ابـن إيـاس في معـرض كلامـه عـلى وفـاة ابـن الفـارض

فقال : " ... ولما مات دفن تحت رجلي شيخه الشيخ محمد البقال رحمة الله عليه " . وذكره غير ابن الزيات وابن إياس باسم الشيخ البقال فقط . ومهما يكن من أمر هذا الخلاف في اسم الرجل ، فليس بعيدا أن يكون لفظ " البقال " لقبا لهذا الشيخ غلب عليه لتستره وراء تجارة " البقول " ، كما كان لفظ " الفارض " لقبا لأبي شاعرنا غلب عليه لأنه كان يثبت الفروض .

٨- رحل ابن الفارض عن مصر إلى الحجاز بناء على إشارة أستاذه البقال ، وكان رحلته هذه بداية الطور الثالث من أطوار حياته . ويعد هذا الطور أهم الأطوار جميعا لأن الشاعر عاش فيه عيشة خالصة ، انقطع فيها إلى السياحة بأدوية مكة سياحة كانت سبيله إلى الفتح الإلهي ، الأمر الذي يصح معه أن نطلق على هذا اسم " طور الفتح " . وإذا كانت المعلومات التي وصلتنا لم تمكنا من تحديد المدة التي استغرقها كل من الطورين الأول والثاني تحديدا تاريخيا ، فإن شأن الطور الثالث مختلف من هذه الناحية . ذلك بأنه يمكن أن يحدد التاريخ الذي بدأ فيه والتاريخ الذي انتهى عنده : فكل الذين ترجموا لابن الفارض متفقون اتفاقا أشبه ما يكون بالإجماع على أن وفاته كانت في سنة ٦٣٢ هـ ، وأنه قضى بالحجاز خمسة عشر عاما ، وأنه توفى بمصر بعد عودته من الحجاز بأعوام أربعة . فإن صح هذا كله ، كان معناه أن الطور الثالث لحياة ابن الفارض يبدأ سنة ٦١٣ هـ وينتهي سنة ٦٢٨ هـ أو سنة ٦٢٩ هـ .

هنالك في أرض الحجاز ، وفي أودية مكة ، قضى شاعرنا خمسة عشر عاما سائحا منقطعا عن الناس ، لا يكاد يتصل بهم إلا حين كان يأتي إلى

الحرم الشريف مطوفا به ، مصليا فيه . وإنه ليحدثنا في شعره عن استيحاشه من الناس وائتناسه بالوحش فيقول :

وجنبني حبيك وصل معاشري ... وحببني ما عشت قطع عشيرتي

وأبعدني عن أربعي بعد أربع ... شبابي وعقلي وارتياحي وصحتي

فلي بعد أوطاني سكون إلى الفلا ... وبالوحش أنسى إذ من الإنس

وهنالك في ظل مكة الوارف كان ما تنبأ به الشيخ البقال من الفتح على ابن الفارض الذي يثبت هذا بقوله :

يا سمبري روّح بمكة روحي ... شاديا إن رغبت في إسعادي

فذراها سربي وطيبي ثراها ... وسبيل المسيل وردي وزادي

كان فيها أنسي ومعراج قدسي ... ومقامي المقام والفتح باد

على أن أهمية هذا الطور لا ترجع إلى ما تمتاز به الحياة الصوفية لابن الفارض من الفتح والكشف فحسب ، وإنما هي ترجع أيضا إلى ما نظمه الشاعر فيه من شعر تبدو عليه المسحة البدوية ، وتتردد في أبياته الصور الحجازية ، على الأثر الذي كان للبيئة سواء في حياته كصوفي وشاعر . وقد حدثنا سبط ابن الفارض بأن ولده في جمعه لديوان أبيه لم تفته سوى قصيدة واحدة كان نظمها بالحجاز ، كان أهل مكة يعلمونها أبناءهم في المكاتب ، وينشدونها في الأسحار على المآذن . وظل ولد الشاعر يتلمس هذه القصيدة زهاء ستين عاما دون أن يظفر بها ، وأخيرا جد سبطه في طلبها نحوا من أربعين عاما حتى عثر عليها أما القصيدة فهي التي مطلعها :

أبـرق بـدا مـن جانـب الغـور لامـع　　　　أم ارتفعـت عـن وجـه لـيلي البراقـع

والتي فاضت بوصف الشاعر المحب لحياته مع أحبته ، وحفلت بـذكر كثير من الأماكن الحجازية ، فأضفى عليها ذلـك ثوبـا عربيـا بـدويا جمـيلا . وإن كنا نوافق على أن الشاعر قد نظم بعض شـعره في الحجـاز ، وأن هـذه القصيدة بالذات واحدة من هذا البعض ، فإننا نلاحـظ مـع ذلـك أل هنـاك أبياتا في هذه القصيدة نفسها من شأنها أن تحملنا عـلى الاعتقـاد بأنهـا إنمـا نظمت بعد أن انقطع الفتح ، وتفـرق المحـب والمحبـوب ، أي بعـد أن عـاد الشاعر إلى مصر فإذا هو يتحصر على ما فات من أيامه ولياليه مـع أحبتـه ، وإذا هو يتمنى لو تعود هذه الأيام والليالي كما يدل على هذا قوله :

لعـــل أصـــيحابي بمكـــة يـــبردوا　　　　بـذكر سـليمي مـا تجـن الأضـالع

وعـل الليـيلات التـي قـد تـصرمت　　　　تعـود لنـا يومـا فيظفـر طـامع

ويفـــرح محـــزون ويحيـــا متـــيم　　　　ويـــأنس مـــشتاق ويلتـــذ ســـامع

وهنا نستطيع القول بأن أثـر الحجـاز لم يكـن حظـا مقـصورا عـلى مـا نظمه ابن الفارض من شعر فيه ، وإنما هو حظ يكاد يكون شائعا بين شـعره الحجازي وشعره المصري . وليس أدل على ما نذهب إليه من قولـه في هـذه الأبيات :

يـــا راكـــب الوجنـــاء بلغـــت المنـــى　　　　عـــج بـــالحمى إن جـــزت بالجرعـــاء

متـــيمما تلعـــات وادي ضـــارج　　　　متيامنـــا عـــن قاعـــة الوعـــساء

وإذا وصـــلت أثيـــل ســـلع فالنقـــا　　　　فـــالرقمتين فلعلـــع فـــشظاء

وكـذا عـن العلمـين مـن شرقيـة ... مـل عـادلا للحلـة الفيحـاء
واقـر الـسلام عريـب ذيـاك اللـوى ... مـن مغـرم دنـف كئيـب نـاء
صـب منـي قفـل الحجـيج تـصاعدت ... زفراتـه بتـنفس الـصعداء
كلـم الـسهاد جفونـه فتبـادرت ... عبراتـه ممزوجـة بـدماء

ألا ترى إلى هذه الأبيات التي تنطق بأن صاحبها قد نظمهـا في مـصر ، ووصف فيها ما يحسه من ألم ، وما يعرض له من سهاد وحـسرة عـلى فـراق أحبته ، وعلى ما كان ينعم به في ظلهم من سعادة ونعـيم ! ثـم ألا تـرى إلى هذه الأماكن الحجازية التي يكثر الشاعر من ترديد أسمائها ، كيف ألبـست أبياته هذا الثواب الحجازي دون أن يكون في هذا الإكثار إمـلال أو إسـفاف أو نبو عن الذوق ! أفلا ينتهي بنا هـذا كلـه إلى أن الطـابع الحجـازي الـذي طبع به ما نظمه شاعرنا في الحجاز ، قد تجـاوز هـذا القـسم مـن شـعره إلى القسم الذي نظمه في مصر ؟

وفي هذا الطور التقى ابن الفارض بأحد معاصريه الصوفيين وهر شـهاب الدين أبو حفص عمر السهروردي صاحب " عوارف المعارف " (سنة ٥٣٩ هـ - سنة ٦٣٢ هـ) وتحدث كل منهما إلى صاحبه ، وألبس الـسهروردي ولـدي ابـن الفارض خرقة الصوفية على طريقته المعروفة باسمه ، وذلك كله في أواخر سنة ٦٢٨ هـ أو أوائل سنة ٦٢٩ هـ . وللسهروردي مكانـة عظيمـة مـن نفـوس أهـل عصره وصوفيته ، حتى لقد كانوا يبعثون إليه من بلادهم يستفتونه لثقته فيه واطمئنانهم إلى علمه بالحقيقة والشريعة . ويدل على هذه المكانـة قـول ابـن عربي وقد سئل عنه : " مملوء سنة من فرقه إلى قدمه " . ولاتصال ابن الفارض

بالسهروردي قصة يرويها سبط الأول وهي فوق ما تظهرنا عليه من إثبات هذا الاتصال بين الرجلين ، تظهرنا على ما وقع في نفس كل منهما من رؤية صاحبه ومخاطبة روحه لروحه من بعيد . وحسبنا هنا هذه الإشارة على أن نتناول تحليل القصة من الناحية النفسية في الفصل التالي الذي عقدناه لدراسة حياة ابن الفارض الصوفية .

ظل ابن الفارض بالحجاز حتى أواخر سنة ٦٢٨ هـ أو أوائل سنة ٦٢٩ هـ ، وقد استدعاه وقتئذ أستاذه الشيخ البقال بطريق الاتصال الروحي ، وذلك ليحضر وفاته ، ويجهزه ، ويصلي عليه ، ويدفنه عند المكان المعروف " بالعارض " ، فعاد الشاعر إلى مصر ملبيا هذه الدعوة منفذا هذه الرغبة ، وكانت عودته نهاية الطور الثالث وبداية الطور الرابع من أطوار حياته .

٩- ولعل أهم ما يميز حياة ابن الفارض الصوفية في طورها الرابع هو انقطاع الفتح انقطاعا أثار في نفس الشاعر الصوفي اللوعة والحسرة على ما فات من أيامه مع أحبته في الحجاز ، وما أحسه في ظلهم من راحة قلبه وطمأنينة نفسه وتوالي الكشف والإلهام عليه . واسمع إليه حيث يقول :

يا أهل ودي هل لراجي وصلكم ... طمع فينعم باله استرواحا
مذ غبتم عن ناظري لي أنة ... ملأت نواحي أرض مصر نواحا
وإذا ذكرتكم أميل كأنني ... من طيب ذكركم سيقت الراحا
وإذا دعيت إلى تناسي عهدكم ... ألفيت أحشائي بذاك شحاحا

وحيث يقول :

سـقيا لأيـام مـضت مـع جـيرة كانـت لياليـنـا بهـم أفراحـا

حيث الحمى وطني وسـكان الغـضى سـكني ووردي المـاء فيـه مباحـا

وأهيلـه أربي وظـل نخيلـه طـربي ورملـة واديـه مراحـا

واهـا عـلى ذاك الزمـان وطيبـه أيـام كنـت مـن اللغـوب مراحـا

لتتبين الفرق بين حياة الشاعر في مصر بعد عودته مـن الحجـاز وهـي التي يصفها في الأبيات الأربعة الأولى ، وبـين حياتـه في الحجـاز وهـي التـي يصورها في أبياته الأربعة الأخيرة . وآية هذا تغير الأحوال بعـد أن عـاد مـن الحجاز إلى مصر ، وتقطع الأسباب بين وبـين الفـتح وانـسداد بـاب الكـشف عليه ، أو على حد تعبيره هو انقطاع وارداته وعدم دوام أوراده كما يقول في هذين البيتين متحدثا عن مكة :

نقلتنـي عنهـا الحظـوظ فجـزَت وارداتي ولم تـدم أورادي

آه لـو يـسمح الزمـان بعـود فعـسى أن تعـود لي أعيـادي

ويلوح أن الملك الكامل لم يسمع بابن الفـارض ، ولم يعـرف شـيئا عـن أدبه وسلوكه ، ولم يقدره حق قـدره إلا في هـذا الطـور الأخـير مـن حياتـه . ونحن نستدل على هذا بما حكاه سـبطه مـن أن الملـك الكامـل كـان جالـسا ذات يـوم في مجلـسه الـذي كـان يعقـده مـن أهـل العلـم والأدب ، وكـانوا يتذاكرون أصعب القوافي ، فقال الملك : من أصعبها اليـاء الـساكنة ، وطلـب إلى الحاضرين أن يذكر كل منهم ما يحفظه في هـذه القافيـة ، فلـم يتجـاوز أحـدهم عـشرة أبيـات . وهنـا قـال الملـك إنـه يحفـظ منهـا خمـسين بيتـا

قصيدة واحدة وذكرها ، وقال القاضي شرف الدين كاتب سر الملك إنه يحفظ منها مائة وخمسين بيتا قصيدة واحدة وأنشد قصيدة ابن الفارض اليائية التي مطلعها :

سائق الأطعان يطوي البيد طي   منعما عرج على كثبان طي

ولما أن سأل الملك عن ناظم هذه القصيدة ، وعلم من كاتب سره أنه ابن الفارض ، كان ما كان من إيفاد الملك كاتب سره إلى ابن الفارض ومعه ألف دينار يقدمها إليه برسم الفقراء الواردين عليه ، وما كان من تأبي ابن الفارض قبول المال والحضور إلى الملك ، مما دعا الملك إلى أن يقول : " مثل هذا الشيخ يكون في زماني ولا أزوره . لابد لي من زيارته ورؤيته " . ومن ثم قصد الملك ومعه جماعة من خواص الأمراء إلى الأزهر ، ولكن ابن الفارض لم يكد يحس قدومهم حتى خرج من الباب الآخر الذي بظاهر الجامع ، وسافر إلى ثغر الإسكندرية وأقام بالمنار أياما ، ثم عاد إلى الجامع الأزهر متوعكا . فلما بلغ الملك نبأ توعكه أرسل إليه يستأذنه في أن يجهز له ضريحا عند قبر أمه بقبة الإمام الشافعي ، فلم يأذن له ، ثم سأله أن يبني له تربة تكون مزارا مختصا به ، فلم ينعم له بذلك .

فهذه القصة واضحة الدلالة على أن الملك الكامل لم يكن قد عرف بعد من أمر ابن الفارض وشعره ما يجعله يقبل عليه ويختصه بإكباره له وإعجابه به ، وأنه لم يكد يقف على حقيقة شأنه حتى أفاض عليه من ماله وحسن تقديره . وهي فوق هذا تظهرنا على زهد ابن الفارض في المال ،

ونفرته من مواصلة الملوك والتقرب منهم . ثم هي بعد هذا كله دليل على حب الملك الكامل للأدب وعنايته به ورعايته لأهله .

على أن ابن الفارض إن كان قد نظم بعض شعره في الحجاز ، وبعضه الآخر في مصر ، فإنه أملي ديوانه بالقاهرة بعد عودته من الحجاز . ومعنى هذا أن شاعرنا قد عمد في طوره الرابع والأخير إلى شعره فنظمه ونسقه وضم أجزاءه بعضها إلى بعض على الوجه الذي تظهرنا عليه النسخ المختلفة لديوانه .

وهكذت عاد ابن الفارض إلى مصر ، وقضى بها السنوات الأربع الأخيرة من حياته (٦٢٨ هـ أو ٦٢٩ هـ - ٦٣٢ هـ) حيث أقام بقاعة الخطابة في الجامع الأزهر ، وعكف عليه الأئمة ، وقصد إلى زيارته الخاص والعام ، حتى وافته منيته .

١٠- والمؤرخون الذين اختلفوا حول تاريخ مولد ابن الفارض هذا الاختلاف الذي أظهرناه في موضعه من هذا الفصل ، متفقون على تاريخ وفاته : فكلهم يثبت أنه توفى في الثاني من جمادي الأولى سنة ٦٣٢ هـ = ٢٣ يناير سنة ١٢٣٤ م ، وأنه دفن من الغد بالقرافة بسفح المقطم عند مجرى السيل تحت المسجد المعروف بالعارض وهو أعلى الجبل المذكور . ويزيد ابن خلكان هذا التاريخ تحقيقا فيذكر أن اليوم كان يوم الثلاثاء . وقد حدث الجعبري فيما حدث أنه حضر غسل ابن الفارض وجنازته ، وأنه لم ير جنازة أعظم منها ، وأن الناس كانوا يتهافتون على حمل نعشه . وإلى هذا العارض يشير على سبط الشاعر في قوله :

جـز بالقرافـة تحـت ذيـلي العـارض وقـل الـسلام عليـك يـا ابـن الفـارض

أبــرزت في نظــم الــسلوك عجائبــا وكــشفت عــن سر مــصون غــامض

وشربــت مــن بحــر المحبــة والــولا فرويــت مــن بحــر محــيط فــائض

وأبو الحسن الجزار في قوله :

لم يبــق صــيب مزنــة إلا وقــد وجبـت عليـه زيـارة ابـن الفـارض

لا غــرو أن يــسقي ثــراه وقــبره بـاق ليـوم العـرض تحـت العـارض

١١- وقد أعطانا علي مبارك باشا صورة تاريخية لما تعاقب على مسجد ابن الفارض من الظروف والأحوال ، كما وصف لنا هذا المسجد على ما كان عليـه في أيامه : فهو يحدثنا بأن قبر الشاعر ظـل زمانـا طـويلا بغـير حـاجز عليـه ، حتـى كانت أيام السلطان إينال العلائي الأشرف ، فقام رجل من الأتـراك يقـال لـه تمـر الإبراهيمي عتيـق الأشراف برسـباي لزيارتـه هـو وابنـه برقـوق النـاصري عتيـق السلطان جقمق العـلائي ، وهنـاك كانـا يقـيمان الأوقـات ، ويطعـمان الطعـام ، ويتصدقان على الفقراء . وفي سنة ٨٦٠ هـ وقف له خادمـا ، كـما جعـل الـسيفي برقوقا المتوفي سنة ٨٧٧ هـ = ١٤٧٢ م ناظرا على هذا الوقف ، فأخذ هـذا الأخـير يقيم به الأوقات الجليلة ، حتى ولى قايتباي المحمودي السلطنة ، فأقـام برقوقـا نائبا على الشام ، وأقام ولده مقامه . هذا فيما يتعلق بتاريخ المسجد ، أما فـيما يتعلق بالمسجد في ذاته ، فإنه يقع بالقرب من مسجد سـيدي شـاهين الخلـوتي . وقد عني برقوق الناصري به فأنشأ عليه قبة من الحجر قائمة على أربعة عقود ، وسـطحها محـلى بنقـوش داليـة ، وفي سـنة ١١٧٣ هـ = ١٧٥٩ م ألحـق بالقبـة مسجد أمير اللواء الشريف السلطاني عـلي بـك قـازدغلي أمـير الحـج ، ولا تـزال بقايـاه الخربـة موجـودة في الجهـة الـشرقية مـن المـسجد . وقـد وصـفه عـلي

مبـارك (باشـا) فقـال إن بـه منـبرا ، وأربعـة أعمـدة مـن الرخـام ، حاملـة لبائكتين من الحجر ، وسقفه بلدي من الخشب وأفلاق النخل ، وبـه قبلتـان إحداهما قديمة يكتنفهـا عمـودان صـغيران مـن الحجـر الأسـود ، وبـداخلها أعمدة صغيرة من الحجر ، وبها آثار شغل قديم بالصدف ، والأخرى جديدة من الحجر ، وله منارة ، وأغلب محلاتـه متخربـة ، وبداخلـه ضريـح سـيدي عمر بن الفارض رضي الـلـه عنه ، وجملة قبور .

أما المسجد الحـالي فقـد أنـشأته الأمـيرة جميلـة فـضيلة هـانم كريمـة الخديو إسماعيل سنة ١٣٠٧ هـ = ١٨٨٩ م ، وأنشأت بجواره قبة كبيرة دفـن فيها ابنها الأمير إبراهيم جمال الدين المتوفي سـنة ١٣٠٥ هـ = ١٨٨٧ م . وفي هذا المسجد أربعة أعمدة من الحجر تحمل بائكتين من الحجر كذلك . وقـد أقيمت فيه حول ضريح ابن الفارض مقصورة ذات أربعة أضلاع ، ثلاثة منها من الحديد والخشب ، وضلعها الرابع أحد جدران المسجد وبه نافـذة تطـل على فنائه الخارجي وقد غرست خارج المـسجد أشـجار وأزهـار ، وكـأني بهـا والنسيم يداعبها قد هيأت للشاعر العاشق أن تحيـا روحـه في ظـل الجـمال الذي فاضت نفسه بحبه ، وقضى حياته هاتفا به مرتلا أنـشودته . وهكـذت أتاحت الأميرة جميلة لابن الفارض مقرا جميلا ترفرف عليه أجنحة الطبيعـة الوادعة ، وتنعم فيـه روحـه بمـا كانـت تـصبو إليـه مـن سـعادة ومطأنينـة وسكينة . وليس من شك في أن هذه العناية التي وجهت إلى قبر شاعرنا إنمـا تظهرنا على أن أصحاب المواجيد والأذواق من شـعراء الـصوفية لـن يعـدموا من يقدرهم أمواتا ، كما أنهم لم يحرموا من كان يشعجهم ويجلهم حياء .

الفصل الثاني

حياة ابن الفارض الصوفية

العمل والذوق - أعمال ابن الفارض وأذواقه - خلفه وسيرته - رياضاته - أعمال العبادة وأحوال الإرادة - أذواقه ومواجيده: الغيبة، حب الجمال ، تأويل المسموعات والمرئيات، السماع والرقص، تفسير هذه الأذواق والمواجيد - فراساته ومكاشفاته وكراماته وتفسيرها - أحلامه : تفسيرها وقيمتها الروحية .

١- التصوف رياضة للنفس ومجاهدة لرغباتها ، وتصفية للقلب من أدران المادة وشوائب الحس ، وهو ذوق ووجد ، وفناء عن الإنيَّة ، وبقاء في الذات العلية . والمتأمل في حياة الصوفية يلاحظ أنها تنطوي في العادة على معنيين رئيسيين : أحدهما معنى عملي يتمثل فيه ما يأخذ به السالك نفسه من ألوان الرياضات وضروب المجاهدات ، والمرآة التي تنعكس على صفحتها هذا المعنى ، هي المقامات التي تترقى فيها النفس مقاما بعد مقام، ترقيا يمكنها في النهاية من الوصول إلى درجة اليقين والعرفان ، وثانيهما معنى ذوقي روحي هو هذا الذي يحصل في النفس ثمرة لرياضتها ومجاهدتها، فإذا هي تصفو شيئا فشيئا ، وتتخلص من شوائبها رويدا رويدا ، وإذا هي تستحيل آخر الأمر إلى روح صافية نقية كما كانت قبل أن تهبط من عالم الأمر إلى هذا العالم السفلي بما فيه من أكدار المادة وعوامل الفساد ، والمرآة التي ينعكس على صفحتها هذا المعنى الذوقي الروحي هي ما يعرض للنفس من أحوال ترد عليه حينا وتتحول عنها حينا آخر ، وما تزال

هذه الأحوال بين إقبال على النفس وإدبار عنها حتى يستقر منها آخر الأمـر حال يغلب عليها ويوجـه حياتهـا الروحيـة ، فـإذا هـي تـشرق بنـور الحـق، وتعمى عن رؤية الخلق . هنالك تكون النفس قد وصلت إلى أسنى الأحوال ، وتكون قد شاهدت بعين البصيرة كل ما في الوجود من آيات الحـق والخـير والجمال . هذان المعنيان هما أساس كل حيـاة صـوفية ، ويكـادان يوجـدان متلازمين في كل مذهب صوفي . والحق أنه ما من مـذهب صـوفي إلا ويمكـن أن يعد ، على وجه من الوجوه ، وليدا لما خـضع لـه صـاحبه مـن رياضـيات ومجاهدات ، ولما تعاقب على نفسه من مواجيد وأذواق ، ولما فتح به عليـه بعد هذا كله من مكاشفات ومـشاهدات ، يعـبر عنهـا الواصـل إليهـا تعبـيرا يصور مبلغ العناء الذي احتمل ، ومقدار الصفاء الـذي حـصَل . وقـد يكـون هذا التعبير شعرا تارة ونثرا تارة أخرى ، ولكنه على كل حال تعبير قد انطوى في ثناياه على عناصر منها ما هو خلقي عملي ومنها ما هـو ذوقـي روحـي . ومعنى هذا أن للصوفية طريقة عمليـة في تهـذيب أخـلاق الـنفس ، وذوقـا نفسيا دقيقا ، وأن لهذه الطريقة وهذا الـذوق قيمتهـا . بـل كـل القيمـة في تصور مـا ينكـشف لهـم ، وإدراك مـا يـتجلى علـيهم مـن الحقـائق . ولعـل الصبغة النفسية الشخصية التـي اصـطبغت بهـا الآثـار الـصوفية هـي التـي تجعل فهم هذه الآثار عسيرا على الذين لم يأخذوا أنفسهم بهـذا اللـون مـن ألوان النفس ، ولم يذوقوا هذا الذوق .

٢- وحياة ابن الفـارض الـصوفية كحيـاة غـيره مـن القـوم : مـزاج مـن العمل والـذوق ، يكـشف لنـا تحليلهـا عـما اشـتملت عليـه مـن رياضـيات

ومجاهدات ، وما اختلف على نفس صاحبها من أحوال ومقامات ، وما عرض لها من أحلام ومكاشفات : فقد بدأ ابن الفارض حياته صوفيا بالسياحة في وادي المستضعفين بجبل المقطم ، ثم رحل إلى الحجاز حيث قضى خمسة عشر عاما سائحا في أودية مكة التي توالى عليه الفتح فيها . وهو فيما بين هذا وذاك قد أخذ نفسه بالتصفية ، وقلبه بالتنقية ، وكانت له أحوال وأحلام ، وفراسات ومكاشفات ، مما نريد أن نقف عليه خلال هذا الفصل.

٣- والمتأمل في حياة ابن الفارض الصوفية من ناحيتها العملية ، وفيما يصورها به أكثر المترجمين وأبعدهم عن التعصب له ، يلاحظ أنها كانت حياة خلقية نقية بكل ما في هذا الوصف من معنى ، وأن صاحبها قد عمد فيها إلى سلوك لا شبهة فيه ولا غبار عليه سواء فيما بينه وبين نفسه وربه أو فيما بينه وبين غيره من الناس : فقد حدثنا ابن خلكان عن خلق شاعرنا فقال إنه كان رجلا صالحا ، كثير الخير، على قدم التجرد ، حسن الصحبة ، محمود العشرة ، وقد صوره ابن العماد في هذه الصورة الجميلة المحببة إلى النفس فقال عنه : " كان جميلا نبيلا ، حسن الهيئة والملبس ، حسن الصحبة والعشرة ، رقيق الطبع ، عذب المنهل والنبع ، فصيح العبارة ، دقيق الإشارة ، سلس القياد ، بديع الإصدار والإيراد ، سخيا جوادا " . ويؤيد هذا الكلام ما ذكره سبط الشاعر من أن جده كان كريما إلى الحد الذي كان ينفق معه على كل من يرد عليه نفقة متسعة ، وأنه لم يكن يتسبب في تحصيل شئ من الدنيا ، وأنه لم يكن يقبل من أحد شيئا . وليس أدل على صدق هذا كله من قصة ابن الفارض مع الملك

الكامل ، وهي القصة التي ذكرناها في الفصل الأول عند حديثنا عن الطور الرابع من أطوار حياته ، ومن هذه القصة التي تصور لنا مبلغ ما وصل إليه شعور شاعرنا من إرهاف وصميره من حيوية وصفاء ، والتي تتلخص في أنه حصلت منه ذات يوم هفوة ، فوجد في باطنه مؤاخذة شديدة عليها ، فضاقت نفسه بهذه الحال ، وخرج هائما إلى مواطن سياحته بجبل المقطم وأخذ يبكي . ولما لم ينفرج ما به قصد إلى مسجد عمرو ، وهناك وقف في صحنه وهو يجدد البكاء ، ثم صرخ صرخة عظيمة وقال متمثلا ببيت الحريري :

من ذا الذي ما ساء قط ومن له الحسنى فقط

وهنا سمع قائلا بين السماء والأرض ، يسمع صوته ، ولا يرى شخصه يقول :

محمد الهادي الذي عليه جبريل هبط

٤- أما كيف انتهى ابن الفارض إلى أن يحيا هذه الحياة الخلقية التي تعد بحق مثلا أعلى يحتذى ، فذلك ما تظهرنا عليه رياضاته العملية التي كان يذهب فيها إلى أبعد حد من مجاهدة النفس ، وكبح جماحها وإخضاعها لفنون مختلفة من الحرمان ، وألوان شتى من التهذيب : فقد كانت له أربعينيات متواصلة لا بأكل ولا يشرب ولا ينام فيها ، وهو في هذه أربعينيات إنما كان يأخذ نفسه بالشدة التي لا تعرف لينا أو هوادة ، وبالزهد في كل شئ . والانصراف عن كل شئ ، وما زال بها على هذه الحال ، حتى تهيأ له ما كان يطمح إليه من كمال . ويدل على هذا ما

يحكى من أنه بينما كان في آخر أيام من أربعينياته اشـتهت نفـسه لونـا مـن ألوان الطعام ، فأخذ يطالبها بالصبر ، ولكنهـا أخـذت تلـح عليـه ، فـإذا هـو يشتري هذا اللون ، ويدخل به إلى قبـة الـشرابي ، ولم يكـد يرفـع أول قطعـة منه إلى فمه حتى انشق جـدار القبـة وخـرج شـاب جميـل الوجـه ، حـسن الهيئة، أبيض الثياب ، عطر الرائحـة ، ولامـه إن أكلهـا ، فـما كـان مـن ابـن الفارض إلا أن ألقي بهذه القطعة قبل أن تصل إلى فمه ، وتركهـا وخـرج إلى السياحة ، وأدب نفسه بزيادة عشرة أيام في المواصـلة عـلى الأربعـين لتتمـة خمسين يوما . فإذا أضفنا إلى هذه القصة ما ذكرناه من قبل في الفصل الأول عند الكلام على الطور الثاني لحياة شاعرنا ، وما كان يأخذ به نفـسه في ذلـك الطور من سياحته في وادي المستضعفين حيث كان يقضي سواد الليل وبياض النهار ، وما ذكرناه بعد ذلك عن طوره الثالث وما كان له فيه من سياحة في أودية مكة وجبالها ، وما كان منه من استيحاش من الناس وائتناس بالوحش ، حتى لقد قالوا : إنه كان يصحبه في غدواته وروحاته سـبع عظـيم الخلقـة ينخ له كما ينخ الجمل ويقول له يا سيدي اركب ، وإذا أضفنا إلى هـذا كلـه ما يحدثنا به ابن الفارض نفسه في شعره من أنه إنما كان يقضي شهر رمضان طاويا نهاره محييا ليله كما يدل عليه قوله مخاطبا أحبته :

في هـــــواكم رمـــــضان عمـــــره ينقــضي مــا بــين إحيــاء وطــي

استطعنا أن نصور لأنفسنا هذه الحياة التي كان يحياها هـذا الـشاعر الصوفي ، وأل نتمثل العناصر الرئيسية التـي كـان يتـألف منهـا عنـده المثـل الأعلى في السلوك .

٥- على أننا لو أردنا أن نصف رياضات ابن الفارض العملية ، وطرقه في تهذيب نفسه ، وما أخذ به هذه النفس من أعمال العبادة وأحوال الإرادة ، وما تحمله في سبيل هذا كله من المشقة والعناء ، لما وفقنا إلى وصف أو في وأشمل ، وأقوى وأجمل من الوصف الذي يقدمه ابن الفارض نفسه في قصيدته الكبرى " نظم السلوك " حيث يقول :

فنفسي كانت قبل لوامة متى ... أطعها عصت أو أعص كانت مطيعتي

فأوردتها ما الموت أيسر بعضه ... وأتعبتها كيما تكون مريحتي

فعادت ومهما حملته تحملتـ ... ـه مني وإن خففت عنهما تأذت

وكلفتها لا بل كفلت قيامها ... بتكليفها حتى كلفت بكلفتي

وأذهبت في تهذيبها كل لذة ... بإبعادها عن عادى فاطمأنت

ولم يبق هول دونها ما ركبته ... وأشهد نفسي فيه غير زكية

٢٠٣ وكل مقام عن سلوك قطعته عبودية حققتها بعبودة وحيث يقول :

٢٦٨ رجعت لأعمال العبادة عادة ... وأعددت أحوال الإرادة عدتي

وعدت بنسكي بعدهتكي وعدت من ... خلاعة بسطى لانقباض بعفة

وصمت نهاري رغبة في مثوبة ... وأحييت ليلى رهبة من عقوبة

وعمرت أوقاتي بورد لوارد ... وصمت لسمت واعتكاف لحرمة

وبنت عن الأوطان هجران قاطع ... مواصلة الإخوان واخترت عزلتي

ودققت فكري في الحلال تورعا ... وراعيت في إصلاح قوتي قوتي

وأنفقت من يسر القناعة راضيا ... من العيش في الدنيا بأيسر بلغة

وهـــذبت نفـــسي بالرياضـــة ذاهبـــا   إلى كـشف مـا حجـب العوائـد غطـت

٢٧٦ وجردت في التجريد عزمي تزهدا   وآثـــرت في نـــسكي اســـتجابة دعـــوتي

فظاهر من الأبيات الأولى هذب ابن الفـارض نفـسه اللوامـة ، وكيـف أوردها موارد الهلاك ، حملهـا مـن المـشقة والعنـاء مـا لا يقـاس إلى بعـضه الموت ، وما زال بها يعودها تحمل الأذى والصبر على المكروه والانصراف عن اللذة ، وركوب الهول حتى كلفت بهذا كله ، وأصبحت تستشعر في تخفيفـه عنها تأذيا وتألما ، وحتى صارت آخر الأمر نفسا مطمئنة بعد أن كانت لوامة . وظاهر من الأبيات الأخيرة أن النسك والعفة وصـوم النهـار وإحيـاء الليـل وترتيل الأوراد والـصمت والأعتكـاف والهجـرة عـن الـوطن واعتـزال النـاس والورع والقناعـة وتهـذيب الـنفس بالرياضـة وتجريـد العـزم والزهـد ، كـل أولئك كان أعمال العبادة التي أخضع نفسه لها ، وأحوال الإرادة التي اتخـذ عدته منها ، أو هو بعبارة أخرى هـذه العنـاصر أو المـواد التـي تـألف منهـا القانون الخلفي الذي طبقه ابن الفارض في حياته الـصوفية العمليـة ، وكـان له من غير شـك أثـره القـوي في تهـذيب نفـسه ، وترقيـق شـعوره ، وصـقل ضميره ، وتنقية قلبه .

وكـما كانـت لابـن الفـارض رياضـات عمليـة ، فقـد كانـت لـه أذواق ومواجيـد روحيـة : تـصور الأولى حياتـه الخلقيـة ، وتـصور الثانيـة حياتـه النفسية . ولعل أظهر ما كانت تمتاز به هـذه الحيـاة النفـسية هـي الغيبـة والاستغراق فيها إلى حد لم يكن الشاعر الصوفي ليشعر معه بمـن حولـه مـن الأشخاص ولا بما يحيط به من الأشياء : فقد حـدثنا سـبطه نقـلا عـن ولـده

الذي كان ألزم الناس لأبيه وأعرفهم بحاله ، بأنه كـان يقـضي أغلـب أوقاتـه دهشا ، شاخصا ببصره ، لا يسمع ولا يرى مـن يكلمـه ، فهـو تـارة واقـف ، وتارة قاعد ، وهو حينا مضطجع على جنبه ، وحينا آخر مستلق على ظهره ، مسجي كالميت ، وإنه ليقضي على هذه الحال أياما ، قد تبلغ العشرة ، وقـد تزيد عليها أو تنقص عنها ، وهو فيما بين هـذا كلـه لا يأكـل ولا يـشرب ولا ينام ولا ولا يتحرك ولا يتكلم . وما يزال كـذلك حتـى يفيـق، وينبعـث مـن غيبته ، فيكون أول ما يتكلم به أن يملى ما فتح اللـه عليـه مـن قـصيدته " نظم السلوك " . ويؤيـد هـذا مـا ذكـره جماعـة ممـن صـحبوا ابـن الفـارض وباطنوه ، من أنه لم ينظم هذه القصيدة على حد نظم الشعراء أشـعارهم ، بل كانت تحصل له جـذبات يغيـب فيهـا عـن حواسـه نحـو الأسـبوع أو عشرة الأيام ، فإذا أفاق أملى ما فتح اللـه عليه منها ، وإنمـا لـيملى ثلاثـين أو أربعين أو خمسين بيتا ، ثم يدع الإملاء حتى يعاوده الحـال . ونحـن إذا تأملنا هذه القـصيدة ، ودققنـا فـيما اشـتملت عليـه مـن إشـارات ورمـوز مغرقة في الإلغاز لاسيما ما كان منها صادرا عن الشاعر بلـسان الجمـع مـع الذات الإلهية تارة ومع الحقيقة المحمدية تارة أخرى ، تبينا أنهـا لم تـنظم دفعة واحدة ، وأن نظمهما لم يكن عملا مـن أعـمال الرجـل وهـو في حـال عادية ، وإنما هي على العكس من هذا قد نظمت على فترات وأمليت على مرات في حالة أو حالات كان الشاعر فيها غائبـا عـن نفـسه ، وخارجـا عـن عقله وحسه . ودليلنا عـلى هـذا مـا يمكـن أن تنقـسم إليـه القـصيدة مـن أقسام يصور كل قسم منها حالا معينا . أو يعبر عن ذوق خاص ، أو يـشير إلى لون من ألوان المشاهدة وضرب من ضروب المكاشـفة . فهـذه الأقـسام

ليست في حقيقتها إلا صورا مختلفة لهذه اللحظات ، أو الفترات التي كانت تتعاقب فيها على نفس ابن الفارض هذه الغيبة . وعلى قدر ما كانت تطول هذه الغيبة أو تقصر ، كان طول بعض أقسام " نظم السلوك " أو قصرها .

٧- ولم يكن ابن الفارض في ذوقه ووجده وغيبته بدعا من الصوفية أو أصحاب الشعور المرهف . وإنما هو في غيبته التي كانت من ثمراتها قصيدته " التائية الكبرى " ، كالقديسة كاترين (St. Catherine) التي يقال إنها أملت حوارها العظيم وهي في حال الوجد ، وكجلال الدين الرومي الذي يحكى عنه أنه كلما كان يغرق في محيط الحب . كان لا يبرح يدور حول عمود في بيته ، ثم يأخذ عقب ذلك ينظم ويملي ، ويأخذ الناس في كتابة ما يصدر عنه من الشعر . وإذا كان ذلك كذلك ، فليس غريبا إذن أن تكون تائية ابن الفارض الكبرى ، كما كان حوار القديسة كاترين ومثنوى جلال الدين ، أثرا من آثار هذه الحالة النفسية الشاذة التي تلبس ما يصدر عن صاحبها من الشهر أو النثر ثوبا نفسيا غريبا ، وتطبعه بطابع خاص من الدقة والعمق والغموض والإلغاز في أكثر الأحيان ، حتى يخيل لنا ونحن نقرؤه أننا إزاء كلام لا معنى له ولا غناء فيه ، والواقع أن صدوره عن شعور مرهف في حالة غير طبيعية هو الذي يخيل لنا هذا . ولعل فيما قاله القديس إغناطيوس (St. Ignatius) عن قيمة الأحوال الصوفية ، وما لأصحابها من قدرة على إدراك الأسرار الإلية ، ما يعيننا على دحض الزعم القائل بأن هذه الأحوال ليست إلا لونا من ألوان الهذيان : فقد قال القديس إغناطيوس إن ساعة تأمل واحدة في مانريزا (Manresa) قد

علمته حقائق كثيرة تتعلق بالأشياء السماوية أكثر مما أفادته تعـاليم رجـال الـدين جميعـا . وإلى مثـل هـذا ذهبـت القديـسة تريـزا (St. Theresa) حيث تقول إنه قد أتيح لها أن تدرك في لحظة واحدة كيف تـشهد في اللــه كل الأشياء ، وإنها لم تدرك الأشياء في صـورها المعينـة الجزئيـة ، ومـع ذلـك كانت الصورة التي تألفت لديها واضحة وضوحا قويـا ظـل مـؤثرا في نفـسها تأثيرا حيا ، وكان ذلك عندها من أهم الدلائل على ما خـصها بـه اللــه مـن المنن ، ناهيك بأن هذه الصورة كانت من اللطافة والدقة بحيث لا يستطيع العقل أن يلم بها . ومن هنا نرى أن قوام المكاشفات الـصوفية والفتوحـات الإلهية هو التأميل وتركيز الشعور في نقطة واحدة ، وتعطيله أو غيبتـه عـن كل ماعدا هذه النقطة بحيث يستوعب الحياة النفسية كلها حال من الوجد أو الغيبة ليس لمن لا يقع تحت سلطانه سابق عهـد بمثلـه . وهنالـك يتهيـأ لصاحب هذا الحال أن يدرك من الحقائق ، ويكشف من الأسرار ، وهو على ما هو عليه من غيبة عن نفسه ، وتعطيل لحسه ، ما لا يـستطيع أن يـدرك أو يكشف بعقله أو حواسه وهو في حالته العادية . ولعل العقل لا يستطيع في أكثر الأحيان إن لم يكن في كلها أن يفهم ما ترمي إليه أو ما تشتمل عليـه بعض الأقوال الصوفية التي خضع أصحابها لأحوال ومواجيد. وهذا راجع إلى أن أخص خصائص هذه الأحوال والمواجيد أنها شخصية لا يتسنى تعرفهـا أو تذوقها إلا لمن يعانيها ويكابدها . ومن هنا كـان وقوفنـا مـن بعـض أبيـات تائية ابن الفارض الكبرى حيارى لا ندري أي معنـى تقـصد إليـه، ولا أي سر تنطوي عليه .

٨- وحب ابن الفارض للجمال صورة أخرى لمواجيده وأذواقه الروحية : فقد كان شاعرنا محبا للجمال أينما كان وفي أية صورة تجلى ، منجذبا إلى كل جميل سواء ما كان منه في عالمي الحيوان والجماد . وها هي ذي كتب التراجم المختلفة تعرض علينا صورا عدة لخوارق حبه للجمال وبدائع إقباله عليه ، فهو قد كلف بغلام جزار له فيه مواليا سمعه ابن خلكان من أصحاب ابن الفارض ، وأثبته في آخر ترجمته له ، وهو قد رأى ذات مرة جملا لسقاء فهام به وصار يأتيه كل يوم ليراه ، وهو كما زعم بعضهم قد عشق برنية في حانوت عطار ، وهو قد أحب النيل ومشاهدة منظره في أمسيات أيام الفيضان ، إذ كان يتردد على مسجد المشتهى بالروضة ، كما يشير إلى هذا بقوله :

لقد بسطت في بحر جسمك بسطة	أشارت إليها بالوفاء أصابع
فيا مشتهاها أنت مقياس قدسها	وأنت بها في روضة الحسن يانع

وحب ابن الفارض للجمال على هذا الوجه أمر يمكن تصوره وتفسيره تفسيرا ملائما لحياته الصوفية وما انتهى إليه من نظر إلى الوجود بعين الوحدة من ناحية ، ولما يمتاز به بعض النفوس من دقة الحس ورقة الشعور من ناحية أخرى : فشاعرنا صوفي تقلب في مرات السلوك وأطوار الحب ، وظل زمنا طويلا يتقلب فيها مرتبة بعد مرتبة ، وطورا بعد طور ، حتى انتهى إلى أرقى المراتب وأسمى الأطوار حيث لم يعد يفرق بين الكائنات ، بل أصبحت لديه كل الكائنات شيئا واحدا ، أو بعبارة أخرى مظاهر متكثرة لحقيقة واحدة هي الذات العلية التي أحبها وانجذب إليها

وهام بها إلى حد الفناء فيها . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإنه ليس ما يمنع من أن يكون ابن الفارض واحدا من أصحاب هذه النفوس التي خلقت عاشقة بطبعها ، منجذبة إلى كل جميل بفطرتها ، حتى إنها في حبها لا تكاد تفرق بين صورة وصورة ، ولا بين إنسان وحيوان وجماد ، وإنما كل ما يأخذ عليها شعورها. ويملك عليها عاطفتها ، جميل لديها ، محبب إليها. ومن هنا أحب ابن الفارض الجمال في كل صورة بحيث كان الجمال عنده مطلقا شائعا ، لا يعينه رسم ولا يقيده شكل ، كما يدل على هذا قوله :

وصرح بإطلاق الجمال ولا تقل بتقييده ميلا لزخرف زينة ٢٤١

فكل مليح حسنه من جمالها معار له ، بل حسن كل مليحة ٢٤٢

ومن هنا أيضا نستطيع أن نقول إن ابن الفارض بحكم شاعريته وصوفيته كان ميالا دائما إلى المناظر الجميلة التي تغذي هذه الشاعرية ، وتهيئ له لحظات من هذه الحياة الصوفية ، وتكون له بمثابة المحرك الذي يثير من نفسه مكتوم الحب ومكنون الشجن . فهو قد أحب المشتهى . لأنه كان في موضع جميل على النيل ، ولأنه كان يلقي فيه إخوانه في طريق الله الذين كان يضمهم ذلك الرباط .

٩- ولم تقف أذواق ابن الفارض ومواجيده عند الحد الذي قدمنا ، وإنما تجاوزته إلى شئ آخر أقل ما يوصف به أنه كان إمعانا في الوجد ، وإسرافا في تأويل كل ما كان يسمع الشاعر أو يرى تأويلا يلائم صوفيته ، ويطابق ما انتهت إليه نفسه من دقة ولطافة وإرهاف ، فقد كان من هذا كله بحيث إذا استمع وتواجد وغلب عليه الحال ، ازداد وجهه جمالا ونورا

وتحدر العرق من سائر جسده حتى يسيل تحت قدميه . ويدل على هذا ما يروي من أنه سمع ذات مرة فرقة من الحرس يضربون بالناقوس وينـشدون ، فأثار نشيدهم كوامن نفـسه ، وإذا هـو يـصرخ ويتواجـد، ويـرقص كثـيرا، ويخلع كل ما كان عليه من الثياب ، ثم يحمل بين الناس إلى الجامع الأزهـر وهو على هذه الحال ، ويظل في هذه السكرة أياما . ويدل عليـه أيـضا أنـه سمع نائحة تنـوح عـلى ميتـة والنـساء يجاوبنهـا ، فـإذا هـو يـصرخ صرخـة عظيمة، ويخر مغشيا عليه ، حتى إذا أفاق أخـذ يـردد عـلى وزن مـا كانـت تنوح به النائحة هذا القول :

نفـــسي متـــى متـــى حقـــا　　　　أي والـلـــــه حقـــا حقـــا

ويدل عليه بعد هذا كله أنه سمع مرة عند تردده على المشتهى قصارا يقصر ويضرب مقطعا على حجر ويقول :

قطـــع قلبـــي هـــذا المقطـــع　　　　مـــا كـــان يـــصفو أو يتقطـــع

فإذا هو يضرب ويتواجد ويتقلب عـلى الأرض ، ثـم يـسكن اضـطرابه، حتى يظن به الموت ، ولما أن أفاق تكلم بكلام نعته ولده بأنه لدنى ما سمع مثله قط ، ولا يحسن التعبير عنه ، ولم يزل على هذه الحال منذ سمع كـلام القصار إلى أن توفى .

فهذه الوقـائع ، إن صـحت ، تظهرنـا عـلى أن الانفعـالات التـي كانـت تحصل في نفس ابن الفارض ، مما كان يرى ويسمع ، لم تكن مجرد اسـتجابة لما كان يؤثر فيه من المرئيات والمسموعات دون أن تكون لها دلالة معنويـة

وراءها ، وإنما هي تبين أن نفس الشاعر الصوفي قد صفت ورقت ، أو هي قد سيطرت عليها فكرتا التصفية والترقيق على الأقل ، فإذا هي تتأثر بما جولها تأثرا يختلف عن تأثر النفس العادية ، وإذا هي تفهمه فهما خاصا ، وتؤوله تأويلا رمزيا ، وتخرج منه معنى ملائما للأفكار التي تسيطر عليها والخطرات التي تتردد فيها ، ثم هي تعبر عن مبلغ تأثرها بهذا المعنى وعن ملاءمته لهذه الأفكار والخطرات تعبيرا يدل عليه ما يعرض لها من وجد وغيبة ودهش واضطراب ، ومن رؤية الأشياء بغير العين التي ترى، وسماعها بغير الأذن التي تسمع ، وفهمها بغير العقل الذي يدرك . وهذا هو ما يعبر عنه الصوفية بقولهم إن العبد إذا تخلق ثم تحقق ثم جذب، اضمحلت ذاته ، وذهبت صفاته ، وتخلص من السوى ، وعندئذ تلوح له بروق الحق بالحق ، ويرى أن اللـه عين كل شئ ولا شئ سواه . أو هو ما يعبر عنه ابن الفارض نفسه بقوله في هذه الأبيات الجميلة الرائعة حقا :

تراه إن غاب عني كل جارحة	في كل معنى لطيف رائق بهج
في نغمة العود والناي الرخيم إذا	تألفا بين ألحان من الهزج
وفي مسارح غزلان الخمائل في	برد الأصائل والإصباح في البلج
وفي مساقط أنداء الغمام على	بساط نور من الأزهار منتسج
وفي مساحب أذيال النسيم إذا	أهدى إلى سحيرا أطيب الأرج
وفي التشامي ثغر الكأس مرتشفا	ريق المدامة في مستنزه فرج

فهو هنا لا يأخذ المسموعات والمرئيات الجميلة على أنها مجرد مسموعات ومرئيات فحسب ولكنه يأخذها على أنها صور يتجلى فيها

محبوبه ، وتعبر هي عن جمال هذا المحبوب . وهو بعبارة أخرى قد انتهى إلى حد سيطرت فيه على شعوره فكرة واحدة هي أن كل ما في الكون يمكن أن يدرك على أنه مجلى من مجالي الجمال الإلهي .

١٠- وقد أمعن ابن الفارض في الوجد وأسرف في خضوعه له وتأثره به إلى حد بعيد . فهو لم يكن يقنع بما كان يتفق له من المؤثرات الخارجية والداخلية التي تحرك انفعاله وتثير وجده ، بل كان من عادته أن يخلق الجو الذي يلزم عن وجوده الانفعال والوجد ، ويهيئ المناسبة النفسية التي من شأنها أن تجعله في حضرة من يحب ، وتشعره بالفناء عن نفسه والاتحاد بمحبوبه . وليس أدل على هذا مما يحدثنا به ابن حجر العسقلاني من أنه كان لابن الفارض بمدينة البهنسا بصعيد مصر ، بيت يقيم فيه طائفة من الجواري المغنيات الضاربات على الدفوف والشبابات ، وأن الشاعر كان يقصد إلى هذا البيت حيث يلقي نفسه في غمرة من غمرات السماع الذي ينشأ عنه الرقص بما يلازمه من حركة واضطراب ، ويتولد منه الوجد بما يستتبعه من دهش وغيبة . وهنالك في هذا البيت وبين هاتيك الجواري كان يقضي صاحبنا لبانة نفسه من الوجد ثم يعود إلى القاهرة . ولعلنا إذا التمسنا للرقص الناشئ عن السماع تفسيرا نفسيا ، وتحليلا يمكننا من تفهم هذه الحال وما يعرض فيها من ظواهر نفسية ، لم نوفق إلى خير مما يقدمه ابن الفارض نفسه في هذه الأبيات التي يصور فيها حاله عند السماع وقد شهد محبوبته واتحد معها ، فاسمع إليه حيث يقول :

ويحضرني في الجمع من باسمها شدا فأشهدها عند السماع يجملني ٤٢٥

فينحو سماء النفح روحي ومظهري الـ ـمستوى بها يحنو لأتراب تربتي

فمني مجذوب إليها وجاذب إليه ونزع النزع في كل جذبة

وما ذاك إلا أن نفسي تذكرت حقيقتها من نفسها حين أوحت

فحنت لتجريد الخطاب ببرزح الـ ـتراب وكل آخذ بأزمتي ٤٢٩

لترى أنه كان من أصحاب الأحوال الذين يتخذون من أحوالهم وسيلة إلى شهود محبوبهم ، وأن رقصه الذي يحصل عن وجده عند السماع لم يكن معناه ابتاجه بموجود كان مفقودا ، ولا حزنه على موجود صار مفقودا ، بل معناه أن حياته النفسية قد تنازعتها قوتان مختلفتان فيما بينهما : الروح تنجذب إلى أعلى وتجذب معها الحياة النفسية ، والنفس تهبط إلى أسفل وتجر معها الحياة النفسية ، وهنا يكون الاضطراب والحركة، وهما أظهر أيات الرقص ، ويكون هذا الاضطراب بمثابة مهدئ الروع ومسكن القلق . وهذا ما يوضحه ابن الفارض ، إذ يشبه حاله عند السماع بحال الطفل الذي يسكن اضطرابه كلما حركت يد مربيه مهده ، وذلك في قوله :

وينبيك عن شأني الوليد وإن نشا بليدا بإلهام كوحي وفطنة ٤٣٠

إذا أن من شد القماط وحن في نشاط إلى تفريج إفراط كربة

يناغي فيلغي كل كَل أصابه ويصغي لمن ناغاه كالمتنصت

وينسيه مر الخطب حلو خطابه ويذكره نجوى عهود قديمة

ويعرب عن حال السماع بحاله فيثبت للرقص انتفاء النقيصة

إذا هـم شـوقا بالمنـاغي وهـم أن ... يطـير إلى أوطانـه الأوليـة

يـسكن بالتحريـك وهـو بمهـده ... إذا مـا لـه أيـدي مربيـه هـزت

وجـدت بوجـد آخـذي عنـد ذكرهـا ... بتحيـير تـال أو بألحـان صـيت

كـما يجـد المكـروب في نـزع نفـسه ... إذا مـا لـه رسـل المنايـا توفـت

فواجـد كـرب في سـياق لفرقـة ... كمكـروب وجـد لاشـتياق لرفقـة

فـذا نفـسه رقـت إلى مـا بـدت بـه ... وروحي ترقت للمبادي العلية ٤٤٠

فهـذه الأبيـات إن دلـت عـلى شـئ ، إلى جانـب تـصويرها حيـاة ابـن الفارض النفسية عند الرقص ، فإنما تدل على أن رقصه ليس من هـذا النـوع الذي قيل فيه " الرقص نقص " ، إذ لو كـان كـذلك لا نبنـي عليـه أن يكـون شاعرنا من هؤلاء الذين يطربهم الوجد بعد الفقد ، ويـستريحون بالوجـد لا بالموجود في الوجد ، ورقص ابن الفارض ليس من هـذا في شـئ ، فإنـه - كـما يقول القاشاني - رقص يشهد الواجـد فيـه الموجـود ويغيـب بـه عـن وجـده بحيث يصبح وجده وجودا كما عبر عن ذلك الجنيد بقوله :

وقد كان يطربني وجدي فأنقـدني ... عـن رؤيـة الوجـد مـن في الوجـد

الوجد يطرب من في الوجد راحتـه ... والوجـد عنـد شـهود الحـق مفقـود

ومهما يكن من انتفاء النقص عن رقص ابن الفارض ، فقد كانت هـذه الحـال كـما كـان غيرهـا مـن أحوالـه وموجيـده ، ومذهبـه في الوحـدة المتصلة بهذه الأحوال المواجيد ، مثارا لطعـن الطـاعنين وإرجـاف المـرجفين

على نحو ما سنتبينه في الفصل الرابع من هذا الكتاب حيث نتحدث عن ابن الفارض بين خصومه وأنصاره .

١١- وإذا أردنا أن نفسر أحوال ابن الفارض وموجيده المشار إليها آنفا تفسيرا يتمشى ولغة علم النفس الحديث ، قلنا إن هذه الأحوال والمواجيد ، إنما تصدر أكثر ما تصدر عن شعور باطني عميق يستغرق الحياة النفسية كلها بحيث يوجهها إلى نقطة واحدة ينجذب إليها الشعور ، ويتركز فيها تركزا لا يكاد يجد له منه مخرجا ولا عنه منصرفا . وهنا يصبح صاحب الأحوال والمواجيد ولا شغل له إلا بهذه النقطة يجذب إليها كل محسوساته ومعقولاته ويؤول هذه المحسوسات والمعقولات تأويلا ملائما لهذه النقطة ملاءمة لا يدركها إلا من كابد الأحوال وشرب من كأس المواجيد . وهذا الشعور الباطني ، أو كما يسميه الدكتور بيوك (Dr. Buke) عالم النفس الكندي بالحاسة العميقة Deeper sense موجود في كثير من النفوس الإنسانية : نجده عند كثير من صوفية الشرق والغرب ، وعند شعراء هذا وذاك ، فإن في حياة ابن الفارض - كما نصفها في هذا الفصل - دليلا على وجود ذلك الشعور في أعماق نفسه . ولم يكن هذا الشاعر فريدا في هذا الباب ، بل هناك غيره في الغرب ممن دق شعورهم ورقت نفوسهم وفاضت بكثير من الانفعالات . وحسبنا هنا أن نشير إلى جون فوستر الذي تشبه حياته النفسية حياة ابن الفارض شبها قويا في أنه كان لبعض الكلمات والأسماء أثر عميق في نفسه وسيطرة قوية على شعوره ، حتى إن منها ما كان يكفي ليغيبه عن حسه ، ويثير في نفسه أشد الانفعالات .

وقد ذهب فريق من أنصار المذهب المادي إلى تفسير أذواق ابن الفارض ومواجيده تفسيرا فسيولوجيا يردها إلى ضعف في الأعصاب أو اضطراب في المخ . ولكن هذا التفسير إن صح بالقياس إلى بعض الصوفية من ضعاف الأعصاب ، فإنه لا يصح بالقياس إلى شاعرنا الذي رأينا عند الكلام على أصله أنه كان عربيا له ما للعرب من قوة العضلات ، واتساع الصدور ومتانة الأعصاب ، مما يمتاز به أهل حماة وغيرها من مدن الشام الداخلية ، بخلاف ما يمتاز به سكان المدن الساحلية من مزاج صفراوي ومن هنا لم يكن ثمة ما يبرر تفسير هذه الأذواق والمواجيد بردها إلى ظروف عصيبة أو نقائص فسيولوجية ، وإذا كان لابد لهذا التفسير من أن يظل قائما فكيف يمكن إذا أن نفهم ما يثبته الواقع مما امتاز به فريق من الصوفية من النشاط الحيوي والقوة الروحية والقدرة على الإنتاج الفياض بالآراء الخصبة والأسفار الضخمة والآثار القيمة كما هو الحال عند محيي الدين بن عربي الذي يقال إنه خلف من المؤلفات نحوا من مائتين ذكر منها بروكلمان ستا وخمسين ومائة . ولعل معترضا يقول : إن إنتاج ابن الفارض من هذه الناحية ليس شيئا بالقياس إلى إنتاج ابن عربي . وهذا صحيح من حيث الكم ، أما من حيث الكيف فنحن نلاحظ أن ديوان ابن الفارض على ضآلته إنما هو تحفة أدبية رائعة إلى حد بعيد ، وأثر روحي قيم إلى أبعد حد . وليس من شك في أن القيمة الروحية لهذا الديوان إنما ترجع إلى أنه ثمرة من ثمرات الأحوال النفسية والمواجيد الذوقية التي تعاقبت على نفس صاحبها في هذه الفترات التي كان فيها الوجد مسيطرا والإلهام فياضا مشرقا . وحسبنا دليلا على هذا ما نلمسه في كثير من قصائد الديوان ،

وفي التائية الكبرى والخمرية بنوع خاص ، من آيات العمق والإسراف في الرمز والإلغاز ، وامتلاء النفس بالإلهام المشرق والنور الفياض . وها هو ذا وليم جيمس يؤيدنا فيما نذهب إليه هنا فيرى أن الحالات الصوفية قد تزيد في نشاط النفس ، وذلك في الاتجاهات التي تتفق وإياها المكاشفات والإلهامات التي ترد على القلب في هذه الحالات ، وأن هذا لا يعد ثمرة صالحة أو فائدة قيمة إلا إذا كان الإلهام صحيحا صادقا ، أما إذا لم يكن الإلهام كذلك فما أكثر ما يكون النشاط فاسدا ، ولشد ما تكون النفس في ضلال مبين .

وإذا كان ذلك كذلك ، فقد تبين إذا أن مواجيد ابن الفارض وأذواقه ليست ضربا من الهذيان ، ولا لونا من الاضطراب العصبي أو المخي ، وإنما هي على العكس من هذا لحظات من التجلي الإلهي والإشراق الروحي والانغماس في الحقيقة الكلية التي تستوعب كل ما في الكون ، فإذا بمن خضع لهذه المواجيد وعرضت له هذه الأذواق لا يشعر بما يجري حوله مصطنعا ذلك الشعور النفسي العادي الذي نعرفه في أنفسنا عندما نتأمل أنفسنا ، ولكنه يشعر به مصطنعا شعورا يسميه الدكتور بيوك باسم " الشعور الكوني " (Cosmic Consciousness) ، وليس هذا الشعور الكوني في رأيه امتدادا لشعور النفس الذي نعرفه جميعا ، بل هو ملكة أخرى متمايزة عن أية ملكة في الإنسان الراقي ، مثله في هذا كمثل الشعور النفسي في تمايزه عن أية ملكة في الحيوان الراقي . فبهذا الشعور الكوني نستطيع أن نفهم ما كان يحصل لابن الفارض من وجد واضطراب وغيبة عند سماعه نشيد الحرس ونواح النائحة وغناء القصار ، ونستطيع

أيضا أن نفسر حبه للجمال سواء في الوجوه الحسان أم في المناظر والأشـياء الجميلة : ذلك بأنه نظر إلى الكون على أنه طائفة مـن المجـالي التـي تـتجلى فيها الحقيقة الكلية فتأخذ هذه الصور المرئية وهذه الأصـوات المـسموعة ، الأمر الذي ترتب عليه أن أصبح الشاعر الصوفي لا يرى شيئا ولا يسمع شـيئا إلا ويؤوله تأويلا رمزيا ، ويفهمه على أنه معنى من معاني الـذات الإلهيـة ، ومظهر من مظاهر الحقيقة العلية ، وترتـب عليـه أيـضا أن يكـون لـلأذواق والمواجيد الصوفية قيمتها الروحية ومنازعها الفلـسفية ، كـما سـنتبين ذلـك عندما نعرض لتحليل حب ابن الفارض من الناحية النفسية في الكتاب الثاني ، ومن الناحية الفلسفية في الكتاب الثالث .

١٢- ولابـن الفـارض مكاشـفات وفراسـات يعـدها الـبعض مـن قبيـل الكرامات ، ويرتبون عليها رأيهم في الرجل من حيث هو صوفي متحقق وولي من أولياء الـلـه . والكرامات عند الصوفية ضروب متفاوتـة في قيمتهـا ، وفي مبلغ ما تدل عليه من قدرة أصحابها على التصرف والإتيان بـالخوارق: فقـد تكون الكرامة تنبؤا بالمستقبل ، أو اطلاعا على ما في القلوب ، أو إحساسا بما يقع مـن الأحـداث في أمـاكن نائيـة ، أو رؤيـة للجنـة ، أو مـشاهدة لله ، أو كشفا لما في ملكـوت الـسموات ، وقـد تكـون الكرامـة إحـضار طعـام لـيس موجــودا ، أو جلــب فاكهــة في غــير أوانهــا ، أو قطــع آمــاد بعيــدة في أوقات قصيرة ، وقد تكون أشياء أخرى غير ما ذكرنـا مـن الأمـور التـي هـي خرق لكـل عـادة وخـروج عـلى كـل مـألوف مـن القـوانين الطبيعيـة . وإذا كان ذلك هو معنى الكرامة ، وكانت تلك أمثلة لهـا ، فـماذا عـسانا نجـد في حيـاة ابـن الفـارض منهـا ؟ الحـق أن لـشاعرنا مكاشـفات وفراسـات هــي

أدنى ما تكون إلى الكرامات ، ولكنها ليست شيئا إذا قيست إلى ما تحدثنا به كتب الطبقات عن غيره من الصوفية أمثال الحلاج وعبدالقادر الجيلاني وابن عربي . وها نحن أولاء نذكر ما ينسب إلى هذا الشاعر الصوفي في هذا الباب ، محاولين تفسيره تفسيرا يكشف عن حقيقته بقدر المستطاع ، ويضعه في الموضع اللائق به من بين خوارق العادات :

ذكر سبط ابن الفارض أن الملك الكامل أوفد ذات يوم كاتب سره القاضي شرف الدين إلى ابن الفارض الذي كان يقيم وقتئذ بالجامع الأزهر ومعه ألف دينار ، برسم الفقراء الواردين عليه ، فتردد شرف الدين ، وطلب أن يعفيه الملك من أداء هذه المهمة محتجا بأن ابن الفارض لا يقبل الذهب ولا يأخذ من أحد شيئا . ولكن الملك ألح وأصر ، ولما لم يجد شرف الدين مناصا قصد إلى الأزهر وترك الذهب مع شخص كان يصحبه، وما كاد يصل حتى وجد ابن الفارض واقفا بالباب ينتظره ، وهنالك ابتدره بقوله : يا شرف الدين ، ما لك ولذكري في مجلس السلطان ! رد الذهب إليه ، ولا ترجع تجيئني إلى سنة . ونحن إذا أعملنا الفكر فيما تشتمل عليه هذه القصة ، رأينا أنه يمكن تفسيره تفسيرا يدخله في باب الفراسة أو قراءة الأفكار ، وهما من مميزات بعض النفوس . يكفي هنا أن نذكر تعريف الواسطي للفراسة ، وهو أنها سواطع أنوار لمعت في القلوب ، وتمكين معرفة جملة السرائر في الغيوب من غيب إلى غيب حتى يشهد السالك الأشياء من حيث أشهده الحق إياها فيتكلم على ضميره الخلق . يكفي هذا التعريف ، ويكفي معه أن نطبقه على هذه القصة ، لنستخلص أن الفراسة إنما هي سبيل العارف إلى معرفة ما تكنه الضمائر

وتخفيه السرائر ، ولنتبين أن ما جرى من ابـن الفـارض مـع كاتـب سر الملـك ليس إلا لونا من ألوان الفراسة .

ويحـدثنا سـبط ابـن الفـارض عـن لقـاء جـده بالـسهروردي في الحـرم الشريف ، فيقول إن الـسهروردي عنـدما كـان ذات يـوم في الطـواف ، ورأى كثرة ازدحام الناس عليه ، وبلغه أن ابن الفارض كان هنـاك وقتئـذ ، اشـتاق إلى رؤيته وبكى وقال في نفسه : " يا ترى ، هل أنا عند الـلـه كما يظن هؤلاء في ؟ ويا ترى هل ذكرت في حضرة المحبوب هـذا اليـوم ؟ " ، وهنـا ظهـر لـه ابن الفارض وقال له : " يا سهروردي :

لك البشارة فاخلع ما عليك فقد ذكرت ثم على ما فيك من عوج "

ويمكن تفسير هذه القصة تفسيرا هو أبعـد مـا يكـون عـن إدخالهـا في باب الكرامات ، وأدل ما يكون على هذه الحالة النفسية الغريبة التي تعرف في علم النفس الحديث باسم الـشعور عـن بعـد (La Télépathie)، وهـي حالة نفسية يمتاز بها بعض الناس فيدرك الواحد منهم ما يفكـر فيـه الآخـر دون أن يكون هناك كلام أو إشارة ، ولو كـان البعـد بيـنهما شاسـعا ، فـابن الفارض قد شعر هنا بوجود السهروردي مع أنـه لم يكـن رآه بعـد ، وأحـس وهو بعيد عنه ما يجري في نفسه وما يخطر عـلى بالـه ، فـإذا روحـه تتـصل بروحه وتخاطبها ، وإذا هو يظهر له ويتحدث إليه عيانا بعد أن وقف عـلى حاله وعرف خطرات قلبه من بعيد ، واتـصال الأرواح وتخاطبهـا عـلى هـذا النحـو أمـر تثبتـه المـشاهدة ويقـره الواقـع وتؤيـده البحـوث النفـسية

الحديثة ، لاسيما إذا صح ما يقوله الدكتور ميرس من أنـه إن كـان في العـالم كائنات روحية (أي لا أجسام لها) فيبعد عن التصديق أن كـل واحـد منهـا منفصل عن غيره تمام الانفصال لا يعامله ولا يخاطبه ، وإن كانت تتخاطـب فالتخاطب ممكن بغـير اللـسان والقلـم والإشـارات ، بالوسـائل الروحيـة أو العقلية .

وعلى هذا النحو يـصح أن يفهـم مـا أوردنـاه في الفـصل الـسابق عـن اسـتدعاء أبي الحـسن البقـال وهـو في مـصر لابـن الفـارض وهـو في الحجـاز ليحضر هذا الأخير وفاته ويجهزه ويدفنه عنـد المكـان المعـروف بالعـارض : فالأمد بين مصر والحجاز بعيد من غير شك ، ولكن ابـن الفـارض قـد أحـس على الرغم من هذا البعد حـال أسـتاذه ، ورأى أنـه يحتـضر ، وحدثتـه روح ذلك الأستاذ حـديثا كـل قوامـه هـذه الـصلة الروحيـة التـي تخاطـب فيهـا الأرواح بعضها بعضا فتشعر إحداها من بعيد بما يقع للأخرى .

ويقص سبط ابن الفارض قصة أخرى تتلخص في أن جده قصد يوما إلى جامع عمرو ، وأنه اتفق مع مكاري على أن يركب هو ومن كـان معـه عـلى الفتوح فقبـل المكـاري . وبيـنما كـانوا في طـريقهم إذا بفخـر الـدين عـثمان الكامل يقابلهم ، ويترجل ، ويصافح ابـن الفـارض ويحـاول تقبيـل يـده فـلا يمكنه من ذلك . ومن ثم ركب عثمان الكامـل وانـصرف ، ومـا هـي إلا فـترة بعد انصرافه حتى جـاء فـارس مـن فرسـانه ، وقـال لمـن كـان بـصحبة ابـن الفارض : قل للشيخ (يعني ابن الفارض) هذه مائة دينار يقبلها من الأمـير عـلى الفتـوح . وعنـدما بلـغ نبـأ ذلـك ابـن الفـارض لم يكـن منـه إلا أن

قال : نحن ركبنا مع المكاري على الفتوح ، وهذه فتوح ، فتوجه وأعطه إياها . ولما عاد الفارس إلى الأمير وأخبره بما حصل ، أرسله هذا بمائة دينار أخرى فكانت من نصيب المكاري أيضا . (ولعلنا لا نكون مسرفين إذا فسرنا هذه الواقعة تفسيرا يبعدها عن مجال الكرامات وخوارق العادات ، ويقربها من الأمور التي يرتب حصولها على المصادفة والاتفاق أكثر مما يرتب على أي شئ آخر ، فكثيرا ما نلاحظ أن المصادفة توافق بين شئ وشئ ، وتوائم بين واقعة وواقعة على وجه يحملنا على الدهشة والاستغراب ، حتى يخيل لنا أن هذه المواءمة أو هذا التوافق ليس عملا من أعمال المصادفة ، وإنما هو على العكس عمل خارق للعادة وفوق الطبيعة . ومعنى هذا أنه ليس ثمة ما يمنع من أن يكون التوافق بين ركوب ابن الفارض مع المكاري على الفتوح وبين مقابلة عثمان الكامل وإرسال هذا المائة الدينار الأولى ثم الثانية ، أمرا عاديا كغيره من الأمور التي عمل المصادفة والاتفاق فيها أفعل من عمل القدرة على التصرف تصرفا مستمدا من قوة فوق الطبيعة خارجة على كل مألوف وخارقة لكل عادة .

على أنه إن أمكن تفسير ما اشتملت عليه هذه القصص تفسيرا يجعلها أدخل في باب المسائل التي تفهم فهما نفسيا أو طبيعيا من شأنه أن ينفي عنها صفة الكرامة ، فإن هناك إلى جانب هذا قصة لا سبيل إلى أن يفهم ما تدل عليه إلا على أنه خارق للعادة ، فقد روى عن ابن الفارض أنه كان في سياحته بأودية مكة يستأنس بالوحش ، وأنه كان يقيم بواد بينه وبين مكة عشرة أيام للراكب المجد ، وكان يأتي كل يوم من هذا الوادي إلى الحرم الشريف حيث يصلي الصلوات الخمس ، وكان يصحبه في ذهابه

وإيابه سبع عظيم ينخ له كما ينخ الجمل ، ويقول له : يا سيدي اركب ، فما ركبه قط ، وقد تحدث بعض كبار المشايخ المجاورين في الحرم في تجهيز دابة يركبها أبن الفارض ، فظهر لهم السبع عند باب الحرم ، وقال له : يا سيدي اركب . وظاهر هنا أن ما تشتمل عليه القصة إنما أن يقبلها العقل في غير ما تردد ، الأمر الذي يترتب عليه أن يعد استئناس السبع ونطقه بعبارة : " يا سيدي اركب " في الوقت الذي يدبر فيه المشايخ دابة لابن الفارض ، كرامة خارقة للعادة لا تخضع لقانون طبيعي ، ولا تفسر تفسيرا علميا كغيرها من الظواهر الأخرى التي سبق ذكرها وتأويلها ذلك التأويل الذي يحطها عن درجة الكرامة ، ويجعلها في عداد ما يمتاز به بعض النفوس حتى ما كان منها بعيدا عن كل حياة صوفية أو نزعة روحية .

وفوق هذا كله فإن هناك قصة أخيرة تظهرنا على أن ابن الفارض انتهى في آخر لحظات حياته إلى رؤية الله ، وهي عند القوم غاية الكرامة : فقد قص برهان الدين الجعبري على ولد ابن الفارض قصة وصف فيها الشاعر وما وقع له عند احتضاره ، وقد كان الجعبري أحد الذين حضروا ذلك الاحتضار من الأولياء . ومن هذه القصة نتبين أن ابن الفارض عندما حضرته الوفاة تمثلت له الجنة أمام عينيه ، ولكنه ما كاد يراها حتى تأوه وصرخ صرخة عظيمة وبكى بكاء شديدا وتغير لونه وقال :

إن كان منزلتي في الحب عندكم	ما قد رأيت فقد ضيعت أيامي
أمنية ظفرت روحي بها زمنا	واليوم أحسبها أضغاث أحلام

وهنا قال له الجعبري : إن هذا مقام عظيم ، فرد عليه ابن الفارض قائلا : " يا إبراهيم ، رابعة العدوية تقول وهي امرأة : وعزتك ما عبدتك خوفا من نارك ولا رغبة في جنتك ، بل كرامة لوجهك الكريم ومحبة فيك ، وليس هذا المقام الذي كنت أطلبه ، وقضيت عمري في السلوك إليه " . قال الجعبري : فسمعت قائلا يقول بين السماء والأرض أسمع صوته ولا أرى شخصه : يا عمر ، فما تروم ؟ فقال :

أروم وقد طال المدى منك نظرة وكم من دماء دون مرماي طلت

قال الجعبري : ثم بعد ذلك تهلل وجهه وتبسم وقضى نحبه فرحا مسرورا ، فعلمت أنه أعطى مرامه .

فإن صح فهم الجعبري لهذا المرام على أنه رؤية الله وظفر ابن الفارض بهذه النظرة التي طالما رامها ، وسفكت في سبيلها الدماء ، فإنه ينبغي على ذلك أن يكون شاعرنا قد تحقق أخيرا بأسمى الكرامات وأرقى خوارق العادات . ومع هذا فإن هناك فريقا من الصوفية قد أجمع على أن الله لا يرى في الدنيا بالأبصار ولا بالقلوب إلا من جهة الإيقان لأنه غاية الكرامة وأفضل النعم ، ولا يجوز أن يكون ذلك إلا في أفضل المكان ، ولو أعطى القوم في الدنيا أفضل النعم ، لم يكن بين الدنيا الفانية والجنة الباقية فرق ، ولما منع الله سبحانه كليمه عليه السلام ذلك في الدنيا ، كان من هو دونه أحرى ، وأخرى أن الدنيا دار فناء ولا يجوز أن يرى الباقي في الدار الفانية . وهذا الإنكار لرؤية الله في الدنيا ، إن صح بالقياس إلى من يدعي هذه

الرؤية من الصوفية وهو ما يزال غارقا في بحر الحياة ، فإنه لا يصح بالقياس إلى حال ابن الفارض كما تصورها القصة المذكورة آنفا : فهو هنا قد ولى من الحياة وتولت عنه الحياة بما فيها من متاع دنيوي مادي ، وأقبل عليه الموت ، وأصبح من العالم العلوي قلب قوسين أو أدنى ، فليس ثمة ما يمنع إذا من أن يكرمه الله برؤيته في هذه اللحظة الأخيرة من حياته التي ستصعد روحه فيها إلى السماء وستنعم في ظل بارئها بكل ألوان النعيم والسعادة والسناء .

١٣- وكما كانت لابن الفارض أذواق ومواجيد ومكاشفات وكرامات هي مظاهر حياته الصوفية في اليقظة ، فقد كانت له كذلك رؤى وأحلام هي مظاهر أخرى لهذه الحياة الصوفية في النوم ، ومما لا شك فيه أن لكثير من الصوفية رؤى وأحلاما لها قيمتها الروحية ودلالتها على مبلغ ما وصلت إليه نفوسهم من تجرد عن العالم المادي وتقرب من العالم العلوي . وقد يتحقق بعض هذه الأحلام تحققا تاما يجعله أدنى ما يكون إلى الكرامات ويجعل صاحبه في عداد الأولياء الذين كشف عنهم الحجاب . وها هي ذي كتب الطبقات قد حفلت بكثير من الأحلام التي من هذا النوع . وقد يكون بعض الأحلام إشباعا لرغبة ، أو تعبيرا عن أمنية ، أو تحقيقا لمطلب . ونريد الآن أن نعرض لأحلام ابن الفارض لنرى من أي نوع هي .

رأى ابن الفارض النبي في المنام فسأله عليه الصلاة والسلام عن نفسبه إلى من ينتهي ، فأجابه الشاعر بأنه ينتسب إلى بني سعد ، ولكن

النبي رد عليه قائلا : لا ، بل أنت مني ونـسبك متـصل بي . وهنـا قـال ابـن الفارض : يا رسول الـلـه ، إني أحفظ نسبي عـن أبي وجـدي إلى بنـي سـعد ، فقان النبي : لا (مادًا بها صوته) ، بل أنت مني ونـسبك متـصل بي ، فقـال ابن الفارض : صدقت يا رسول الـلـه . وقد عبر الـشاعر نفـسه عـن نفـسبته هذه إلى النبي بما يفيد أنها لم تكن نسبة أهلية ، وإنما كانـت نـسبة محبـة ، وهذه أعز وأشرف عند القوم من تلـك ، كـما يـدل عـلى هـذا قولـه في هـذا البيت :

نـــسب أقـــرب في شرع الهـــوى   بيننـــا مـــن نـــسب مـــن أبـــوي

وسأن النبي عليه السلام ابن الفارض مرة أخرى في المنام عـن قـصيدته التائية الكبرى ماذا سـماها ، فأجابـه بأنـه سـماها " لـوائح الحنـان وروائـح الحنان " فقان له النبي : لا ، بل سمها " نظم الـسلوك " . ومـن هنـا كانـت شهرة هذه القصيدة بهذا الاسم .

وروى عن ابن الفارض أنه كـان يقـول إنـه عمـل في النـوم بيتـين هـذا نصهما :

وحيـــــاة أشـــــواقي إليـــــــ   ـــك وحرمـــة الـــصبر الجميـــل

لا أبـــــصرت عينـــــي ســــوا   ك ولا صـــــبوت إلى خليـــــل

فهذه الأحلام إذا نظرنا فيها وجدنا أنها ليست ذات قيمة صوفية كبيرة تضعها في صف الأحلام التي ترفـع إلى درجـة الكرامـات . ولكنهـا مـع ذلـك تصور ما كانـت تنـزع إليـه نفـس الـشاعر مـن النزعـات ، وتعـبر عـما كـان

يسيطر عليها من الأفكار والخطرات : فابن الفارض بحكم حياته الصوفية التي كان يحياها ، وتحت تأثير حبه للذات العلية من ناحية ، وحبه لرسول الله من ناحية أخرى ، كال يمسي ويصبح ، ينام ويستيقظ ، يغيب ويحضر ، وقد استوعبت حياته الشعورية واللاشعورية هذه العاطفة القوية ، وهذه الخطرات الحية التي تدور حول محور واحد هو حب الله ورسوله ، ومحاولة الاتصال بهما والتقرب منهما سواء في حال اليقظة عن طريق الوجد ، أم في حال النوم عن طريق الحلم ، ومن هنا كانت أذواقه ومواجيده صورة لما سيطر على نفسه وأثر في قلبه من عوامل الحب في يقظته ، وكانت رؤاه وأحلامه صورة أخرى لما كمن في نفسه واختفى في قرارة قلبه من المعاني والأماني التي تتصل من قريب أو من بعيد بهذ المحور الذي كانت تدور عليه حياته النفسية كلها ، هذه المعاني والأماني التي كان النوم سبيلا من سبل ظهورها ، وكان الحلم طريقا من طرق التعبير عنها تعبيرا لعله في بعض الأحيان أصدق من تعبير اليقظة : لأل نفس صاحبه ، وقد ركدت حواسها وتجردت عن قالبها ، واتصلت بعالمها العلوي في المنام ، قد أصبحت أصفى وأنقى ما تكون ، وأقدر على الاتصال بالملأ الأعلى حيث تشهد الله وتتقرب منه ، وترى رسوله وتتحدث إليه على الوجه الذي يظهرنا عليه الحلمان الأولان ، وتترجم عن حبها لمحبوبها ، وشوقها إليه ، وصبرها على فراقه على نحو ما يبينه البيتان اللذان يقال إن ابن الفارض نظمهما في حلمه الثالث . ومعنى هذا هو - كما يقول علم النفس الحديث - إن الأحلام ضرب من تصوير ميولنا ، والتعبير عن نزعاتنا وعلاقتنا بالناس والأشياء ، وأنها سبيل لإبراز ما يكمن في النفس من أفكار وخطرات

وعواطف ، ولتحقيق ما تقبل عليه من رغبات ، وإشباع ما تصبو إليه من آمال وحاجات . ولعل من أهم وظائف الأحلام أنها تعمل على تجديد وإحياء الذكريات والصور التي قد تكون عرضة للزوال ، كما هو الشأن في حلم ابن الفارض الذي سأله فيه النبي عن نسبه فأجابه بأنه حفظه عن أبيه وجده إلى بني سعد : فهذه ذكرى من الذكريات حفظها ابن الفارض في نفسه ، ومن يدري فلعلها قد اختفت في زاوية من زوايا هذه النفس ، ولعل صاحبها كال عرضة لأن ينساها ، ولكنه قد استعادها وأحياها من جديد وكان حلمه وسيلة لاستعادتها وإحيائها على الوجه الذي رأينا .

على أن ابن الفارض وإن لم يكن من أصحاب الكرامات التي هي خوارق للعادات ، ولا من أصحاب الأحلام التي تنكشف فيها الحجب عن أمور لها خطرها العظيم وقيمتها الروحية الكبرى ، فإن هناك اتجاها لاحظناه عند صوفي مصري محدث هو حسن رضوان يرى فيه صاحبه أن رؤية النبي في المنام كرامة ، لا بمعنى أنها شئ خارق للعادة ولكن بمعنى أنها شئ يكرم اللـه به من يشاء من عباده ، وهو يستند هنا إلى قول النبي صلى اللـه عليه وسلم : " من رآني فقد رآني حقا فإن الشيطان لا يتمثل بي " . فإن ، صح ما يذهب إليه حسن رضوان فقد صح معه أن يكون حلما ابن الفارض اللذان رأى فيهما النبي فسأله في أحدهما عن نسبه ، وفي الآخر عن تسميته لتائيته الكبرى ، من قبيل الكرامة التي ليست من الخوارق ، بل مما أكرمه اللـه به .

وهكذا نرى أن أخص وأبرز ما تمتاز بـه حيـاة ابـن الفـارض الـصوفية ، رياضات ومجاهدات عمليـة ، وأذواق ومواجيـد روحيـة ، وظـواهر نفـسية شعورية ولا شعورية ، وأن هذا كله كان خليقا بأن يجعل مـن ابـن الفـارض صوفيا له من النفس وجلاء الحس ونقاء السريرة وحـسن الـسيرة مـا يمكنـه من حب الـلـه ، ويمكن هذا الحب من نفسه على الوجه الذي يفنيـه فيـه ، ويشعره بالاتحاد معه كما سنبين هذا في موضعه من فـصول الكتـابين الثـاني والثالث .

الفصل الثالث

آثار ابن الفارض

ديوان ابن الفارض - قيمته - خصائصه - نسخه - شروحه - نظم السلوك وشروحها - الخمرية وشروحها - شعر ابن الفارض في الشرق والغرب

١- لا نكاد نعرف لابن الفارض آثار أدبية أو صوفية غير ديوانه الذي ينظر إليه أصحاب الأدب على أنه ديوان كغيره من دواوين الشعر الغزلي الإنساني ، وينظر إليه أهل الذوق والوجد من الصوفية على أنه مرآة صادقة ينعكس على صفحتها ما فاضت به نفس الشاعر من حب إلهي ، وما انتهى إليه أمرها في سبيل هذا الحب من كشف الحقيقة ، ومطالعة جمال الذات العلية ، وتعرف آثارها في الأكوان .. ولقد جعل هذا الديوان من ابن الفارض سلطانا للعاشقين ، وإماما لجميع المحبين ، فعرفه صاحب "الكواكب الدرية" بأنه "الملقب في جميع الآفاق، لسلطان المحبين والعشاق، المنعوت بين أهل الخلاف والوفاق بأنه سيد شعراء عصره على الإطلاق". ومع أن السواد الأعظم من الذين ترجموا لابن الفارض يعده شاعرا فذًا بين شعراء الحب الإلهي ، ولا يكاد يذكر عنه شيئا أكثر من أنه كان كذلك ، فإن صاحب (الكواكب الدرية) يذهب إلى أن ابن الفارض لم يكن شاعرا فحسب ، وإنما كان ناثرا أيضا ، فقال عنه : " له النظم الذي يستخف أهل الحلوم ، والنثر الذي تغار منه النثرة بل سائر النجوم " . وقد حاولنا

أن نلتمس في آثار ابن الفارض وفي كتب التراجم والفهارس ، ما يؤيد دعـوى صاحب " الكواكب الدرية " ، فلم نجـد إلى هـذا سـبيلا ، فكـل هـذه الآثـار والكتب لا تثبت إلا شيئا واحدا هـو أن ابـن الفـارض كـان شـاعرا ، وشـاعرا فقط . وها هو ذا حاجي خلفيـة في كـشف الظنـون ، وبـروكلمان في تـاريخ الأدب العربي ، وغيرهما من المتقدمين والمتأخرين الذين كتبوا كثيرا أو قلـيلا عن ابن الفارض آثاره ، لا يكاد واحد منهم يذكر عنه أكثر من أنه كان شاعرا له ديوان ، ومن أن لهذا الديوان شروحا عدة .

٢- على أن آثار ابن الفارض ، وإن كانت محصورة في ديوانـه الـذي لا يقاس مـن حيـث الكـم إلى آثـار غـيره مـن شـعراء الفـرس كجـلال الـدين الرومي وفريد الدين العطار وحـافظ الـشيرازي ، فـإن هـذا الـديوان عـلى ضآلته يمكن أن يعد بحق تراثا روحيـا خـصبا خالـدا ، مـن شـأنه أن يهيـئ لـلآداب العربيـة مكانهـا إلى جانـب الآداب الفارسـية ، عنـدما يتـساجل الأديان وتتنازع اللغتان أمر الحب الإلهي ، ومعنى هذا بعبارة أخـرى ، أن ديوان ابن الفارض بما فيـه مـن أناشـيد الحـب الإلهـي ، ومـا يـصوره مـن مراحل السلوك ودرجات المعرفـة ، ومـا يـصفه مـن أذواق وأحـوال ، ومـا يدعو إليه من إقبال على الوحدة ، وانصراف عـن الكـثرة ، إنمـا يعـين عـلى دحض الزعم القائل بأن إدراك الوحدة ، ورد كـل مـا في الكـون مـن صـور متكثرة وظواهر متعددة إلى مبدا واحد ، ليس من خصائص العقـل العـربي أو الشعور العربي في شئ بل هو من أخص ما يمتاز به الجنس الآري . وهـا نحن أولاء قد رأينا في الفصل الأول عندما عرضنا لأصـل ابـن الفـارض ، أن شاعرنا كان عربي الدم والنـشأة والإقامـة والبيئـة ، لا يمـت بـسبب مـا إلى

الآرية ، وهو مع ذلك قد عبر عن إدراك الوحـدة أصـدق تعبـير ، وصـوره في شعره أدق تصوير .

٣- وديوان ابن الفارض تحفة أدبية له خصائصه الفنية ، بقدر مـا هـو تراث روحي له قيمته الفلسفية . ولما كان غرضنا في هذا البحث هو إعطـاء صورة واضحة لشخصية ابن الفارض من حيث هو شاعر صوفي ، لا من حيث إنه شاعر فنان قصد في شعره إلى الجمال الفني ، فقد رأينـا أن نقـف وقفـة قـصيرة عنـد الخـصائص الفنيـة لـشعر هـذا الـشاعر ، إذ أن تحليـل هـذه الخصائص ، وتفصيل القول فيها ، إنما هو بتاريخ الأدب أحـرى منـه بتـاريخ التصوف . ولعل أظهر ما يمتاز به شعر ابن الفارض من الناحيـة الفنيـة هـو الإسراف في الصناعة اللفظية أو الإغراق في المحسنات البديعيـة ، حتـى إننـا أصبحنا عنـد قـراءة بعـض أبياتـه نحـس في وضـوح أننـا إزاء ألفـاظ تكلـف الشاعر وضع بعضها إلى جانب بعض تكلفا مسرفا ، بحيث إن المعنى لم يكن يعنيه بقدر ما كان يعنيه تركيب البيت الواحد من الألفاظ التي يقـع بينهـا الجناس أو الطباق أو المقابلة أو ما شئت من مختلف المحسنات البديعيـة . وحسبنا أن نذكر على سبيل المثال بيتا يبين مبلغ إسراف شـاعرنا في الـصناعة والتعمل ، قال ابن الفارض :

سـهم شـهم القـوم أشـوى وشـوى   سـهم ألحـاظكم أحـشاي شي

وكما كان ابـن الفـارض كلفـا بـالتكلف ، كـان كـذلك كلفـا بالتـصغير فيقول : " أهيل " بدلا من " أهل " ، و " حُبَيبي " بـدلا مـن " حبيبـي " ، إلى غير ذلك من ألوان التفنن في التصغير التي شاعت في كثير مـن قـصائد

ديوانه ، والتي يرى الشاعر أنها تكسب اللفظ عذوبة . كما يدل على هذا قوله :

ما قلت حُبَيبي من التحقير بل يعذب اسم الشخص بالتصغير

على أن كثرة المحسنات البديعية التي فاض بها ديوان ابن الفارض - وإن كانت ممجوجة في بعض المواطن التي يسرف فيها الشاعر - كانت من العوامل التي جعلت لديوانه قيمة تعليمية خاصة عند المبتدئين في نظر الشعر ، وأعانت على ذيوعه بين من يروضون أنفسهم على صناعته ، ويكفي أن نعلم أن هذا الديوان كان إلى عهد قريب يعلم في المدارس ، ويحفظه الصبيان عن ظهر قلب ، وينشدونه على المآذن في الأسحار ، وإن كانوا لا يفهمونه ، إلا أنه كان مع ذلك سبيلا إلى صقل الذوق الشعري ، ومنبعا فياضا بالمؤثرات التي تعمل عملها في نفوس المقبلين على حفظه من ناحية ، وقلوب المنشدين له أو المستعمين إلى إنشاده من ناحية أخرى .

ومهما يكن من أمر هذه المحسنات البديعية وإسراف الشاعر فيها ، فإنه لا ينبغي مع ذلك أن ننكر على شاعرنا ما يمتاز به شعره في كثير من مواطنه من رقة اللفظ ، ودقة المعنى ، وعمق الفكرة ، وبعد الخيال ، وجمال الصورة التي كثيرا ما يصورها الشاعر رائعة بارعة فتانة إلى حد يملك على النفس كل شعور .

وحسبك أن تنظر في الأبيات التالية ، وأن تقف معه عند الصور التي يعرض كلا منها في كل بيت عرضا متتابعا ، لتتبين أن هذه الأبيات ليست

جماعا لطائفة من الألفاظ والمعاني فحسب ، وإنما هي فوق هذا لوحات مستمدة من الطبيعة الجميلة التي رسمتها ريشة مصور فنان بارع ، استطاع أن يقدم لنا في براعة وعذوبة ما فيها من جمال أخاذ وحسن فتان .
قال ابن الفارض :

تراه إن غاب عني كل جارحة	في كل معنى لطيف رائق بهج
في نغمة العود والناي الرخيم إذا	تألفا بين ألحان من الهزج
وفي مسارح غزلان الخمائل في	برد الأصائل والإصباح في البلج
وفي مساقط أنداء الغمام على	بساط نور من الأزهار منتسج
وفي مساحب أذيال النسيم إذا	أهدى إليَ سحيرا أطيب الأرج
وفي التشامي ثغر الكأس مرتشفا	ريق المدامة في مستنزه فرج

ألا ترى إلى هذه الأبيات كيف بلغت من رقة اللفظ ، ودقة المعنى ، وبراعة السبك ، وجمال التصوير ، وتمام الانسجام حدا بعيدا ، حتى إن الأستاذ نيكلسون المستشرق الإنجليزي يرى أن ابن الفارض كان هنا قريبا من الفكرة الأوربية الحديثة عما ينبغي أن يكون عليه الشعر .

تلك هي مكانة ديوان ابن الفارض من الناحية الأدبية أو الفنية الخالصة . أما مكانة هذا الديوان من الناحية الصوفية وما ينطوي عليه بعض شعره ، إن لم يكن كله من المعاني الفلسفية ، فذلك ما سنبينه من خلال فصول الكتابين الثاني والثالث . وحسبنا هنا أن نذكر أن هذا الديوان كان في جملته وتفاصيله ثمرة صالحة لما امتازت به نفس الشاعر من

رقة الشعور ودقة الحس وسمو العاطفة التي سيطرت على نفسه سيطرة قوية لم يكن الشاعر ليستطيع إفلاتا منها أو منصرفا عنها ، فإذا هو يقضي حياته مقبلا على محبوبه ، كلفا به ، مشوقا إليه ، مفنيا نفسه فيه ، حتى ظفر من هذا كله بما قرت به عينه ، واطمأن إليه قلبه ، من اتصال بالذات العلية وكشف للحقيقة المطلقة التي هي عنده كل شئ في هذا الوجود ، وإليها يُرد كل موجود . ومن هنا كان ديوان شاعرنا أنشودة جميلة من أناشيد الحب ، وهتافا صادقا رددته نفس الشاعر في رياض القلب . وها هو ذا ابن أبي حجلة - وكان من قبل سيئ الاعتقاد في شاعرنا - يصف لنا الديوان فيقول : " هو من أرق الدواوين شعرا ، وأنفسها درا ، برا وبحرا ، وأسرعها للقلوب جرحا ، وأكثرها على الطلول نوحا ، إذ هو صادر عن نفثة مصدور ، وعاشق مهجور ، وقلب بحر النوى مكسور ، والناس يلهجون بقوافيه ، وما أودع من القوى فيه ، وكثر حتى قل من لا رأى ديوانه ، أو طنت بأذنه قصائده الطنانة " . وهذا الوصف يظهرنا من غير شك على هذه الخصائص الفنية والعاطفية التي اختص بها شعر ابن الفارض ، والتي تتصل اتصالا وثيقا بخصائصه الصوفية ، لاسيما إذا سلمنا بأن الحب الذي يتغناه الشاعر في هذا الديوان ليس حبا إنسانيا ، بل هو حب إلهي بكل ما يدل عليه وينتهي إليه الحب الإلهي من فناء العبد في الرب ، وسيطرة المحبوب على المحب .

ونحن إذا حللنا شخصية ابن الفارض من حيث هو شاعر صوفي ، وجدنا أن هذه الشخصية تتألف من عناصر بعضها يرجع إلى الطبع ، وبعضها الآخر مستمد من الوراثة والنشأة والبيئة والثقافة : فهو شاعر

مطبوع بغض النظر عما يسيطر عليه في بعض الأحيان من تكلف الصناعة اللفظية ، والإسراف في المحسنات البديعية . ومع ذلك فإن هذه المحسنات كثيرا ما تضفي على شعره ثوبا من الجمال ، وتكسبه عذوبة ورقة ، وتجعل بين ألفاظه شيئا هو أشبه ما يكون بتآلف النغمات الموسيقية واتساقها . وهو بحكم أصله العربي من ناحية ، وبحكم الأعوام التي قضاها بأودية مكة من ناحية أخرى ، قد ألبس شعره هذا الثوب العربي البدوي الذي يجعلنا ونحن نقرأ بعض قصائده نحس أننا إزاء شعر نظم في عصور الإسلام الأولى لا في عصر متأخر كالعصر الذي عاش فيه شاعرنا . ويكفي أن نشير هنا إلى قصيدته اليائية التي مطلعها :

سائق الأظعان يطوي البيد طيَ — منعما عرج على كثبان طي

وإلى قصيدته الهمزية التي مطلعها :

أرج النسيم سري من الزوراء — سحرا فأحيا ميت الأحياء

لندل بهما على هذا الطابع البدوي الحجازي بنوع خاص الذي طُبع به بعض شعره وهو بحكم موطنه المصري ، ونشأته في ربوع مصر ، وكلفه بالتردد على النيل ومشاهدة منظره في المساء ، وما يستتبع ذلك من صور طبيعية خلابة ، قد تغذت نفسه بما يصقل الذوق ، ويرقق الطبع ، ويقوي القريحة الشعرية . ثم هو بعد هذا كله شاعر صوفي إسلامي نلمس من ثنايا شعره ، لاسيما قصيدته التائية الكبرى ، أنه تثقف على القرآن الكريم والحديث الشريف وعلى ما انتهى إليه من كتب الصوفية وأقوالهم

ومصطلحاتهم ومذاهبهم مما سنكشف عنه وعن غيره من العوامل التي أعانته على تكوين مذهبه في الحب وذلك في الكتاب الثالث من بحثنا هذا

٤- لديوان ابن الفارض نسخ كثيرة ، منها ما هو مخطوط ، ومنها ما هو مطبوع ، وبعضها نصوص لما نظمه الشاعر من قصائد لا شرح لها ولا تعليق عليها ، وبعضها الآخر نصوص شعرية مشفوعة بشروح لغوية خالصة حينا ، أو صوفية بحتة حينا آخر ، أو مزاج من الشرحين اللغوي والصوفي حينا ثالثا . وهذه النسخ ، على كثرتها وتعد نساخها وشراحها ، يرجع كلها أو جلها ، على أقل تقدير ، إلى مصدر واحد هو هذه النسخة التي جمع فيها سبط الشاعر قصائد جده ، وقدم لها بهذه الديباجة التي تحدثنا عنها في تمهيد هذا الكتاب : فقد حدثنا سبط ابن الفارض بأنه قد نظر في نسخ من ديوان جده ، فإذا هو قد رأى أن النساخ لجهلهم ببعض كلامه ، واشتباههم فيما فيه من الجناس قد صحفوه فأخرجوه بذلك عن أصله . ومن ثم عمد هو إلى تحرير نسخة اعتمد في تصحيحها وضبطها على نسخة أخرى خالية من التصحيف والتحريف كانت عنده من أثر جده . وكان تلقاها من ولده المسمى كمال الدين محمد ، وقرأها عليه قراءة تصحيح وحفظ ، وكان ولد الشاعر قد قرأها على أبيه من قبل .

وسبط ابن الفارض في جمعه قصائد جده ، لم يفته سوى قصيدة واحدة لم يرها في نسخة من ديوانه ، لأنه نظمها بالحجاز ، وهو أملى الديوان بالقاهرة عند مقامه بها بعد التجريد . ولم يكن ولده يذكر منها سوى مطلعها وهو :

أبرق بدا من جانب الغـور لا مـع أم ارتفعت عن وجه سلمى البراقـع

ولكنه ظل يتطلبها زمانـا طـويلا بعـد وفـاة أبيـه دون أن يظفـر بهـا ، فعهد إلى سبطه أن يلتمسها ، فإذا هو يجد في ذلك زمانا طويلا آخـر ، حتـى وفـق إليهـا أخـيرا ، وكـان ذلـك في يـوم الخمـيس ١٥ رجـب سـنة ٧٣٣ هـ . وللعثور على هذه القصيدة قصة طريفة يرويها مفصلة سبط ابن الفـارض ، حسبنا منها القدر الذي أشرنـا إليـه ، ومـن أراد الوقـوف عليهـا فليرجـع إلى شرح الديوان في أية طبعة من الطبعات التي جمعت بين شرحـي البـوريني والنابلسي . وإذا كان ذلك كذلك ، فقد تبين إذن أن عليًا سـبط الـشاعر هـو أول من جمع ونظم ديوان ابن الفارض ، وتبـين أيـضا أن النـسخ المخطوطـة والمطبوعة التي ظهرت على مر العصور ، إنما يرد أصلها - كثيرا أو قلـيلا - إلى النسخة التي حررها هذا السبط على نحو ما سبقت الإشارة إليه آنفا .

ولما كان غرضنا في هذا البحث هو أن نـدرس مـذهب ابـن الفـارض في الحب الذي تغناه وهتف به في كل قصيدة من قصائد ديوانه ، فقد آثرنا أن نقف هنا عند القدر الذي قدمنا من بيـان قيمـة الـديوان وخصائـصه ، وأن نلم فيما يلي بنسخه الخطية والمطبوعة ، تاركين دراسته دراسة علمية لبحث آخر تخصصه له ، ونشفعه بطبعة محققة جامعة لكل ما صدر عـن الـشاعر الصوفي من آثار ، ونرجو أن نوفق إلى هذا كلـه في القريـب العاجـل إن شـاء الـلـه .

أما النسخ الخطية التي وفقنا إليها ووقفنا عليها فهي :

١- نسخة تمت كتابتها في يوم الأحد ٢٠ من رمضان سنة ٨٠٤

٢- نسخة تمت كتابتها في ١٣ من ذي الحجة سنة ٩٠٨ هـ .

٣- نسخة تمت كتابتها في سنة ٩٦٧ هـ .

٤- نسخة تمت كتابتها في يوم الأربعاء ١٨ من محرم سنة ٩٢٢ .

٥- نسخة تمت كتابتها في يوم السبت ٩ من ربيع الثاني سنة ٩٩٨هـ .

٦- نسخة تمت كتابتها في يوم الاثنين ٢١ من شوال سنة ١٠٩٧هـ.

٧- نسخة تمت كتابتها في يوم الخميس ٨ من جمادي الأولى سنة ١٢٦٦

٨- نسخة تمت كتابتها في سنة ١٢٧٣ هـ .

وتوجد هذه النسخ كلها ، وكثير غيرها مما لم نذكر ، بدار الكتب المصرية .

وأما النسخ المطبوعة فكثيرة جدا ، فيها ما أتقن طبعه ، ودق تصحيحه ، وفيها ما لم يعن به العناية الكافية فكثر فيه التصحيف والتحريف . وحسبنا هنا أن نذكر منها الطبعات التالية :

١- نسخة طبعة طبع حجر بمصر سنة ١٢٧٥ هـ .

٢- نسخة طبعت طبع حجر بمصر سنة ١٣٠١ هـ .

٣- نسخة طبعت طبعا عاديا بالمطبعة الأدبية ببيروت سنة ١٨٨٧ م ، وأعيد طبعها في سنة ١٩٠٢ م .

٤- نسخة طبعت طبعا عاديا بالمطبعة الحسينية بمصر في أوائل صفر سنة ١٣٥٢ هـ .

ومن يوازن بين هذه النسخ المخطوطة والمطبوعة يلاحظ أنها تكاد تتفق في جملتها ، وذلك من حيث عدد القصائد ، وعدد أبيات كل قصيدة، ولا تختلف إلا في مواطن محدودة تزيد فيها أبيات القصيدة الواحدة أو تنقص في النسخة الواحدة أو الطبعة الواحدة عما هي عليه في النسخ الأخرى والطبعات الأخرى ، وفي شئ آخر هو أن ما يوجد مصحفا أو محرفا هنا قد يوجد مصححا مستقيما هناك ، وفي شئ ثالث يتصل بالقصيدة التي مطلعها :

غيري على السلوان قادر وسواي في العشاق غادر

والتي يثبتها بعض النساخ والناشرين في ديوان ابن الفارض ، ويثبتها بعضهم الآخر في ديوان البهاء زهير . ومهما يكن من أمر هذا كله ، فتلك أمور نرجي تحقيقها إلى البحث الخاص الذي سنفرده لدراسة ديوان الشاعر الصوفي .

٥- وكما ظفر ديوان ابن الفارض بعناية النساخ والناشرين ، فقد ظفر أيضا بحظ موفور من عناية الشراح والمفسرين ، وذلك على وجه لعله

لم يتهيأ لـديوان شـاعر صـوفي غـيره : فقـد عنـي فريـق مـن هـؤلاء الـشراح بالديوان كله ، وعني فريق آخر بقصيدة واحدة أفرد لهـا شرحـا خاصـا عـلى نحو ما فعل " بالتائية الكبرى " و " الخمرية " ، ولكي يتبين لنـا مبلـغ هـذه العناية الفائقة بشرح ديوان شاعرنا ، أو بشرح إحدى قـصائده ، يحـسن أن نقف هنا وقفة نلم فيها بأهم هذه الشروح :

فأما شروح الديوان فبعضها قد أخرجته المطبعة ، في حين أن أكثرها مـا يزال مخطوطا إلى الآن . وها نحن أولاء نذكر فيما يلي أهم المخطوط منها :

١- شرح بدر الـدين حـسن البـوريني (٩٦٣ - ١٠٢٤) : وهـو يقـع في مجلدين . فرع ناسخه من كتابته ضحوة يـوم الأحـد غـرة ربيـع الأول سـنة ١١٠٢ هـ ويمتاز هذا الشرح بأنه لغوي أدبي . عمـد فيـه الـشارح إلى الإبانـة عن ظاهر المعاني . ومنه نسخة أخـرى فـرغ مـن كتابتهـا في ٩ شـعبان سـنة ١٢٤١ هـ.

٢- شرح عبدالغني النابلـسي النقـشبندي القـادري (١٠٥٠ - ١١٤٣هـ)، ويسمى " كشف السر الغامض مـن شرح ديـوان ابـن الفـارض " ، ويقـع في مجلدين كبيرين تمـت كتـابتهما في سـنة ١٢٧١ هـ . وقـد سـلك فيـه صـاحبه مسلك أهل الباطن ، فلم يأخـذ ألفـاظ الـشاعر عـلى ظاهرهـا ، بـل تجـاوز الظاهر إلى ما وراءه من الباطن ، ولعله أوغل في هذا إيغالا كبيرا انتهـى بـه في أكثر الأحيان إلى كثير مـن المبالغـة في التأويـل ، لاسـيما في المواضـع التـي حاول فيها أن يرد مذهب ابن الفارض إلى أصوله في مذهب ابن عربي ، عـلى وجه يجعل من الأول تلميذا للثاني ، وتوجد نسخ من هذين الـشرحين بـدار الكتب المصرية .

وأما المطبوع من هذه الشروح فيكفي أن نذكر منه :

١- شرح ديوان ابن الفارض الذي جمع فيه رشيد بن غالب الدحداح اللبناني بين شرح البوريني اللغوي وبين مقتطفات من شرح النابلسي الصوفي : فهو قد أخذ شرح البوريني برمته ، وأضاف إلى آخر شرح كل بيت نبذة من شرح النابلسي ، خلا بعض أبيات اقتصر فيها على شرح البوريني لمطابقة الشرحين . وكل ما نقله عن شرح النابلسي وضع قبله (ن) وبعده (اهـ) وقد نقل الدحداح في أول طبعته هذه ديباجة الديوان ، وفي آخرها التذييل على العينية والميمية ، وكل أولئك من وضع على سبط ابن الفارض . طبع هذا الشرح بمطبعة أرنود وشركاه في سوق كانبيير بمرسيليا سنة ١٨٥٣ م . ولهذا الشرح الجامع طبعات أخرى كثيرة : فواحدة طبعت بمطبعة بولاق في سنة ١٢٨٩ هـ ، وأخرى طبعت بالمطبعة الشرفية في سنة ١٣٠٦ هـ ، وثالثة على هامشها شرح التائية الكبرى المسمى " كشف الوجوه الغرلمعاني نظم الدر " لعبد الرازق القاشاني طبعت بالمطبعة الخيرية بمصر سنة ١٣١٠ هـ ، ورابعة كهذه طبعت بالمطبعة الأزهرية بمصر سنة ١٣٢٩ هـ .

٢- شرح لأمين الخوري يسمى : "جلاء الغامض في شرح ديوان ابن الفارض"، وهو شرح لغوي تناول فيه إعراب الألفاظ أولا ثم شرح المعاني ثانيا . طبع للمرة الثالثة بالمطبعة الأدبية ببيروت في سنة ١٨٩٤ م.

ويلاحظ المتأمل في هذه الشروح ، على كثرتها ، واختلاف مناحيها ، أن أوفاها وأخصبها من الناحية الصوفية هو شرح النابلسي من غير شك . ولكن هذا الشرح ، على قيمته من هذه الناحية ، وأثره في الكشف عن كثير من معاني شعر ابن الفارض ، يؤخذ عليه أن صاحبه قد ذهب فيه

مذهبا هو أدنى ما يكون إلى بسط مذهب ابن عربي في وحدة الوجود منه إلى مذهب ابن الفارض في الحب ، وما انتهى إليه هذا الحب من فناء المحب عن ذاته ، وشعوره باتحاده مع محبوبه ، على نحو ما سنبين هذا مفصلا في الفصل الثاني من الكتاب الثاني ، وفي الفصل الثاني من الكتاب الثالث ، وحسبنا أن ندلل هنا على ما يذهب إليه النابلسي في شرحه ، وما يصطنعه في هذا الشرح من تعسيف واستبداد بألفاظ ابن الفارض فيحملها من معاني وحدة الوجود ما تحمل وما لا تحتمل ، حسبنا أن ندلل على هذا كله بذكر شرح النابلسي لمطلع قصيدة ابن الفارض الياثية وهو قوله :

سائق الأظعان يطوي البيد طيَ   منعما عرج على كثبال طيَ

فاسمع إلى النابلسي حيث يشرح هذا البيت فيقول: "... وكثبان طي كناية عن المقامات المحمدية التي عددها كرمال الكثيب ، فكأنه يلتمس منه تعالى أن يوصله لما يوصل جميع المؤمنين إليها ، فكأنه يلتمس الوصول إلى مقامات أستاذه الذي أخذ عنه وهو الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي الحاتمي الطائي الذي هو من ذرية حاتم طي " ، لترى إلى أي حد يستغل النابلسي ذكر ابن الفارض كثبان طي ، فإذا هو يؤولها هذا التأويل ، ويحملها من المعنى هذا التحميل ، بحيث يجعل من ابن الفارض تلميذا لابن عربي . ولا يقف النابلسي عند هذا الحد ، وإنما هو يتجاوزه إلى شئ آخر أقل ما يوصف به أنه يثير العجب والدهشة فضلا عن أنه يثير الضحك والسخرية ، وذلك أنه قد عمد إلى ما يوجد في آخر الديوان من الألغاز التي لا ندري مبلغ صحة نسبتها إلى شاعرنا ، فإذا هو قد فسرها تفسيرا

صوفيا ، وخرج منها كثيرا من المعاني الباطنية والفلسفية التـي لا طاقـة لهـا بها، ولا قدرة لها عليها - ومهما يكن من أمر هذا كله ، فليس مـن الحـق في شئ أن ننكر على النابلسي مالشرحه من القيمة الكـبرى والخطـر العظـيم في كشف الغامض من أكثر معاني شعر ابن الفارض ، غير أنه ينبغي علينا ونحن نقرأ هذا الشرح أن نقف منه موقـف الحيطـة والحـذر ، فـلا نقبـل كـل مـا يقوله الشارح قبولا مطلقا دون أن يكون هناك ما يكفي لذلك مـن ملاءمـة بين الألفاظ والعبارات التي تؤلف شعر ابن الفارض وبين المعاني والإشـارات التي يستخلصها النابلسي منها .

٦- على أن ديوان ابن الفارض ، وإن كان في جملتـه وتفـصيله ، تعبـيرا عن الحب الذي استوعب حياة الشاعر الروحية كلها . وتصويرا لما عاناه من الأحوال المواجيد في سبيل هذا الحب ، وترديـدا يكـاد يكـون واحـدا لنغمـة واحدة في كل قصائده ، فإن من بين هذه القصائد قصيدتين لهما قيمة كبرى وشأن عظيم من الناحيتين الصوفية والفلـسفية : هاتـان القـصيدتان هـما " التائية الكبري " التي مطلعها :

سقتني حميا الحب راحة مقلتـي وكـأسي محيـا عـن الحـسن جلَـت

" والميمية " التي مطلعها :

شربنـا عـلى ذكـر الحبيـب مدامـة سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرم

وإذا كان صحيحا أن قارئ شعر ابن الفـارض لا يـستطيع أن يقطـع في هـذا الـشعر بـرأي ، ولا أن يتبـين في وضـوح وجـلاء هـل نظمـه الـشاعر

تغزلا في معشوقة آدمية ، أو تغنيا بحب الذات العلية ، فليس صحيحا بحال ما أن من يقرأ التائية الكبرى والميمية لا يتردد في حكمه عليهما بأنهما صوفيتان بكل معاني الكلمة : وليس أدل على ذلك ، ولا أبعث على الاطمئنان إلى هذا الحكم ، مما اشتملت عليه القصيدتان من رموز وتلويحات ، وإشارات ومصطلحات : فكل أولئك ينطق بأن الشاعر لم ينظمهما على نحو ما ينظم الشعراء الغزلون والخمريون العاديون شعرهم في التغني بحب هذه أو تلك من النساء ، وفي وصف الخمرة المادية المستخرجة من عصير الكرم : وها هي ذي التائية الكبرى تظهرنا في وضوح على أنها ليست إلا ترجمة لحياة الشاعر الروحية كتبها عن نفسه بنفسه ، وقص فيها ما تعاقب عليه من أطوار الحب ، وما عاناه من ألوان الرياضيات والمجاهدات ، وما خضع له من ضروب المحن والآلام في كل طور من هذه الأطوار ، والميمية تكشف لمن يتأملها ويتدبر رموزها وكتاباتها أن صاحبها إنما يرمز بالمدامة للمحبة الإلهية التي هي أصل الخلق ومصدر الوجود . ومن هنا كانت عنايتنا بهاتين القصيدتين أخص وأشمل ، وكان اعتمادنا عليهما في دراسة المذهب الصوفي للشاعر أتم وأكمل . ومن هنا أيضا لم يكن المتقدمون من الشراح مسرفين أو غالين حين خصوا كلا من التائية الكبرى والميمية بشروح خاصة . ولعل فيما يذكره عبدالرازق القاشاني عن محتويات التائية الكبرى ، ما نتبين من خلاله القيمة النفسية والصوفية والفلسفية لهذه القصيدة ، فاسمع إليه حيث يقول في مقدمة شرحه الموسوم " كشف الوجوه الغر ، لمعاني نظم الدر" : ".. فلما تصفحتها (التائية الكبرى) مرارا ، وقلبتها أطوارا ، واحتظيت بمعانيها على قدر ما قدر لي

من الاستعداد، واجتليت مبانيها على ما وفق لي من النظر بـالفؤاد، وجـدتها مبنية على قواعد العلم والعرفان، منبئة عن نتائج الكشف والوجدان مشيرة إلى ما أطلع الـلـه ناظمها عليه، ووصـل قدمـه إليـه، مـن حقـائق التوحيـد، ودقائق التفريد، والمواجيـد الـصحيحة، والمكاشـفات الـصريحة، والمعـاملات النفسية، والمنازلات القلبية، والمواصلات الروحية..". فإذا أضفنا إلى هـذا مـا سبق ذكره في الفصل السابق من أن ابن الفارض لم ينظم هـذه القـصيدة في حال عادية كالتي ينظم فيها الشعراء شعرهم ، بل كان ينظم أجزاءها عقب إفاقته من حال الغيبة التي كانت تحصل له وتـستولى عليـه أيامـا قـد تبلـغ الأسبوع وقد تزيد حينا ، وتـنقص حينـا آخـر ، انتهينـا إلى أنـه لا سـبيل إلى الشك في أن التائية الكبرى قصيدة صوفية حقا ، وأن الحب الذي يهتـف بـه الشاعر فيها ليس حبا إنسانيا وأن الخمر التي يصفها هنا ليست إلا رمـزا أو كناية عن الحب الإلهي .

على أن للتائية الكبرى تـسمية أخـرى عرفـت بهـا وصـارت علـما يـدل عليها ، ويلائم طبيعتها الصوفية ، وهو " نظم الـسلوك " . ولهـذه التـسمية قصة يرويها سبط ابن الفارض ، ويذكر فيها أن أول ما سميت بـه القـصيدة من الأسماء هو " أنفاس الجنان ونفائس الجنان " ثـم سـميت بعـد ذلـك " لوائح الجنان وروائح الجنـان " ، وأخـيرا رأى ابـن الفـارض النبـي في المنـام ، فأمره عليه الـسلام أن يـسميها " نظـم الـسلوك " ، ومـن هنـا كانـت هـذه التسمية الأخيرة التي اشتهرت بها القصيدة ، وجاءت موافقة كل الموافقة لما تصفه من أطوار الحب ، وما تشتمل عليه من مقامات السلوك وأحواله.

وإذا كانت هذه القصيدة ثمرة من ثمـرات الغيبـة التـي تعاقبـت عـلى نفس ناظمها ، فطبيعي أن يكون لهذه الغيبة أثرها فيما امتاز بـه كثـير مـن أبياتها من الغموض والإبهام ، وفيما فاضت به مـن رمـوز وإشـارات ، الأمـر الـذي ترتـب عليـه أن عنـي الـشراح بهـذه القـصيدة عنايـة خاصـة فائقـة ، فحاولوا شرح معانيها ، والإبانة عـن خوافيهـا ، وتلمـس الحقيقـة فـيما وراء الألفاظ . وليس أدل على هذا الغموض والإبهام ، وعلى ما شاع في القـصيدة من رمز وإلغاز ، من هذه القصة التي يرويها سبط ابـن الفـارض فيـذكر أن شيخا من معاصري جـده جـاء إلى هـذا الأخـير واسـتأذنه في أن يـضع شرحـا لقصيدته هذه ، فـسأله الـشاعر : " في كـم مجلـد يقـع شرحـك ؟ " فأجابـه الشيخ بقوله : " في مجلدين " ، وهنا ابتسم ابن الفارض وقال : " لـو شـئت لشرحت كل بيت في مجلدين " . ومهما يكن مـما في هـذه القـصة لم يقـصد بها إلى ما يدل عليه ظاهرها ، وإنما قـصد بهـا إلى شـئ آخـر هـو أحـرج مـا يكون إلى الشرح والتأويل .

وإذا كان ابن الفارض نفسه لم يقم بهذا الشرح والتأويل ، فقد هيـأت الأيام ظروفا مواتية ظفرت فيها التائية الكبرى بكثـير مـن الـشروح الخـصبة والتأويلات الفياضة التي أعانت من غير شك على كشف كثـير مـن أسرارهـا، لاسيما أن الذين قاموا بهذه الشروح والتأويلات كان سـوادهم الأعظـم مـن الصوفية الذين ذاقوا ذوق الـشاعر ، وشربـوا مـن كأسـه وخـضعوا لمثـل مـا خـضع مـن أحـوال الوجـد . وألـوان المجاهـدات ، فكـانوا لهـذا كلـه أقـدر من غيرهم عـلى تـذوق المعـاني الـصوفية ، وكـشف النقـاب عـن الإشـارات الباطنية . ومع ذلك فإن بعضهم لم يسلم من الجموح والـشطط ، ومـسايرة

الهوى ، والذهاب في تأويل كثير من الألفاظ تأويلا هو أبعد ما يكون عن المعاني التي تنطوي عليها ، والمقاصد التي ترمي إليها ، على نحو ما سبقت الإشارة إليه عند الكلام على شرح النابلسي .

ومهما يكن من شئ فإن إلمامة بما وضع من شروح على قصيدة ابن الفارض الكبرى تكفي لإظهارنا على القيمة الصوفية للقصيدة من ناحية ، وعلى مبلغ عناية الشراح بها من ناحية أخرى ومن هذه الشروح ما يزال مخطوطا إلى الآن ، وما تهيأ لها من حظ الإذاعة عن طريق الطبع والنشر : أما المخطوط منها فتلم به فيما يلي :

١- شرح داود بن محمود القيصري المتوفي سنة ٧٥١ هـ ، وهو شرح صوفي ، أبان فيه الشارح عما في القصيدة من المعارف الإلهية ، والمواجيد الربانية .

٢- شرح مختصر لا يعرف واضعه ، ويغلب على الظن أنه مختصر لشرح عبدالرازق القاشاني المسمى " كشف الوجوه الغر " ، والذي سنذكره فيما سنذكر بعد من الشروح المطبوعة .

٣- شرح محمد أمين الشهير بأمير بادشاه ، بيَن فيه معاني الألفاظ اللغوية ، والاصطلاحات الصوفية ، تمت كتابته في ١١ شعبان سنة ١٠٣٤هـ.

وتوجد هذه الشروح بدار الكتب المصرية .

٤- شرح الشمس البساطي المالكي ، والجلال القزويني الشافعي . وقد ذكرهما صاحب الشذرات مع السراج الهندي المذكور آنفا، حيث قال

عن ثلاثتهم في معرض الكلام عن شرح التائية الكبرى : "وقد اعتنى بشرحها جماعة من الأعيان كالسراج الهندي الحنفي ، والشمس البساطي المالكي ، والجلال القزويني الشافعي ، غير متعاقبين ولا مبالغين بقول المنكرين الحساد ، شعره ينعت بالاتحاد " .

٦- شرح ابن حجر العسقلاني المتوفي سنة ٨٥٢ هـ لبعض أبيات من التائية يقال إنه قدمه إلى الشيخ مدين ليكتب له عليه إجازة ، فكتب له على ظاهره : " ما أحسن ما قال بعضهم :

سارت مشرقة وسرت مغربا　　　شتان بين مشرق ومغرب "

فتنبه ابن حجر إلى أن هناك شيئا كان قد غاب عنه . وهذا من شأنه أن يحملنا على اعتقاد أن ابن حجر كان قد شرح ما شرح من أبيات التائية على وجه مخالف لما يعنيه القوم ، لاسيما أن ابن حجر كان من ألد خصوم ابن الفارض الذين أرجفوا به ، وشنعوا عليه في أول الأمر ، ولكنه عدل عن ذلك ، وأذعن لأهل الطريق ، وصحب مدين إلى أن مات .

٧- شرح الشيخ على بن عطية الحموي الشهير بعلوان الهيي والمتوفي سنة ٩٢٢ هـ سماه " مدد الفائض والكشف العارض ".

٨- شرح زين العابدين محمد بن عبدالرؤوف المناوي المصري المتوفي سنة ١٠٢٢ هـ .

٩- شرح صدر الدين على الأصفهاني المتوفي سنة ٨٣٦ هـ .

١٠- شرح الشيخ إسماعيل الأنقروي الملولوي المتوفي سنة ١٠٤٢ هـ . وهو تركي ألفه سنة ١٠٢٥ هـ . حين كان قاضيا بمصر .

وأما الشروح المطبوعة فهي :

١- شرح سعيد الدين الكاساني الفرغاني المتوفي سنة ٦٦٩ هـ . وهو تلميذ من تلاميذ صدر الدين محمد بن إسحاق القونوي المتوفي سنة ٦٧٢ هـ ، وأحد القائلين بالوحدة . ويسمى هذا الشرح " منتهى المدارك " ، ويقع في مجلدين مطبوعين بإستامبول سنة ١٢٩٣ هـ . وهو شرح لغوي صوفي قدم له واضعه بمقدمة في مقامات السلوك وصدور الوجود .

٢- شرح عبدالرازق بن أبي الغنائم بن أحمد القاشاني المتوفي سنة ٧٣٠ هـ . ويسمى هذا الشرح " كشف الوجوه الغر لمعاني نظم الدر " ، طبع على هامش نسخ شرح الديوان المطبوعة بمصر سنة ١٣١٠ هـ وسنة ١٣٢٩ هـ . ومثل هذا الشرح كمثل شرح الفرغاني في أنه لغوي وصوفي معا ، وفي أن له مقدمة تشتمل على قسمين ، الأول منهما في المعارف ، وهو خمسة فصول ، والثاني في المواجيد وهو خمسة فصول أخرى ، ناهيك بأنه يشترك مع شرح الفرغاني بغلبة مذهب ابن عربي في وحدة الوجود عليه، شأنهما في ذلك كشأن شرح النابلسي . وليس غريبا أن يذهب الفرغاني والقاشاني هذا المذهب في شرح تائية ابن الفارض الكبرى على حساب وحدة الوجود التي هي لب مذهب ابن عربي : فقد حكى عن صدر الدين محمد بن إسحاق القونوي وهو تلميذ ابن عربي ، أنه عرض لهذا الأخير في شرح التائية ، فقال ابن عربي للصدر : " لهذه العروس بعل من أولادك ، فشرحها الفرغاني وعفيف الدين سليمان بن علي التلمساني " ، كما كان القاشاني والنابلسي تلميذين من تلاميذ مدرسته . غير

أن الأستاذ نلينو يرى أن القاشاني أكثر أمانة في شرحه من النابلسي : وذلك لأن القاشان توفي بعد ابن الفارض بقرن من الزمان ، في حين أن النابلسي توفي بعده بأكثر من خمسة قرون . ولعلنا إذا أردنا أن نلتمس تفسيرا لتأثر هؤلاء الشراح مذهب ابن عربي في وحدة الوجود ، ومحاولتهم الملاءمة بين هذا المذهب وبين مذهب ابن الفارض في تائيته الكبرى ، وجدنا أن لهذا كله أصله في القصة التي يروي فيها أن ابن عربي أرسل إلى ابن الفارض يستأذنه في وضع شرح لتائيته الكبرى ، فأجابه الشاعر بقوله : " كتابك الفتوحات المكية شرح لها " : فأكبر الظن أن شراح التائية الذين ذهبوا في شروحهم إلى أن ابن الفارض تلميذ لابن عربي ، كانوا متأثرين بهذه القصة، مستغلين لها . مسرفين في ذلك إلى حد بعيد . ونحن إن سلمنا جدلا بصحة هذه القصة من الناحية التاريخية . لا نستطيع مع ذلك أن نطمئن إلى ما تدل عليه من الناحية المذهبية ، وهو أن تكون التائية الكبرى صورة أخرى للفتوحات المكية . فابن الفارض في تائيته شاعر من أصحاب الأذواق والمواجيد ، خضعت نفسه لأحوال نفسية ، وتقلبت في أطوار متعاقبة للحب الذي انتهى به إلى فنائه عن نفسه ، وعن شهوده ما سوى الذات الإلهية ، فإذا هو يشعر باتحاده مع الذات الإلهية شعورا لا يدوم إلا بقدر ما تدوم حال الاتحاد ، وابن عربي إن كان من أصحاب الأذواق والأحوال ، فإن الغالب عليه هو الروح الفلسفي التيوزوفي ، والموجه لمذهبه في وحدة الوجود هو الفكر النظري الذي يعتمد على الاستدلال في أكثر الأحيان ، وليس معنى هذا أننا ننكر كل صلة أو تشابه بين تائية ابن الفارض وبين فتوحات ابن عربي : فليس من شك في أن كثيرا من المصطلحات الصوفية ، والأنظار الفلسفية التي تتردد في التائية يمكن أن يلتمس له مقابل في الفتوحات ، الأمر الذي يترتب عليه أن ما يذكره ابن الفارض من هذه الأنظار والمصطلحات مجملا مشارا إليه في تائيته ، يمكن أن نجده عند أبي عربي مفصلا

معبرا عنه تعبيرا فياضا في فتوحاته . ومع ذلك فلا ينبغي أن نسرف فنعد الفتوحات شرحا للتائية فيما يتعلق بكل المصطلحات : إذ أن من هذه المصطلحات ما يستعمله ابن الفارض بمعنى مختلف عن المعنى الذي يستعمله فيه ابن عربي ، على نحو ما سنبينه مفصلا في موضعه من الكتاب الثالث من هذا البحث .

وليس ما ذكرنا هو كل السبب الذي من أجله تأثر الفرغاني مذهب ابن عربي في وحدة الوجود ، وشرح في ضوئه تائية ابن الفارض الكبرى ، بل إن هناك شيئا آخر وهو ما يحكى من أن صدر الدين القونوي الذي عرفنا أنه تلميذ لابن عربي وأستاذ للفرغاني ، كان يحضر في مجلسه جماعة من العلماء وطلبة العلم ، ويتكلم في فنون من العلوم ، ويختم كلامه بذكر بيت من القصيدة (نظم السلوك) ، ويتكلم عليه بالفارسية كلاما غريبا لدنيا لا يفهمه إلا صاحب ذوق وشوق ، وما يقال أيضا من أن ابن عربي وضع على التائية خمس كراسات كانت بيد صدر الدين الذي كان في آخر درسه يختم ببيت منها ، ويذكر عليه كلام ابن عربي ، ثم يتلوه بما هو رده بالفارسية ، وانتدب لجمع ذلك سعيد الدين الفرغاني . وهنا نتبين أن لشرح الفرغاني أصلا يمت بسبب قوى إلى ابن عربي ومذهبه في وحدة الوجود . يضاف إلى هذا كله ما يروى من أن الفرغاني قرأ التائية على جلال الدين الرومي المولوي ، وشرحها بالفارسية ، ثم بالعربية بعد ذلك ، وسمى شرحه " منتهى المدارك " ، الأمر الذي نتبين منه أن لهذا الشرح أصلا فارسيا ، وأن وضع هذا الشرح بالفارسية أولا ثم بالعربية ثانيا ، كان سببا في هذه الأعجمية التي غلبت على أسلوبه وعباراته ، وهذا الغموض

الذي يكاد يسيطر عليه كله ، لاسيما مقدمته التي يتحدث فيها عن مقامات السلوك وصدور الوجود ، هذه المقدمة التي يخيل لنا ونحن نقرؤها أننا إزاء ألفاظ قد وضع بعضها إلى جانب بعض وضعا خفى معه المعنى الذي تنطوي عليه ، والغرض الذي ترمي إليه .

٧- سبقت الإشارة إلى أن في ديوان ابن الفارض قصيدتين تختلفان عن بقية قصائد الديوان في أنهما صوفيتان بكل ما في الكلمة من معنى ، في حين أن غيرهما من القصائد الأخرى يمكن أن يتردد القارئ في حكمه عليه بين الإنسانية والصوفية ، وأن هاتين القصيدتين هما " التائية الكبرى " التي مطلعها :

سقتني حميا الحب راحة مقلتي　　　وكأسي محيا من عن الحسن جلَت

و " الميمية " التي مطلعها :

شربنا على ذكر الحبيب مدامة　　　سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرم

وقد أبنَا فيما سبق عن قيمة التائية ، وذكرنا شروحها المختلفة التي تكشف عمالها من جلال الشأن وعظم الخطر . ونريد هنا أن نتعرف مكانة الميمية وشروحها نتمة للصورة التي نحب أن نعطيها عن آثار ابن الفارض :

ولعل أول ما يلاحظ على هذه القصيدة الميمية أنه لم يؤثر عن ابن الفارض في شأنها تسمية سماها بها على نحو ما فعل بالتائية الكبرى ، ومع ذلك فقد عرفت الميمية باسم " الخمرية " ، وأكبر الظن أن شراحها هم

الذين أطلقوا عليها هذا الاسم ، واستخلصوه من موضوعها وهو وصف المدامة أو الخمرة التي كني بها الشاعر عن المحبة الإلهية ، أو المعرفة الإلهية . وليس من شك في أن هذه التسمية ملائمة كل الملاءمة لما تشتمل عليه القصيدة . وإذا كنا في هذا الموضع من بحثنا لا نرمي إلى إظهار الخصائص الصوفية والفلسفية لحب ابن الفارض ، وهو ما سنحاوله في الكتابين الثاني والثالث ، فقد رأينا أن نقف هنا عند ذكر ما ظفرت به " الخمرية " من شروح بعضها عربي ، وبعضها الآخر فارسي ، وكلها أو جلها يرمي إلى الإبانة عن المعاني الصوفية التي تنطوي عليها ألفاظ القصيدة وكناياتها . وإليك هذه الشروح :

١- شرح داود بن محمود القيصري المتوفي سنة ٧٥١ هـ وهو شرح صوفي ذو نزعة فلسفية ، ذكر في أوله مقدمات ثلاثا في حقيقة المحبة وأقسامها . وأهداه إلى أمين الدين عبدالكافي بن عبدالله التبريزي ، والطيب محمد بن ناصر الحسيني الكيلاني . وما يزال مخطوطا ، ومنه نسخة بدار الكتب المصرية .

٢- شرح المولى أحمد بن سليمان بن كمال باشا المتوفي سنة ٩٤٠ هـ ، وهو مخطوط محفوظ بدار الكتب المصرية .

٣- شرح محمد بن محمد الغمري سبط المرصفي ، واسمه " الزجاجة البلورية في شرح القصيدة الخمرية " ، انتهى من وضعه في ٨ ذي الحجة سنة ٩٥٩ هـ ، وهو محفوظ بدار الكتب المصرية .

٤- شرح السيد علي بن شهاب الهمذاني المتوفي سنة ٧٨٦ هـ ، واسمه " مشارب الأذواق " ، وهو بالفارسية .

٥- شرح المولى عبدالرحمن بن أحمد الجامي المتوفي سنة ٨٩٨ هـ . وهو بالفارسية أيضا .

٦- شرح المولي علمشاه عبدالرحمن بن صاچلي أمير المتوفي سنة ٩٨٧ هـ.

٧- شرح القاضي صنع الله بن إبراهيم المتوفي سنة ١٠٥٠ هـ ، التزم فيه أربعين جوابا على اعتراض ابن كمال باشا على الجامي .

وقد اطلعنا على العربي من هذه الشروح ، واستعنا به على فهم كثير مما تنطوي عليه أبيات الخمرية من المعاني العميقة والإشارات الدقيقة . على أن أوفى ما وقفنا عليه منها ، وأقربه إلى الروح الصوفي والمنزع الفلسفي هو شرح القيصري الذي حلل فيه المحبة ، وبين أقسامها المختلفة، ومزج شرحه لبعض الأبيات بآراء فلسفية حينا ، وبعقائد شيعية حينا آخر . وليس من شك في أن كثرة هذه الشروح ، وتعدد واضعيها ، وتنوع المواد التي تحتويها ، يكفي لإظهارنا على ما للخمرية من قيمة صوفية ومنزع فلسفي ، وعلى أن لهذه القصيدة اتجاها أبعد ، وفكرة أعمق، ومعنى أدق ، مما يظن الذين يأخذونها بظاهر ألفاظها ، ويتوهمون أن الشاعر إنما نظمها متغنيا الخمرة المنادية ، واصفا لها ، وذلك على نحو ما زعم كليمان هيوار (Clément Huart) في الأسطر القليلة التي أفردها لابن الفارض .

وهكذا نرى أن شروح الخمرية مضافة إلى شروح التائية الكبرى ، إن دلت على شئ فهي إنما تدل على هذه العناية الفائقة التي وجهها الشراح إلى هاتين القصيدتين الصوفيتين . وعلى أن هؤلاء الشراح قد مدوا بذلك آفاقا أولاهم لظلت ضيقة ، وفتحوا أبوابا لولاهم لبقيت مغلقة ، وليس من شك في أن ما بذلوه في هذه السبيل من جهد ، وما تحملوه من مشقة وعناء ، قد فعل فعله ، وآتي أكله ، في تاريخ الحياة الروحية والحركة الصوفية في الإسلام .

٨- وكما ظفر ديوان ابن الفارض بعناية الصوفية والإخصائيين من الشراح هذه العناية التي شهدنا كثيرا من آثارها فيما قدمنا من شروح ، أصاب كذلك حظا موفورا من الذيوع والانتشار بين الخاص والعام ، سواء عن طريق حفظه وإنشاده في حلقات الذكر من ناحية ، أم عن طريق نقله إلى مختلف اللغات الأوربية من ناحية أخرى . وقد سبقت الإشارة إلى أن شعر ابن الفارض كان يحفظه ويعلمه الأحداث في المدارس وإن لم يفهموه ، كما كان أهل مكة ينشدونه على المآذن في الأسحار . ونزيد هنا ما يحدثنا به ليون الأفريقي في الفصل الرابع والأربعين من القسم الثالث من كتابه المسمى (Della Descrittione dell Africa) من أن صوفية مراكش في عصره (أي في الربع الأول من القرن السادس عشر الميلادي) كانوا ينشدون أشعار ابن الفارض في حلقات أذكارهم ، وما يحدثنا به إميل درمنجم (Emile Derminghem) من أن شعر ابن الفارض ما فتى معدودا إلى اليوم قوتا لقلوب الصوفية المراكشيين حتى إن بعضهم ليحفظه عن ظهر قلب كما يحفظ القرآن ، وبحيث ترى هذا الشعر ينشد ويشرح

في كل زاوية وفي كل مجلس يجمع الفقراء . وقد أثبت درمنجم في كتابه عن خمرية ابن الفارض رسالة هي غاية في دقة الوصف وبراعة التعبير تلقاها من شاب مراكشي يصور فيها مبلغ ذيوع شعر ابن الفارض بين مواطنيه ، وما يتركه إنشاد هذا الشعر في نقوس الفقرا وهم في مجالس الأذكار .

وكذلك كان لشعر ابن الفارض في طرابلس الغرب شأن يذكر : فقد ذكر محمد مخلوف في كتابه المسمى " المواهب " ص ٣٤١ عن الصوفي الطرابلسي محمد بن عبدالرحمن الرعيني المعروف بالخطاب الكبير (٨٦١ - ٩٤٥ هـ) أنه " كان يقال بحضرته مقطعات الششتري وكلام ابن الفارض (كذا) ، ويزيل ما في كلام القوم من الإشكال " ، ناهيك بأن القادرية يصطنعون شهر ابن الفارض دائما لإهاجة الانفعال ، وإثارة العاطفة ، بحيث يوجه العبد بكله إلى الق توجيها يفنى معه عن نفسه فناء لا يشعر فيه بوجوده .

وأما مصر والشام فأظن أننا في غير حاجة إلى أن ندل على أن شعر شاعرنا قد شاع وذاع فيهما إلى حد بعيد ، حتى إنك لا تكاد تعثر على أديب أو متأدب ، ولا على صوفي أو متصوف ، إلا وقد استوعب ديوان ابن الفارض ، أو حفظ بعض قصائده ، وعارض بعضها الآخر أو شطره على أقل تقدير . وحسبي دليلا على هذا إنشاد أهل الطرق الصوفية في مصر كثيرا من شعر شاعرنا ، واستعانتهم به على خلق جو فياض بالانفعال ، مفعم بمظاهر الوجد في حلقات الذكر ، وما شهدته بنفسي في بعض المنتسبين إلى إحدى الطرق الصوفية من بكاء وتواجد وتأثر عميق عند سماعه أبياتا من خمرية ابن الفارض أو تائيته الكبرى أو الصغرى ، وما

دهشت له إذ لقيت ذات مرة رجلا أميا يحفـظ الـديوان كلـه حفظـا جيـدا ولو أنه لا يفهم معانيه .

ولا يقف ذيوع شعر ابن الفارض عند هذا الحد مـن الانتـشار في بـلاد المشرق والمغرب الإسلاميين ، وإنما هو يتجاوز هذه البلاد إلى البلاد الأوروبية فيترجم إلى لغاتها المختلفة تارة ، وتنشأ حوله بحـوث ودراسـات ، أو توضـع عليه تعليقات وملاحظات تارة أخرى ، وذلك كله على الـرغم مـما يـشيع في هذا الشعر من المحسنات البديعية التـي تجعـل ترجمتـه إلى أيـة لغـة أمـر ليس من اليسر بحيث يمكن نقله نقلا سليما مستقيما يحفـظ عليـه مـا بـين ألفاظه من جناس أو طباق أو مقابلة ، وما عسى أن يكون بين هذه الألفاظ من تناسب واتساق يشبهان ما يوجـد مـن ذلـك بـين الـنغمات الموسـيقية . ومهما يكن من شئ فقد عرف شعر ابن الفارض في فرنـسا وإنجلـترا وألمانيـا وإيطاليا ، وترجم إلى لغات هذه الأمم ، كما ترجم إلى اللاتينية أيـضا . وهـا نحن أولاء نبين فيما يلي أشهر ترجماته الأوروبية :

ففي اللاتينية ظهر بعض قصائده القصار :

١ - فترجم فابريسيوس (Fabricius) القصيدة التي مطلعها :

أنـــتم فـــروضي ونفـــلي   أنـــتم حـــديثي وشـــغلي

وأثبت ترجمته في كتابه

(Specimen Arabicum , Rostork , 1638 , in 4°, p. 151)

٢ - وترجم و . چونس (W. Jones) القصيدة التي مطلعها :

أبرق بدا من جانب الغور لامع   أم ارتفعت عن وجه سلمى البراقع

وقد أثبت الترجمة والنص في كتابه (Commentarŭ Poeseos Asiaticae , Londres , 1774 & Leipzig , 1777 , in 8° , P. 69)

٣ - وترجم ج . ا . والن (G.A.Wallin) الأبيات التي مطلعها:

جلَق جنة من تاه وبا هي   ورباها منيتي لولا وباها

وقد نشر ترجمته ومعها شرح النابلسي في سنة ١٨٥٠م تحت عنوان:

(Carmen elegiacum Ibnu'l Faridi cum cummentario Abdul Ghanini (Nâbolsi)

وفي الفرنسية

١ - نقل سلڤستر دي سلسي (Silvestre de Sacy) في كتابه (Cherstomahtie Arabe) جـ ٣ ص ١٤٣ - ١٤٧ القصيدة التي مطلعها :

صد حمى ظمي لماك لماذا   وهواك قلبي صار منه جذاذا

وعلق عليها، كما نقل تسعة من الألغاز التي أثبتت في آخر الديوان.

٢ - ونقل جرانجيريه دي لاجرانج (Grangeret de lagrange) بعض القصائد القصار ، كما نقل الخمرية ، وهذا كله في كتيبه المسمى (Extraits du divan d'Omar ibn faredh , 1823 وفي كتابه المسمى Anthologie , Arabe , 1823)

٣ - ونقل بعض القصائد القصار الأخرى كل من دي مارتينو (F. de Martino) وعبد الخالق بك ثروت في كتابهما (Anthologie de l'Amour Arabe , 1902 , p. 259 - 264) ، وجماتي في عدد من أعداد (Le Monde Poétique) سنة ١٨٨٦ ص ١٦٤ ، وواصف بطرس غالي باشا في (Le Perles Eparpillées)

٤ - ونقل إميل درمنجم الخمرية ، وشرح النابلسي عليها وأضاف إليه تعليقات نافعة ، وقدم لترجمته بمقدمة في نشأة التصوف الإسلامي وتطوره ، ذكر فيها تاريخ بعض الصوفية وأقوالهم بصفة عامة ، وترجمة حياة ابن الفارض وابن عربي بصفة خاصة . يضاف إلى هذا ما نقله من بعض القصائد أو بعض الأبيات على نحو ما فعل بالقصيدة التي مطلعها :

ما بين معترك الأحداق والمهج   أنا القتيل بلا إثم ولا حرج

وبالقصيدة التي مطلعها :

قلبي يحدثني بأنك متلفي   روحي فداك عرفت أم لم تعرف

وبالقصيدة التي مطلعها :

تــه دلالا فأنــت أهــل لــذاكا وتحكــم فالحــسن قــد أعطاكــا

وضمَن هذا كله كتابه : (’Eloge du vin , paris , 1931)

ونحـن إذا اسـتثنينا مـن هـؤلاء المترجمـين سـلفتر دي سـاسي وإميـل درمنجم ، رأينا أن سوادهم الأعظم قد نقل ما نقل مـن شـعر ابـن الفـارض على أنه شعر غزلي إنساني أو خمري مادي ، مثلهم في ذلك كمثـل هيـوار إذ يصور ابن الفارض في صورة الشاعر الخمري الـذي يحـب عـصير الكـرم حبـا عنيفا ، ولا كذلك سلفستر دي ساسي وإميل درمنجم : فأولهما كـان عـلى مـا يبدو أول من تناول في فرنسا التـصوف الإسـلامي بنقـل آثـاره إلى الفرنـسية تارة ، وبإنشاء بحوث حولها أو وضع تعليقات عليها تارة أخرى ، كـما نتبـين ذلك من دراسته لكتاب عبدالرحمن الجامي وهو الكتاب المسمى " نفحـات الأنس " ، وثانيهما بظهرنا في كتابه عن " الخمرية " على أنـه لم يأخـذ هـذه القصيدة بظاهر ألفاظها ، بل نظـر إليهـا بعـين الـصوفية التـي تجعـل منهـا طائفة من الرموز والإشارات ، ومجموعة من التلويحـات والكنايـات ، التـي قصد بها الشاعر إلى ما هو أبعد مما يدل عليه ظاهرها . ولـو لم يكـن ذلـك كذلك لما عني درمنجم بنقل شرح النابلسي وهـو مـا هـو مـن صـوفية ، ولا بشئ من تاريخ التصوف الإسلامي الذي قدمه بين يدي ترجمته .

وفي الإنجليزية ترجم نيكلسون في كتابه (Litterary History of the Arabs) بعضا من التائية الصغرى التي مطلعها :

نعم بالصبا قلبي صبا لأحبتي فيا حبذا ذاك الشذا حين هبت

وترجم في كتابه (Studies in Islamic Mysticism) ثلاثة أرباع التائية الكبرى ، والخمرية كلها ، والقصيدة التي مطلعها :

ما بين ضال المنحنى وظلاله ضل المتيم واهتدى بضلاله

والقصيدة التي مطلعها :

ته دلالا فأنت أهل لذاكا وتحكم فالحسن قد أعطاكا

والقصيدة التي مطلعها :

ما بين معترك الأحداق والمهج أنا القتيل بلا إثم ولا حرج

وقدم المستشرق الإنجليزي بين يدي هذا كله بحثا في حياة ابن الفارض وشعره والخصائص الأدبية والصوفية لهذا الشعر ، وعلق على التائية الكبرى تعليقات يرجع أكثرها إلى شرحي القاشاني والنابلسي ، وعلى الخمرية بتعليقات مستمدة من شرح النابلسي وحده .

على أن شعر ابن الفارض وإن كان قد وفق إلى من أحسنوا ترجمته إلى اللغات الأوربية الآنفة الذكر ، فهو لم يكن كذلك فيما ترجم منه إلى الألمانية فقد ترجم إلى هذه اللغة الأخيرة هامر پورجستال (Hammer

Purgstall) التائيـة الكـبرى سـنة ١٨٥٤ م ، وقـد لاحـظ نلينـو المستـشرق الإيطالي على هذه الترجمة أنهـا ليـست مـن الدقـة والأمانـة بحيـث تعطـي صورة صادقة لأصل القصيدة وروحها وطبيعتها الحقيقية .

ولا كذلك كان حظ شاعرنا فيما ترجم منه إلى الإيطالية : فقد عني بـه المترجمون من الإيطـاليين فنقلـوه إلى لغـتهم أولا ، ثـم عنـي بـه بعـد ذلـك بحاثهم وعلماؤهم فتناولوه بالدرس والتحليل والتفسير والتعليـل ، وأولئـك وهؤلاء كانوا من دقة الترجمة ، وعمق البحث ، والقدرة على استيعاب شعر الشاعر الصوفي ، والتوغل فيما انطوى عليه هذا الشعر من مـذهب صـوفي ، بحيث استطاعوا أن يقدموا لنا ثمرات ناضجة لهذا الجهد العلمي الموفق على نحو ما سنتبينه مـن ذكـر البحـث الـذي قـام بـه كـل مـن دي مـاتيو (Di Matteo) ونلينو (Nallino) بنوع خاص . وحسبنا أن ندل على مـا وفـق إليه ابن الفارض في ترجمة شعره والعناية ببحثه في الإيطالية بذكر الترجمات والبحوث التالية :

١ - ترجم پيترو ڤالرجا (pietro valerga) قـصائد ابـن الفـارض القـصار ، ووازن بينها وبين شعر بترارك (pétrarque) وذلك في كتابين هما :

A - (Divano di Omar figlio di Al Fared 1874)

B-(Il Divano di Omar ben Al Fared , tradotto e pargonotto col Canzoniere del petrarca , Florence , 1874)

٢ - وترجم أجنازيو دي ماتيو " التائية الكبرى "، وظهـرت ترجمتـه في نـسخ خطيـة خاصـة لم تخـرج للجمهـور ، وعنوانهـا : (Ibn al Farid , Il gran poema mistico noto col nomeal Tâiyyah al kubra , Roma , 1917)

٣ - وكانت ترجمة دي ماتيو للتائية الكبرى مما دفع نلينـو إلى وضـع بحـث عن ابن الفارض وشعره وصوفيته ، وإلى نقد مـا تـرجم بـه دي مـاتيو بعض المصطلحات الواردة في القصيدة ، الأمر الـذي حمـل دي مـاتيو على أن يرد على نلينو ، وحمل نلينو على أن يرد أخيرا عـلى دي مـاتيو في بحث آخر . وكان مجلة (الدراسات الشرقية) ميدانا تـساجل فيـه المستشرقان الإيطاليان ، وتنازعا فيما بينهما حقيقة شعر ابن الفارض ، والمذهب الصوفي الذي انطوى عليه هذا الشعر، تنازعا ليس من شـك في أنه أفاد العلم فائدة محققة ، وهـا نحـن أولاء نـذكر هنـا عنـاوين المقالات التي كانت ثمرة لهذه الترجمة الإيطالية للتائية الكبرى :

أ - فأما مقالة نلينو الأولى فعنوانها : Il poema mistico d'Ibn al Farid in una recente traduziona italiana)

ب - وأما مقالة دي ماتيوالتي رد بها على نلينو فعنوانها :

(Sulla mia interpretazione del poema Mistico d'Ibn al Farid)

ج - وأما مقالة نلينو الثانية التي رد بها على رد دي ماتيو فعنوانها :

ومهما يكن من أمر الخطأ الذي وقع فيه دي مـاتيو ، والنقـائص التـي كشفها نلينو في ترجمته للتائية الكبرى ، فإن هذه الترجمـة قـد ظفـرت مـع ذلك بإعجاب العلماء الأوربيين ، فقال نيكلسون عـن دي مـاتيو إنـه أعطانـا لأول مرة صورة دقيقة لأصل التائيـة ، ولـيس هـذا بالعمـل الهـيِّن . وكـذلك كانت بحوث نلينو التي أثارتها هذه الترجمة محل الإكبـار والتقـدير ، فقـال عنها نيكلسون أيضا إنها تشتمل على دراسة نقدية لأجزاء عدة من القصيدة ، هي أهم عمل قام به مستشرق أوربي درس ابن الفارض .

هذه الـترجمات والبحـوث ، مـضافة إلى مـا تقـدم ذكـره مـن تعليقـات وشروح ، تظهرنا من غير شك على أن شعر ابن الفارض كان من جـلال الـشأن وعظم الخطـر بحيـث عنـي بـه وأقبـل عليـه أربـاب الـذوق مـن الـصوفية ، وأصـحاب الفكـر مـن البـاحثين: أولئـك يـستوعبون معانيـه بـأرواحهم ، ويتذوقونها بقلوبهم ، ويتعرفون أسرار هذه المعاني بما أوتوا من صفاء القلب وجلاء الذوق ، وهؤلاء يفهمونه بعقولهم ويستشفون خوافيه بنور أفكـارهم، فينقلونه من لغته الأصلية إلى لغاتهم ، ويـنـشئون حولـه الدراسـات الخـصبة والبحوث العميقة ، ومن أولئك وهؤلاء من كان موفقا ، ومن أخطأه التوفيق . ومهما يكن من شئ فإن هذا كله يبين الحركة الصوفية التـي أثارهـا ديـوان ابن الفارض ، وغذاها ونماها شعره بمـا وضـع عليـه مـن شروح ، كـما يظهرنـا على النشاط العلمـي والبحـث النقـدي اللـذين ولـدهما هـذا الـشعر وهـذه الـشروح ، والواقـع أن هـذه الجهـود ، مـا وفـق منهـا ومـا لم يوفـق ، هـي

محاولات الشعور والعقل الإنسانيين في استنكاه أسرار الآثار الصوفية لابن الفارض ، وإدراك ما تنطوي عليه من المعاني الخفية ، واستخلاص ما تدعو إليه من المثل العليا ، وتذوق ما تفيض به من الروحانية .

على أن كارا دي ڤو (Cara de Vaux) قد ذهب في تقويم ديوان ابن الفارض مذهبا لا نقره عليه ، وهو أن ليس لهذا الديوان أهمية كبرى في التاريخ الفلسفي ، وأن ما هو خليق بالعناية من غير شك هو شروحه ، واستدل على ذلك بشرح القيصري للخمرية وهو الشرح الذي حلل صاحبه في مقدمته المحبة وبين أقسامها المختلفة ومزجه ببعض الآراء الفلسفية ، وانتهى فيه إلى آراء مشائية تؤلف في النهاية نظرية مسيحية . ويخطئ كارا دي ڤو في إنكاره على ديوان ابن الفارض أهميته الفلسفية وقيمته الروحية ، كما يسرف في إكباره من شأن شرح القيصري للخمرية : فإن أقسام المحبة التي ذكرها القيصري في شرحه ، والتي أكبرت هذا الشرح في عين دي ڤو ، ليست في الحقيقة من اختراع القيصري نفسه ، ولا هي من الأشياء التي لم يذكرها ابن الفارض في شعره . ولو قد أنعم دي ڤو النظر فيما تصوره " التائية الكبرى " من أطوار المحبة ، وفيما يقابل كل طور من مراتب المعرفة ، لتبين له أن ديوان ابن الفارض يمكن أن يشرح نفسه بنفسه ، وأن له من القيمة الصوفية والفلسفية ما لا يقاس إليه بعض شروحه . وليس معنى هذا أننا ننكر على الشراح جهودهم المضنية الموفقة في أكثر الأحيان ، بل الذي ننكره هنا هو ما يذهب إليه دي ڤو من إنكار قيمة الديوان من الناحية الفلسفية ، وإثبات هذه القيمة لشروحه : فمما لا شك فيه أن ابن الفارض قد انتهى في تائيته الكبرى إلى مذهب صوفي

في الوحدة انطوى على كثير من المنـازع الفلـسفية ، كـما أنـه قـد أعطانـا في خمريته نظرية في المحبة من حيث هي أصل الخلق والمنبع الذي فاض منـه كل شئ ، وهذا ما سنحاول الإبانة عنه في الكتابين الثـاني والثالـث مـن هـذا البحث .

الفصل الرابع

ابن الفارض بين خصومه وأنصاره

الخلاف بين الفقهاء والصوفية - التوفيق بين الشريعة والحقيقة - ابن الفارض بين الإكبار له والإنكار عليه - الطعن عليه في حياته وبعد مماته - خصومه ونعيهم على حاله ومذهبه : ابن بنت الأعز - ابن تيمية - ابن خلدون - ابن حجر العسقلاني البقاعي المقبلي - السيد محمد أمين أفندي - موقفنا من هؤلاء الخصوم ومن ابن الفارض وأذواقه ومذهبه - أنصار ابن الفارض ودفاعهم عنه : السلطان قايتباي، السلطان العثماني، زكريا الأنصاري، ابن حجر الهيثمي - ابن خلدون - السيوطي - الشعراني - خاتمة .

١ - يحدثنا التاريخ بأن ثمة خلافا قويا قد نشأ بين الفقهاء والصوفية، وبأن هذا الخلاف كان يقوي أمره ويشتد في بعض الأحيان حتى يأخذ صورة الخصومة العنيفة التي لم تكن بين أهل الظاهر وبين أهل الباطن فحسب ، بل كانت بين أهل الظاهر أنفسهم إذ يتناولون حياة صوفي من الصوفية . ويحاولون أن يتعرفوا حقيقة مذهبه وعقيدته ، ومبلغ ملاءمة هذا كله أو منافاته لأحكام الكتاب والسنة . فكان بعضهم يتعصب لهذا الصوفي أو ذاك ، ويرى أن ما فاضت به نفسه من أذواق وأحوال وما نطق به لسانه من عبارات وأقوال . ليس فيه ما يتنافى وأحكام الشريعة ، في حين أن بعضهم الآخر كان يتعصب على هذا الصوفي أو ذلك ، فينظر إلى أحواله وأقواله وسلوكه في حياته العامة والخاصة ، على أن كل أولئك ضروب من الأباطيل ، وألوان من الجهالات والأضاليل . وكل فريق من

أولئك وهؤلاء يحاول أن يدلل على صدق رأيه بما ورد في القرآن الكريم ، وما أثر عن النبي من حديث شريف ، وعن الصحابة والتابعين وغيرهم من السلف الصالح . والحق أن من الصوفية فريقا متطرفا عبر عن حاله ومذهبه بعبارات هي غاية في الجرأة ، وأبعد ما تكون عن حدود القصد والاعتدال ، كذلك كان من الفقهاء فريق لم يلتزم في حكمه حدود الإنصاف ، وإنما أطلق لأهوائه العنان ، فلم يأت حكمه منزها عن الغرض، ولا مبرأ من التعصب المذموم الذي لا يستند إلى أساس قوي من أسس الشريعة ، ولا يقوم عليه دليل قاطع من أدلتها . وليس من شك في أن أولئك وهؤلاء كانوا مسرفين على أنفسهم وعلى الحق . على أن هذا إن كان صحيحا بالقياس إلى بعض الصوفية أمثال أبي يزيد البسطامي الذي آثر السكر على الصحو ، وعبر عن فنائه في الله واتحاده به بقوله : "سبحاني ما أعظم شاني" ، والحسين بن منصور الحلاج الذي قال في مثل هذا المقام مقالته المشهورة " أنا الحق " ، وبعض الدراويش الذين أطلقوا أنفسهم على سجيتها ، وخلوا بينها وبين شهواتها فدخنوا الحشيش ، أو شربوا الخمر ، أو أتوا من المنكرات ما لا يقره شرع أو خلق ، وادعوا أنهم إنما يفعلون هذا كله لأنهم وصلوا إلى مقام سقطت عنهم فيه التكاليف - إذا كان هذا صحيحا بالقياس إلى هؤلاء ، فمن الصحيح أيضا أن كثيرا من الصوفية قد اصطنع الحزم والعزم وآثر في سلوكه الخضوع لأحكام الشرع وقوانين الخلق ، وعمد في مذهبه وفي أقواله التي يصور بها هذا المذهب إلى التمشي مع أحكام الكتاب والسنة ، وإذا كان صحيحا أيضا أن من الفقهاء من تجاوز حدود الحق والاعتدال ، وساير سوء النية أو سوء الفهم

، فحكم على بعض الصوفية بأنه كافر أو زنديق أو ملحد ، وهو لا يرمي من وراء هذا إلى إرضاء الله أو ابتغاء وجهه أو وضع الحق في نصابه ، بل هو يقصد إلى تملق عاطفة الجمهور ، أو التقرب من أصحاب السلطان ، أو إشباع شهوة الغرور وحب الظهور ، أو النعي على صوفي بعينه لشئ منه في نفسه ، إذا كان ذلك كذلك ، فمما لا شك فيه أننا نلتقي في كثير من الأحيان بطائفة صالحة من الفقهاء الذين أقل ما يوصفون به أنهم أصحاب نفوس صافية ، وعقول راقية ، وقلوب عامرة بالإيمان الصادق الذي لا شبهة فيه ولا غبار عليه ، وهذا كله من شأنه أن يجعل أحكامهم مقبولة ومعقولة إلى حد بعيد .

٢ - ومهما يكن من أمر هذا الخلاف بين الفقهاء والصوفية ، ومن أن الصوفية قد نظروا إلى الفقهاء على أنهم أهل ظواهر ورسوم ، وإلى أنفسهم على أنهم أهل الحقائق والبواطن ، ومن أنهم يضعون علمهم من حيث هو علم بالحقيقة في مرتبة أعلى من علم الفقهاء من حيث هو علم بأحكام الشريعة الظاهرة - مهما يكن من أمر هذا كله فإننا نلاحظ أن طائفة لا يستهان بها من الصوفية قد جعلت من الطريقة أداة لمعرفة الحقيقة دون أن تكون منافية لأحكام الشريعة . وها هو ذا القشيري يصور لنا التوفيق بين الطريقة فيما تقصد إليه من تحقيق بالحقيقة وبين الشريعة فيقول: " إن الشريعة أمر بالتزام العبودية ، والحقيقة مشاهدة الربوبية ، وكل شريعة غير مؤيدة بالحقيقة غير مقبولة ، وكل حقيقة غير مقيدة بالشريعة غير مقبولة : فالشريعة أن تعبد الله ، والحقيقة أن تشهد الله : الشريعة قيام بما أمر ، والحقيقة شهود لما قضى وقدر ، وأخفى وأظهر :

الشريعة حقيقة من حيث إنها وجبت بأمره ، والحقيقة أيضا شريعة من حيث إن المعارف به سبحانه أيضا وجبت بأمره " . ولعل فيما قاله النبي عليه السلام من أن الإسلام هو التحقق بالإحسان ، وأن الإحسان هو " أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك " ، لعل في هذا القول ما يدل دلالة واضحة على إمكان التوفيق بين الشريعة من حيث هي تحقق بالعبودية ، وبين الحقيقة من حيث هي شهود للربوبية ، الأمر الذي يترتب عليه أن تسقط حجة القائلين بأن المحور الذي يدور عليه التصوف وهو مشاهدة الحقيقة ، شئ لا أساس له من الشريعة .

٣ - وإذا كانت الخصومة بين الفقهاء والصوفية قد لعبت دورا خطيرا على مسرح الحياة الدينية الإسلامية خلال العصور التاريخية المختلفة، وكان ابن الفارض - على نحو ما صورنا حياته وشخصيته في الفصول المتقدمة - شاعرا صوفيا من أصحاب الأذواق والمواجيد ، وله ديوان شعر عبر فيه عن مذهبه الصوفي في الحب ، لاسيما في قصيدتيه " نظم السلوك " و " الخمرية " ، فلابد إذن من أن يكون لما خضعت له نفسه من حال ووجد ، وما أثر عنه من سلوك وآثر من ذوق ، وما صدر عنه من شعر يصور مذهبه الصوفي وعقيدته الدينية ، صداه في أوساط الفقهاء ، وأثره في تاريخ الحياة الدينية والروحية في العصر الذي عاش فيه الرجل ، وفي العصور التي تلت ذلك العصر ، وهذا هو ما نريد أن نعرض له في هذا الفصل ، فنتعرف رأي رجال الدين ممن نعوا عليه وأرجفوا به ، وممن ذادوا عنه ودفعوا كل شبهة من دونه .

قضى ابن الفارض حياته موضع تقدير الوزراء والكبراء والعلماء حتى إن واحدا منهم لم ينكر عليه شيئا من حالاته ولا نظمه . وظفر في آخر حياته بإعجاب الملك الكامل به ، وإقباله عليه هذا الإقبال الذي شهدنا بعض آثاره في الفصلين الأول والثاني . ومات فإذا هو يصيب في مماته ما أصاب في حياته من إجلال وإكبار . وليس أدل على ما انتهى إليه أمر الرجل في حياته من هذا كله أنه عندما كان يمشي في المدينة ، كان الناس يلتفون من حوله ويتهافتون عليه ، ويريد كل منهم أن يقبل يده ، فلا يمكن أحدا من ذلك ، بل كان يكتفي بمصافحتهم ووضع يده في أيديهم . وليس أدل على ما انتهى إليه عند مماته من أن الناس كانوا يتهافتون على حمل نعشه ويتزاحمون على جنازته . وليس من شك في أن رجلا ينهي إلى ما انتهى إليه ابن الفارض من هذا كله ، لابد أن يكون قد انتهى من تصفية نفسه وتنقية قلبه وتهذيب ضميره إلى حد بعيد ، أقل ما يوصف به إنه ملائم كل الملاءمة لما ينبغي أن تطمح إليه الإنسانية الراقية من مثل أعلى في حياة الفرد والجماعة .

٤ - على أننا إذا تأملنا ما أشار إليه ابن الفارض نفسه في تائيته الكبرى ، رأينا أن حظه من الإعجاب به والإجلال له لم يكن مطلقا ، ولا بمنجاة من طعن الطاعنين وإرجاف المرجفين : فاستمع إليه حيث يقول :

وهذي يدي لا أن نفسي تخوفت	سواي ولا غيري لخيري ترجت
ولا ذل إخمال لذكري توقعت	ولا عز إقبال لشكري توخت
ولكن لصد الضد عن طعنه على	علا أولياء المنجدين بنجدتي ٢٦٧

وحيث يقول :

وكيف وباسم الحق ظل تحققي تكون أراجيف الضلال مخيفتي

إلى أن يقول :

ولي من أتم الرؤيتين إشارة تنزه عن رأي الحلول عقيدتي ٢٨٤

وفي الذكر ذكر اللبس ليس بمنكر ولم أعد عن حكمي كتاب وسنة

لتتبين أن هناك من طعن على الشاعر في حياته ، ورماه باعتقاد الحلول الذي ينكره الإسلام ، ولترى أيضا أن الرجل فيما يدفع به عن نفسه هذه الشبهة لا يعنيه من الناس ما يستطيعون من إخمال ذكره ، أو ما يقدمون من خير له ، أو ما يظهرون من إقبال عليه ، وما يسدون من شكر له ، وإنما الذي يعنيه هنا هو أن يصد الطاعنين عليه وعلى الأولياء الذين أخذ عنهم مذهبه ، ناهيك بأنه وقد تحقق باسم الحق لم يكن لتخيفه هذه الأراجيف التي يذهب فيها المثيرون لها إلى أنه كان حلوليا ، والواقع الذي يثبته هو أنه لم يكن كذلك ، بل مذهبه هنا هو مذهب اللبس الذي لم يخرج فيه عما ورد في الكتاب والسنة .

قامت إذن في حياة ابن الفارض ضجة حول مذهبه وعقيدته ، ومبلغ ملاءمة هذا المذهب وهذه العقيدة لما ورد في الكتاب والسنة . أما من أثار هذه الضجة ، وأشاع هذه الأراجيف ، فذلك ما لم يذكر ابن الفارض عنه شيئا أكثر من الإشارة التي تضمنتها أبياته الآنفة الذكر . على أن هذه الضجة التي قامت في حياة الرجل ، ولم تصل إلينا أخبارها واضحة مفصلة، لم يكد يمضي عليها

زمن بعد وفاة الشاعر ، حتى كانت قد قويت واشتدت ، ووضحت ، وامتدت ، وإذا برجال الدين يتناولون حياته الصوفية وما له فيها من أذواق ومواجيد ، ويعكفون على مذهبه الصوفي وما ينطوي عليه من تعاليم ، وإذا بهم يختلفون حول هذا كله ، ففريق يرى في أحواله ومواجيده ضروبا من الهذيان الحاصل من تعاطي الحشيش ، والاستعانة به على إحداث الغيبة ، ويرى في مذهبه من سوء الاعتقاد والقول بوحدة الوجود والحلول ما ينافي تعاليم الإسلام ، وفريق آخر ينظر إلى أحوال الرجل ومواجيده على أنها آية من آيات ولايته ، ودلالة من دلالات صفاء نفسه ونقاء سريرته ، وجلاء عين بصيرته ، وينظر إلى مذهبه على أنه ليس حلولا أو وحدة للوجود أو غير ذلك من العقائد الضالة والمذاهب المخالفة لتعاليم الإسلام ، بل هو إشراقة من إشراقات الكشف، ونفحة من نفحات الإلهام ، أشرقت بها جوانب نفسه وقد صفت ووصلت إلى آخر طور من أطوار الحب الذي تزول فيه التفرقة بين المحبوب والمحب أو بين الرب والعبد . وقد ظل الخلاف قائما بين خصوم ابن الفارض الطاعنين عليه ، وبين أنصاره الذائدين عنه ، يقوى ويعنف حينا ويلين ويضعف حينا آخر ، حتى كان المحرم من سنة ٨٧٥ هـ وإذا بهذا الخلاف يبلغ أقصى ما يبلغ من الحدة والشدة حدا كاد يتزعزع معه النظام العام . وما فتئت الحال على ما هي عليه من قلق واضطراب ، وظل رجال الدين على ما هم عليه من تنازعهم أمر ابن الفارض وعقيدته بينهم ، حتى كانت سنة ٩٢٦ هـ وإذا بالقاضي الشافعي زكريا بن محمد الأنصاري يصدر فتواه التي يبرئ فيها ابن الفارض مما نسب إليه من مذهب ضال وعقيدة زائغة . وقد نقل ابن الألوسي البغدادي عن المناوي ما صور به هذا الأخير اختلاف الناس في حكمهم على ابن الفارض وغيره من الصوفية وهو قوله: " والحاصل أنه اختلف في شأن صاحب الترجمة (ابن الفارض) ، وابن عربي ، والعفيف التلمساني ، والقونوي ، وابن هود ، وابن سبعين ،

وتلميذه الششترى، وابن مظفر، والصفار ، من الكفر إلى القبطانيـة ، وذكـر بعض التصانيف من الفـريقين في هـذه القـضية . ولا أقـول كـما قـال بعـض الأعلام : سلم تسلم والسلام ، بل أذهب إلى ما ذهب إليه بعضهم أنه يجب اعتقادهم وتعظيمهم ، ويحرم النظر في كتبهم على من لم يتأهل لتنزيل مـا فيها من الشطحات على قوانين الـشريعة المطهـرة . وقـد وقـع لجماعـة مـن الكبار الرجوع عن الإنكار" . ونقل أيضا عن الكـمال الأدفـوي مـا ذكـره مـن رأى أن الظاهر في " التائية الكبرى " وهو قوله :"... وأمـا التائيـة فهـي عنـد أهل العلم (يعني الظاهر) غير مرضية ، مشعرة بأمور ردية " .

٥ - ولعل أول ما وصلنا من أخبار النعي على ابن الفارض ، والإرجـاف به ، والتشنيع عـلى أحوالـه ومذهبـه ، بعـد وفاتـه ، يرجـع عهـده إلى أيـام الـسلطان قـلاوون حـين كـان أمـر الـوزارة إلى قـاضي القـضاة تقـي الـدين عبدالرحمن بن بنت الأعز المتوفي سنة ٦٥٩ هـ : فقد أوقـع ابـن بنـت الأعـز هـذا بـشمس الـدين الأيـكي ، وذمـه ولامـه عـلى أنـه كـان يـأمر الـصوفية بالاشتغال " بنظم السلوك " قصيدة ابن الفارض التي يميل فيها إلى الحلـول، ولكنه رجع فعدل عن لومه ، وعـن اتهامـه ابـن الفـارض بأنـه مـن القـائلين بالحلول ، واستغفر الـلـه مما فرط منه في حق الأيكي وابن الفـارض ، وذلـك بعد أن سمع أبيات الشاعر التي أنكر فيها الحلول ، ونزه عنه عقيدته، وهي هذه الأبيات التي أثبتنا بعضها ، وأشرنا إلى بعضها الآخر آنفا .

٦ - ومن ألد خصوم ابن الفارض الذين ظهروا بعد ذلك ، وأمعنوا في نقده وتجريحه ، تقي الدين ابن تيميـة المتـوفي سـنة ٧٢٨ هـ : فقـد نظـر هـذا العـالم الحنبلي المتطرف إلى ما روى عن ابن الفارض من أحوال ومواجيد ، وإلى مـا أثـر

عنه من شعر ، وما يعبر عنه هذا الشعر من مذهب صوفي ، فإذا هـو يـرى أن الرجل لم يكن في شئ من هذا موافقا لتعاليم الإسلام ، ولا ما عـرف عـن النبي والصحابة والتابعين ومن إلى أولئك جميعا من السلف الصالح :

فنحن نعلم مما ذكرناه في الفصل الثاني من هذا الكتاب عن حياة ابـن الفارض الصوفية ، أن الرجل كان من المعنيين بالسماع والـرقص ، وأنـه كـان يستعين بهما على التواجد ، وأن عنايته بهما قد بلغت به حـدا جعلـه يتخـذ لنفسه بمدينـة البهنـسا بيتـا تقـيم فيـه طائفـة مـن الجـواري والمغنيـات والضاربات على الدفوف والشبابات . وابـن تيميـة يقـرر في هـذا الـصدد أن الاجتماع لسماع القصائد الربانية ، سـواء كـان بكـف أو بقـضيب أو بـدف ، وكان مع ذلك شبابة ، لم يفعله أحد من الصحابة ، لا من أهـل الـصفة ، ولا من التابعين ، بحيث لم يكن فيهم من يجتمع على هذا السماع لا في الحجـاز ولا في اليمن ولا في مصر ولا خراسان ولا المغرب .

ومهما يكن من رأي ابن تيمية هنـا ، فـإن الـسماع مـن المـسائل التـي اختلف حولها الفقهاء اختلافا طويلا متصلا ، فذهب بعضهم الآخر إباحتـه . وقـد أعطانـا الغـزالي صـورة واضـحة لهـذا الاخـتلاف ، إذ عـرض كثـيرا مـن الأحاديث والأقوال المأثورة عن السلف الصالح مما حاول كل فريق أن يؤيد به مذهبه . ناهيك بما ذكره الهجويري من أن فريقا من العلـماء قـد أجمـع عـلى إباحـة سـماع الأدوات الموسـيقية إذا لم يكـن هـذا الـسماع سـبيلا إلى الارتداد ، ولا منتهيا بالعقل إلى السير في طريق الـضلال . هـذا فـيما يتعلـق بالسماع في ذاته ، أما فيما يتعلق بالرقص الذي يحصل من الـسماع ولازمـه،

والذي رأينا أن حياة ابن الفارض الذوقية كانت خاضعة له ، متأثرة به ، فقد حدثنا الهجويري بما يفيد أنه مختلف عن السماع في أنه لا أساس له سواء في الشريعة أم في طريق الصوفية ، فلم يوص به أحد من المشايخ ، أو تجاوز حدوده المقررة ، وأن كل الآثار التي يوردها أهل الحشو تبريرا لإباحة الرقص لا قيمة لها . فإن صح ما ذكره الغزالي والهجويري من أن السماع مباح لدى فريق من العلماء ، وما ذكره الهجويري وحده من أن الرقص لا أساس له في الشرع أو في طريق القوم ، انبني على ذلك أن يكون لسماع ابن الفارض ما يؤيده من الشرع ، وأن يكون رقصه بدعة من البدع التي ليست من تعاليم الإسلام أو مقرراته في شئ . على أننا إذا فهمنا رقص ابن الفارض على حقيقته التي كشفنا عنها في الفصل الثاني من هذا الكتاب ، وهي أن هذا الرقص لم يكن من النوع الذي يستريح فيه العبد بالوجد لا بالموجود ، بل هو من النوع الذي يشهد فيه الواجد الموجود ويغيب به عن وجده . إذا فهمنا هذه الحقيقة الدقيقة ، تبينا في ضوئها أن رقص شاعرنا ما لم يكن صارفا له عن الموجود الحقيقي وهو الله، أو سبيلا ينتهي به إلى الارتداد عن دينه ، فهو ليس مما يتنافى مع الشرع.

ولم يقف ابن تيمية عند تجريح ابن الفارض في أذواقته ومواجيده ، بل هو قد تجاوز هذه الأذواق والمواجيد إلى ما انتهى إليه الشاعر عن طريقها من مذهب صوفي : فقد كان ابن الفارض في رأي ابن تيمية ، كما كان ابن عربي ، والقونوي ، وابن سبعين ، وعامر البوصيري ، ونجم الدين بن إسرائيل ، والحلاج ، وأوحد الدين الكرماني وعفيف الدين التلمساني ، من القائلين بوحدة الوجود التي يصدر فيها أصحابها عن أصلين باطلين يخالفان

دين المسلمين واليهود والنصارى مخالفتهما للمعقول والمنقول . وأحد هذين الأصلين هو الحلال والاتحاد ، وما يقاربهما من قول بوحدة الوجود وهو مذهب القائلين بأن الوجود واحد لا فرق في ذلك بين الوجود الواجب للخالق والوجود الممكن للمخلوق . وعند ابن تيمية أن مثل القائلين بوحدة الوجود كمثل النصارى وغالية الشيعة في القول بالاتحاد والحلو ، إلا أن هؤلاء يقولون بالحلول المقيد الخاص الذي ينتهي بتأليه المسيح أو علي ، وأولئك يقولون بالحلول المطلق العام . ولا يشك ابن تيمية في أن في قول هذا الفريق الأخير من الكفر والضلال ما هو أعظم مما في قول اليهود والنصارى . أما ثاني الأصلين فهو الاحتجاج بالقدر على فعل المحظور ، والقدر - في رأي ابن تيمية - يجب والإيمان به ، ولا يجوز الاحتجاج به على مخالفة أمر الله ونهيه ، ووعده ووعيده . والذي يعنينا هنا هو أن نلاحظ أن ابن تيمية كان من الناعين على مذهب ابن الفارض وغيره من الصوفية الذين ذهبوا هذا المذهب . أما أن ابن تيمية مصيب في فهمه مذهب ابن الفارض أو مخطئ ، وأما أن اتهامه شاعرنا بالكفر والضلال أمر ملائم أو غير ملائم لطبيعة المذهب الصوفي للرجل ، ومطابق أو غير مطابق للمعقول والمنقول ، فكل أولئك مسائل نكتفي بالإشارة إليها هنا ، على أن نتناولها بالتفصيل في الفصل الثاني من الكتاب الثالث ، وهو الفصل الذي سنحاول فيه الكشف عن علاقة حب ابن الفارض بمذهبه في الوحدة ، وعن حقيقة هذه الوحدة ، وهل كانت وحدة وجردية بالمعنى الحقيقي الذي لا يفرق فيه بين وجود الخالق وبين وجود المخلوق ، أو أنها وحدة من نوع آخر .

٧ - ولم يكن ابن تيمية وحده هو الذي فهم مذهب ابن الفارض على أنه وحدة وجودية مبنية على الحلول والاتحاد ، بل شاركه في ذلك طائفة من النقاد والفقهاء : فابن خلدون المتوفي سنة ٨٠٨ هـ يرى في معرض الكلام عن متأخري الصوفية المتكلمين في الكشف وفيما وراء الحس ، أن الكثير من هؤلاء الصوفية قد ذهب إلى الحلول والوحدة ، وضرب لذلك مثلا بالهروي في كتابه " المقامات " ، وابن عربي ، وابن سبعين ، والعفيف التلمساني ، وابن الفارض ، وابن إسرائيل في قصائدهم . ويرى ابن خلدون أيضا أن سلف هؤلاء كان مخالطا للإسماعيلية المتأخرين من الرافضة، الدائنين بالحلول وإلهية الأئمة، فأشرب كل واحد من الفريقين مذهب الآخر ، واختلط كلامهم ، وتشابهت عقائدهم . وإذا كنا نعلم أن للإسماعيلية عقائد تخالف تعاليم الإسلام ، وفلسفة قد لا تكون مطابقة للعقيدة السليمة ، استطعتا أن نتبين في وضوح ما يعنيه ابن خلدون من تأثر الصوفية بالإسماعيلية ، لاسيما فيما يتعلق بالحلول وهو من العقائد الرئيسية عند الإسماعيلية ، ومن الأمور التي شاعت في كتب الصوفية وقصائدهم .

ولابن خلدون رأي في كتب الصوفية نتبين من خلاله إلى أي حد ينظم ابن الفارض في سلك متأخري الصوفية الذين هم عنده كافرون ، بخلاف متقدميهم فإنهم في رأيه مؤمنون . وقد نقل عن ابن خلدون هذا الرأي ، أو إن شئت فقل بعبارة أصح ، هذه الفتوى ، مؤلف يمني عاش في القرن الحادي عشر الهجري ، هو صالح بن مهدي المقبلي ، وإليك ما نقله عن ابن خلدون في حكم هذا الأخير على كتب الصوفية :

"... وأما حكم هذه الكتب المتضمنة لتلك العقائد المضلة ، وما يوجد من تسنمها بأيدي الناس ، مثل " الفصوص " و " الفتوحات " لابن

عربي و " اليد " لابن سبعين و " خلع النعلين " لابن قسى ، و " عين اليقين " لابن برجان ، وما أجدر الكثير من شعر ابن الفارض والعفيف التلمساني وأمثالهما أن يلحق بهذه الكتب ، وكذا شرح ابن الفرغاني للقصيدة التائية من نظم ابن الفارض : فالحكم في هذه الكتب وأمثالها إذهاب أعيانها متى وجدت ، بالتحريق بالنار، والغسل بالماء ، حتى ينمحي أثر الكتابة، لما في ذلك من المصلحة العامة في الدين ، ويتعين على من كانت عنده التمكين منها للإحراق ، وإلا فينتزعها منه ولي الأمر، ويؤدبه على معارضته في منعها، لأن ولي الأمر لا يعارض في المصالح العامة" .

٨ - وثمة خصم آخر من خصوم ابن الفارض ، وأشدهم حطًا عليه، واتهاما لمذهبه بالكفر والضلال وهو شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد بن حجر الكناني العسقلاني المتوفي سنة ٨٥٢ هـ : فقد عبر عن رأيه في شاعرنا بقوله :

" ينعق بالاتحاد الصريح في شعره ، وهذه بلية عظيمة ، فتدبر نظمه ولا تستعجل، ولكنك حسن الظن بالصوفية، وما ثم إلا زي الصوفية وإشارات مجملة ، وتحت الزي والعباءة فلسفة وأفاعي ، فقد نصحتك والله الموعد ". ولم يكتف ابن حجر بهذا، بل هو يؤيد رأيه برأي الذهبي الذي قال فيه عن ابن الفارض ما نصه : " إنه شابه بالاتحاد في ألذ عبارة ، وأرق استعارة، كفالوذج مسموم "، ورأى البلقيني وقد قرأ عليه ابن حجر أبياتا من تائية ابن الفارض الكبرى، فقال عند سماعها : "هذا كفر ، هذا كفر".

على أننا نظن أن ما ينعي به ابن حجر هنا على ابن الفارض ، إنما كـان في الوقت الذي كان ينظر فيه إلى الصوفية نظرة عداء واستهزاء ، ويقوم فيه أقوال القوم تقويما يـستند إلى مقياس مخـالف لمقيـاس الـذوق الـذي هـو أساس بناء كل تصوف . ويغلِب هذا الظن لدينا ما ذكرناه في الفصل السابق عند الكلام على شروح (التائية الكبرى) مـن أن ابـن حجـر قـد شرح بعـض أبيات منها ، وقدم شرحه إلى الشيخ مدين ليكتب له عليه إجازة ، فكتب له هذا الأخير ما جعله يدرك أنه لم يتذوق ما يشرح ، ولم يفهمـه عـلى طريقـة القوم وأسلوبهم في الذوق والفهم ، الأمر الذي دعـا ابـن حجـر إلى أن يغـير رأيه ، وأن يعدل عن فهمه ، وسوء ظنه في الصوفية . فإن صح هـذا ، نبنـي عليه أن يسقط اتهام ابن حجر لابن الفـارض مـن حـساب الأراجيـف . وإذا سلمنا جدلا بأن ما ينسبه كل من ابن حجر والـذهبي إلى ابـن الفـارض مـن قوله بالاتحاد ، وما يصوران به رأيهما في مذهب الرجل ، يعبر تعبـيرا صـادقا عما يقرران من ضلال هذا المذهب وفساده ، وكفر صاحبه ، فإنه يبقى بعد هذا أن نناقش هذين الرأيين لنتبين هل كـان ابـن حجـر والـذهبي يفهـمان مذهب ابن الفارض فهما سليما مستقيما ملائما لطبيعة أذواقـه ومواجيـده ، أو أنهما كانا يتجنيان على الرجل ، ويرميان مذهبه بما ليس منه في شئ .

ولما كنا سنتناول مسألة الوحدة التي انتهى ابـن الفـارض إلى تقريرهـا والشعور بها في كل من الكتابين الثـاني والثالـث ، فقـد آثرنـا ألا نعـرض هنـا لرأي ابن حجر أو الذهبي أو غيرهما ممن ينسبون ابن الفـارض إلى الاتحـاد

من العقائد الضالة ، إلا بعد أن نتبين حقيقة هذه الوحدة في مواضـعها مـن الكتابين التاليين .

٩ - ولعل من ذكرنـا مـن النـاعين عـلى ابـن الفـارض ، المتهمـين لـه في مذهبه وعقيدته ، لم يكونوا شيئا بالقياس إلى برهان الدين إبراهيم البقاعي المتوفي سنة ٨٥٨ هـ : فقد أفرد كتابين تناول فيهما ابن عـربي وابـن الفـارض، وأبان عن ضلال مذهبهما ، وفـساد عقيـدتهما وانحـلال خلقهـما ، واصـطنع فيهما من الإسراف في التعبير ، والمبالغة في التشنيع ، ما يعطي عـن الـرجلين صورة منفرة من شأنها أن تصرف عن صـاحبيها القلـوب المؤمنـة، وتبغـضها فيهما . هـذان الكتابـان هـما: " تنبيـه الغبـي عـلى تكفـير ابـن عـربي " و " تحذير العباد ، من أهل العنـاد ، ببدعـة الاتحـاد " . ولـيس مـن شـك في أن هذين الكتابين كان لهما أثر قوي في تشويه الـصورة الجميلـة الجذابـة التـي عرضناها لحياة ابن الفـارض الخلقيـة في الفـصل الثـاني مـن هـذا الكتـاب : فقد جمع البقاعي أسماء طائفة كبيرة من علـماء الـدين ، وذكـر كثـيرا مـن الكتب واستند إلى كل أولئك في إثبات ما يرمـي بـه كـلا مـن ابـن عـربي وابـن الفارض من المطاعن التـي تنـال مـن خلقهـما وعقيـدتهما الدينيـة ومـذهبهما الصوفي ، وتضعهما في زمرة الكفرة أو الزنادقة أو الملحدين فهو ينقل مثلا عـن عضد الدين الإيجي صاحب " المواقف " قوله عن ابن عربي وهـو : " أنـه كـان كذابا حشاشا كأوغاد الأوباش " ، وقوله عـن ابـن الفـارض الـذي يبـين فيـه أن الشاعر كان متابعا لابن عربي في ذلك وهو : " ... وقد تبعه في ذلك ابن الفارض حيث يقول : أمـرني النبـي صلى اللــه عليـه وسـلم بتـسمية التائيـة " نظـم السلوك " ، إذ لا يخفى على العاقل أن ذلك من الخيـالات المتناقـضة الحاصـلة من الحشيش ، إذ عندهم أن وجود الكائنات هو اللـه تعالى ، فإذن الكل هـو اللـه، فلا نبي ولا رسول ، ولا مرسل ولا مرسل إليه ... " . ويحاول البقاعي في

كتابيه المشار إليهما أن يوازن بين " فصوص الحكم " لابن عربي وبـين تائيـة ابن الفارض الكبرى ، وتنتهي به الموازنة إلى أن المذهب الذي يقرره الرجلان في هذين الأثرين هو مذهب وحدة الوجود ، وأنه لا فرق بين " الفـصوص " و " التائية " إلا في أن هذه شعر ، في حين أن تلـك نـثر : فـابن الفـارض مـن هذه الناحية كـابن عـربي مـن القـائلين بوحـدة الوجـود التـي هـي في نظـر البقاعي ما هي إلا مـن فـساد العقيـدة وضـلال المـذهب . ومـن هنـا نـرى البقاعي يذكر أسماء العلماء الذين كفروا ابن الفارض وابن عربي بـسبب مـا نقل من حالهما ، وما صدق ذلك مـن كلامهـما . وهـو بهـذا إنمـا يحـاول أن يثبت ما ذهب إليه من أن المتكلمين في ابن عربي كثيرون ، وأنه كان له علم كثير في فنون كثيرة ، وله خداع كثير ، غر به خلقا ، فـأثنى عليـه لـذلك قـوم من المؤرخين خفي عليهم أمـره ، وأن العلـماء اتفقـوا عـلى تكفـيره بحيـث أصبح ذلك أمرا إجماعيا ، وما ذهب إليه أيضا من أن ابن الفـارض لم يوجـد لأحد من أهل عصره ، الخبيرين بحاله ، ثناء عليه بعدالة أو ولاية ، ولا ظهر عنه علـم مـن العلـوم الدينيـة ، ولا مـدح النبـي صـلى اللـه عليـه وسـلم بقصيدة واحدة على كثرة شعره ، فدل ذلك عـلى سـوء طويتـه ، وأن القـدح قد نقل فيه نقـلا قطعيـا عـن محبيـه ومبغـضيه : فقـد قـال شراح تائيتـه ، التابعون لطريقته ، والمنتقدون عليه من أهل السنة ، إن أهل زمانه، وكلهم من أهل الشريعة ، رموه بالفسق والإباحة . وقد أيد البقاعي مذهبه في ابن الفارض ، فعدد نحوا من أربعـين عالمـا ، هـم دعـائم الـدين مـن عـصر ابـن الفارض إلى عصر البقاعي ، وكلهم يرمي الرجل بما ينظمه في سلك الكفرة أو الزنادقـة أو الملحـدين أو الإبـاحيين ، ويجـرح مذهبـه فيجعلـه في عـداد المذاهب الضالة ، والعقائد الفاسـدة . ومـن هـؤلاء العلـماء عـز الـدين بـن عبدالسلام ، وابن دقيـق العيـد ، وتقـي الـدين الـسبكي ، وبـدر الـدين ابـن جماعة وزين الدين الحنفي ، وشرف الدين الزواوي المـالكي ، وسـعد الـدين الحنبلي .

ولم يقف البقاعي عند هذا الحد من ذكر أسماء العلماء ، بـل تجـاوزه إلى ذكر أسماء الكتب التي لأصحابها رأى في كل من ابن عربي وابـن الفـارض ومذهبيهما : فهو يذكر مـن هـذه الكتـب " الميـزان " و " ولـسان الميـزان " وكلاهما لابن حجر العسقلاني ، و " تاريخ ابن كثـير " و " ناصـحة الموحـدين وفاضحة الملحدين " للعلاء البخـاري ، و " الفتـاوي المكيـة " للعراقـي ، و " تاريخ العيني " ، و " شرح التائية " للبـساطي ، و " كـشف الغطـاء " لابـن الأهدل .

وهكذا يتهم البقاعي ابن الفارض وابن عربي في خلقهما ، ويؤيد اتهامه بما عمه صاحب " المواقف " من أنهما كانا يصطنعان الحشيش ، ومن أن ما انتهيا إليه من تقرير الوحدة ونفي الاثنية والكثرة إنما هو ضرب من الـوهم والخيال الذي يحصل في العقل من فعل الحشيش . على أنه إن كان صـحيحا أن بعض الصوفية أقرب إلى غلاة الشيعة ، وإلى الإسماعيلية الباطنيـة بنـوع خـاص فـيما يبيحـون مـن ضـلالات ، ومـا يـأتون مـن منكـرات منهـا تعاطي الحشيش ، وأن مذهب هذا البعض قد انتشر في العامة فـأدى بهـم إلى فنون من الإباحة ، وألوان مـن الحماقـة ومخالفـة الـدين إذ يـصطنعون أشكالا من العبادة يزعمون أنها سبيلهم إلى الـلـه ، وإن كـان صـحيحا أيـضا أن فريقا من الصوفية قـد أتى في سـلوكه بكثـير مـن الأباطيـل ، وفي مذهبـه بطائفـة مـن الأضـاليل إن كـان هـذا كلـه صـحيحا ، فـصحيح أيـضا أن مـن الصوفية طائفة صالحة امتازت بالخلق القويم واعتنـاق المـذهب المـستقيم مع قواعد الشرع وأحكام الدين ، وأغلب الظن عندي أن ابـن الفـارض كـان واحدا من هـذا الفريـق الأخـير ، وأن مـا اتهمـه بـه صـاحب " المواقـف " ،

ونقله عنه البقاعي ، ليس صحيحا : إذ لو كان صحيحا ، لما تهيأ لابن الفارض ما تهيأ له من إجلال الملك الكامل وهو هذا الملك الأيوبي السني بكل ما في الكلمة من معنى . ومعنى هذا بعبارة أخرى أنه لو انتهى إلى الملك الكامل من حال ابن الفارض وسلوكه وطريقته في العبادة ما يشعر من قريب أو من بعيد بأنه كان متأثرا بتعاليم غلاة الشيعة أو متأثرا طريقتهم في العبادة ، لما تردد الملك في محاربته والقضاء على تعاليمه ، ولما وصلنا شئ مما يحدثنا به المؤرخون من إقباله عليه وإكباره له . ولعل فيما ذكره ابن خلكان عن سيرة ابن الفارض في حياته الخلقية ما يكفي لدحض مزاعم البقاعي وعضد الدين ومن إليهما ، لاسيما أن ابن خلكان - بحكم معاصرته لابن الفارض واتصاله به ومشاهدة كثير من حاله - يعد أصدق المصادر في هذا الصدد .

ومهما يكن للمعلومات التي أوردها البقاعي من قيمة تاريخية ومذهبية ، فإننا لا نستطيع مع ذلك أن نبرئه من سوء الفهم في بعض الأحيان ، وسوء النية في بعضها الآخر : فهو حين يقرر أن مذهب ابن الفارض هو عين مذهب ابن عربي في وحدة الوجود ، إنما يدل على أنه لم يفهم الفرق بين اتحاد ابن الفارض من حيث هو حال ، وبين وحدة الوجود عند ابن عربي من حيث هي حقيقة واقعة ، وهو حين يزعم أن شراح تائيته، التابعين لطريقته، والمنتقدين له من أهل السنة ، قالوا إن أهل زمانه، وكلهم من أهل الشريعة ، وأرباب الطريقة ، رموه بالفسق والإباحة ، إنما يتجنى على الرجل ، وعلى معاصريه ، وعلى الحقيقة معا : فلو قد حقق البقاعي هذا كله ، وتحرَى وجه الحق فيه ، وخلص نفسه من شوائب الهوى

والحسد وسوء النية ، فدرس حياة ابـن الفـارض وعـصره ومذهبـه ، دراسـة منزهة عن الغرض لانتهى إلى ما كان ينبغي أن ينتهـي إليـه ، وهـو أن ابـن الفارض كان في حياته الخاصة والعامة مثلا أعلى ، وأن ما عـرف مـن حالـه ، وما ذاع من شعره ، كان موضع إعجاب الملك ، وإكبار العظماء والعلماء من أهل زمانه .

١٠ - وثمة مؤلف متأخر عـاش في القـرن الحـادي عـشر الهجـري ، هـو صالح ابن مهدي المقبلي اليمني صـاحب كتـاب " العلـم الـشامخ ، في إيثـار الحق عـلى الآبـاء والمـشايخ " ، الـذي تنـاول فيـه ابـن عـربي وابـن الفـارض وغيرهما من الصوفيه ، فأوسع أخلاقهم تجريحا ، ومذاهبهم نقدا ونشنيعا ، وهو إنما يستند في أكثر ما يورده إلى ابن تيمية ، وقد سبق أن عرفنا رأيـه في ابن الفارض وابن عربي . وحسبنا أن ذكر هنا ما يراه المقبلي في ابـن الفـارض مذهبه ، فاسمع إليه حيث يقـول : " ... ويكفيـك كـلام ابـن الفـارض الـذي أذعنوا له طرا ما ظاهره الاتحاد ، والتزام الكفر ، والترفع على الأنبياء ، وعلى الجملة فلم يبق مـا يمكـن دعـواه مـن المقامـات الرفيعـة ، ولا مـا تـأتي بـه الخلاعة من البذاءة الشنيعة ، إلا ادعاه " ، لترى أنـه إنمـا يرمـي شـاعرنا بمـا يرميه به هنا لما فهمه من تائيته الكبرى حيـث يعلـن خلـع العـذار في هـذه الأبيات :

خلعت عـذارى واعتـذاري لابـس الـ	خلاعة مـسرورا بخلعـي وخلعتـي ٧٧
وخلع عذارى فيك فرضي وإن أبى اقـ	ـــترابي قـــومي والخلاعـــة ســـني
وليـسوا بقـومي مـا استعابوا تهـتكي	فأبدوا قلًي واستحـسنوا فيـك جفـوني

وأهـلي في ديـن الهـوى أهلـه وقـد رضوا لي عاري واسـتطابوا فـضيحتي ٨٠

فابن الفارض هنا يعلـن أنـه خلـع العـذار ، وأن هـذا الخلـع أو هـذه الخلاعة وما يستتبعان من فضيحة ، كل أولئك أحب إلى نفـسه وآثـر عنـده إلى الحد الذي جعله يتخذ منه مذهبا . والمقبلي لا يفهم هذا الكلام إلا على ظاهره ، ولا يلتفت إلى أن الشاعر إنما يـتكلم رمـزا أو تلويحـا ، ويعـبر عـما يعنيه في لغة الوجد والشطح ، وهي أكثر مـا تكـون مخالفـة للغـة الأحـوال العادية ، ولهذا نراه يحط على الرجل ، ويشنع بـه ، ويرميـه بمـا يـدل عليـه ظاهر لفظه من خلاعة وتهتك وفـضيحة : ولـو قـد فكـر المقـبلي في أن ابـن الفارض من أصحاب الأحوال ، وقدَر ما يكون عليه صاحب الحال من غيبة ، وما يقع تحت سلطانه من وجد وشطح ، وما يعمـد إليـه مـن رمـز وألغـاز بحكم حاله ، لو فكر المقبلي في هذا كله وقدره حق قدره ، لكان أصح فهـما ، وأقوم رأيا ، وأقـرب إلى روح الـصوفية ، ومـا تنطـوي عليـه ألفـاظهم مـن المعاني البعيدة عن ظاهر هذه الألفاظ . وها هو ذا ابن الفارض يبين لنـا في غير تائيته الكبرى ما يعنيه بخلع العذار ، وما ينفي عنه أنه كـان متهتكـا أو إباحيا ، بل هو يتخذ من خلـع العـذار حجابـا يـستر بـه محبوبـه عـن أعـين الناظرين ، صيانة له ، وغيرة عليه ، كما يدل على ذلك قوله :

فجعلـــت خلعـــي للعـــذار لثامـــه إذ كـان مـن لـثم العـذار معـاذا

وبقوله :

ممنعـــة خلـــع العـــذاري نقابهـــا مـسربلة بـردين قلبـي ومهجتـي

وهذا وأشباهه من قبيل الشطحات ، وهـي ألفـاظ موهمـة وعبـارات مبهمة تصدر عن الصوفية في أحوالهم ، ويأخذهم بها أهل الشرع فينسبون بعضهم إلى الخلاعـة والإباحـة عـلى نحـو مـا يفعـل المقـبلي وأشـباهه بـابن الفارض ، ويضعون بعضهم الآخر في زمرة الكفرة والملاحدة على نحو ما فعل أكثر أهل الظاهر بابن الفارض وابن عربي وغيرهما من الصوفية ومهما يكـن من شئ فقد وجدت هذه الشطحات من بعـض أهـل الظـاهر مـن يلـتمس لأصحابها العذر على نحو ما سنذكره بعد عند الكلام على أنصار ابن الفـارض إذ نعد ابن خلدون واحدا منهم على الرغم من أنه كـان أحـد الـذين حطـوا على الصوفية وطعنوا في كتبهم وقصائدهم ، وكان ابن الفارض وبعض شعره موضعا لهذا الحط والطعن كما سبق بيانه آنفا .

ويذهب المنكرون على ابن الفارض إلى أبعد مما ذكر : فهـم لا يقفـون عند حـد الإرجـاف والتـشنيع بمـذهب الرجـل وعقيدتـه ، ومـا شـوهد مـن حاله إبان حياته فحسب ، بل هـم يتجـاوزون هـذا كلـه إلى التـشنيع عليـه فيما يحكي عنه من تمثيل الجنة له عند ما حـضرته الوفـاة ، ومـا صـدر عنـه من كلام بعضه نثر وبعـضه شـعر وهـو في تلـك الحـال ، : فهـؤلاء المنكـرون يقولون إنه لما كـشف لـه الغطـاء وتحقـق أنـه غـير اللــه ، وأنـه لا حلـول ولا اتحـاد، قـال مـا قـال . ونحـن لا نـشك في أن الإنكـار هنـا راجـع إلى أن أصحابه يتمسكون بحرفية ما يقرءون مـن كـلام ابـن الفـارض وشـعره ، ويحكمون عليه من حيـث دلالتـه الظاهريـة ، صـارفين النظـر عـن أن مـن صدر عنه هذا الكلام أو هذا الشعر كان صوفيا خاضعا لأحوال ومواجيد لهـا أثرها في حياته النفسية ، ولابد من أن يكـون لهـا صـدى فـيما يقـول ، فـإذا

قوله ينطوي على ما يظنه أهـل الظـاهر خلاعـة ، أو تهتكـا ، أو حلـولا ، أو اتحادا، والواقع أنه ليس من هذا كله أو بعضه في شئ بل كل ما هنالك أنـه قول قيل بلسان الحال ، وصاحب الحال معذور لأنه لا يملك من أمـر نفـسه شيئا.

١١ - على أن الـسيد محمـد أمـين أفنـدي واعـظ الحـضرة القادريـة في بغـداد المتـوفي سـنة ١٢٧٣ هـ قـد كتـب عـلى عبـارة الجـوهر لمحمـد بـن عبدالرحيم الحنفـي المنقولـة في تأويـل بعـض كلـمات الـصوفية ، وأنهـا قـد صدرت منهم في شطحاتهم وسكرتهم وغيبـتهم ، مـا يفيـد أن مـن الواجـب إنكار هـذه الـشطحات، وأن منكرهـا مثـاب عنـد اللـــه ، لأنهـا عنـده مـن الضلال والكفر، وليست من الشطحات والسكر . وضرب لهـذا مـثلا بأبيـات ابن الفارض التي يتحدث فيها عن اتحاده بمحبوبته الحقيقيـة وهـي الـذات العلية فيقول :

لهـــا صـــلواتي في المقـــام أقيمهـــا	وأشـــهد فيهـــا أنهـــا لي صـــلت ١٥٢
كلانـــا مـــصلَ واحـــد نـــاظر إلى	حقيقتـــه بـــالجمع في كـــل ســـجدة
ومـا كـان لي صـلى سـواي ولم تكـن	صـلاتي لغـيري في أداكـل ركعـة ١٥٤

١٢ - وظاهر من كل ما قدمنا من المطـاعن ، أنهـا عـلى كثرتهـا وتعـدد الموجهين لها تكاد تدور حول محور واحد ، هو أن ابن الفارض من المعتنقين لوحدة الوجود ، والقائلين بالاتحـاد والحلـول ، وهـذا يكفـي مـن غـير شـك لأن يجعل منه خارجـا عـلى تعـاليم الكتـاب والـسنة . إلا أن دراسـة حياتـه الصوفية التي قدمناها في الفصل الثـاني مـن هـذا الكتـاب ، وتحليـل شـعره بصفة عامة ، وتائيته الكبرى وخمريتـه بـصفة خاصـة ، وهـو هـذا التحليـل

الذي سنقدمه في الكتابين الثاني والثالث من هذا البحث ، قد أعاننا على فهم مذهبه فهما إن لم يكن مستقيما من كل الوجوه ، فهو على الأقل ملائم لطبيعة الحياة النفسية التي كان يحياها الرجل ، ومطابق لمقتضيات الأحوال الصوفية التي كانت تتعاقب على نفسه :

فانهينا إلى أن مذهب ابن الفارض ليس وحدة الوجود ، ولا ما إليها من الاتحاد والحلول ، بل الأمر عنده لا يتجاوز الوحدة اللفظية التي لم يستطع شاعرنا ، وقد وصل من حبه إلى آخر أطواره ، وهو طور الفناء عن نفسه والشعور بالبقاء في محبوبته وهي الذات العلية ، إلا أن يصطنعها في التعبير عن حاله . وأكبر الظن أن يكون ابن الفارض قد التمس الألفاظ والعبارات التي يترجم بها عن نفسه ، وعما انتهى إليه في حبه من وصال محبوبته ، وأنسه بها ، وإلغاء التفرقة بينه وبينها ، فلم يجد خيرا من معجم وحدة الوجود يسعفه بالألفاظ والعبارات التي صور فيها حاله ، وكانت سببا في أن أنكر عليه المنكرون ، وشنع به المشنعون ، الحق أن كل أولئك كانوا من المسرفين .

١٣ - على أن ابن الفارض وإن كان قد عني بكثرة الناعين عليه ، فهو مع ذلك لم يعدم أنصارا يذودون عنه ، ويدفعون من دونه ما حام حوله أو حول مذهبه من شبهات . ولقد كان بعض هؤلاء الأنصار من أصحاب السلطان ، وأهل العلم ، ورجال الدين ، الذين لهم من المكانة العظمى والشأن الكبير في مسائل الدين وأحكام الشرع ، ما لا سبيل معه إلى الشك في إيمانهم ، أو التردد في الاطمئنان إلى حكمهم . ولا نعني بهذا ما سبق أن بيناه في سياق هذا الفصل

، وفيما سبق من فصول هذا الكتاب ، مما ظفر به ابن الفارض من إجلال معاصريه ، سواء في ذلك من كان ملكا ، ومن كان وزيرا ، أو أديبا ، أو فقيها ، أو محدثا ، وإنما الذي نعنيه هنا هو هذا التقدير الذي كان لشاعرنا في نفوس الأجيال التي جاءت بعد مماته : فقد أعلن السلطان قايتباي نصرته لابن الفارض وسط ما كان قائما في عهده من الخصومات العنيفة ، والآراء المتضاربة في أمر شاعرنا ومذهبه . وعندما استقرت الدولة العثمانية في مصر ، أمر السلطان في سنة ٩٢٤ هـ بتلاوة القرآن خلال شهر رمضان في سبعة أماكن معروفة بالقاهرة، كان من بينها مسجد ابن الفارض . وفي سنة ٩٢٦ هـ أصدر القاضي الشافعي زكريا بن محمد الأنصاري فتواه التي برأ فيها ابن الفارض مما نسبه إليه خصومه ، ونسبوه به إلى العقيدة الضالة . وقد كان الفقيه الشافعي أحمد بن حجر الهيثمي المتوفي سنة ٩٧٣ هـ ممن دافع عنه ، وردَ من دونه طعن الطاعنين .

١٤ - ونحن - إن كنا قد عددنا ابن خلدون بين خصوم ابن الفارض - نستطيع هنا أن نعده بين أنصاره ، ولو أنه لم يصرح بذلك : فقد عرفنا من حياة ابن الفارض أنه صاحب غيبة وأحوال ، وأشرنا إلى أنه كان في مذهبه متأثرا بهذه الغيبة وهذه الأحوال ، فصدر عنه ما صدر من الشطحات . وهنا نستطيع أن نتخذ من ابن خلدون نصيرا من أنصار ابن الفارض ، وذلك فيما يراه في هذه الشطحات حيث يقول : " إن الإنصاف في شأن القوم أنهم أهل غيبة عن الحس ، والواردات تملكهم حتى ينطقوا عنها ما لا يقصدونه ، وصاحب الغيبة غير مخاطب والمجبور معذور . فمن علم منهم فضله واقتداؤه ، حمل على القصد الجميل من هذا . وإن

العبارة عن المواجد صعبة لفقدان الوضع لها ، كما وقع لأبي يزيد وأمثاله . ومن لم يعلم فضله ، ولا اشتهر ، فمؤاخذ بما صدر عنه من ذلك إذا لم يتبين ما يحملنا على تأويل كلامه . وأما من تكلم بمثلها وهو حاضر من حسه ولم يملكه الحال فمؤاخذ أيضا ، ولهذا أفتى الفقهاء وأكابر المتصوفه بقتل الحلاج لأنه تكلم في حضور وهو مالك لحاله والله أعلم " . فإذا ذكرنا ما كان عليه ابن الفارض في حياته من غيبة عن الحس قد يطول أمدها حينا وقد يقصر حينا آخر ، واستعدنا ما سبقت الإشارة إليه من أن يذهب بما يذهب إليه الشاعر عن بعض أبياته يمكن أن يعد من قبيل الشطحات ، وقاربنا بين ما يقرره ابن خلدون في النص الآنف الذكر ، وبين ما عرفناه من حياة ابن الفارض ومذهبه ، رأينا إلى أي حد يمكن أن يعد ابن خلدون مدافعا هنا عن أهل الواردات والشطحات الذين كان ابن الفارض واحدا منهم .

١٥ - ويلوح أن أكثر المدافعين عن ابن الفارض تعصبا له ، وتحمسا لدافع الشبهة عنه ، هو جلال الدين السيوطي المتوفي سنة ٩١١هـ : فقد أفرد كتيبا وضعه في صورة مقامة وسماه " قمع المعارض بنصرة ابن الفارض"، وتناول فيه المنكرين على الشاعر الصوفي بالتجريح الذي هو أدنى ما يكون إلى الهجاء المقذع منه إلى النقد العلمي البرئ ، وحاول أن يدفع من دون الرجل مزاعم خصومه ومطاعنهم مستدلا بما كان له في نفوس معاصريه من أهل الشريعة والحقيقة وأصحاب الحديث ، من مكانة عظيمة وشأن جليل : فهو يقول عن خصوم ابن الفارض " إنهم لم يقفوا عند نص القرآن ، ولا هم امتثلوا ما ورد عن سيد ولد عدنان ، ولا هم علموا ما قرره أئمة الشان ، ولا هم جنحوا إلى طريقة

جارية على قانون الحق والفرقان " . وهو يسقط حجة هؤلاء الخصوم فيقول عن ابن الفارض نفسه : " ... ألم يجتمع به الشهاب السهروردي ، وحلاه بالطراز اللازوردي ، ومقامه في علم الشريعة والحقيقة معروف ، ومحله في العظمة والجلالة مرسوم وموصوف ، وقد كان داعيا مرشدا ، ومسلكا به يقتدي ، فلا أنكر عليه ، أو حذر الناس مما لديه ، بل شهد له بالمحبة ، ودل عليه تلامذته وصحبه ؟ ! ألم يجتمع به حافظ عصره وزاهده الشيخ زكي الدين المنذري وغيره من حفاظ الحديث ؟ .. وكم إمام كان في عصره ، في حجازه وشامه ومصره ، ما منهم أحد وجه إليه إنكارا ، ولا حط مقدارا ، ولا هدم له منارا ، وذلك لما شاهدوه من سنى أحواله ، وتواتر عندهم من أنه محب عاشق واله " . وقد أشار السيوطي بعد هذا إلى البلقيني المتوفى ٩٣٠ هـ ، وقد سئل عن رأيه في ابن الفارض ، فأجاب بقوله : " ما أحب أن أتكلم فيه " ، وإلى أن البلقيني حين أنكر بعض أبيات ابن الفارض ، لم ينكرها إلا خشية اعتقاد ظاهرها . وانتهى السيوطي إلى أنه لا يلزم من هذا الإنكار تنقيص من يوجه إليه أو ازدراء مقامه ، وإلى أن الأسلم هو أن يحسن الظن بالصوفية من أمثال ابن الفارض ، وأن نحمل كلامهم على محامله المقبولة وتأويلاته الحسنة : فقد تضافرت نصوص الأئمة على التحذير من الإنكار والرجوع إلى حسن التأويل .

١٦ - على أن أنصار ابن الفارض من الصوفية أكثر من أن نحصيهم ونلم بمظاهر تعصبهم له وتأثرهم به . ولعلنا حين نكتفي بذكر الذين ذكرنا من المنتصرين لشاعرنا ، إنما نقصد إلى إثبات أن أهل الظاهر لم يكونوا كلهم من المنكرين على الصوفية وعلى ابن الفارض الذي كان واحدا منهم . أما أهل الباطن والكشف فهم بطبيعة الحال أحق بنصرة ابن الفارض ، وذلك بحكم مشربهم وذوقهم اللذين هما عين مشربه وذوقه ، الأمر الذي ينبني عليه أن

يكون دفاعهم متأثرا بتعصبهم لمن كان من أهل طريقتهم . ومع هذا فسنذكر هنا على سبيل المثال واحدا من الصوفية هو عبدالوهاب الشعراني المتوفي سنة ٩٧٣ هـ والذي حاول أن يؤيد طريقة الصوفية ، وأن يوفق بين الحقيقة والشريعة بصفة عامة ، وأن يبرئ ابن الفارض وابن عربي مما نسب إليهما بصفة خاصة : فالشعراني يذكر ابن الفارض في مواضع متفرقة من كتبه الكثيرة ، ولا يذكره إلا بقوله " سيدي عمر بن الفارض " . وهو يذكر أنصاره والمتأثرين له والآخذين عنه ، والناقدين لمزاعم خصومه ، وينتهي من هذا كله إلى أنه كان من أولياء الله الصالحين الذين يجب اعتقادهم والإكبار من شأنهم وعدم الإنكار عليهم . يضاف إلى هذا ما حاوله الشعراني في كتابه " اليواقيت والجواهر ، في بيان عقائد الأكابر " من مطابقة بين عقائد أهل الكشف ، وعقائد أهل الفكر، وذلك ليتأيد كلام أهل كل دائرة بالأخرى . ناهيك بما ينقله الشعراني عن شيخ الإسلام زكريا الأنصاري من قوله إن كلام الأئمة لا يخلو عن ثلاثة أحوال : فإما أن يوافق صريح الكتاب والسنة ، وهذا يجب اعتقاده جزما، وإما أن يخالف صريح الكتاب والسنة ، وهذا يحرم اعتقاده جزما ، وإما ألا يظهر لنا موافقته ولا مخالفته ، وهذا أحسن أحواله الوقف .

١٧ - وإذا كان ابن الفارض واحدا من الصوفية الذين اختلف الناس حوالهم ، وذهبوا مذاهب شتى في أمر عقيدهم وإيمانهم ، وكان من شعره مالا سبيل إلى أن يقطع فيه برأي ، وكان من هذا الشعر ما قيل بلسان الحال ، مما جعل المسائل التي عرض لها في غاية الدقة والخفاء لكثرة شبهها ، واختلاف قرائنها ، وتفاوت دواعيها ، واصطباغها بهذه الصبغة النفسية التي تجعل فهمها عسيرا على الذين لم يكابدوا أحواله ومواجيده ،

و الذين يريدون أن يخضعوا هذه المسائل للعقل الذي يقول عنه ابن الفارض نفسه إنه لا يستطيع أن يدرك ما ينكشف للسالك عن طريق ذوقه ، وذلك في هذين البيتين من تائيته الكبرى :

فثم وراء العقل علم يدق عن مدارك غايات العقول السليمة ٦٧٥

تلقيته مني وعني خذته ونفسي كانت من عطائي ممدتي ٦٧٦

إذا كان ذلك كذلك ، فقد ترتب عليه إذن أن نقف من ابن الفارض مذهبه موقفا معتدلا ، فنأخذ ما يتمشى من أحواله وأقواله مع الشرع على ما هو عليه ، ونؤول ما يحتاج إلى التأويل من الأقوال والأحوال ، على محامله الحسنة إن كان إلى ذلك سبيل ، وإلا فإنكاره أولى إذا كان مخالفا للشرع مخالفة صريحة واضحة لا تقبل شكًا ولا جدالا . لاسيما أن الحكم على أذواق الصوفية وأقوالهم التي تعبر عن مذاهبهم ، وما عسى أن يكون فيها موافقة أو مخالفة لأحكام الكتاب والسنة ، كل أولئك يستدعي - كما يقول تقي الدين السبكي - " معرفة طرق جميع أهل اللسان من سائر قبائل العرب في حقائقها وجازاتها واستعارتها ، ومعرفة دقائق التوحيد وغوامضه ، إلى غير ذلك مما هو متعذر جدا على أكابر علماء عصرنا فضلا عن غيرهم " . ومعنى هذا بعبارة أخرى أن الخير كل الخير هو ألا نساير الهوى ، ولا نحكّم سوء النية أو سوء الفهم ، عندما نريد أن نحكم حكما سليما مستقيما إلى حد بعيد على كل من صدر عنه لفظ غامض أو عبارة مبهمة يمكن أن يؤولا تأويلات مختلفة لعل في بعضها ما يحسن الظن بصاحبه ، وأن يكون رائدنا هو ذلك المبدأ الأسمى الذي قرره رسول الله

صلى اللـه عليه وسلم في قوله : " لأن يخطئ الإمام في العفو ، أحب إليَ من أن يخطئ في العقوبة "

وهكذا نرى من كل ما تقدم في فصول هذا الكتاب الأول من بحثنا، أن حياة ابـن الفـارض وشخـصيته وديوانـه ومذهبـه ، كـل أولئـك كـان خليقـا بالدرس والتحليل والتعليل بحيث يتهيأ لنا إعطاء صـورة ، إن لم تكـن تامـة من كل الوجوه ، فليس أقل من أنها مقاربة لما كـان عليـه الرجـل في حياتـه العامـة والخاصـة ، وكافيـة لتكـوين فكـرة عـن مكانتـه مـن تـاريخ الحيـاة الروحية في الإسلام ، وأثره في الحياة الدينية والفكرية سـواء في عـصره أم في العصور التي تعاقبت بعد ذلك ، أما حبه الذي قضى حياته هاتفا به ومـرتلا أناشيده ، وما لهذا الحب من أطـوار يـسمو بعـضها عـلى بعـض ، ويختلـف بعضها عن بعـض ، ومـا ينطـوي عليـه هـذا الحـب مـن المعـاني الـصوفية ، والأذواق الروحية ، وتحليله من الناحية النفسية ، فذلك كله ما سنحاول أن نكشف عنه في الكتاب التالي .

الكتاب الثاني

حب ابن الفارض وأطواره

الحب الإلهي قبل ابن الفارض

١ - احتفظ تاريخ الآداب العربية الإسلامية بألوان أربعة للغزل امتاز كل منها بطابع خاص بطبعه ومثل أعلى يطمح إلى تحقيقه :

(١) غزل العذريين وهم الذين كانوا يرتلون في شعرهم أنشودة الحب العفيف ، ومنه شعر مجنون ليلى وجميل بثينة ، وكثير عزة .

(٢) غزل الإباحيين أو المحققين كما يسميهم أستاذنا الجليل الدكتور طه حسين ، وهم الذين كانوا يصورون في شعرهم الحب المادي ، ويصفون لذاته العملية ، وزعيمهم عمر بن أبي ربيعة .

(٣) الغزل العادي الذي ليس في حقيقة الأمر إلا استمرارا لغزل الجاهليين المألوف .

(٤) غزل الصوفية الذين اتخذوا من الشعر أداة يستعينون بها على بث حبهم للذات الإلهية ، ووصف أحوالهم ومقاماتهم في طريق هذا الحب، وزعيمهم عمر بن الفارض الذي يعد شعره في الحب الإلهي أرقى وأسمى ما وصل إليه الغزل الصوفي العربي من دقة الوصف ، ورقة الشعور ، وخفة الروح ، والذي يعنينا من هذه الألوان الأربعة للغزل هو من غير شك غزل الصوفية الذي يحسن أن نلم به هنا إلمامة

يسيرة تمهيدا لدراسة حب ابن الفارض وأطواره ومعرفة هل كان هذا الحب إلهيا أو غير إلهي .

٢ - يظهرنا تاريخ التصوف الإسلامي على أن الحياة الروحية في الإسلام ، كانت في أول عهدها بالظهور عبارة عن هذا الزهد الذي أخذ يقوى ويشتد سلطانه على نفوس الزهاد والعباد : ففي الفترة التي تقع بين سنَي ٤٠ هـ و ١١٠ هـ ، ازداد عدد الزهاد الذين انشروا في البصرة والكوفة والمدينة ، وحدثتنا عنهم كتب الطبقات ، وصورت لنا ما كانوا يأخذون به أنفسهم من مجاهدات ورياضات قوامها الزهد والتقشف الورع . ولو أردنا أن نميز هذا الطور من أطوار التصوف الإسلامي بميزة خاصة ، لرأينا أن أخص ما كان يمتاز به زهد الزهاد ، وعبادة العباد فيه ، أنهم كانوا يصدرون عن الخوف من النار والطمع في الجنة، وبعبارة أخرى أنهم كانوا يعبدون الله عبادة مشوبة بغرض يسعون إليه من وراء هذه العبادة وهو أن يثيبهم الله بإدخالهم الجنة التي أعدها لعباده المتقين .

ولعل أظهر الشخصيات التي ظهرت في هذه الفترة ومثلت روح العصر تمثيلا واضحا قويا ، هي شخصية الحسن البصري (٢١ - ١١٠ هـ): فقد كان الحسن البصري زاهدا في هذه الحياة الدنيا ، مزدريا لها ، وكان يعبر عن زهده بالحزن الدائم الذي يعد في رأيه خير ما ينمو به العمل الصالح . هذا فيما بينه وبين نفسه ، أما فيما بينه وبين الله فقد كان الحسن مخوفا إلى أبعد حدود الخوف الذي يرى أنه ليس ثمة شئ خير منه ينمي التقوى . وليس أدل على إسراف الحسن في الخوف ، إذعانه له ، من قول الشعراني عنه : " كان قد غلب عليه الخوف حتى كأن النار لم تخلق إلا له".

٣ - وبينما كانت حياة الزهاد في القرن الأول للهجرة ، وفي شطر من القرن الثاني ، على ما كانت عليه حياة الحسن من زهد قوامه الخوف من عذاب النار ، والشوق إلى ثواب الجنة ، إذا بالحياة الصوفية ترقى رويدا رويدا ، فتتجه وجهة أخرى لا يدفعها إليها خوف من عقاب ، أو طمع في ثواب ، إنما الذي يدفعها هو حب الله حبا لا يقصد به إلا مطالعة وجهه الكريم ، والاستمتاع بجماله الأزلي . وأغلب الظن أن أول من أخرج التصوف عن تأثره بعامل الخوف ، وأخضعه لعامل الحب ، هي هذه الزاهدة العابدة العاشقة: رابعة العدوية المتوفاة سنة ١٨٥ هـ والتي يقول عنها الأستاذ ما سينيون ، إنها تركت في الإسلام أريجا من الولاية لن يتبخر ، وإنها استعملت في غير تردد لفظة الحب في العشق الإلهي معتمدة على ما ورد في القرآن ، وإننا إن كنا نرى غير رابعة من زهاد عصرها وعباده قد تغنى " الحب " أو " العشق " ، فإن أحدا من هؤلاء الزهاد أو العباد لم يسبق رابعة إلى استعمال لفظة " الحب " استعمالا صريحا ، وتوجيهه إلى الله توجيها قويا ، وربطه بالكشف هذا الربط الذي تظهرنا عليه أبياتها المشهورة التي تقول فيها :

أحبك حبين : حب الهوى	وحبا لأنك أهل لذاكا
فأما الذي هو حب الهوى	فشغلي بذكرك عمن سواكا
وأما الذي أنت أهل له	فكشفك لي الحجب حتى أراكا
فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي	ولكن لك الحمد في ذا وذاكا

فأنت ترى من هذه الأبيات أن رابعة تناولت فيها الحب الإلهي بشكل صريح ، وأنها قسمت هذا الحب إلى قسمين : حب الهوى ، وهو

عبارة عن شغلها بذكر الله عمن سواه ، وحب الله لذاته ، وهو هذا الحب الذي تطالع فيه جمال الربوبية ، وأن أعلى الحبين وأرقاهما هو من غير شك حب الله الذي تجرد عن الهوى ، وقصد به إلى مشاهدته ، واجتلاء طلعته . وهذا الحب الثاني المجرد عن الهوى ، المنزه عن الغرض ، هو من غير شك ما كانت تؤثره رابعة على غيره ، كما يدلنا على ذلك قولها في إحدى مناجاتها : " إلهي إذا كنت أعبدك رهبة من النار فاحرتني بنار جهنم ، وإذا كنت أعبدك رغبة في الجنة فاحرمنيها ، وأما إذا كنت أعبدك من أجل محبتك ، فلا تحرمني يا إلهي من جمالك الأزلي " ، وقصتها مع سفيان الثوري ، وقد سألها ما حقيقة إيمانها ، فأجابته بقولها : " ما عبدته خوفا من ناره ، ولا حبا لجنته ، فأكون كالأجير السوء ، بل عبدته حبا له وشوقا إليه" . وسنرى عند تحليلنا لحب ابن الفارض ، وتقسيمه إلى أطوار ثلاثة ، كيف كان الشاعر متأثرا بمذهب رابعة إلى الحد الذي يمكن اعتباره معه تلميذا لها في الحب الذي لا يوجهه خوف من نار أو طمع في جنة ، بل إن غرضه الأسمى هو الظفر بنظرة من وجه المحبوبة الحقيقية كما تظهرنا على ذلك قصة احتضاره ، وتمثل الجنة له .

ولو استطردنا في ذكر تاريخ لفظة " الحب " أو " المحبة " واستعمالها في التصوف الإسلامي لرأينا أن رابعة كانت صاحبة الفضل كل الفضل على من جاء بعدها من صوفية المسلمين الذين اصطنعوا لفظة " الحب " في غير ما تردد أو إبهام . ولو نظرنا فضلا عن هذا إلى أقوال بعض الصوفية الذين عاصروا رابعة . أو سبقوها ، لتبينا مقدار الأثر الذي تركته هذه المرأة في الحياة الروحية ، ولعرفنا قيمة هذا التوجيه الجديد الذي وجهته لها : فنحن نلاحظ مثلا أن مالك

بن دينار المتوفي سنة ١٣١ هـ ، لم يكن يستعمل في أقواله لفظة " الحب " فيما يتعلق بالله ، ولكنه كان يستعمل بدلها لفظة " الشوق " . ونلاحظ أيضا أن عبدالواحد ابن زيد المتوفي سنة ١٧٧ ، هـ كان يؤثر لفظة " العشق " على لفظة " المحبة " التي رفضها لأنها في رأيه أثر من الآثار اليهودية والمسيحية . ومع أن عبدالواحد بن زيد كان من الفقهاء ، إلا أنه خالفهم باستعماله لفظة "العشق"، للدلالة على الحب الإلهي ، وهذا غير جائز في حق الله لأن العشق هو - كما قال أبو علي الدقاق - مجاوزة الحد في المحبة ، والحق سبحانه لا يوصف بأنه يجاوز الحد ، فلا يوصف بالعشق ، ولا يقال أيضا إن عبدا جاوز الحد في محبته لله تعالى . ومهما يكن من رأي الفقهاء في العشق ، ومنافاته للذات الإلهية ، فقد فضله عبدالواحد بن زيد على المحبة في القرن الثاني للهجرة ، كما أن صوفيا من صوفية القرن الثالث ، هو أبو الحسين النوري المتوفي سنة ٢٩٥ هـ رأي أن العشق ليس بأكثر من المحبة .

وما زالت لفظة " الحب " مختفية من معجم الاصطلات الصوفية ، حتى كانت رابعة ، وكانت أقوالها المنظومة والمنثورة ، ففتحت بها هذا الفتح الجديد ، وأضافت إلى المعجم الصوفي لفظة لا كغيرها من الألفاظ التي تستعمل دون أن يكون لاستعمالها أثر في توجيه العواطف والأفكار ، ولكنها لفظة غيرت وجه الحياة الصوفية ، ووجهتها وجهة جديدة ، ودفعتها إلى تحقيق غاية سامية جديدة لا صلة بينها وبين الخوف من العقاب ، أو الأمل في الثواب .

٤ - أخذت لفظة " الحب " تشيع في أقوال الزهاد والعباد الذين عاشوا بعد رابعة : فهذا هو معروف الكرخي المتوفي سنة ٢٠٠ أو ٢٠١ هـ ، تبين لنا

أقواله على قلتها وقصرها ، أنـه قبـل اللفظتـين اللتـين كانـت تـدور حـولهما المناقشات في مدرسة بغداد وهما الطمأنينة (= المعرفـة) والمحبـة . وهـذا أيضا هو الجنيد المتوفي سنة ٢٩٧ هـ ، قد استعمل لفظة المحبة ، وقـال فيهـا كلاما يعده صوفية وقته خير ما قيل في تحديدها ، وفضلا عن هذا كله فإننـا نلاحظ أن عناية الصوفية بمسألة المحبة ودراستهم لها بلغت شـأوا بعيـدا في القرن الثالث للهجرة ، حتى إن أحدهم وهو المحاسبي المتوفي سنة ٢٤٣ هـ ، وضع فيها فصلا خاصا هو أشبه ما يكون برسالة ، تحدث فيه عن أصل حب العبد للرب ، وأن هذا الحب منة إلهية ، أودع الـلـه بذرتها في قلوب محبيه ، كما تحدث عن اتحاد المحب بالمحبوب ، وكشف أسرار الوجود عن طريـق هذا الاتحاد . وكان ذو النون المصري المتوفي سنة ٢٤٥ هـ ، من صوفية القرن الثالث الذين استعملوا في غير تردد لفظة الحب ، كـما كـان أول مـن فـصل مسألة المعرفة . ولدينا من رجال المدرسة الخراسانية في ذلـك القـرن يحيـى بن معاذ الرازي المتوفي سنة ٢٥٨ هـ ، نراه يـستعمل لفظـة الحـب اسـتعمالا صريحا ، ويقول عنه الأستاذ ماسينيون إنه أول مـن أعلـن حبـه لله في شـعر صريح الأسلوب .

وهكذا شاعت لفظة الحب أو المحبة في أقوال الصوفية ورسائلهم إبان القرن الثالث للهجرة شيوعا أخذ شكله الجذاب القوي في الحلاج المتوفي سنة ٣٠٩ هـ ، بالذي ترك في مسألة المحبة ، وما يتصل بها ثروة خـصبة اسـتغلتها الصوفية في العصور التي جاءت بعده اسـتغلالا قويـا . خلـف الحـلاج آثـارا كثيرة في المحبـة ، بعـضها منظـوم وبعـضها منثـور ، وكلهـا واضـح صريـح في دلالته على أن الرجل قصد بها إلى حب الـلـه ، ووصف مـا أحـسه فيـه مـن الأحوال والمواجيد ، وما انتهى إليه فيه من الاتحاد حينا والحلول حينا آخر .

٥ - وعلى هذا النحو من الذيوع والانتشار أخذت مسألة المحبة تحتـل من نفوس الصوفية ومؤلفاتهم المحل الأرفع ، فعدها بعضهم من المقامـات، وعدها بعضهم الآخر من الأحـوال ، وأفـردوا لهـا مـن هـذه الكتـب فـصولا خاصة يحللونها فيها ويحددونها، ويكشفون عن وجه الحق فيها تـارة بكـلام منظوم ، وتارة بكلام منثور . وإن نظرة إلى " التعرف لمذهب أهل التـصوف " للكلاباذي المتوفي سنة ٣٨٠ هـ و " قوت القلوب " لأبي طالب المكي المتوفي سنة ٣٨٦ هـ و " كشف المحجوب " للهجويري المتـوفي سـنة ٤٥٦ هـ أو ٤٦٤ هـ ، و " الرسالة " للقشيري المتوفي سنة ٤٦٥ هـ ، و " إحيـاء علـوم الـدين " للغزالي المتوفي سنة ٥٠٥ هـ ، و " محاسـن المجـالس " لابـن العريـف المتـوفي سـنة ٥٣٦ هـ - تكفـي لأن نقـف مـن خلالهـا عـلى مقـدار عنايـة المـؤلفين الصوفيين بهذه المسألة ، ومحاولتهم إثبات ما دار حولها من آراء ، وما قيـل فيهـا مـن أقـوال كانـت بمثابـة المـواد الأوليـة التـي اعتمـد عليهـا الـشعراء الصوفيون المتأخرون في نظم أشعارهم في الحب الإلهي .

٦ - وعن هذا الحب صـدرت طائفـة قيمـة مـن الـشعر الغـزالي الـذي استعان به أصحابه على الإعراب عما تتأثر به نفوسـهم مـن المواجيـد ، ومـا يتعاقب على هذه النفوس من الأحوال . وليس من شك في أن ما يدخل مـن هذا الشعر في باب الغزل الإلهي ، لم يقصد به أصحابه الجمال الفني لذاته ، ولا الصناعة الشعرية من حيث هي ، وإنما هو ضرب من التعبير وجده أكثر ملاءمة لحقائقهم ، وتصوير ما تكنه سرائـرهم مـن ناحيـة ، ورأوا أنـه أقـدر عـلى التـأثير في الـسامع تـأثيرا قويـا ، وأدعـى إلى إهاجـة العاطفـة ، وإثـارة الـشعور مـن ناحيـة أخـرى . وإنـك لـتراهم قـد عمـدوا في هـذا الـشعر إلى

الحب وما يتصل به من ذكر أسماء المعشوقات ، والوصل والهجر ، والقرب والبعد ، وإلى الخمر وما يتصل بها من حان وألحان ، وكأس وندمان ، وغير ذلك من الأشياء التي توجد عادة في الشعر الغرامي والخمري ، الذي يعبر به عن عاطفة إنسانية نحو معشوقة آدمية ، وعن حالة نفسية هي السكر الناشئ من تناول الخمر المستخرجة من الكرم ، ومن هنا صعب التمييز بين الشعر الغزلي والخمري العادي ، وبين الشعر الصوفي ، ومن هنا أيضا ترى فريقا من الأوربيين قد ذهب إلى اتهام الصوفية بالتهالك على الشهوات الحسية ، واللذات العملية ، كما زعم كليمان هوار ، من أن ابن الفارض كان شاعرا خمريا ، أحب الخمر المعصورة من الكرم حبا عنيفا ، ناهيك بما ترتب على اصطناع شعراء الصوفية ألفاظ الغزلين والخمريين من اتهام رجال الدين لهم بالفسق والإباحة ، ورميهم إياهم بالكفر أو الزندقة ، وناهيك أيضا بما يظنه العامة من أن ألفاظ الحب وعباراته ، وأوصاف الخمر والتغني بها ، ليس أشياء أخرى غير ما يدل عليه ظاهرها: فإما أنها رموز وإشارات، أو كتابات وتلويحات ، لها من معاني العميقة ما يجل عن فهم من ليس من أصحاب الأذواق الروحية والأحوال الصوفية ، فذلك ما لا يقبله العامة ، ولا تسيغه عقولهم ، ولا تطمئن إليه نفوسهم . وحسبنا أن نشير هنا إلى ما وجه إلى ابن عربي من طعن رجال الدين ، وما علق بنفوس العامة من سوء ظن به ، وسوء فهم شعره الغزلي الذي يصور به حبه الإلهي في ديوانه " ترجمان الأشواق " : فقد كان كل أولئك حافزا لهذا الصوفي الكبير إلى أن يضع بنفسه شرحا لهذا الديوان ، يبين فيه مراميه ، ويوضح ما خفي على العامة من معانيه .

٧ - وقـد يتـساءل الـبعض : لم لم يعـبر الـصوفية عـن حـبهم الإلهـي في ألفاظ صريحة ، وعبارات واضـحة ، بينـة التوجيـه ، بـدلا مـن اصـطناع هـذا الأسلوب الرمزي الذي يولد كثيرا من الخلط والاضـطراب ، ويـؤدي إلى إلقـاء كثير من الشبه على من يتأثر هذا الأسلوب ؟ ويجيب الصوفية أنفـسهم عـن هذا الـسؤال بمـا يفيـد أنهـم يـؤثرون الإشـارة عـلى العبـارة ، ويعمـدون إلى التلميح دون التصريح ، سترا لحقائقهم ، وكتما لأسرارهم ، وغـيرة عـلى هـذه الحقائق والأسرار من أن تشيع في غير أهلها ، أو تتكشف لمن ليس أهلا لهـا ، وها هو ذا القشيري يعلن إيثار الصوفية هذا اللون من الأسـلوب فيقـول : " إن لكل طائفة من العلماء ألفاظا يستعملونها ، انفـردوا بهـا عمـن سـواهم ، وتواطئوا عليها لأغراض لهم فيها ، من تقريب الفهم على المخـاطبين بهـا ، أو تسهيل على أهل تلـك الـصنعة في الوقـوف عـلى معـانيهم فإطلاقهـا . وهـذه الطائفـة (يعنـي الـصوفية) يـستعملون ألفاظـا فـيما بيـنهم ، قـصدوا بهـا الكشف عن معانيهم لأنفسهم ، والإخفاء والستر على من بايتهم في طـريقهم ، لتكون معاني ألفاظهم مستيهمة على الأجانب، غيرة منهم على أسرارهـم أن تشيع في غير أهلها ، إذ ليست حقائقهم مجموعة بنـوع تكلـف ، أو مجلوبـة بضرف تصرف ، بل هي معاد أودعهـا اللــه تعـالى قلـوب قـوم ، واسـتخلص لحقائها أسرار قوم " ، فإذا أضفنا إلى مـا يـذكره القـشيري هنـا ، أن الـصوفية فيما يصلون إليه من المقامات ، وما يصدرون عنه من الأحوال ، إنما يتخذون سبيلهم من الذوق لأمن العقل ، وإذا عرفنا أن أخص خصائص الذوق الصوفي هي الصيغة الشخصية أو الذاتية ، بمعنى أن ما ينكشف لـصاحب الـذوق في

ذوقه ، لا يمكن أن يتكشف إلا لمن كابد حاله ، وشرب من كأسه - إذا عرفنا هذا كله ، انتهينا إلى تعليل هذا الخفاء الذي يسود أكثر الآثار الصوفية ، تعليلا يلائم طبيعة الأشياء ، وطبيعة الأغراض التي يرمي إليها الصوفية .

وبين أيدينا ديوان ابن الفارض ، وهو ما هو من تغنى الحب والجمال والخمر ، ومن ذكر أسماء المعشوقات ، وما يتصل بهذا كله من ألفاظ العذريين والمحققين من الغزلين والخمريين سواء بسواء . ونريد هنا أن نتناول حب هذا الشاعر بالتحليل والتعليل ، فنتعرف عناصره ، ونرده إلى أصله في النفس الإنسانية ، ونتبين أطواره المختلفة التي تعاقبت على حياة الرجل الروحية ، وذلك على وجه يمكننا في النهاية من أن ننتهي إلى رأي في هذا الحب ، وهل هو حب إنساني ، وغزل خمري مادي ، أو هو حب إلهي ، وتغن بأوصاف الخمر الروحية التي كني بها الشاعر عن الحب الإلهي أو المعرفة الإلهية ، على نحو ما سنبينه في مواضعه من هذا الكتاب .

الفصل الأول

بين الحب الإنساني والحب الإلهي

من أي أنواع الغزل كان شعر ابن الفارض ؟ - أسلوب ابن الفارض في الغزل - التلويح - أحب إنساني أم حب إلهي ؟ - هل أحب ابن الفارض حبا إنسانيا ؟ - غزل ذو وجهين - غزل إلهي خالص - الجمال المطلق موضوع هذا الغزل - خصائص هذا الغزل - حب الله لأن يعرف : موضوعه وخصائصه - مدح الرسول وحب الحقيقة المحمدية .

١ - لعل أول ما يواجه الباحث عن حقيقة حب ابن الفارض وطبيعته ، هو هذه الأسئلة : من أي أنواع الغزل يمكن أن يكون شعر ابن الفارض ؟ أهو غزل من نوع غزل العذريين الذين كانوا يتغنون الحب العفيف ؟ أم هو كغزل المحققين من الإباحيين والحسيين والخمريين ؟ أم هو كغزل الجاهليين الذين كانوا يستهلون قصائدهم بطائفة من الأبيات يتغنون فيها حب هذه أو تلك من نسائهم ؟ أم هو غزل إلهي من قبيل غزل رابعة العدوية وغيرها من الصوفية ، عمد فيه صاحبه إلى معجم العذريين والإباحيين والخمريين ، فاستقى منه ألفاظه وعباراته ، واتخذ منها إشارات وكنايات يرمي من ورائها إلى حقيقة أدق ، ومعنى أعمق مما يدل عليه ظاهرها ؟ .. ولكي نجيب عن هذه الأسئلة إجابة تضع حب شاعرنا في موضعه اللائق به من أنواع الغزل المختلفة ، وتلائم طبيعة الحياة الإنسانية بصفة عامة ، وطبيعة الحياة التي كان يحياها ابن الفارض نفسه بصفة خاصة، لابد من أن نقف وقفة عند أسلوب الشاعر في الغزل ، وما

يصطنعه في هذا الغزل من ألفاظ وعبارات ، وما عسى أن يكون من هذه الألفاظ والعبارات ، إشارات وكنايات ، يعبر بها صاحبها عن حبه تعبيرا رمزيا ، ولا يدلنا أيضا من أن نذهب في حل المسألة إلى افتراض بعض الفروض ، فلعل في ذلك ما يعيننا على فهم الحياة الروحية لابن الفارض ، وعلى تفسير حبه تفسيرا لائم طبيعة هذه الحياة الروحية من ناحية ، ولا يتنافى مع ما عرفناه من سيرة الرجل في أطوار حياته المختلفة من ناحية أخرى .

٢ - ويلاحظ المتأمل في ديوان ابن الفارض ، أن هذا الديوان يكاد يكون كله تصويرا لعاطفة واحدة هي عاطفة الحب التي عبر عنها الشاعر فاستعمل طائفة كثيرة من ألفاظ الغزلين والخمريين ، ووجهها هذه الوجهة التي تخفي وتغمض في بعض القصائد ، وتظهر وتتضح في بعضها الآخر : فالحب والعشق والهوى والغرام والهيام والصبابة ، والشوق والاشتياق والجوى ، والقرب والبعد ، والوصل والصد ، كل أولئك وكثير غيره ألفاظ شاعت في ديوان ابن الفارض وتكاد تفيض بها كل قصائده . وإنه ليستعمل هذه الألفاظ على أن بعضها مرادف لبعض حينا ، وعلى أن في بعضها معنى يزيد على ما في بعضها الآخر حينا آخر ، كما يدل على ذلك قوله في " التائية الكبرى " :

وجاوزت حد العشق فالحب كالقلى　　وعن شأو معراج اتحادي رحلتي ٢٩٥

فطب بالهوى نفسا فقدسدت أنفس العـ　　ـباد من العباد في كل أمة ٢٩٦

وقوله في " اللامية " :

هو الحب فاسلم بالحشاما الهوى سهل   فما اختاره مضني به وله عقل

وقوله في " التائية الكبرى " أيضا :

وما بين شوق واشتياق فنيت في   تول بحظر أو تجل بحضرة ٣٢

وابن الفارض يذكر ويخاطب من يحب تارة بضمير المفرد المذكر أو المؤنث ، وتارة أخرى بضمير جمع المذكر أو المؤنث المخاطب أو الغائب . وهو حين يذكر محبوبته تراه يسميها مرة ليلى ، ومرة أخرى سلمى ، وتارة مي، وتارة أخرى سعاد، إلى غير ذلك من أسماء النساء اللائي أحبهن شعراء العرب، وتغنوا حبهن في شعرهم . وهو حين يكني عن محبوبه أو محبوبته ، تراه يعمد إلى ألوان مختلفة من الكنايات: فيخاطب محبوبه بقوله: "سائق الأظعان"، ويتحدث عنه فيشبهه بالرشا والظبي والمهاة ، بالرامي الذي يرمي الحشا بسهم لحاظه.. إلى غير ذلك من الكنايات والتشبيهات والمجازات التي حفل بها شعر شاعرنا .

وفوق هذا كله ، فإن ابن الفارض يتغنى الخمر في بعض أبيات من تائيته الكبرى وتائيته الصغرى وغيرهما من قصائده القصار . وأنه ليفرد لهذه الخمر قصيدة برمتها ، يقدم فيها أوصافها ويصف آثارها في نفوس الذين يقبلون عليها ، ويسكرون بها . وهو هنا يستعمل في صراحة كل ما يتصل بالخمر من حان ودن وكأس وقدح، وسكر ونشوة ، وألحان وندمان،

إلى غير ذلك من الأشياء التي يتردد ذكرها عادة في شعر الخمريين من القدماء والمحدثين .

وهنا نتساءل : ما شأن هذه الألفاظ التي يعبر بها ابن الفارض عن حبه ، وعن خمره ، وهذه الأسماء التي يسمى بها محبوبه أو محبوبته ؟ هل يعبر بها عن حب إنساني ، ويصف فيها خمرا مادية ، أو أنه يتخذ من هذا كله رموزا وكنايات يشير بها إلى حب إلهي ، وإلى خمر روحية ؟ .. الحق أن حل هذه المشكلة يحتاج إلى معرفة الحياة العاطفية لابن الفارض ، ودراسة أطوارها المختلفة ، وتحليل شعوره تحليلا نفسيا وتاريخيا معا ، ومحاولة الملاءمة بين هذا كله وبين شعره ، وما يصطنعه في هذا الشعر من أسلوب التصريح والعبارة ، أو أسلوب التلويح والإشارة . وليس من شك في أن ابن الفارض بحكم حياته الصوفية التي كان يحياها مذ بدأ سياحته بوادي المستضعفين بالمقطم ، حتى وافته منيته ، لابد أن يكون مثله كمثل كثير من الصوفية فيما يستعملون من رمز ، وما يؤثرون من كناية أو إشارة يعمدون فيها إلى إخفاء أسرارهم ، وستر حقائقهم عمن ليس من طريقهم ، ولا أهلا للوقوف على حقيقة المعاني التي تنطوي عليها ألفاظهم ، وليس من شك أيضا في أن ابن الفارض كان قبل التجريد والسياحة إنسانا كغيره من الناس يخضع لما يخضعون له من مطالب الحس ورغبات النفس ، ويتأثر بما يتأثرون به من جمال يتجلى في مختلف الصور الإنسانية والحيوانية والجمادية ، وإذن فليس ما يمنع من أن يكون شاعرنا قد أحب حبا إنسانيا في أول عهده ، ثم أقبل بعد ذلك على الله ، وجرد عزمه في حبه له ، وإعراضه عمن سواه ، فكان لكل من الحبين صداه في شعره ، حتى ليخيل لنا ، ونحن نقرأ بعض

أبياته ، إننا إزاء غزل من هذا اللون الذي كان يصدر عن العـذريين ، أو ذاك الذي كان يتغناه الإباحيون المحققون ، وليس ما يمنع فوق هذا كله مـن أن يكون الشاعر قد عبر عن حبه الإلهي في لغة الغزل الإنـساني متـأثرا في ذلـك طريقة الصوفية في الرمز والإلغاز ، ومن ثم اختلط الحيان ، وتشابه الغزلان ، وأصبحنا في أكثر الأحيان حيارى لا ندري ، حين نقرأ بعض قصائد شـاعرنا ، هل نحن حيال شعر يتغنى فيه صاحبه حب ليلى أو سلمى أو سعاد حقيقة ، أو أن كـل هـذه الأسـماء ومـا يوجـه إلى صـاحباتها ، مـن حـديث الحـب والإقبال ، والود والوصال ، والهجر والصد ، وغـير ذلـك ، لـيس إلا لونـا مـن ألوان التعبـير الرمـزي الـذي آثـره الـشاعر غـيرة عـلى محبوبتـه الحقيقيـة ، وصيانة لأسرار محبته الإلهية من أن تنكشف لغير أهلها ، أو يقف عليها من ليس مستعدا لها ، ولا خليقا بها .

٣ - ويكاد هذا الخلط بين الحبين الإلهي والإنساني ، يكون حظا شـائعا بين قصائد ابن الفارض كلها ، لا يستثني مـن ذلـك غـير قـصيدتيه " التائيـة الكبرى " و " الخمرية " ، فهما - كما سبقت الإشارة في الفـصل الثالـث مـن الكتاب الأول - قصيدتان صوفيتان ، لاشك في أن الحب الذي تصوران ، حب إلهي خالص . وإذا صادفنا فيهما أبياتا يمكن أن تفهم على أنها غـزل إنـساني أو خمري ، فمـن اليـسير أن نـؤول هـذه الأبيـات تـأويلا صـوفيا ، وتوجهها توجيها إلهيا ، لاسيما أن أسلوب الرمز والإيمـاء واضـح هنـا ، وكـثرة القـرائن ومقتضيات الأحوال ، تعين على فهم هاتين القصيدتين فهما صوفيا ، وتفـسير الحب الذي يهتف به الشاعر فيهما على أنه حب إلهي لا شبهة فيه ولا غبار عليه .

ومهما يكن من فهم حب ابن الفارض في بعض قصائده على وجهين، أحدهما إنساني ، والآخر إلهي ، فإن شراحه ، وهم الذين ذاقو ذوقه، ونهلو من مورده ، قد ذهبوا إلى أن كل ما يذكر في ديوانه من محبوب أو محبوبة ، ومن صور وتعينات مختلفة، سواء ما كان منها رياضا ، أو زهرا، أو شجرا ، أو طيرا ، إنما يقصد به الحقيقة الإلهية من حيث تعيناتها ، لا هذه التعينات ذاتها. وهؤلاء الشراح الذين يذهبون هذا المذهب ، وفي مقدمتهم عبدالغني النابلسي ، إنما يفعلون بشعر ابن الفارض ، ما فعله ابن عربي بشعره هو ، من تأويل الألفاظ تأويلا رمزيا يخرجها عن ظاهرها إلى ما هو أبعد من هذا الظاهر : فقد نظم ابن عربي طائفة من القصائد تغني فيها الحب الإلهي مصطنعا أسلوب الإشارة ، وشرح بنفسه هذه القصائد ، وأظهرنا من خلال هذا الشرح على أنه إنما يجري على طريقة الصوفية في الكناية والإيماء وضمن هذا كله كتابه المسمى " ذخائر الاعلاق ، شرح ترجمان الأشواق " الذي يقول في مقدمته ما نصه : " ... فكل اسم أذكره في هذا الجزء قعنها أكني ، وكل دار أندبها فدارها أعني ، ولم أزل في هذا الجزء على الإيماء إلى الواردات الإلهية ، والتنزلات الروحانية ، والمناسبات العلوية ، جريا على طريقتنا المثلى ، فإن الآخرة خير لنا من الأولى .. والله يعصم قارئ هذا الديوان من سبق خاطره إلى ما لا يليق بالنفوس الأبية ، والهمم العلية ، المتعلقة بالأمور السماوية .. وجعلت العبارة في ذلك بلسان الغزل والتشبيب ، لتعشق النفوس بهذه العبارات فتتوفر الدواعي على الإصغاء إليها . وهو لسان كل أديب ظريف ، روحاني لطيف .. " . فابن عربي عنا قد نبه على الطريقة التي اتبعها في ديوانه ، وأظهرنا على

الدوافع التي من أجلها آثر أسلوب الغزل والتشبيب ، وأودعه لطائف قلبه ، وحقائق حبه ، وهو بهذا قد أزال كثيرا من الشكوك والأوهام التي يمكن أن تنشأ حول شعره ، فتجعله عند البعض شعرا غزليا قصد به إلى تصوير حب إنساني خالص .

أما ابن الفارض فلعل أمر غزله وطبيعة هذا الغزل أكثر تعقيدا مما هو عند ابن عربي : ذلك بأن ابن الفارض لم يشرح ديوانه بنفسه ، ولم يبين لنا في وضوح وجلاء هل كان كل غزله إلهيا ؟ وهل ما ورد في هذا الغزل من ألفاظ وعبارات قد قيل كله بلسان الذوق والحال ، وصيغ كله على طريقة الصوفية في الرمز والإيماء إلى الواردات الإلهية ؟ على أنه إن لم يفعل فقد أظهرنا في تائيته الكبرى على أنه أخذ من التلويح بحظ وذلك حيث يقول :

وعني بالتلويح يفهم ذائق غني عن التصريح للمتعنت ٣٩٥

بها لم يبح من لم يبح دمه وفي الـ إشارة معنى ما العبارة حدت ٣٩٦

فهو هنا يقرر أنه قد عمد إلى التلويح دون التصريح ، وآثر الإشارة على العبارة ، وبين قيمة التلويح بالقياس إلى التصريح من حيث إن ما يصطنع فيه التلويح لا يفهمه إلا من كان صاحب ذوق ، نافذ البصيرة ، دقيق الشعور ، له من هذا كله ما يغنيه عن تصريح المتعنت الذي ينكر على صاحب الذوق تلويحه ، ويكشف لنا عما دفعه إلى إيثار الإشارة على العبارة فيقول : إن الإشارة سبيل الصوفي إلى ستر أذواقه ومكاشفاته عمن ليس من أهل الذوق والمكاشفات ، ولعله لو اصطنع أسلوب العبارة فعبر في صراحة ووضوح عن أسراره وحقائقه ، لكان في ذلك ما يحنق عليه

الناس ، ويشككهم فيه ، ويغري به أهل الظاهر فيجعلهم يبيحون دمه على نحو ما فعلوا بالحلاج ، يضاف إلى هذا كله أن ابن الفارض يؤثر الإشارة لما لها من لطافة تجعلها تتسع لأكثر مما تتسع له العبارة من المعاني . وإذا كان ذلك كذلك ، فقد تبين إذن أن شعر ابن الفارض الذي يتغنى فيه الحب ، ويصف الخمر ، لا يصح أن يؤخد على ظاهر ألفاظه ، وإنما يجب أن يلاحظ فيه عامل التلويح والإشارة ، وأن يفهم على أنه صادر عن صاحب ذوق وحال .

٤ - على أننا نلقي في ديوان ابن الفارض أبياتا لا نستطيع أن نقف إزاءها مقيدين بقيود التلويح والإشارة ، بل نحن مضطرون إلى أن نذهب في فهمها مذهبا إنسانيا أو ماديا يجعل من الحب الذي يتغناه الشاعر فيها شيئا حسيا ، ومن المحبوب الذي يذكره مخلوقا آدميا ، ومن يدري فلعله نظم هذه الأبيات في وقت لم يكن قد خلص فيه بعد خلاصا تاما من أغلال الحس وشهوات النفس ، فكان إنسانا كغيره من الناس يخضع لما يخضعون له ، ويتأثر بما يتأثرون به ، فيحب هذه المرأة أو تلك حبا ، وإن كان أفلاطونيا منزها عن الأغراض الدنيئة ، فإنه حب إنساني على كل حال ، كهذا الذي يصوره الشاعر في قوله :

ولما تلاقينا عشاء وضمنا ... سواء سبيلي دارها وخيامي

وملنا كذا شيئا عن الحي حيث لا ... رقيب ولا راش بزور كلام

فرشت لها خدي وطاء على الثرى ... فقالت لك البشرى بلثم لثامي

فما سمحت نفسي بذلك غيرة ... على صونها مني لعز مرامي

وبتنا كما شاء اقتراحي على المنى   أرى الملك ملكي والزمان غلامي

فإذا أخذنا هذه الأبيات على ظاهرها ، رأينا أن الشاعر قد كشف فيها عن نفسه ، وعما بلغته هذه النفس من الروحانية والصفاء ، والتنزه عن شهوات البدن . وليس أدل على هذا كله من أنه ، وقد التقى بمحبوبته ، ومنحته هذه المحبوبة قبلة ، لم يبح لنفسه أن يظفر بها ، بل هو قد قنع بأن يقضي ومحبوبته ليلتهما على المنى ، فذلك عنده خير وأبقى .

قد ذهب أحد شراح ابن الفارض ، وهو حسن البوريني إلى أن كلام الشيخ (ابن الفارض) ليس منزلا يأسره على قانون الحقيقة ، فكثيرا ما نرى فيه ما لا يصلح للمجاز . واستدل اليوريني على ذلك يقول ابن الفارض في هذا البيت :

أهواه مهفهفا ثقيل الردف   كالبدر يجل حسنه عن وصف وبقوله في هذا البيت أيضا :

ما أحسن ما بتنا معا في برد   إذ لاصق خده اعتفاقا خدي

ولكن النابلسي يذهب في فهم هذين البيتين مذهبه في شرح ديوان ابن الفارض كله ، فيحملهما من المعاني الخفية ، والحقائق الإلهامية ، ما يطيقان وما لا يطيقان : فهو يفسر " مهفهفا " في البيت الأول بأنها كناية عن صورة التجلي الإلهي من حيث الأسماء الجمالية في حقيقة الروح الأعظم ، ويفسر " ثقيل الردف " بأنها إشارة إلى جميع العوالم المكتوبة بالقلم في اللوح المحفوظ الذي هو نفس العلم بالنور المحمدي : المخلوق فيه

ومنه كل شئ ، ويفسر " البدر " بأنه القمر ليلة التمام ، بظهوره في ظلمة الأكوان ، كما يشهده العارفون بالعيان من قوله صلى الله عليه وسلم : " إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر " . وإلى مثل هذا يذهب النابلسي في تفسير البيت الثاني فيجعل من ألفاظه كنايات ، ومن عباراته إشارات .

ومهما يكن من مذهب النابلسي وغيره في شرح شعر ابن الفارض ، وتأويله كله تأويلا صوفيا ، فإن ذلك لا يمنع من أن نفترض أن يكون ابن الفارض قد أحب في حياته الأولى حبا إنسانيا كانت مرآته هذه الأبيات ، ثم انصرف عن هذا الحب ، أو انصرف عنه هذا الحب لأمر ما ، فإذا هو يحب حبا من نوع آخر ، هو هذا الذي اتخذ فيه من الذات الإلهية موضوعا .

وقد يكون البوريني مخطئا في زعمه أن شعر ابن الفارض ليس منزلا كله على لسان الحقيقة ، لأنه إنما يأخذ هذا الشعر على ظاهره ، إذ لم يكن من أصحاب الذوق الذي هو عند القوم المقياس الحقيقي لكشف الحقائق ومعرفة الدقائق . ولا كذلك النابلسي ، فهو بحكم صوفيته ، واصطناعه للذوق ، ربما كان أقدر على تذوق الآثار التي تصدر عن أشباهه ، وأوغل في باطن الألفاظ واستكناه أسرار المعاني . على أن شرح النابلسي لشعر ابن الفارض ، وإن كان ملائما لطبيعة هذا الشعر ، وللأذواق الصوفية في أكثر المواطن ، فإنه ليس مستساغا ولا مقبولا في بعض المواطن الأخرى التي يبلغ فيها التعسف بالنابلسي مبلغا كبيرا ، فإذا هو يجعل من كل لفظ كناية ، ومن كل عبارة إشارة ، ومن كل بيت ، وكل

قصيدة أنشودة من أناشيد الحب الإلهي الذي يختلف في موضوعه وطبيعته ودوافعه ودواعيه عن الحب الإنساني ، ومع ذلك فإن القصائد والأبيات التي يحكم عليها النابلسي هذا الحكم ، يمكن أن تفهم على وجهين ، ولعل منها ما لا يمكن أن يفهم إلا على وجه واحد ، هو أن الحب الذي يتردد فيها حب إنساني ، وإذا لم تتوافر لدينا الأدلة المادية والتاريخية على أن ابن الفارض قد أحب حبا إنسانيا ، وأنه نظم القصائد والأبيات التي من هذا القبيل في تصوير هذا الحب ، فإننا نستطيع أن نذهب في تأويل المسألة تأويلا قوامه أن شعر ابن الفارض الذي يحتمل وجهين أحدهما صوفي والآخر إنساني ، أو الذي يحتمل وجها واحدا إنسانيا ، يلاحظ عليه الضعف من الناحية الفنية سواء في ألفاظه ومعانيه وأخيلته ونفسه ومبلغ حظه من الانسجام ، مما يختلف اختلافا ظاهرا عما تمتاز به قصائد الحب الإلهي الخالص من رقة اللفظ، ودقة المعنى ، وعمق الخيال ، وطول النفس، ووفرة الانسجام، وهذا ينتهي بنا إلى ترجيح أن يكون ابن الفارض قد نظم شعره الذي يمكن أن يمكن للعنصر الإنساني فيه نصيب في عهد شبابه، حين لم تكن قريحته الشعرية قد صقلت بعد على نحو ما صقلت عندما نظم الشاعر تائيته الكبرى وتائيته الصغرى وخمريته وفائيته .

٥ - ولكي نحلل حب ابن الفارض إلى عناصره ، ونتعرف طبيعته ، نتساءل أولا : هل أحب ابن الفارض حبا إنسانيا ؟ الحق إنه ليس لدينا عن حب كهذا معلومات مفصلة يمكن أن نتبين من خلالها هل أحب الشاعر ، قبل أن يتجرد ويتصوف ، حبا إنسانيا . ولعل كل ما وصلنا في هذا الصدد هو ما يروي من أنه صعد منارة المسجد ، فرأى امرآة جميلة

فوق سطح بيت ، فاشتعل قلبه وهام مع الهائمين ، ويقال إن تلك المرأة كانت زوجة أحد القضاة ، وما ذكره ابن خلكان وغير ابن خلكان من المترجمين ، من أنه أحب غلاما جميلا . وقد يذهب البعض إلى أن في حب ابن الفارض لهذا الغلام ، ما يمكن أن يعلل به مخاطبته محبوبه أو تحدثه عن محبوبه بضمير المذكر أو الغائب . ولا يكاد المترجمون يذكرون شيئا عن تاريخ حب ابن الفارض لهذا الغلام ، أو هيامه بتلك المرأة ، متى وفي أي طور من أطوار حياته كان هذا الحب أو ذاك . ولو قد عرض المترجمون لشئ من هذا ، لأعانونا على فهم الحياة العاطفية لابن الفارض فهما واضحا ، ولاستطعنا بناء عليه أن نضع حب الشاعر الإنساني ، وحبه الإلهي ، في موضعهما من أطوار حياته العاطفية ، ومع هذا نستطيع أن نذهب في تفسير حب ابن الفارض مذهبا يلائم طبيعة الحياة الذوقية التي كان يحياها الرجل من ناحية ، ويتمشى مع منطق العاطفة من ناحية أخرى، ويمكن أن نظهر من خلاله الصلة بين الحب الإنساني والحب الإلهي عند هذا الشاعر الصوفي من ناحية ثالثة : فليس ما يمنع من افتراض أن ابن الفارض قد بدأ حياته العاطفية إنسانا كغيره من الناس ، ينجذب إلى هذه المرأة الجميلة أو تلك ، فيحبها ويهيم بها ، ويكلف بهذا الغلام الجميل أو ذاك ، فيعشقه ويتغنى ، وليس ما يمنع أيضا من أن يكون ابن الفارض قد أخفق في حبه الإنساني ، فلم يصب ممن أحب ما كان يصبو إليه قلبه ، وتطمح إليه نفسه من إخلاص ووفاء ، وطهارة وصفاء ، فإذا هو ينصرف عمن يحب ، ويزهد فيمن يحب ، وإذا هو يرى أن عاطفته أرقى وأسمى من أن يوجهها إلى من ليس أهلا لها من البشر ، بل هي خليقة بأن توجه إلى

من هو خير وأبقى من البشر جميعا ، إلى هذه المحبوبة الحقيقيـة أو هـذه الذات العليـة . ومـن هنـا كـان التحـول في حيـاة ابـن الفـارض العاطفيـة ، والانتقال من مرحلة الحب الإنساني إلى مرحلة الحـب الإلهـي ، أو قـل كـان التسامي بعاطفته عن هذه الأرض ، وتركيزها في حب من جماله أتم وأكمل من كل ما في السموات والأرض وما بينهما . ولا غرو في ذلـك : فقـد أثبتـت الدراسات النفسية الحديثة أن الزهد وكبح جماح النفس ، والانـصراف عـما في الحياة الدنيا من حسن فتان ، وزخرف أخـاذ ، كـل أولئـك متـصل اتـصالا وثيقا بظروف الحياة الإنسانية ، وأن الرغبة الغرامية الكامنة ، يمكن أن يحل محلها عواطف من نوع آخر : بمعنى أن التقشف والاستسلام يمكن أن يكون ثمرة من ثمرات الحب المخدوع ، وأن التصوف الـديني يعـد لونـا مـن ألـوان تغيير اتجاه العاطفة الغرامية المعلنة أو المكبوتـة ، وأن الفكـرة القائلـة بـأن الدين غالبا ما يكون بمثابة الملاذ الأسمى للعاشقين الذين ما تزال فيهم بقية من حياة ، ليست خلوا من المعنـى : وهـا هـي ذي إلڤـير **Elvire** معـشوقة لامارتين الشاعر الفرنسي ، قد خلصت نفسها ، في آخـر حياتهـا ، مـن الحـب الإنساني ، بحيث كان الحب الإلهي بمثابة الاستمرار للحـب الإنـساني ونهايـة له .

وإذا كان ذلك كذلك ، وكان ابن الفارض إنسانا كغيره من الناس ، يخضع مثلهم لما يخضعون له مـن تـأثر بـالجمال ، ولاحظنـا مـا عـسى أن يكـون مـن شعره غزلا إنسانيا يصور فيه حبا أفلاطونيا ، وكان من هذا الـشعر غـزلا إلهيـا خالصا ، استطعنا أن نستخلص أو نفترض أن ابن الفـارض أحـب حبـا إنـسانيا ، وأنـه لمـا لم يوفـق في هـذا الحـب غـير اتجـاه عاطفتـه إلى حـب اللــه الـذي

وجد فيه راحة نفسه ، وعزاء قلبه ، وطمأنينة روحه ، وشفاء له من أمـراض النفس ، وأوضار الحس ، هذا من جهة . ومن جهة أخرى استطعنا أن نقـول إن الحب الإلهي الذي يصور ابن الفارض أطواره في تائيته الكـبرى ، لـيس في حقيقتـه إلا اسـتمرارا لحبـه الإنـساني ، ونهايـة لـه ، عـلى نحـو مـا سـنبينه بالتفصيل في الفصل التالي من هذا الكتـاب . وهـذا ملائـم كـل الملاءمـة لمـا انتهى إليه علـم الـنفس الحـديث في تحليـل العاطفـة الإنـسانية وتحولهـا ، وأشرنا فيما سبق إلى طرف منه : ناهيك بأنه مساير لمـا يـذهب إليـه بعـض الصوفية مـن أن النـساء ، وإن كـن حبائـل الـشيطان ، فهـن كـذلك وسـائل العرفان : فإن العاقل - كما يقول داود الأنطاكي - قد يتوصل من حب النساء إلى معرفة مبدعهن ، لأن المقـدمات الـصريحة ، تنـتج الأغـراض الـصحيحة ، ولأن من أنعم النظر في مخلوق زائـل ، ترقـى عنـد معرفـة غايتـه إلى دائـم فاعل.

٦ - فإن صح ما قدمنا من المعلومات والفروض التي تدور حـول حـب ابن الفارض ، انتهينا إلى أن الغزل في شـعر هـذا الـشاعر الـصوفي ، يمكـن أن يكون على نوعين غزل إلهي إنساني ، وغزل إلهـي خـالص . وهـذان النوعـان من الغزل هما ما نحـب أن نقـف عنـد كـل مـنهما وقفـة نبـين مـن خلالهـا حقيقته .

يلاحظ المتأمل في ديوان ابن الفارض أن هنـاك مـن القـصائد والأبيـات ذات الوجهين ما لو قرأناه لحكمنا عليه لأول وهلة بأن الأمد بعيد بينه وبين الحـب الإلهـي . ولكننـا لا نفتـأ نقـرأ هـذه القـصائد والأبيـات المـرة بعـد

المرة . وما نزال نفكر ونروي فيها ، ونقدر ونتدبر ألفاظها ومبانيها ، حتى نجد أنفسنا حيارى مترددين ، لا نستطيع أن نرجح الحب الإلهي على الإنساني ، أو الحب الإنساني على الإلهي ، وإنما نحن نقف موقفا من شأنه أن يجعل حكمنا على هذا القسم من شعر شاعرنا معلقا ، يؤول فيه الغزل تأويلين مختلفين ، يذهب أحدهما إلى أن المحبوب أو المحبوبة ليس إلا الذات الإلهية ، أو الحقيقة العلية ، والآخر إلى أن هذا المحبوب أو المحبوبة ليس إلا مخلوقا أو مخلوقة من البشر : فأنت إذا قرأت مثلا قول ابن الفارض مخاطبا محبوبه في هذا البيت :

تـه دلالا فأنـت أهـل لـذاكا   وتحكـم فالحـسن قـد أعطاكـا

وقوله في هذا البيت أيضا :

قلبـي يحـدثني بأنـك متلفـي   روحـي فـداك عرفـت أم لم تعـرف

ما شككت في أن هذين البيتين لا يمكن أن يكون الخطاب فيهما موجها إلى الله عز وجل ، لأن توجيهه في هذه الألفاظ ، وعلى هذه الصورة ، أمر لا يليق بالذات الإلهية ، وهنا تقطع بأن هذين البيتين إنما وجه الخطاب فيهما إلى محبوب إنساني . ولكنك لو أعملت فكرك ، وهيأت نفسك لشئ من التحليل والتأويل ، لوصلت في النهاية إلى أن هذا الخطاب لا يبعد توجيهه إلى الله . وهذه المسألة يمكن حلها حلا قد يكون قريبا إلى الحق ، وموافقا لطبيعة التصوف : وذلك أنه لا يبعد أن يكون ابن الفارض قد نظم هذين البيتين بعد تقلبه في مقامات السلوك ، وأحواله

المختلفة ، وانتهائه منها إلى البسط الذي يعقب القبض ، والأنس الذي يحل محل الهيبة ، فتنتزع الكلفة بين المحب والمحبوب ، ويخاطب المحب محبوبه كما يخاطب الند نده ، لا يتحرج من لفظ ، ولا يتردد في خطاب . ولكن هذا الحل ، إن كان ملائما لطبيعة البيت الأول ، فإنه قد لا يلائم طبيعة البيت الثاني : لأن في القصيدة الفائية التي مطلعها البيت المذكور ما يثبت أن ابن الفارض لم يكن قد وصل بعد إلى البسط والأنس اللذين يشعر بهما المحب عند وصال محبوبه ، فهو يقول :

فالوجد باق والوصال مماطلي والصبر فان واللقاء مسوفي

لم أخل من حسد عليك فلا تضع سهري بتشييع الخيال المرجف

وإذن فلابد من التماس حل آخر لهذه المسألة . وهذا الحل يدور حول فهم معنى لفظة " عرفت " ، فإنه يمكن فهم هذه الكلمة - كما ورد في شرح البوريني - على أنها من عرف فلان لفلان صنيعه أي إحسانه ، بمعنى حفظ له في نفسه ذلك الإحسان ، وادخره له في باطنه ليكافئه به في وقته . وعلى هذا يكون ابن الفارض قد قصد إلى إظهار ما فعل الحب به من فنائه عن نفسه ، وإثبات أن روحه فداء لله ، سواء أحفظ الله له هذا الفناء أم لم يحفظه ، وسواء أكافأه عليه أم لم يكافئه ، فهو لا يريد على فنائه في سبيل المحبة الإلهية جزاء ولا شكورا . وعندي أن حل المسألة على هذا الوجه معقول ومقبول إلى حد بعيد ، لاسيما أنه متفق والغرض الأسمى الذي يرمي إليه شعر ابن الفارض في الحب الإلهي ، وهو أنه كان كرابعة العدوية ، لم يحب الله خوفا من ناره ، ولا شوقا إلى جنته ، ولكن ابتغاء

نظرة من وجهه الكريم . فإذا كانت فكرة الثواب لا وجود لها في حب ابن الفارض لله ، فليس غريبا إذن أن يخاطب ابن الفارض محبوبه الحقيقي بقوله: "عرفت أم لم تعرف" ما دامت هذه العبارة يمكن فهمها على وجهها الذي قدمناه .

وهكذا ترى أن في شعر ابن الفارض غزلا يمكن أخذه على أنه إلهي بقدر ما هو إنساني ، ويظهر أن الشطر الأكبر من ديوانه - إذا استثنينا " التائية الكبرى " و " الخمرية " - من هذا الغزل ذي الوجهين .

٧ - على أن هناك قصائد لا سبيل إلى الشك في صوفيتها ، أو إنكار الحب الإلهي الذي يترقرق في أبياتها ، ويبين من خلالها واضحا جليا لا لبس فيه ولا غموض . وهذا القسم من غزل ابن الفارض تمثله أهم قصائده على الإطلاق ، وهي " التائية الكبرى " و " الخمرية " وقد اصطنع الشاعر في هاتين القصيدتين الرمز والتلويح ، غير أن رمزه فيهما أكثر ما يكون بين الدلالة ، يسير الفهم ، يمكن تعرف أغراضه وخوافيه من مقتضيات الأحوال ، والمطابقة بين الألفاظ التي يستعملها الشاعر وبين الأحوال الصوفية التي يريد وصفها . رمز ابن الفارض في تائيته الكبرى إلى الحب الإلهي " بالحميا " وإلى وجه المحبوبة " بالكأس " ، كما رمز إلى هذا الحب الإلهي " بالمدامة " في خمريته ، فقال في الأولى :

سقتني حميا الحب راحة مقلتي ... وكأسي محيا من عن الحسن جلت ١

فأوهمت صحبي أن شرب شرابهم ... به سر سرَي في انتشائي بنظرة

وبالحدق استغنيت عن قدحي ومن شمائلها لامن شمولي نشوتي٣

وقال في الثانية :

شربنا على ذكر الحبيب مدامة سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرم

ولا يمكن أن يفهم من هذه الأبيات أنها ترمي إلى الخمر المادية ، وذلك لأن ابن الفارض لم يشرب في الأبيات الثلاثة الأولى " حميا الحب " على نحو ما تشرب الخمر المادية في كأس أو قدح ، ولكن كأسه هي وجه محبوبته الذي فاق كل حسن ، وقدحه هي عينه التي ينظر بها إلى هذا الوجه ، يملؤها من جماله كما تملأ القدح من الخمر . ولو علمنا أن الجمال صفة أزلية من صفات الله ، وأن الحسن خاصة من خائص المحسوسات . إذا كان فيها تناسب ، لثبت أن المحيا الذي يجل عن الحسن هو وجه الله ، ولترتب على هذا أن تكون الحميا في " التائية الكبرى " عبارة عن الحب الإلهي . ومثل هذا يقال في المدامة التي وصفها ابن الفارض في خمريته : فهي روحية خالصة شربها وسكر بها من قبل أن يخلق الكرم ، أي من قبل أن تهبط روحه من عالم إلى عالم الحس ، حيث تتصل بالبدن . ومع أن الأستاذ نيكلسون يلاحظ أن الرمز عند ابن الفارض دقيق ، ومتمش مع الظروف ، بحيث إن تأويله يؤدي إلى خلط أكثر مما يؤدي إليه في الشعر الفارسي الذي من هذا النوع ، حيث معان واسعة وبسيطة تتمشى بالقارئ في يسر ، فإننا نلاحظ من جانبنا أن هذه الملاحظة إن صدقت ، على " التائية الكبرى " في بعض أبياتها الغزلية الصرفة ، وعلى بعض قصائد الحب الإلهي الأخرى كالتائية الصغرى . والجيمية . فإنها لا تصدق على الخمرية ،

حيث نرى أكثر أبياتها يكشف بنفسه عما انطوى عليه من المعاني الفلسفية والإشارات الصوفية كما يدل على ذلك وصفه للخمر في هذه الأبيات :

يقولــون لي صــفها فأنــت بوصــفها	خبــير أجــل عنــدي بأوصــافها علــم
صــفاء ولا مــاء ولطــف ولا هــوا	ونــور ولا نــار وروح ولا جــسم
تقــدم كــل الكائنــات حــديثها	قــديما ولا شــكل هنــاك ولا رســم
وقامــت بهــا الأشــياء ثــم لحكمــة	بهــا احتجبــت عــن كــل مــن لا لــه
وهامـت بهـا روحـي بحيـث تمازجـا اتــ	ــحادا ولا جــرم تخلّلــه جــرم
فخمــر ولا كــرم وآدم لي أب	وكــرم ولا خمــر ولي أمهــا أم
ولطــف الأواني في الحقيقــة تــابع	للطــف المعــاني والمعــاني بهــا تنمــو
وقــد وقــع التفريــق والكــل واحــد	فأرواحنــا خمــر وأشــباحنا كــرم
ولا قبلهــا قبــل ولا بعــد بعــدها	وقبليــة الأبعــاد فهــي لهــا حــتم
وعـصر المـدى مـن قبلـه كـان عـصرها	وعهــد أبينــا بعــدها ولهــا اليــتم

ألا ترى إلى هذه الأوصاف كلها التي أراد ابن الفـارض أن يظهـرك مـن خلالها على حقيقة خمره ، كيف أنها تبين عن خمر قديمة تقدمت عـلى كـل الكائنات ، وقامت بها الأشياء ، وأنها كانت قبـل أن تكـون الأجـسام ، فهـي خمر ولكن ليست من الكرم في شئ ، وجدت منذ الأزل وستبقى إلى الأبد ؟ ألا ترى إلى هذه الأوصاف أنها لا تنطبق إلا على هذه الخمر التـي رمـز بهـا ابن الفارض إلى الحب الإلهي ، الـذي هـو أصـل الوجـود ، وأن مـن يقرؤهـا

في شئ من الروية والتدبر لا يـشتبه عليـه أمرهـا ولا يـشك في أنهـا ليـست خمرا مادية ؟

ومن هنا نرى أن لابن الفارض غزلا رمزيا يعبر فيه عن حب إلهي تمثله " التائية الكبرى " و " الخمرية " بنوع خـاص . غـير أن لهـذا الحـب الإلهـي صورتين مختلفتين : إحداهما هـذه الـصورة النفـسية التـي اصـطبغت بهـا " التائية الكبرى " وعبر فيها الشاعر عن حبه للـذات الإلهيـة ، والأطـوار التـي مرت بها نفسه في طريق هذا الحب ، وهذا ما سنفرد له الفـصل التـالي مـن هذا الكتاب . ومه أن الـصبغة النفـسية هـي أخـص مـا تمتـاز بـه " التائيـة الكبرى " في جملتها ، فإننا نلتقي في بعـض مواضـعها بأبيـات يتحـدث فيهـا الشاعر عن مصدر الوجود الذي صدرت عنه المخلوقـات ، مثـال ذلـك هـذه الأبيات التي يتحدث فيها عن نفسه من حيث أنه هو القطـب الـذي تـدور عليه دوائر الوجود . ويستمد منه كل روح وكل جسم هذا الوجود ، فاسمع إليه حيث يقول :

وكـــل الـــورى أبنـــاء آدم غـــير أني حـزت صـحو الجمـع مـن بـين إخـوتي ٣١١

فـــسمعي كليمـــي وقلبـــي منبـــأ بأحمـــــد رؤيـــــا مقلـــــة أحمديـــــة

وروحـــي لـــلأرواح روح وكـــل مـــا ترى حسنا في الكون مـن فـيض طينـي ٣١٣

ويدخل في هذا الباب كل أبيات " التائية الكبرى " التي تحدث فيها ابن الفارض بلسان الجمع مع الحقيقة المحمدية أو القطب . فإنها تقدم لنا نظرية في أصـل الكائنـات ، وكيفيـة صـدورها عـن الحقيقـة المحمديـة التـي يعتبرهـا

الصوفية أول مخلوق خلقه الـلـه ، ومنه تفرعت الكائنات علوا وسفلا . وأما الصورة الأخرى للحب الإلهي عند ابـن الفـارض ، فهـي التـي تظهرنـا عليهـا الخمرية . ويقـدم الـشاعر فيهـا مـذهبا صـوفيا في الحـب الـذي قامـت بـه الكائنات ، وصدرت عنه المخلوقات ، وهكذا نتبين أن لابـن الفـارض مـذهبا في الحـب الإلهـي بنوعيـه اللـذين عـرفهما الـصوفية وذكـروهما في كتـبهم ورسائلهم : حب الإنسان لله ، وهو ما تمثله " التائيـة الكـبرى " في جملتهـا . وحب الـلـه الذي صدر عنه الكون ، وأكبر الظن أنه الحب الذي أشـار إليـه الحديث القدسي : " كنت كنزا مخفيا فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق فيه عرفوني " ، وهذا تمثله " الخمرية " خاصة وبعض أبيـات " التائيـة الكـبرى " إلى حد ما .

٨ - والآن وقـد عرفنـا أن لابـن الفـارض حبـا إلهيـا ، نريـد أن نتعـرف موضوع هذا الحب وأن نتبين هل كان حبا ناشئا عن معاينة الحـس جـمال الأفعال الإلهية في عالم الشهادة ، أو عن معاينة النفس جمال هـذه الأفعـال في عالم الغيب أو عن مطالعة القلب جمال الصفات الإلهية في عالم الملكوت، أو عن مشاهدة الذات العلية في عالم الجبروت ؟ والحق أن ابن الفارض قـد اتخذ موضوع حبه من هذا كله : فنحن نراه في بعض الأحيان يتغنـي جـمال الأفعال الإلهية الذي يتجلى في مختلـف المظـاهر الكونيـة ، ونـراه في أحيـان أخرى يصف صـور هـذا الجـمال في عـالم الغيـب ، ونـراه تـارة يحـدثنا عـن مطالعته جمال الصفات ، وتارة أخرى عن مشاهدته جـمال الـذات . ولـيس مـن شـك في أنـه قـد تـدرج في أنـواع هـذا الحـب حتـى انتهـى إلى أرقاهـا وأسماها، وهو حب الجمال الذاتي المطلق الـذي لا يتقيـد بقيـد ، ولا يتعـين

برسم أو حد ، والذي يتجلى في كل التعينات ، ويفيض على كل الكائنات ، ومعنى هذا بعبارة أخرى أن حب ابن الفارض لم ينته إلى الاشتغال بالجمال المطلق لأول وهلة ، بل هو قد مر بأطوار متعاقبة يمثل كل منها لونا من ألوان الحب الإلهي الآنفة الذكر ، ويقابل كل منها لونا من ألوان الجمال الإلهي المتجلي حينا في صور الأفعال ، وحينا آخر في مظاهر الصفات ، وتارة في عين الذات ، ولسنا هنا بصدد تفصيل الأطوار المختلفة التي تعاقبت على نفس ابن الفارض في حبه ، فذلك ما سنفرد له الفصل التالي من هذا الكتاب ، ويكفينا هنا أن نعلم أن حب شاعرنا قد انتهى به إلى مرحلة لم يصبح فيها محبا لصورة دون صورة ، أو مقبلا على مظهر دون مظهر ، أو منجذبا إلى مجلى من مجالي الذات الإلهية ومعرضا عما عداه ، بل هو يتخذ موضوع حبه من الجمال في كل صوره ومظاهره ومجاليه : فهو هنا يحب الجمال الذي هو صفة من صفات الذات الإلهية المطلقة لا الحسن الذي هو خاصة من خصائص الكائنات المعينة ، إذ أن حسن كل شئ ليس في الحقيقة عند ابن الفارض إلا معنى من معاني جمال محبوبته الحقيقية وهي الذات العلية ، كما يدل على ذلك قوله :

قال لي حسن كل شئ تجلى   بي تملى فقلت قصدي وراكا

لي حبيب أراك فيه معنى   غر غيري وفيه معنى أراكا

وقوله :

فأدر لحاظك في محاسن وجهه   تلق جميع الحسن فيه مصورا

لــو أن كــل الحــسن يكمــل صــورة   ورآه كــــــل مهلـــــلا ومكـــــبرا

وقوله :

وصرح بــإطلاق الجــمال ولا تقــل   بتقييــده مــيلا لزخــرف زينــة ٤١

فكــل ملــيح حــسنه مــن جمالهــا   معــار لــه بــل حــسن كــل مليحــة

بها قيس لبني هــام بــل كــل عاشــق   كمجنــــون لـــيلي أو كثـــير عـــزة

فكــل صــبا مــنهم إلى وصــف لبــسها   بــصورة حــسن لاح في حــسن صــورة

ومـــا ذاك إلا أن بـــــدت بمظـــــاهر   فظنــوا ســواها وهــي فيهــا تجلــت

بــدت باحتجــاب واختفــت بمظــاهر   على صبغ التلوين في كــل بــرزة ٢٤٦

إلى أن يقول :

ومــا برحــت تبــدو وتخفــي لعلــة   على حسب الأوقات في كــل حقبــة ٢٥٠

وتظهــر للعــشاق في كــل مظهــر   مــن اللــبس في أشــكال حــسن نديعــة

ففــي مــرة لبنــي وأخــرى بثينــة   وآونــــــة تــــــدعى بعـــــزة عـــــزت

ولـــسن ســـواها لا ولاكـــن غيرهـــا   وما إن لها في حــسنها مــن شريكــة ٢٥٣

ومعنى هذا أن الحب الموجه إلى الصور الكونية المعينــة لا يختلــف في حقيقته عن الحب الموجه إلى الذات العلية التي تــصدر عنهــا وتفــيض منهــا هذه الصور الكونيــة ، وإنمــا الاخــتلاف - كــما يقــول ابــن عــربي - واقــع بــين المحبين : إذا أن محبي الصور الكونية يتعشقون الكــون ، في حــين أن محبــي الــذات العليــة يتعــشون العــين ، والــشروط واللــوازم والأســباب في كــل مــن

الحبين واحدة . وهنا نستطيع أن نفسر حب ابـن الفـارض للمـرأة وللغـلام اللذين قيل إنه أحبهما ، تفـسيرا يلائـم مـا دعـا إليـه في تائيتـه الكـبرى مـن التصريح بإطلاق الجمال ، ورأى أن حسن هذه أو تلك من النـساء لـيس إلا صورة معينة ، ومجلى مقيدا ، من صور الجمال المطلق ومجاليـه : فـنحن في موقفنا من هذا الحب الإنساني بين أمرين : إما أن نذهب ما ذهبنـا إليـه في موضعه من هذا الفصل ، وهو افتراض أن يكون الشاعر قد أحب هذه المرأة ، وهذا الغلام ، في الوقت الذي كان ما يزال فيه إنسانا عاديا لم يسلك بعـد طريق الصوفية ، ولم يخضع لما يخضع له الصوفية من ذوق ووجد ، ثم مـا لبث أن تجرد وتزهد ، وأعرض عما في هذه الحياة الأرضية من زخرف زائل ، وحسن حائل ، وأقبل على الذات الإلهية ، يفني نفسه في حبهـا ، ويقـضي حياته مسبحا بجمالها ، وإما أن نذهب مذهبا آخر ، وهو أنـه لا يبعـد أن يكون ابن الفارض قد أحب المرأة ، وهام بالغلام ، لا لأنـه أحبهـا لـذاتهما ، بل لأنه كلا منها مظهر من مظاهر الجمال الإلهي المطلق . ويقـوى تـرجيح هـذا الفـرض لـدينا مـا سـبق أن أثبتنـاه في الفـصل الثـاني عنـد الكـلام على خوارق حب ابن الفارض ، حيث رأينا أنه كان يحب الوجـوه الحـسان ويحب جملا وبرنية ، ويعجب بمنظر النيـل عنـد المـساء ، فهـو مـن هـذه الناحية يرى أن الجمال الظاهر في صـورة مـا ، أو في كـائن مـا ، لا يختلـف عنـه في صـورة أخـرى ، أو في كـائن آخـر . ولعـل في هـذا الفـرض الأخـير ما يوافق موافقة تامة مذهب ابن الفارض في أبياتـه المثبتـة آنفـا ، ناهيـك بأننا ما دمنا لا نعرف ، على وجه التحقيق أو على وجه التقريـب ، الوقـت الـذي يمكـن أن يكـون ابـن الفـارض قـد أحـب فيـه المـرأة أو الغـلام ،

وهل كان ذلك قبل أن يتجرد أم بعده ، فمن حقنا أن نلائم بين أحواله في الحب ، وبين ما يصوره في شعره من صور هذا الحب ، ومن مظاهر الجمال الذي اتخذ منه موضوعا لحبه .

وإذا كان ابن الفارض قد اتخذ لحبه الإلهي موضوعا من الجمال المطلق ، أو من الحسن المعين على أنه أحد تعينات هذا الجمال المطلق ، فقد وجب إذن أن نتساءل عن ماهية هذا الجمال المطلق ، وهل له وجود عيني ، أو أن وجوده ذهني فقط ؟ وقد أجاب ابن عربي عن هذا السؤال بما يفيد أن الجمال المطلق ليس له وجود عيني ، وأنه من الأمور الكلية التي إن لم يكن لها وجود في عينها ، فهي معقولة معلومة بلا شك في الذهن، باطنة لا تزول عن الوجود العيني ، ولها الحكم والأثر في كل ما له وجود عيني ، بل إن الوجود العيني هو عينها لا غيرها .

وثمة صوفي آخر امتازت كتاباته بغلبة الروح الفلسفي عليها ، وهو عبدالكريم الجيلي المتوفي ٨٣٢ هـ ومؤلف كتاب " الإنسان الكامل " قد حدثنا في هذا الكتاب عن العارية في الأشياء من حيث الوجود ، فأعاننا بذلك على فهم هذه العارية من حيث الجمال : فقد قال في هذا الصدد ما نصه : " إن العارية في الأشياء ليست إلا نسبة الوجود الخلقي إليها ، وإن الوجود الحقي لها أصل ، فأعار الحق حقائقه اسم الخلقية ، لتظهر بذلك أسرار الألوهية ومقتضياتها من التضاد ، فكان الحق هيولي العالم ، قال تعالى : " وما خلقنا السماوات والأرض وما بينها إلا بالحق " : فمثل العالم مثل الثلج ، والحق سبحانه وتعالى الماء الذي هو أصل هذا الثلج : فاسم تلك الثلجة على ذلك

المنعقد معار ، واسم المائية عليه حقيقية " . وقد أشار الجيلي إلى مسألة العارية هذه في قصيدته " النوادر العينية في البوادر الغيبية " فقال :

وما الخلق في التمثال إلا كثلجة ... وأنت بها الماء الذي هو نابع
وما الثلج في تحقيقه غير مائه ... وغيران في حكم دعنه الشرائع
ولكن بذوب الثلج يرفع حكمه ... ويوضع حكم الماء والأمر واقع
تجمعت الأضداد في واحد إليها ... وفيه تلاشت وهو عنهن ساطع

فإذا لاءمنا بين ما يقرره الجيلي هنا ، وبين ما يذهب إليه ابن الفارض هناك ، انتهينا إلى أن الجمال المطلق لا يكاد يختلف عنه الحسن المعين إلا في أن هذا مظهر من مظاهر ذاك ، وإلى أن كل ما في الكون من أضداد قد تجمع في هذا الجمال المطلق الذي يفيض من ذاته على الكائنات ، فإذا هي تبدو في أشكال حسن بديعة ، وفي صور حسنة .

وقد يرى البعض أن في مثل هذا القول ما يؤدي إلى تشبيه الحق بالخلق ، غين أن الجيلي نفسه قد نفي هذه الشبهة حيث أبان عن حقيقة التشبيه والتنزيه : فقال : " إن التشبيه في حق الله أمر عيني لا يشهده إلا الكمَل من أهل الله تعالى ، وأما من سواهم من العارفين فلا يدرك ذلك إلا إيمانا وتقليدا ، لما تقتضيه صور حسنه وجماله : لأن كل صورة من صور الموجودات ، إنما هي صورة حسنه : فأنت إذا شاهدت الصورة على الوجه التشبيهي ، ولم تشهد شيئا من التنزيه ، فقد أشهدك الحق حسنه وجماله من وجه واحد ، وإن أشهدك الصورة التشبيه والتنزيه ، (فأينما تولوا فثم

وجه اللـه) فنزه إن شئت ، وشبه إن شئت ، فأنت على كل حـال غـارق في تجلياته " .

فإذا تدبرنا ما قاله ابن الفارض في أبياتـه التـي دعـا فيهـا إلى التـصريح بإطلاق الجمال ، ورأى أن حسن كـل مليـح في الكـون معـار لـه مـن جـمال المحبوبة الحقيقية ، وأن هذه المحبوبة بدت في كل صورة ، وظهـرت في كـل مرئي ، حتى ظن أنها غير هذه الصور والمرئيـات ، والحـق أنهـا عينهـا ، وإذا طبقنا ما أورده الجيلي في هـذا الـنص الأخـير عـلى مـذهب ابـن الفـارض في الحب الإلهي والجمال المطلق ، تبينا أن شـاعرنا لم يـشبه الحـق بـالخلق إلا على نحو ما يفعل الكُمَل من أهل اللـه الذين يشهدون الـصورة التـشبيهية ويتعقاون فيها التنزيه الإلهـي ، فيـشهدون بـذلك جـمال الحـق وجلالـه في وجهي التشبيه والتنزيه ، على عكـس العـارفين الـذين يقـول عـنهم الجـيلي إنهم يدركون ذلك إيمانا وتقليدا لما تقتضيه صور حسنه وجماله .

على أن المتأمل في كل ما يذهب إليه ابن عربي والجـيلي وغـيرهم فيـه من الصوفية الذين ذاقوا وعرفوا حقيقة الجمال الإلهي المطلـق عـلى الوجـه الذي عرفه ثلاثتهم ، لاحظ أن له مصدرا أفلاطونيا اسـتقى منـه : فـأفلاطون يرى في " المائـدة " أن مـن يـصبو إلى الجـمال الحقيقـي ، ينبغـي لـه ، منـذ صباه ، أن يدأب على الاتصال بالصور الجميلة ، وأن يجعـل صـورة واحـدة بعينها موضوعا لحبه ، ثم يلحقهـا بـالروائع العقليـة ، وعليـه بعـد ذلـك أن يؤمن بأن الجمال أينما تمثل ، هو صـنو الجـمال في أيـة صـورة كانـت ومـن يروض نفسه على هذا الوجه في الحـب ، فيتأمـل الأشـياء الجميلـة متـدرجا

بينها وفق مراتبها الوجودية ، يصل عندئذ إلى التحقق بغاية الحب، وهنالك يرى بغتة نوعا من الجمال عجيبا في طبيعته ، خالدا لا سبيل إلى خلقه أو فنائه ، ولا إلى زيادته أو نقصانه ، ولا يمكن تصوره على نحو ما يتصور جمال الأيدي والوجه ، أو جمال أي عضو آخر من أعضاء البدن، وهو لا يوجد في السماء ، وفي في الأرض، ولا في أي مكان، بل هو أبدا ذو صورة ثابتة لا تستحيل ولا تتغير ، وهو متجانس مع ذاته ، ملائم لها . ومعنى هذا بعبارة أخرى من عبارات أفلاطون نفسه، أن للحب درجتين: تقابل إحداهما العالم السفلي، وتمثلها ڤينوس الأرضية (VénusTerrestre) وتقابل الأخرى العالم العلوي أو العقلي، وتمثلها ڤينوس السماوية (Vénus Cèleste) الأولى تلتمس جمال البدن ، والثانية تسعى وراء جمال النفس . وقد عبر أفلاطون عن فكرته هذه في " ليسيس " فقال إنه ينبغي علينا أن نصل إلى مبدأ ، وإن كان لا ينتقل بنا من شئ نسبي إلى شئ نسبي آخر ، إلا أنه ينتهي بنا أخيرا إلى ما هو محبوب على الإطلاق ، أي إلى ما هو محبوب لذاته . ويحمل أفلاطون بعد هذا كله مذهبه في الحب والجمال فيقول متسائلا : أليس الجمال الذي يترقرق في أعطاف جسم ما ، هو شقيق الجمال الذي يترقرق في أعطاف الأجسام الأخرى ؟ أفلا ينبغي أن ترد جميع صور الجمال المتفرقة إلى مثال واحد يحتويها في وحدته ؟ ... أجل ! إن ما يجعل لهذه الحياة قيمة إنما هو ذلك المشهد ، مشهد الجمال الأزلي الخالد ، فأي مصير يكون مصير هذا الرجل الفاني الذي منح القدرة على مشاهدة الجمال الذي تشوبه شائبة ، الجمال في صفائه ونقائه وبساطته ، الجمال الذي لا يكسوه اللحم ، ولا الألوان الإنسانية ، والذي خلص من

كل زخرف زائل خاضع لأحكام الفساد ، أي مصير مـصير هـذا الرجـل ، وقـد منح أن يشهد وجها لوجه الجمال الإلهي في صورته الواحدة .

ولعلنا إذا وازنا بـين أفلاطـون وابـن الفـارض في مـسألة الحـب عامـة ، والحب الإلهي خاصة ، وعلاقـة أولهـما بـالجمال ، وعلاقـة ثـانيهما بـالجمال المطلق ، اسـتطعنا أن نتبـين إلى أي حـد ، وعـلى أي وجـه ، يمكـن أن يكـون الشاعر الصوفي متـأثرا بالفيلـسوف اليونـاني : فغايـة الحـب الحقيقيـة عنـد أفلاطون هي أن يعتقد أن الجمال في أية صورة هو هو بعينه في أيـة صـورة أخرى ، أي أنـه واحـد مطلـق مهـما تعـددت الـصور ، وتنوعـت الأشـكال ، وكذلك كانت الغاية القصوى للحب عند ابن الفارض : فهو يـرى أن الحـسن البادي في المرئيات ، والفتنة الشائعة في وجوه المعشوقات مـن لـيلى وبثينـة وعزة ، والسحر المنتشر في أرجاء الطبيعة ، كل أولئـك لـيس في الحقيقـة إلا مظاهر متعددة لحقيقة جمال واحد ، هو الجمال الإلهي المطلق . وأفلاطون يرى أن من يريد أن يتحقق بالحب الحقيقي ، وجـب عليـه أن يتـصل منـذ صباه بالصور الجميلة ، وأن يتنقل بين هـذه الـصور ، حتـى يجعـل لـه مـن بينها صورة واحدة تصبح أحبها إليه ، وآثرها عنده ، وابـن الفـارض يحـدثنا بأنه أحب أول ما أحب الصور المقيـدة ، والمظـاهر المعينـة ، ثـم أخـذ حبـه يرقى رويدا رويدا حتى خرج به من دائرة الحسن المقيد إلى مشهد الجـمال المطلق الذي شهد فيه أن حسن كل ما في هذا الكون مستمد منه ، معارله . ولعل فكرة الترقي هذه تظهـر لنـا في وضـوح وجـلاء عنـدما نعـرض لأطـوار الحب الإلهي عند ابن الفارض في الفصل التالي .

٩ - ويحسن بعد أن عرفنا موضوع الحب الإلهي عند ابن الفارض ، أن نعرض لخصائص هذا الحب، وأن نتعرف مكانه من الأحوال والمقامات، وهل كان ابن الفارض يعده حالا أم مقاما . ولكي نتبين هذا كله ، فمن الملائم أن نقدم بتعريف الحال والمقام عند الصوفية : فالمقام هو ما يتوصل إليه العبد عن طريق الأعمال ، ولا كذلك الحال ، فهو لا يكتسب بالأعمال ، وإنما هو منَة إلهية يمنحها الرب للعبد ، وبعبارة أخرى ، يقول الصوفية ، إن المقامات مكاسب ، والأحوال مواهب ويختلف الصوفية حول طبيعة الحال ، أدائم هو أن متغير : فالمحاسبي مثلا يرى دوام الحال واستقراره ، ويعد الحب والشوق والقبض والبسط من الأحوال الثابتة الدائمة ، وإذ لو لم تكن كذلك ، لترتب عليه ألا يصبح المحب محبا ، والجنيد بخلاف المحاسبي ، يرى أن الأحوال أشبه ما تكون بلمعات البرق ، وأن دوامها مجرد وهم من أوهام النفس ، وإذا كان ذلك ما يراه بعض الصوفية في المقام والحال ، فما عسى أن يكون رأي بعضهم في الحب ؟

يقسم عمر السهرودي الحب إلى حبين : حب عام ، وحب خاص ، الحب العام يفسر بامتثال الأمر ، وربما كان حبا من معدن العلم بالآلاء والنعماء ، وهذا الحب من المقامات ، لأن لكسب العبد فيه مدخلا ، والحب الخاص هو حب الذات الناشئ عن مطالعة الروح ، وفيه السكرات ، وهو اصطناع من الله الكريم لعبده ، واصطفاء له . هذا الحب الخاص من الأحوال لأنه محض موهبة ، ليس للكسب فيه مدخل . ومكانة الحب من الأحوال ، كمكانة التوبة من المقامات : فمن صحت توبته تحقق بسائر

المقامات من الزهد والرضى والتوكل ، ومـن صـحت محبتـه ، تحقـق بـسائر الأحوال من الفناء والبقاء ، ومن المحو والصحو ، وغير ذلك .

وإذا كان ذلك كذلك ، فماذا تفيد إذن هذه المقدمة في تعرف خصائص حب ابن الفارض الإلهي ؟ لقد رأينا فيما سبق أن حب شاعرنا أخـذ في طـور من أطواره صورة الحب الإلهي الناشئ عن مطالعة جـمال الـذات المطلـق : ومعنى هذا أنه حب خاص ، وحال ليس لكسب العبد فيه مدخل . وإن ابن الفارض ليثبت في " تائيته الكبرى " أن حبه حال قديم موهوب لـه في الأزل ، وأنه من هذه الناحية لم يحصل عليه من طريق الكسب ، وإنه من حيـث هـو قـديم أزلي ، فهـو دائـم مـستقر ، فاسـمع إليـه حيـث يقـول مخاطبـا محبوبته :

وبعـد فحـالي فيـك قامـت بنفـسها   وبينَـي في سـبق روحـي بنيتـي ٤١

وحيث يقول متحدثا عن محبوبته ، واصفا حبه لها :

فحـالي بهـا حـال بعقـل مدلـه   وصـحة مجهـود وعـز مذلـة ١٢٩

وحيث يصف حبه أيضا فيقول :

منحـت ولاهـا يـوم لا يـوم قبـل أن   بـدت عنـد أخـذ العهـد في أوليتـي ١٥٦

فنلـت ولاهـا لا بـسمع ونـاظر   ولا باكتـساب واجـتلاب جبلـة

وهمـت بهـا في عـالم الأمـر حيـث لا   ظهـور وكانـت نـشوتي قبـل نـشأتي ١٥٨

وهنا نتبين مع ابن الفـارض أن حبـه لله حـال قامـت بنفـسها ، تلقتهـا روحه قبل أن تهبط إلى بدنه ، وأنـه لم يكتـسبها عـن أي طريـق مـن طـرق الكسب . وهذا يظهرنا على أن هذا الحب يمتاز بكمالات هي أقرب ما تكون إلى كمالات الذات

١٠ - على أن حب ابن الفارض لله لـيس وحـده مـا يطلـق عليـه اسـم الحب الإلهي ، بل إن هناك حبا آخر يندرج تحت هذا الاسـم ، وهـو حـب اللـه لأن يعرف ، وتمثله " الخمرية " بنوع خاص ، كما يصوره بعض أبيـات من " التائية الكبرى " . وهذا الحب الثاني هو ما نريـد أن نعـرض لموضـوعه وخصائصه ، بعد أن عرضنا لموضوع حب العبد للرب وخصائصه .

ولعل أول ما يلاحظه المتأمل في خمرية ابن الفارض أنها تقـدم مـذهبا في علاقة الحب بالخلق ، وصدور الخلق عن الحـب ، وذلـك وفقـا للحـديث القدسي الذي ورد فيه على لسان اللـه عز وجل قوله : " كنت كنزا مخفيـا ، فأحببت أن أعرف ، فخلقت الخلق فبه عرفوني " ، والذي اسـتغله الـصوفية اسـتغلالا خـصبا ، ولا يبعـد أن يكـون ابـن الفـارض قـد اسـتغله مـثلهم في قصيدته الخمرية ، وفي بعض أبيات النائية الكبرى ، حيث اتخـذ مـن حـب اللـه لأن يعرف موضوعا لهذه الأبيات ، وتلك القصيدة ، واتخذ من الخلـق موضوعا لهذا الحب ، وليس من شك في أن ابن الفارض قد انتهى مـن حبـه الإلهي بصورتيه إلى نتائج لها قيمتها من الناحيتين الصوفية والفلسفية : فهو فيما يـصور مـن حبـه لله قـد انتهـى إلى الفنـاء عـن نفـسه والاتحـاد بـذات محبوبته ، وفي هذا ما فيـه مـن الأذواق الـصوفية والمنـازع الفلـسفية التـي

سنكشف عنها في الفصل الثاني من الكتاب الثالث ، وهو فيما يصور من حب الله لأن يعرف ، إنما يقدم إلينا مذهبا صوفيا في الخلق مصدره ، والحياة وأصلها ، وإنه لمذهب ينطوي على معان فلسفية كثيرة نتبينها من خلال خصائص هذا الحب .

ولم يكن ابن الفارض ، فيما يذكر من خصائص الحب الإلهي من حيث هو مصدر للخلق ، بدعا بين صوفية المسلمين والمسيحيين ، وفلاسفة أولئك وهؤلاء ، بل إننا نراه في هذا الموضع من مذهبه في الحب يقرر كثيرا من الأفكار ، ويذكر كثيرا من المعاني ، التي قال بها من سبقه ، ومن لحقه من الفلاسفة والصوفية على السواء . وها نحن أولاء نبين هذا كله فيما يلي :

١ - فالحب عند ابن الفارض هو المنبع الفياض بالخلق ، والمصدر الحقيقي الذي استمدت منه الموجودات وجودها . ويدل على هذا تشبيهه المدامة التي يرمز بها في خمريته إلى المحبة الإلهية بالشمس فيقول :

لها البدر كأس وهي شمس يديرها   هلال وكم يبدو إذا مزجت نجم٢

والفكرة الرئيسية هنا ، وهي أن شمس المحبة الإلهية تصدر عنها النجوم التي كنى بها الشاعر عن المخلوقات ، تشبه شبها قويا ما يقوله سويدنبرج (١٦٨٨ - ١٧٧٢ م) العالم الفيلسوف الصوفي السويدي ، من أن الحب الإلهي هو ينبوع الحياة ، ومصدر الوجود ، وأن مثله في ذلك كمثل الشمس وما ينبعث منها من حرارة وضياء ، فما يذكره ابن الفارض

مجملا في البيت الذي أثبتناه آنفا يذكره سويدنبرج مفصلا في قوله : إننا نعلم أن حرارة الشمس اليوم ، هي كما كانت بالأمس وقبل الأمس الحياة المشتركة بين النباتات جميعا ، وأنها حين تزيد في الربيع تؤثر في ألوان النباتات المختلفة ، فتنمو وتترعرع ، فإذا هي زينتها الأوراق والأزهار والأثمار ، وإذا هي قد مرت فيها الحياة سريانا قويا ظاهرا متمثلا في هذه الأوراق النضرة ، وهذه الأزهار اليانعة ، وهذه الثمار الدانية ، حتى إذا كان الشتاء والخريف ، ونقصت حرارة الشمس ، تجردت النباتات من هذه المظاهر التي تثبت سريان الحياة فيها ، فإذا هي قد ذبلت ، وأصبحت هشيما تذروه الرياح . وظاهر هنا أن وجه الشبه بين الشاعر الصوفي المسلم ، والعالم الفيلسوف المسيحي ، ليس مقصورا على الفكرة الفلسفية التي يقررها كل منهما ، ولكنه يتجاوز الفكرة إلى اللفظ الذي يعبر عنها : فكلاهما يشبه المحبة بالشمس ، وكلاهما يستخدم هذا التشبيه في إثبات ما تظهره المحبة من الآثار الكونية .

٢ - وهذا الحب ليس ماديا في شئ ، وإنما هو روحاني بكل ما في الكلمة من معنى : تمتاز المدامة التي هي كناية عنه بالصفاء الذي يختلف عن صفاء الماء ، وباللطف الذي يختلف عن لطف الهواء ، وبالنورانية التي تختلف عن النار ، وبالروحانية التي تختلف عن الجسمانية .

صفاء ولا ماء ولطف ولا هوا ونور ولا نار وروح ولا جسم ٢٢

٣ - وفوق هذا فإن المحبة الإلهية قديمة وجدت منذ الأزل ، وباقية وستوجد إلى الأبد : وجدت في عالم ليس فيه تعين بشكل أو تقيد برسم ،

وإنما هو عالم مخالف في طبيعته لعالم المكونات الحادثة ، وما تخضع له من عوامل الكون والفساد :

تقدم كل الـــكائنات حديثـــها قديما ولا شكل هناك ولا رسم ٢٣

وكما أن هذه المحبة كانـت ولـيس قبلهـا قبـل ، فهـي سـتكون ولـيس بعدها بعد : فهي منزهة عن الدخول في قيود الزمان والمكـان ، لهـا القبليـة المطلقة عن كل شئ ، والبعدية المطلقة عن كل شئ ، وبعبـارة أخـرى يقـال من النابلسي إنها في الأزل الذي هو عنده الحضرة الدائمة المحيطـة بالأزمنـة كلها إحاطة واحدة : فلا ماضي ولا حال استقبال لـه . واسـمع إلى قـول ابـن الفارض في هذين البيتين :

ولا قبلهـــا قبـــل ولا بعـــد بعـــدها وقبليـة الأبعـاد فهـي لهـا حـتم ٢٩

وعـصر المـدى مـن قبلـه كـان عـصرها وعهـد أبينـا بعـدها ولهـا اليـتم٣٠

لترى إلى أي حد ينزه الشاعر المحبة الإلهية عـن التقيـد بقيـود الزمـان والمكان ، وكيف يثبت أن وجودها سابق على وجود النشأة العنصرية .

٤ - وتمتاز المحبة الإلهية بعد هذا كله بأنها قامت بذاتها ، وأن الأشياء إنما تقوم بها ، دون أن تقوم هي بواحد مـن هـذه الأشـياء . وتلـك حقيقـة خفية يرى ابن الفارض أنها ليست في متناول أفهـام الـذين لاحـظ لهـم مـن ذوق :

وقامـت بهـا الأشـياء ثـم لحكمـة بهـا احتجبـت عـن كـل مـن لا لـه فهـم ٢٤

فالمحبة الإلهيـة هنـا منبـع فيـاض بالآثـار الكونيـة ، وأصـل في وجـود الأشياء المادية ، وهي على ما تفيضه من آثار ، وما يصدر عنها مـن كائنـات في عالم العناصر ، ليست من هـذا العـالم المـادي في شـئ . وهـذا يـذكرنا بمـا ذهــب إليــه القــديس أغنطيــوس في رياضــاته الروحيــة (Exercices Spirituels) من أن الكمل يستطيعون في يسر أكثر مما يستطيع غيرهم أن يشهدوا أن اللــه موجـود في كـل الكائنـات بذاتـه وحـضرته وقدرتـه : فهـو حاضر في العناصر يمنحها الوجـود ، وفي النبـات يمنحـه النمـو ، وفي الحيـوان يمنحه الإحساس ، وفي الإنسان يمنحه العقل . هذا مع ملاحظة الفرق بين ابن الفارض وبين القديس أغنطيوس في أن أولهما يتحدث عن المحبـة الإلهيـة في حين أن ثانيهما يتحدث عن الذات الإلهية . فكما أن اللـه عند هذا القديس يظهر ويتجلى في الموجودات دون أن يكون هو أحد هذه الموجودات كـذاك ابن الفارض يرى أن المحبة الإلهية لها آثارها التي تتجلى بها في الأشياء التـي تفيض عليها الوجود ، دون أن يكون لها ما لهذه الأشياء من صفات المادية . وهنا نلاحظ أن شاعرنا ينتهي إلى تقريـر مـذهب صـوفي هـو عـين المـذهب الذي انتهى فيه ابن عربي إلى أنه لولا المحبة لمـا صـح طلـب شـئ أبـدا ، ولا وجود شئ ، وأن هذا هو سر " فأحببت أن أعـرف " ، ولا كانـت حركـة مـن شئ إلى شئ : فالمحبة على هذا الوجه هي عنده أصل في باب وجود الأعيان ومراتبها ومقاماتها .

على أن الحب الإلهي عند ابـن الفـارض ، إن كـان لـه صـورتان : حـب الإنسان لله ، وهـو هـذا الـذي تقلـب فيـه ابـن الفـارض طـورا بعـد طـور ، وسنتحدث عنه في الفصل التالي ، وحب اللــه لأن يعـرف ، وهـو مـا ذكرنـا

خصائصه الآن ، وكان لكل من الحيين موضوعه ، فإننا نلاحظ مع ذلك أن ابن الفارض كثيرا ما يخلط بينهما ، وذلك عندما يتحدث في تائيته الكبرى تارة بلسان الجمع مع الذات الإلهية وتارة بلسان القطب أو الحقيقة المحمدية فلا ندري أهو يتحدث عن الحب الذي يفني فيه الإنسان عن نفسه ، ويتحد بربه ، أم هو يتحدث عن الحب القديم الذي أحب الله أن يعرف به ، فكان الخلق ثمرته ، ومهما يكن من شئ ، فإن حب ابن الفارض الإلهي قد انطوى في صورتيه على منازع فلسفية ، بقدر ما هي طائفة من الأذواق والمواجيد الروحية ، ويمكن أن ترد هذه المنازع على كثرتها إلى فكرتين لهما قيمتهما من الناحية الفلسفية : إحداهما فكرة الوحدة التي تنتفي معها الأثنينية والكثرة ، والأخرى فكرة الخلق الصادر في عالمي المحسوس والمعقول عن الحب . وهذا هو ما سنكشف عنه بالتفصيل في الكتاب الثالث .

١١ - بقي أن نعرف مكان مدح الرسول ، وحب الحضرة المحمدية من الحب الإلهي عند ابن الفارض ، والمتأمل فيما خلف شاعرنا من الآثار الصوفية ، لا يكاد يقع على قصيدة بعينها يمكن أن تعد مدحا في الرسول بالمعنى الصحيح ، ولعل كل ما هنالك هو ما يروي من أن ابن الفارض لما نظم قوله :

وعلى تفنن واصفيه بحسنه   يفني الزمان وفيه ما لم يوصف

فرح وقال : " لم يمدح بمثله النبي صلى الـلـه عليه وسلم " . وما يقوله بعض الناس من أن باطن كلامه كله مدح فيه عليـه الـصلاة والـسلام ، عـلى الرغم من أن غالبه لا يصلح لذلك وقد أكبر فريـق مـن الـشراح شـأن هـذا البيت وأسرف في ذلك إلى حد زعم معه أنه لو لم يكن لابن الفارض في مـدح الرسول صلى الـلـه عليـه وسـلم سـوى هـذا البيـت لكفـى . بيـنما يـذهب البوريني هذا المذهب ، فيعد البيت مـدحا في الرسـول ، ويجعـل لـه هـذه القيمة الكبرى ، نرى النابلسي يـشرح البيـت عـلى أنـه قيـل في أول مخلـوق وهو الحقيقة المحمدية ، والنور المحمدي الذي خلق الـلــه تعـالى منـه كـل شئ ، وجماله وحسنه هو كل الجمال، وكل الحسن ، فإذا وصـف الواصـفون ما عسى أن يصفوا لا يبلغون ذلك . ويـذهب البـوريني والنابلـسي إلى أبعـد من هذا ، فتراهما يلائمان بين بعض الكنايات وبـين حـب الرسـول ومدحـه ، وذلك على نحو ما فعلا بهذين البيتين :

يــا أخــت ســعد مــن حبيبــي جئتنــي   برســــالة أديتهــــا بتطلــــف

فــسمعت مــا لم تــسمعي ونظــرت مــا   لم تنظــري وعرفــت مــا لم تعــرفي

ولعل في ذكر الشاعر أخت سعد ، وفهمها على أنها كناية عن بني سعد قبيلة حليمة مرضية النبي ، ما يحتمل معه أن يكون دليلا عـلى أن الحبيـب الذي يقصده ابن الفارض هنا إنما هو الرسول عليه الـصلاة والـسلام يـضاف إلى هذا كله ما ذكره البوريني في شرحه للخمريـة مـن أن الحبيـب في هـذه القصيدة عبارة عن حضرة الرسول عليه الصلاة والسلام ومن أن الصوفية قد يريدون به ذات الحق القديم جل وعلا .

ومهما يكن من مذهب الشراح في تأويلهم بعض شعر ابن الفارض على أنه نظم في مدح النبي ، فإننا لا نكاد نعثر على قصيدة برمتها يمكن أن يفهم ما ورد فيها على أن موضوعه هو هذا المدح . أما أن هنالك أبياتا يفهم لفظ الحبيب فيها على أنه حضرة الرسول ، وأبياتا أخرى تحدث فيها الشاعر بلسان الجمع مع الحقيقة المحمدية ، وأفاض في وصف هذه الحقيقة ، وعلاقتها بالذات الإلهية ، وآثارها في الأكوان ، فكل أولئك لا يعني أن ابن الفارض قد قصد في هذه الأبيات أو تلك إلى مدح محمد الرسول ، وإنما هو يعني أنه قصد إلى وصف الحقيقة المحمدية أو النور المحمدي ، أو الروح المحمدي ، أو محمد المعنى ، وهذا كله يدل في وضوح وجلاء على أنه إنما يتغنى ويصف حب شئ أقدم وأسبق في وجوده على وجود محمد الرسول ، أو النبي المبعوث الذي ختمت به النبوة ، ففرق ما بين الحقيقة المحمدية ، وبين محمد الرسول ، كفرق ما بين الوجود القديم المطلق عن التعين في الزمان والمكان ، وبين الوجود الحادث المتعين بقيود الزمان والمكان ، فابن الفارض لم يمدح النبي محمدا صلى الله عليه وسلم ، بل قصر غزله على الذات الإلهية . وعلى الحقيقة المحمدية التي يعدها الصوفية أول مخلوق صدر عن الذات ، وعنها صدرت بقية المخلوقات من روحية ومادية على السواء .

ولعلنا إذا أردنا أن نفسر إغفال ابن الفارض مدح النبي ، وحلولنا أن نعلله تعليلا يلائم حياته الصوفية وحبه الإلهي ، وجدنا أنفسنا بين أمرين : إما أن يكون ذلك الإغفال راجعا إلى أن ابن الفارض كان يعتقد أن حب الرسول منطو في حب الذات ، مثله في هذا كمثل الحقيقة المحمدية في اشتمال الذات الإلهية عليها ، لاسيما أن الله قد اتخذ من محمد حبيبا ، على حين اتخذ من غيره

من الأنبياء خليلا ونجيا وصفيا ، ومن ثم يكن حبيب المحبوب الحقيقي محبوبا ، وإما أن يكون حب الله قد استوعب قلب ابن الفارض ، وملك عليه حياته الروحية كلها ، فلم يترك فيها محلا لحب غيره ، ومن يدري فلعله في ذلك كان يتأثر رابعة العدوية التي وقفت حياتها على التغني بحب الله ، والإقبال على مشاهدة جماله الأزلي دون سواه ، بل لعله كان يقتدي بأبي سعيد الخراز المتوفي سنة ٢٧٧ هـ ، فيما يروي عنه من أنه رأى النبي في المنام فقال له : يا رسول الله ، اعذرني ، فإن محبة الله تعالى شغلتي عن محبتك ، فقال له النبي : يا مبارك ، من أحب الله فقد أحبني . وبين أيدينا قصة يرويها المترجمون عن ابن الفارض ، ويذكرون فيها أنه رئى في النوم ، فقيل له : لم تمدح المصطفى صلى الله عليه وسلم في ديوانك ، فقال :

أرى كل مدح في النبي مقصرا	وإن بالغ المثنى عليه وأكثرا
إذ الله أثنى بالذي هو أهله	عليه فما مقدار ما يمدح الورى

وهذه القصة - وإن كانت من صنع الخيال ، أو من أثر الصنعة والانتحال - يعنينا منها ما تشتمل عليه من افتراض أن يكون ابن الفارض قد أغفل مدح النبي لأنه وجد الله قد أثنى عليه بما هو أهله ، فإذا مدحه البشر فلن يكون مدحهم شيئا بالقياس إلى هذا الثناء .

والنتيجة التي تخلص إليها من كل ما تقدم هي أن لابن الفارض حيا إلهيا يدور غزله فيه حول محور واحد هو جمال الذات الإلهية المطلق ، وجمال الحقيقة المحمدية ، من حيث أنها أول تعين صدر عن الذات الإلهية بعد أن كان مندرجا فيها ، وهو إذ يتحدث عن آثار الحقيقة المحمدية في

الأكوان الروحية والمادية ، فإنما يتحدث عنهـا باعتبارهـا واسـطة بـين الحـق والخلق ، أو بين الحقيقة الإلهية وبين حقائق الموجودات ومراتـب الوجـود : فالذات الإلهية وجمالها المطلق ، وآثار الحـسن الـصادرة عـن هـذا الجـمال المطلق ، كل أولئك هو الموضوع الحقيقي لحـب ابـن الفـارض الإلهـي ، أمـا كيف وصل الشاعر الصوفي إلى معاينة الذات ، ومـشاهدة الجـمال المطلـق ، ومعرفة حقائق الكائنات المعينـة ، وردهـا إلى حقيقتهـا الأولى التـي فاضـت منها ، وصدرت عنها ، فكل أولئك ما ستكشف لنا عنه أطوار الحـب الإلهـي التي أفردنا لتحليلها الفصل التالي .

الفصل الثاني

أطوار الحب الإلهي

التائية الكبرى مرآة هذه الأطوار - الطور الأول : الأثرة، الرضا، الفناء الأول - الطور الثاني: الفناء الكلي - الطور الثالث: الاتحاد أو الحال الموحدة - بداية الاتحاد: سكر الجمع - نهاية الاتحاد: صحو الجمع - السماع والاتحاد - العقل والاتحاد - خاتمة : ابن الفارض سلطان العاشقين وإمام المحبين .

١ - بينا في الفصل الثاني من الكتاب الأول كيف كانت تائية ابن الفارض الكبرى ثمرة صادقة في ثمرات أذواقه ومواجيده التي تعاقبت على نفسه ، وكيف كانت الغيبة التي كثيرا ما خضعت لها نفس الشاعر عاملا قويا في تقسيم هذه القصيدة إلى أقسام ، يكاد كل قسم منها يقابل فترة من هذه الفترات التي كان يخضع فيها الناظم لسلطان الوجد والغيبة . ومعنى هذا أن التائية الكبرى من هذه الناحية مرآة صادقة انعكست على صفحاتها المختلفة الأحوال التي تعاقبت على نفس ناظمها ، ومن ثم كان لهذه القصيدة خطرها العظيم الذي يميزها من بقية قصائد ابن الفارض : فهي ترجمة لحياته الروحية كتبها بنفسه عن نفسه ، ووصف فيها سلوكه في طريق الحب الإلهي ، وما كابده من الأحوال ، وما عاناه من الأهوال ، وما طمح إليه من الآمال ، وما تقلب فيه من الأطوار التي ظل يترقى من أحدها إلى الذي يليه ، حتى وصل في النهاية إلى أرقاها وأنقاها ، وهو طور

الاتحاد الذي يشعر فيه المحب بفنائه عن نفسه ، وبقائه في محبوبه ، واتحاده به على وجه تسقط معه الاثنينية ، وتزول التفرقة .

والحب الإلهي الذي رأينا مع ابن الفارض في الفصل السابق أنه حال قديم منحته روحه وهي في عالم الأمر ، قبل أن تهبط إلى هذا العالم السفلي ، لم يبق في هذه الحياة الدنيا على ما كان عليه من صفاء ونقاء ، بل أفسدته ظروف الحياة المادية ، شابته شوائب الحس ، وشهوات النفس ، وما إلى ذلك من حظوظ وأغراض هي في حقيقتها حجب تحول بين الروح وبين اتصالها بمصدرها الأول ، وعالمها الأعلى ، ولهذا كان لابد من سبيل إلى تصفية النفس ، وتنقية القلب ، وجلاء عين البصيرة ، لتستحيل حياة الإنسان في هذه الدنيا إلى حياة روحية خالصة ، تستعيد فيها روحه روحانيتها الأولى ، وتستشعر حبها القديم الذي منحته قبل أن تهبط من عالمها العلوي ، وتتصل ببارئها الذي صدرت عنه اتصالا ، يفنيها فيه ، ويوحدها معه ، ويشعرها بسعادتها القصوى ، وبهجتها العظمى . هذه السبيل المؤدية إلى هذا كله هي التي يصورها ابن الفارض في تائيته الكبرى في هذه الصورة التحليلية النفسية الرائعة التي يبين من خلالها أطوار حبه الإلهي ، ويصف كل طور منها ، وما انكشف له فيه من عجائب الحب ، وحقائق المعرفة ، وهذه الأطوار هي التي سندرسها في هذا الفصل ، محاولين أن نبين موضوع كل طور وطبيعته وقيمته الروحية ، بالقياس إلى غيره من الأطوار ، وما عسى أن يكون له من أثر في الحياة الروحية لمن مر به .

٢ - ففي الطور الأول يظهر حب ابن الفارض لله ناقصا مشوبا بشوائب نفسه وحواسه ، بل إنه يتعاقب على نفسه الصحو والسكر ، وما يـزال عـلى هذه الحال : يغيب مرة ويصحو أخرى إلى أن يتهيأ له في آخر هذا الطور ما يسميه الصوفية بالصعق أو المحو أو الفناء الأول .

ولعل أظهر ما يبدو في هـذا الطـور أن المحـب لـيس متجهـا بحبـه إلى محبوبته من حيث هي ، ولكنه محب لنفسه متجه بحبه إلى إشباع رغبـات هذه النفس وتحقيـق حظوظهـا مـن المحبوبـة كميلـه إلى رؤيتهـا وسـماعه كلامها . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن الحب يؤثر في نفس المحب ، ويبلغ منها مبلغا كبيرا فيحملها من المشقة والألم مـا تطيـق ومـا لا تطيـق . ولكن المحب برغم هذه المشقة وهذا الألم لا يشكو ولا يتبرم ، بل هـو راض عن كل ما يصيبه من أهوال المحبة ، محتمل له . ومن هنا كان الطور الأول لحب ابن الفارض مرآة واضحة ظهرت على الأثرة وحب النفس من ناحيـة ، والرضا من ناحية أخرى . وانظر إلى قول ابن الفارض مخاطبا محبوبته :

هـي قبـل يفنـي الحـب منـي بقيـة	أراك بهــــا لي نظــــرة المتلفــــت ٨
ومني على سمعي بلـن إن منعـت أن	أراك فمــــن قــــبلي لغـــيري لــــذة
فعنــــدي لــــسكري فاقــــة لإفاقــــة	لهـا كبـدي لـولا الهـوى لم تفتـت١٠

لتتبين إلى أي حد كانت الأثرة ما تزال غالبة عـلى نفـسه حتـى إنـه كـان يطمح من المحبوبة أن تمنحه رؤية وجهها أوتمن عليه بسماع كلامها إن لم ترد

رؤيته لها . ولتتبين أيضا أنه ما يزال مفتقرا إلى السكر لغلبة الصحو عليه . وانظر بعد هذا إلى قوله مخاطبا محبوبته أيضا :

ولم أحك في حبيك حالي تبرما — بها لاضطراب بل لتنفيس كربتي ٤٢
ويحسن إظهار التجلد للعدا — ويقبح غير العجز عند الأحبة
ويمنعني شكواي حسن تصبري — ولو أشك للأعداء ما بي لأشكت
وعقبي اصطباري في هواك حميدة — عليك ولكن عنك غير حميدة
وما حل بي من منحة فهو منحة — وقد سلمت من حل عقد عزيمتي
وكل أذى في الحب منك إذا بدا — جعلت له شكري مكان شكيتي ٤٧

لترى كيف سيطر الرضا على نفس المحب سيطرة قوية أصبح معها يرى الألم لذة والمحنة منحة تستحق الشكر لا الشكوى .

فابن الفارض في الأبيات الثلاثة الأولى يظهرنا على أن حبه كان ما يزال ناقصا ، مشوبا بشوائب الأثرة والأنانية ، يرمي إلى شيئين : (أحدهما) رغبته في أن يظفر من المحبوبة الحقيقية برؤيتها أو سماع كلامها كأن تقول له: "لن تراني"، (وثانيهما) حاجته إلى كمال سكره الذي يعينه على أن يخلص من إنيته . وهذا يظهرنا في وضوح وجلاء على الأثرة وحب النفس ونقصان الحب الإلهي . وهو في الأبيات الستة الأخيرة يكشف لنا عن الصلة بين الحب والرضا . وابن الفارض في ربطه الرضا بالحب وجعله نتيجة له إنما يفعل ما فعله غيره من الصوفية المتقدمين : المحاسبي مثلا يرى هذا الرأي من حيث إن المحب راض بكل ما يفعله المحبوب ، مما يجلب لذة أو يعقب

ألما . وقد حكى عن عتبة الغلام أنه بات ذات ليلة وهو يناجي ربه قـائلا : " إن تعذبني فأنا لك محب وإن ترحمني فأنا لك محب " .

وعلى هذا النحو تكون النفس الإنسانية بما لها مـن الأهـواء ومـا فيهـا من الرغبات التي تعود عليهـا بلـذة أو منفعـة وسـيلة رديئـة لا تـصلح لأن يتوصل بها إلى شهود الذات ، إذ شهود الذات أمر عظـيم لا يتحقـق بفنائـه عن نفسه فناء تاما ، بمعنى أن ينصرف عما في الحياة الدنيا من زخرف وجاه ، وعما في الحياة الآخرى من جنة ونعيم ، وأن يفني المحب عن كل أوصـافه بحيث يتجلى صورته في صورة المحبوبة كما يقـول ابـن الفـارض عـلى لـسان محبوبته في هذه الأبيات :

فلـم تهـوني مـا لم تكـن في فانيـا	ولم تفـن مـا لا تجـتلي فيـك صـورتي ٩٩
فـدع عنـك دعـوى الحـب وادع لغـيره	فـؤادك وادفـع عنـك غيـك بـالتي
وجانب جنـاب الوصـل هيهـات لم يكـن	وهـا أنـت حـي إن تكـن صـادقا مـت
هـو الحـب إن لم تقـض مأربـا	من الحب فـاختر ذاك أو خـل خلتـي ١٠٢

فوصل المحبوبة الحقيقية إذن ، والتحقق بشهود الـذات ، لا يتحققـان بالحياة النفسية ، وما يشوبها من أهواء وأغراض ، ولكنهما يتحققان بالموت : الموت الذي لا تبقي معه بقية من حظ أو مطمع في غـرض : المـوت الـذي تخلص فيه النفس من كل العلائق خلاصـا يـصفيها وينقيهـا إلى الحـد الـذي يمكنها من الاتصال بمن تحب ، وشهوده شهودا عينيـا . وهـا هـي ذي نفـس ابن الفارض قد بدأت تصفو شيئا فـشيئا في آخـر الطـول الأول لحبـه ، فـإذا

هو قد أصبح راضيا عن هذا الموت في سبيل المحبة دون أن يكون له من وراءه مطمع في وصل المحبوبة كما يقول :

أجل أجلي أرضي انقضاه صبابة ولا وصل إن صحت لحبك نسبتي ١٠٦

وليس أدل على رضاه عن فنائه من أنه أصبح يرجو هذا الفناء ويرى فيه سعادته وحياته ، فهو يقول :

فقد صرت أرجو ما يخاف فأسعدي به روح ميت للحياة استعدت ١١٦

على أن الفناء الذي يتحدث عنه ابن الفارض هنا ليس فناء تاما قد تحقق فيه بموته عن نفسه وروحه وبتجرده عن حظوظهما ، بل إنه ما يزال يرجوه ، ويتمنى أن يحصل له ، ورجاؤه دليل على أنه يتحقق به بعد . وإذن فما سبيل هذا الفناء ؟ سبيله أن يتجرد المحب عن إرادته ، ويستسلم لإرادة المحبوبة ، بحيث يترك مراده إلى مرادها ، وأن يسوي بين ظاهره (قوله) وبين باطنه (اعتقاده) ، وأن يؤدي فروض الإسلام من صلاة وصوم وحج وغيرها من العبادات ، وألا يخلد إلى البطالة أو التسويف في أداء واجبات الشرع ، إلى غير ذلك ، من المبادئ الأخلاقية التي لها أثرها في تصفية النفس البشرية تصفية تنتهي منها إلى مقام الجمع ، حيث يعزل المحب نفسه عن صفاتها ، بأن ينظر كأنه بمثابة النظر لا الناظر ، ويسمع ويعي كأنه بمثابة السمع والوعي لا السامع والراعي ، ويتكلم كأنه بمثابة اللسان لا المتكلم ، وذلك كله لكي يصبح المحب الذي استحال إلى نظر وسمع ووعي ولسان ، عين المحبوبة في مقام الجمع ، إذ الله عند ابن الفارض

، كما هو عند غيره من الصوفية ، عبارة عن بصر العبد وسمعه ، ولسانه ويده . وفي هذا المعنى يقول ابن الفارض :

فكن بصرا وانظر وسمعا وعه وكن لسانا وقل فالجمع أهدى طريقة ١٩٤

وجملة القول هي أن حب ابن الفارض لله يمتاز في طوره الأول بأن شهوده للمحبوبة الحقيقية لم يكن ثابتا مستقرا ، ولكنه شهودا اكتنفته حالتا الحجاب والكشف بدليل قوله :

وما بين شوق واشتياق فنيت في تول بحظر أو تجل بحضرة ٣٢

ولعل تعاقب هاتين الحالتين على نفسه راجع إلى أن الفناء لم يكن تاما مستقرا ، بل كان ناقصا متذبذبا ، أو قل كانت نفس الشاعر فيه مترددة بين أغراضها وحظوظها ، وبين خلاصها من هذه الأغراض والحظوظ . يضاف إلى هذا استعداد النفس في آخر هذا الطور لقبول الفناء ، ورجاؤها أن تتحقق به ، ورضاها بكل ما تقتضيه المحبة من تكاليف

ولعلنا لو أردنا أن نطلق على حب ابن الفارض في طوره الأول اسما يميزه عما أصبح عليه هذا الحب في طوريه الآخرين، لما رأينا خيرا من تسميته بحب الهوى ، وهو ما ذكرته رابعة العدوية في مقابل حب الله لذاته، وذلك في قولها :

أحبك حبين حب الهوى وحبا لأنك أهل لذاكا

فأما الذي هو حب الهوى فشغلي بذكرك عمن سواكا

وأمـــا الـــذي أنـــت أهـــل لـــه فكـــشفك لي الحجـــب حتـــى أراكـــا
فـــــلا الحمـــــد في ذا ولا ذاك لي ولكـــن لـــك الحمـــد في ذا وذاكـــا

وقد فسر الغزالي " حب الهوى " بقوله : " ولعلها أرادت بحـب الهـوى حب اللـه لإحسانه إليها وإنعامـه عليـه بحظـوظ العاجلـة .. " . فـإذا كـان حب الهوى هو هذا الذي يحب فيه اللـه لإشياعه حظوظ النفس العاجلة ، كان حب ابن الفارض أقرب ما يكون إليه في طوره الأول ، بخلاف مـا أصـبح عليه في طوره الثالث ، وهو طور الحب الذي يقصد به إلى مطالعة الـذات ، ومشاهدة جمالها المطلق ، وعبرت عنه رابعة بقولها : " وأما الذي أنت أهل له " وفسره الغزالي بقوله إنه : " الحب لجمالـه وجلالـه الـذي انكـشف لهـا وهو أعلى الحبين وأقواهما . ولذة مطالعة جمال الربوبية هي التي عبر عنها رسول اللـه صلى اللـه عليـه وسلم حيـث قـال حاكيـا عـن ربـه تعـالى : " أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطـر عـلى قلب بشر " . وقد تعجل بعض هذه اللذات في الدنيا لمن انتهى صـفاء قلبـه إلى الغاية " .

ومهما يكن من أمر هذا الهوى الذي كان غالبا على الحب الفـارضي في طوره الأول ، فإن الاستعداد الذي بدا في آخره للفناء عن الـنفس وهواهـا ، كان كفيلا بأن يسلم هذه النفس إلى الطور الثاني للحب ، حيث يأخذ الفناء صورة أتم ، ويبلغ الحب بالمحب مبلغا من القوة لم يبلغه من قبله . فلننظر إذن ماذا في هذا الطور .

٣ - هنالـك في الطـور الثـاني تفنـي نفـس المحـب عـن أوصـافها فنـاء تستغرق معه في ذات المحبوبة ، وينتهي بها هذا الاستغراق إلى أن ينكشف

لهـا مـن الأسرار مـا لم يكـن ينكـشف مـن قبـل ، وذلـك لأن نفـس المحـب بتجردها عن أوصافها ، وفنائها عن حظوظها من المحبوبـة ، قـد رجعـت إلى حالتها الأولى من الصفاء الذي كان لها قبل أن تتـصل بالبـدن ، فاسـتطاعت أن تشهد في حالة الفناء أنها عين محبوبتها ، كما يدلنا عـلى ذلـك قـول ابـن الفارض في هذه الأبيات :

فـأفنى الهـوى مـا لم يكـن ثـم باقيـا هنـا مـن صـفات بيننـا فاضـمحلت ١٥٩

فألفيــت مــا ألقيــت عنــي صــادرا إلي ومنـــــــي واردا بمزيـــــــدتي

وشـاهدت نفـسي بالـصفات التـي بهـا تحجبــت عنــي في شــهودي وحجبتــي

وإني التـــي أحببتهـــا لا محالـــة وكانــت لهــا نفــسي عــلي محيلتــي ١٦٢

ألا ترى إلى المحب كيف فني هنا عن صفاته التي من قبل حـائلا بينـه وبين محبوبته ، وإلى هذا الفناء كيف كان سبيله إلى شهود نفسه ومحبوبتـه على أنهما شئ واحد . يضاف إلى هذا كله هـذا الـسر العظـيم الـذي كـشفه الفناء لابن الفارض في هذا الطور وهو معرفته أن حبه لهـذه المحبوبـة كـان قديما منذ الأزل ، منحه قبل أن تهبط روحه من عالم الأمر إلى عالم الحـس ، كما نتبين هذا من قوله :

منحــت ولاهــا يــوم لا يــوم قبــل أن بــدت عنــد أخــذ العهــد في أوليتــي ٥٦

فنلــت ولاهـــا لا بـــسمع ونـــاظر ولا باكتـــــساب واجــــتلاب جبلـــــة

وهمــت بهــا في عــالم الأمــر حيــث لا ظهــور وكانــت نــشوتي قبــل نــشأتي ١٥٨

ومن هنا ترى أن فناء ابن الفارض قد انتهى به إلى حالة نفسية ، استطاع فيها أن يتعرف ما كانت عليه النفس من تجرد عن الصفات الخلقية المذمومة ، والشوائب الحسية ، قبل أن يفسد عليها اتصالها بالبدن هذا التجرد .

ولكي نتعرف طبيعة الفناء الفارضي ، وما يرمي إليه من خلال أبيات " التائية الكبرى " التي تبدو في بعض الأحيان كأنها متناقضة مضطربة ، يحسن أن نمهد لذلك بمقدمات نبين فيها معنى الفناء وأنواعه ، وما ينطوي عليه كل نوع ، لنتبين في النهاية من أي هذه الأنواع كان فناء ابن الفارض : قال الجرجاني : " الفناء سقوط الأوصاف المذمومة ، كما أن البقاء وجود الأوصاف المحمودة ، والفناء فناءان ، أحدهما ما ذكرنا ، وهو بكثرة الرياضة ، والثاني عدم الإحساس بعالم الملك والملكوت ، وهو بالاستغراق في عظمة الباري ومشاهدة الحق ... " . وقال ابن قيم الجوزية : " الفناء الذي يشير إليه القوم ، ويعملون عليه أن تذهب المحدثات في شهود . العبد وتغيب في أفق العدم ، كما كانت قبل أن توجد ، ويبقى الحق تعالى كما لم يزل ، ثم تغيب صورة المشاهد ورسمه أيضا . فلا يبقى له صورة ولا رسم ، ثم يغيب شهوده أيضا ، فلا يبقى له شهود ، ويصير الحق هو الذي يشاهد نفسه بنفسه كما كان الأمر قبل إيجاد المكونات ، وحقيقته أن يفني من لم يكن ويبقى من لم يزل " . فإذا كان الفناء كما يعرفه الجرجاني هو أحد اثنين : إما فناء عن الأوصاف المذمومة ، وإما فقدان الإحساس بالاستغراق في عظمة الحق والاستهلاك فيه ، وكان الفناء عند القوم ، كما يصوره ابن قيم ، عبارة عن ذهاب المحدثات في شهود العبد بحيث تغيب في

أفق العدم كما كانت قبل أن توجد ، إذا كان ذلك كذلك فقد أصبح بينا أن الفناء عبارة عن هذه الحالة النفسية التي يغيب فيها السالك عن نفسه وأوصافها ، ويستغرق في الحق وذاته بحيث يعود إلى ما كان عليه قبل إيجاد المكونات فيفنى الإنسان ، وتفنى معه المحدثات ، ويغيب كل أولئك في الحق . ومن هنا لا يمكن أن يكون الفناء عبارة عن انحلال الجوهر الإنساني ، واستحالة وجوده إلى عدم ، أو صيرورة صفاته البشرية صفات إلهية ، وذلك لأن الفناء الحقيقي ، عن شئ ما هو - كما يقول الهجويري - عبارة عن الشعور بنقصه وبفقدان الرغبة فيه ، وأن من فني عن إرادته الزائلة بقي في إرادة الله الدائمة الأبدية ، وأن الصفات الإنسانية لا يمكن أن تستحيل إلى صفات إلهية ، وكذلك لا يصح العكس . قال الهجويري ما نصه : " إن قوة النار تحول كل ما يلقى فيها إلى خاصتها ، ومما لا شك فيه أن قوة الله أعظم من قوة النار : فالنار تؤثر في خاصة الحديد فقط دون أن تغير جوهره ، إذ لا يمكن مطلقا أن يستحيل الحديد إلى نار " .

وللفناء أنواع نذكرها مع ابن قيم الجوزية فيما يلي :

١ - الفناء عن وجود السوي : وهو فناء الملاحدة القائلين بوحدة الوجود ، وأنه ما ثم غير الله ، وأن غاية العارفين والسالكين الفناء في الوحدة المطلقة ، ونفي التعدد والتكثر عن الوجود بكل اعتبار : فلا يشهدون غيرا أصلا ، بل يشهدون وجود العبد عين وجود الرب . وفناء هذه الطائفة في شهود الوجود كله واحدا وليس عندهم فرق بين الله والعالم .

٢ - الفناء عن شهود السوى : وهو الذي يشير إليه أكثر الصوفية المتاخرين ويعدونه غاية . وليس مرادهم فناء ما سوى الله في الخارج بل فناؤه عن شهودهم وحستهم ، فحقيقته غيبة أحدهم عن سوى مشهوده ، بل غيبته أيضا عن شهوده ونفسه ، لأنه يغيب بمعبوده عن عبادته ، وبمذكوره عن ذكره ، وبموجوده عن وجوده ، وبمحبوبه عن حبه ، وبمشهوده عن شهوده . وقد يسمى هذا الحال سكرا واصطلاما ومحوا وجمعا . وقد يفرقون بين معاني هذه الأسماء ، وقد يغلب شهود القلب لمحبوبه ومذكوره حتى بغيب المحب به فيظن أنه اتحد به وامتزج ، بل يظن أنه نفسه .

٣ - الفناء عن إرادة السوى : وهو فناء خواص الأولياء وأئمة المقربين ، لسالك فيه يفنى بمراد محبوبه منه عن مراده هو من محبوبه ، فضلا عن إرادة غيره ، ويتحد مراده بمراد محبوبه ، أعني المراد الديني الأمري لا المراد الكوني القدري ، فصار المرادان واحدا . وليس في العقل اتحاد صحيح إلا هذا .

هذه هي المعاني المختلفة للفناء، فمن أيها كان فناء ابن الفارض؟ الحق أننا حين نقرأ أبيات ابن الفارض التي يشير فيها إلى الفناء ، وما يصل إليه هذا الفناء من النتائج ، نلاحظ لأول وهلة أن فناءه لا يدخل في واحد من هذه المعاني دون غيره ، ولكنه يأخذ من كل معنى بطرف : فهو حينا فناء عن وجود السوى ، وحينا آخر فناء عن شهود السوى ، وحينا ثالثا فناء عن إرادة السوى ، فانظر إلى قوله :

جلــت في تجليهــا الوجــود لنــاظري ففــي كــل مــرئي أراهــا برؤيــة ٢١٠

وأشــهدت غيبــي إذ بــدت فوجــدتني هنالـــك إياهـــا بجلـــوة خلـــوتي

وطـاح وجـودي في شـهودي وبنـت عـن وجــود شــهودي مــا حيـا غــير مثبــت

وعانقـت مـا شـاهدت في محـو شـاهدي بمــشهده للـصحو مـن بعـد سـكرتي ٢١٣

لترى أن الشاعر هنا يذهب إلى ما يـشم منـه رائحـة وحـدة الوجـود ، فهو يقول إن المحبوبة في حال تجليها وظهورها قـد أظهـرت لعينـه الوجـود بحيث أصبح يراها في كل موجود ، وإنـه حـين كـشف عـن باطنـه الحجـاب شهد أن ذاته هي عين ذات المحبوبة ، وأن وجـوده قـد انمحـى في شـهوده . ولترى فوق هذا كله أنه تمسك في صحوه ، الحاصل بعد سكره ، بمـا شـاهده في باطنه ، وهو أن المحبوبة هي الوجود المطلق ، وهذا ينتهي بابن الفـارض إلى أن يصبح فناؤه من فناء الملاحدة القائلين بوحـدة الوجـود ، وبـأن الـرب الذي هو عند ابن الفارض المحبوبة ، عين الوجـود ، أو أن وجـود الـرب هـو عين وجود العالم .

وانظر إلى قوله أيضا :

رفعت حجاب النفس عنها بكشفي الـ نقــاب فكانــت عــن ســؤالي مجيبتــي ٥٢٦

وكنــت جــلا مــرآة ذاتي مــن صــدا صـــــفاتي ومنـــــي أحـــــدقت بأشـــــعة

وأشـــهدتني إيـــاي إذا لا ســـواي في شـــهودي موجـــود فيقـــضي بزحمـــة ٥٢٨

لترى أن الفناء هنا ليس إلا فناء عن شـهود الـسوى كـما يظهرنـا عـلى ذلك البيت الأخير خاصة .

وانظر بعد هذا إلى قوله :

وكنت بها صباً فلما تركت ما　　أريد أرادتني لها وأحبت ٢٠٤

فصرت حبيبا بل محبا لنفسه　　وليس كقول مر نفسي حبيبتي ٢٠٥

لترى أنه يشير هنا بما يفهم منه أن فناءه كان فناء عن إرادة السوى ، وهكذا يظهر ابن الفارض في صورة الرجل المضطرب النفس ، الذي لا يستطيع أن ينتهي إلى غاية واحدة معينة تفهم في وضوح وجلاء : هل كان فناؤه فناء عن وجود السوى أو عن شهوده أو عن إرادته . أو هل كان فناء عن هذه الأشياء كلها ؟ ذلك ما لا يبينه ابن الفارض واضحا ، ولكننا نستطيع أن نلتمس للمسألة حلا قد يكون مؤديا إلى معرفة حقيقة الفناء الفارضي ومن أي نوع هو ، هذا الحل يدور حول لفظة الوجود ، وهل يستعملها ابن الفارض بالمعنى الذي يستعملها فيه أصحاب وحدة الوجود ، أو أن لها عنده معنى يخالف معناها عند هؤلاء . ونحن إذا ذكرنا ما قلناه في غير هذا المكان عن " التائية الكبرى " وعن الحالة النفسية التي نظم ابن الفارض قصيدته هذه فيها ، وأنه كان أكثر ما يكون دهشا غائبا عن نفسه وحسه ، إذا ذكرنا هذا كله ، وذكرنا إلى جانبه أن أبيات " التائية الكبرى " كان يمليها الشاعر بعد إفاقته من الغيبة ، استطعنا أن نتبين في وضوح وجلاء أن ما أورده ابن الفارض في تائيته هذه لم يكن إلا صورة صادقة لما كان يشعر به ، ويشهده في حالة الغيبة من أن ذاته قد اتحدت بذات المحبوبة ، وأن كل ما في الوجود قد أصبح في نظره مظهرا من مظاهر هذه المحبوبة . فإذا كان ابن الفارض قد ذكر في " تائيته الكبرى " ما يشتم منه

رائحة وحدة الوجود فإن هذه الوحدة ليست وحدة عقلية يثبت فيها العقل أن الله والعالم شئ واحد ، أو أن وجود المخلوقات هو عين وجود الخالق ، ولكنها وحدة نفسية لا تدوم إلا بقدر ما تدوم الحالة النفسية المسيطرة على نفس المشاهد ، فإذا زالت هذه الحالة ، زالت معها الوحدة ، وعاد المشاهد إلى مشاهدة ما كان عليه الوجود من تكثر مظاهره وتعددها قبل أن يغيب عن نفسه وحسه ، يضاف إلى هذا أن لفظة " الوجود " يمكن أن تفهم في شعر ابن الفارض بمعنى يلائم طبيعة هذه الحالة النفسية ، ويخالف معناها عند أصحاب وحدة الوجود : فقد قال الجرجاني ما نصه :"الوجود فقدان العبد بمحق أوصاف البشرية ، ووجود الحق ، لأنه لا بقاء للبشرية عند ظهور سلطان الحقيقة ، وهذا معنى قول أبي الحسين النوري : " أنا منذ عشرين سنة بين الوجد والفقد ، إذا وجدت ربي فقدت قلبي " .. ، فإن صح ما قدمنا انبنى عليه أن يكون فناء ابن الفارض بعيدا كل البعد عن " فناء وجود السوى " الذي هو للملاحدة أصحاب وحدة الوجود ، كما يقول ابن قيم الجوزية ، وكان فناء عن شهود السوى من ناحية ، وعن إرادته من ناحية أخرى . فأما أنه فناء عن شهود السوى فذلك ملائم كل الملاءمة للحالة النفسية التي كان يعانيها ابن الفارض ، ونظم قصيدته فيها ، إذ الشهود هو - كما يقول الجرجاني - هو رؤية الحق بالحق ، بمعنى أن العبد حين يغيب عن نفسه ويفنى عن صفاته يصبح متحدا بالحق ، وهو من حيث اتحاده بالحق يقال إنه في مشاهدته له يرى الحق بالحق ، وأما أن فناء ابن الفارض فناء عن " إرادة السوى " فذلك أمر واضح يدل عليه قسم كبير من أبيات " التائية الكبرى " حيث أظهرنا الشاعر على الشروط

التـي لابـد مـن أن يـستوفيها الـسالك في طريـق المحبـة ليتحقـق بفنائـه في المحبوبة ، وذكر في مقدمتها الفناء عما سوى مراد المحبوبة وذلك في قوله :

فخـــل هـــا خـــلي مـــرادك معطيـــا   قيـادك مـن نفـس بهـا مطمئنـة ١٧٥

وأمس خليا من حظوظـك واسـم عـن   حضيضك واثبت بعد ذلك تنبت ١٧٦

وهكذا نـرى أن فنـاء ابـن الفـارض قـد جمـع بـين الفنـاء عـن " إرادة السوى " ، وهو ما يقول عنه ابن قيم إنه فناء خواص الأولياء وأئمة المقربين ، وبين الفناء عن " شهود السوى " وهو - كما يقول ابن قيم أيضا مـا يعـده أكثر الصوفية المتأخرين غاية .

أما ما يذهب إليه بعض أعداء الـصوفية وخـصوم ابـن الفـارض كـابن تيمية مثلا من اعتبار شاعرنا من أصحاب وحدة الوجود فتلك مسألة يكفينا القدر الذي أشرنـا إليـه منهـا فـيما يتعلـق بالفنـاء ، عـلى أن نعـود إليهـا في الفصل الثاني من الكتاب الثالث حيث نكشف عن حقيقة المذهب الفلسفي الذي ينطوي عليه حب ابن الفارض .

وإذا لم يكن فناء ابن الفارض فناء عن " وجود السوى " فإن بينه وبين ما يعرف عند البوذيين " بالنيرڤانا " (Nirvana) تشابها من هذه الناحية ، فالنيرڤانا عند البـوذيين عبـارة عـن فنـاء الأنـا (Le Moi) لا فنـاء الوجـود (L'Etre) وامتزاج هذا الأنـا عـن طريـق الزهـد وقتـل الـنفس ، في الوجـود الكلي ، وفناء ابن الفارض هو ، كما بينا ، فناء عن شهود نفسه وإرادتهـا لمـا سـوى الـلــه وإرادتـه ، بمعنـى أنـه لـيس فنـاء عـن الوجـود ، يـضاف إلى

هذا تشابه آخر هو أن سـبيل الفنـاء عنـد كـل مـن ابـن الفـارض وفلاسـفة البوذيين هو أعمال العبادة من توبة وزهد وفقـر وغيرهـا مـما يـضمحل بـه الأنا بحيث يمنحق في الوجود المطلق ويمترج به ، غير أن النيرڤانا تختلف عن فناء ابن الفارض في أنها الغاية القصوى التي يرمـي إليهـا الـسالك البـوذي ، على حين أن الفناء الفارضي ليس إلا وسيلة يتوسل بها إلى كشف الحقيقـة ، وشهود الذات ، واتحاد المحب بـالمحبوب ، النيرڤانـا غايـة ، والفنـا الفـارضي وسيلة ، ولكنهما ينطويان على معنى واحد هو الامتزاج بالوجود المطلق .

جملة القول في الطور الثاني لحـب ابـن الفـارض هـي أن الفنـاء الـذي يتحقق به المحب في هذا الطور ليس فناء مؤديا إلى اتحـاد الوجـود الخـاص بالوجود العام ، ولكنه مؤد إلى " شهود الوجود الحق الواحـد المطلـق الـذي الكل موجود به فيتحـد بـه الكـل مـن حيـث كـون كـل شئ موجـودا بـه ، معدوما بنفسه لامن من حيث إن وجودا خاصا اتحد به ، فإنه محال " .

ومن هنا يصبح مذهب ابن الفارض في الفناء والاتحاد الناشئ عن هذا الفناء مقبولا لدى العقـل ، ملائمـا لأحكـام الـشرع ، وتكـون ألفـاظ الاتحـاد والامتزاج والوحـدة وغيرهـا ، مـما اسـتعمله ابـن الفـارض في شـعره لإظهـار نتائج فنائه ، مجرد ألفاظ يرجع استعماله لها إلى أحـد سـببين : إمـا إلى أنـه لم يكن دقيقـا ولا متحريـا للألفـاظ التـي تتعـادل مـع المعـاني التـي يقـصد إليها ، ولعل منشأ هذا الاضطراي هو هذه الغيبـة التـي قـضى أكـثر حياتـه تحت سلطانها ، وإما أن يكون ابن الفارض قد عمد إلى هذه الألفاظ لأنه لم ير خيرا منها يمكنـه مـن أداء المعـاني التـي يريـد التعبـير عنهـا في شـئ مـن

المبالغة التي كانت تسود كل شعره ، وكان يستعين بها دائما على إظهار أنـه وصل في الحب إلى ما لم يصل إليه غيره ممـن سـبقوه أو عـاصروه فهـو إذن بحكم هذه المبالغة مضطر إلى أن يستمد ألفاظا من معجم وحـدة الوجـود ليدل بها على مذهب قد يكون بعيدا عـن مـذهب وحـدة الوجـود في أكـثر نواحيه إن لم يكن في كلها .

ولو أردنا أن نميز الطور الثاني للحب الفارضي بميـزة خاصـة ، لرأينـا أن الحب فيه قد انتهى من الصفاء والتنزه عن الغرض إلى حـد لم ينتـه إليـه في طوره الأول : فبعد أن كان المحب يؤيد إشباع رغباته ولذاته من المحبوبـة ، أصبح لا يريد شيئا ، ولا يبتغي إلا وجه المحبوبة خالصا ، وإن فكرة الثـواب على هذا الحب قد محيت محوا تاما ، وأصـبح حـب ابـن الفـارض هنـا مـن النوع الثاني للحب الذي عبرت عنه رابعة بقولها : " وأما الذي أنت أهل لـه " وفسره الغزالي بأنه الحب لجمال الـلـه وجلاله . يدلنا على هـذا قـول ابـن الفارض :

أحيـوا الجـوار فقـد أمانتـه معـاً　　　أكـن راجيـا عنهـا ثوابـا فأدنـت ١٦٨

وقوله :

فـلاح فلاحـي في اطراحـي فأصـحبت　　　ثـوابي لا شـيئا سـواها مثيبتـي ١٧٣

أضف إلى هذا أن المحب في هذا الطور ، بحكم فنائه عن نفسه الجزئيـة واستغراق هذه الـنفس الجزئيـة في نفـس المحبوبـة الكليـة ، قـد أصـبح محبـا

لنفسه لا بالمعنى الذي كان يحبها عليه في الطور الأول ، ولكن بمعنى أنه هنا يحب نفسه التي استغرقت في المحبوبة ، كما يقول ابن الفارض :

وكنت بها صبا فلما تركت ما أريد أرادتني لها وأحبت ٢٠٤

فصرت حبيبا بل محبا لنفسه وليس كقول مر نفسي حبيبتي ٢٠٥

وعلى هذا النحو من قتل النفس الإنسانية وتجردها من حظوظها وأغراضها وفنائها عن مشاهدة ما سوى المحبوبة الحقيقية وصل الحب الفارضي إلى حال لم تتهيأ له في طوره الأول فيها صفاء النفس ونقاء القلب ، وفيها الموت الموصل إلى الحياة التي يشعر فيها المحب بسقوط التمايز بينه وبين محبوبته ، ولقد كانت هذه الحال بمثابة المقدمة للنتيجة التي ترتبت عليها في الطور الثالث ، وهي وصول المحب إلى الحال الموحدة ، التي هي أرقى ما يختلف على النفس الإنسانية من الأحوال في طريق المحبة.

٤ - ولم يكن الطور الثاني للحب الفارضي إلا بمثابة مطهر تمر به النفس الإنسانية فتطرح أهواءها ، وتنخلع عن شهواتها وأغراضها لتستقبل طورا آخر تستمتع فيه بالحال الموحدة التي لا تشهد فيها غير شئ واحد هو الذات الأحدية ، كما تشهد أنها أصبحت وهذه الذات شيئا واحدا ، لا شيئين متمايزين : فبعد أن كان المحب في الطور الأول يريد أن يظفر من المحبوبة بشئ ، وكان في الطور الثاني يريد ألا يكون شيئا ، أصبح في الطور الثالث شيئا آخر غير الذي كانه في الطورين السالفين : أصبح فانيا عن نفسه باقيا بمحبوبته إلى الحد الذي أحسس معه أن وجوده صار عين وجود محبوبته . وقد يلاحظ على ما وصل إليه ابن الفارض من الاتحاد في هذا

الطور الأخير أنه انتهى من حبه إلى مـذهب في وحـدة الوجـود ، ولكننـا إذا ذكرنا ما أشرنا إليه عند الكلام على فناء ابن الفارض من أنه لم يكن فناء عن " وجود السوى " بالمعنى الذي يفهمه أصحاب وحدة الوجود ، وذكرنا أيـضا أن كل ما وصل إليه ابن الفارض في الأطوار المختلفـة لحبـه لم يكـن إلا ثمـرة من ثمرات شـعوره لا عقلـه ، وأنـه كـان كـما صـورناه في الفـصل الثـاني مـن الكتاب الأول صاحب ذوق ووجد ، إذا ذكرنا هـذا كلـه تبينـا أن اتحـاد ابـن الفارض في الطور الثالث لحبه لم يكن اتحادا بـين الوجـود المطلـق والوجـود المعين بالمعنى الدقيق الذي يعرفه العقل ، ولكنه اتحـاد مـن قبيـل الأحـوال الـصوفية التـي تملـك عـلى الـسالك حـسه وشـعوره ، وتـذهب بـه إلى حـد بعيد من الغيبة التي يأتي فيها بكلام يوهم ظاهره مخالفة الشرع ، ويعرفه الصوفية باسم الشطح ، ومن هنـا يكـون الاتحـاد الفـارضي نتيجـة منطقيـة لفنـاء المحـب عـن نفـسه وحـسه ، حيـث لا يـشهد إلا محبوبتـه ولا يريـد سواها .

على أن هذا الاتحـاد - وإن كـان في جملتـه عبـارة عـن اتحـاد المحـب بالمحبوبة التي هي الـذات العليـة - لـه صـورة أخـرى هـي أنـه اتحـاد بـين الإنسان والحقيقة المحمديـة . ومهـما يكـن مـن أمـر هـذه الـصورة الثانيـة للاتحاد عند ابن الفارض فإنها لا تختلف عن صورته الأولى إلا في اللفظ ، أما المعنى فإنه في الحالتين واحد لا يكاد يفرق بينهما إلا أن الذات هي الوجـود المطلق الذي لا تعين فيه ، والحقيقة المحمدية هي الذات مـع التعـين الأول وهو الاسم الأعظم كما يقول الجرجاني .

ولكلام ابن الفارض عن الاتحاد بالحقيقة المحمدية قيمة خاصة ، ذلك بأنه يكشف لنا من خلاله عن المقام الذي اختص به محمد صلى الله عليه وسلم من دون الأنبياء عامة، ومن دون موسى عليه السلام خاصة ، فنحن نعلم أن أخص ما يمتاز به الطور الأول للحب الفارضي هو أن المحب فيه محب لنفسه ، طامع في تحقيق رغبات هذه النفس من المحبوبة ، كأن يرى وجهها أو يسمع صوتها ، ونحن نعلم أيضا أن المحب كان في أول عهده بالحب مفتقرا إلى السكر الذي غلب عليه بعد ذلك فغيبه عن شعوره ، وصعقه صعقا ، أما في الطور الثالث حيث يتحد المحب بالحقيقة المحمدية فإننا نلاحظ أن المحب فيه على عكس ما كان عليه في الطورين الأول والثاني : هو هنا صاح بعد أن كان هناك سكران. وهو هنا قد أثبت لنفسه صحو الجمع بعد أن أثبت هناك سكر الجمع . كما يدلنا على ذلك قول ابن الفارض بلسان الجمع مع الحقيقة المحمدية :

وكل الورى أبناء آدم غير أني   حزت صحو الجمع من بين إخوتي ٣١١

فسمعي كليمي وقلبي منبأ   بأحمد رؤيا مقلة أحمدية

وهنا يمكننا أن نبين الفرق بين الطور الأول والثاني والثالث لحب ابن الفارض : ففي الطور الأول نلاحظ أن ابن الفارض استغل قصة موسى وطلبه إلى الله أن يتجلى فلما تجلى خر موسى صعقا ، وحال الصعق هذه هي التي غلبت على ابن الفارض في الطور الأول إلى حد ما ، ولكنها ما لبثت في الطور الثاني أن استوعبت حياته النفسية كلها ، وسيطرت عليها في صورة الفناء الكلي ، أما في الطور الثالث فإن ابن الفارض يستغل قصة

محمد ومشاهدته ملكوت السموات والأرض وهو في حال الصحو. وشاعرنا في استغلاله لهاتين القصتين لم يعدما ذكره المؤلفون الصوفيون من إثبات السكر والغيبة لموسى والصحو . واليقظة لمحمد : فهذا هو الهجويري مثلا يقول إن موسى خر صعقا عند تجلي ربه للجبل في حين كان محمد صاحيا واستطاع في حال الصحو هذه أن يشهد الحق طوال الطريق من مكة ، حتى أصبح من الذات قاب قوسين أو أدنى . وابن الفارض حين يثبت لنفسه صحو الجمع الذي أشار إليه في أول البيتين الأخيرين إنما يتحدث بلسان الجمع مع الحقيقة المحمدية التي تفرعت منها علوا وسفلا ، على حد تعبير ابن عربي . ومن هنا نرى أن للاتحاد الفارضي صورتين تبدوان لأول وهلة كأنهما مختلفتان ، ولكنهما في الواقع لا تختلف إحداهما عن الأخرى إلا من الناحية الشكلية ، أما الجوهر ففي كلتيهما واحد : هاتان الصورتان هما :

١ - اتحاد السالك أو المحب بالذات العلية . وهذا هو الشكل العام الذي يأخذه اتحاد ابن الفارض في أكثر مواضعه .

٢ - اتحاد السالك أو المحب بالحقيقة المحمدية التي لم يذكرها ابن الفارض صراحة ، ولكنها تبين من خلال أبياته التي يتحدث فيها عن نفسه بلسان القطب . القطب الذي ليس على رأس المملكة الصوفية وما فيها من أوتاد وأبدال وغيرهم من أصحاب المراتب المتسلسلة في هذه المملكة ، إنما القطبية التي يتحدث عنها ابن الفارض هي هذه الحال النفسية التي يصل إليها السالك ويشعر فيها بأنه متحد مع القطب الحقيقي الذي هو

روح محمد أو الحقيقة المحمدية ، ولسنا هنا بصدد الكلام عن قطبية ابن الفارض ، فتلك مسألة سنعرض لها بالتفصيل في الفصل الثالث من الكتاب الثالث ، ولم نشر إليها هنا إلا لنظهر أن ابن الفارض حين وصل في اتحاده إلى صحو الجمع إنما يظهرنا على أن هذا الاتحاد كان في لحظة من لحظاته - هي أسمى وأرقى ما تنتهي إليه الحال الموحدة كما سنرى بعد - اتحادا من الحقيقة المحمدية . وحسبنا هنا أن نعرض للاتحاد الفارضي في جملته من حيث هو آخر طور من أطوار الحب .

يدور الاتحاد عند ابن الفارض حول فكرة الجمع الذي عرفه أبو سعيد الخراز بأنه عبارة عن إيجاد الحق نفسه في أنفس السالكين ، بل إعدامه لوجودهم لأنفسهم عند وجودهم له . والذي يقول عنه القاشاني إن فيه تزول التفرقة بين القدم والحدوث، إذ لما انجذبت الروح إلى مشاهدة جمال الذات استتر نور العقل الفارق بين الأشياء في غلبة نور الذات القديمة ، وارتفع التمييز بين القدم والحدوث لزهوق الباطل عند مجئ الحق، ولو ذكرنا ما أشرنا إليه آنفا عند الكلام على فناء ابن الفارض، وأنه كان فناء عن "شهود السوى" لرأينا إلى أي حد كان الجمع عنده نتيجة منطقية لهذا الفناء، ولرأينا أيضا أن الاتحاد الذي انتهى إليه ، وتحدث عنه في صور مختلفة، لم يكن اتحادا بمعنى أن وجودا خاصا اتحد بالوجود الحق الواحد المطلق، ولكنه اتحاد بمعنى شهود هذا الوجود الحق الواحد المطلق . وعلى هذا يكون الجمع عبارة عن هذه الحال الموحدة التي تزول فيها الكثرة ، ويشهد فيها السالك كل شئ بعين الوحدة : فابن الفارض في وصوله إلى أول ما وصل إليه من الحال الموحدة شعر بأنه أصبح متحدا بالله الذي

يبصر ببصره ، ويسمع بسمعه ، كما يقول الحديث القدسي الذي استغله الصوفية ، واستغله ابن الفارض مثلهم وأشار إليه بقوله :

فكن بصرا وانظر وسمعا وعه وكن — لسانا فالجمع أهدى طريقة ١٩٤

وبقوله :

وجاء حديث في اتحادي ثابت — روايته في النقل غير ضعيفة ٧١٩

يشير بحب الحق بعد تقرب — إليه بنقل أو أداء فريضة

وموضع تنبيه الإشارة ظاهر — بكنت له سمعا كنور الظهيرة ٧٢١

ولا يحدثنا ابن الفارض في وصفه للحال الموحدة عن أن اتحاده كان اتحادا بين نفسه وبين المحبوبة الحقيقية فحسب ، ولكنه يذهب إلى أبعد من هذا ، فيردد في أنحاء مختلفة من تائيته الكبرى أن هذا الاتحاد كان في بعض لحظاته شهودا للذات الواحدة في المظاهر المتكثرة ، الأمر الذي انتهى ببعض القدماء أمثال البقاعي ، وببعض المحدثين أمثال دي ماتيو ، إلى اعتقاد أن ابن الفارض كان من الآخذين بمذهب ابن عربي في وحدة الوجود . ومهما يكن من أمر هذا الاعتقاد ، فإننا لم نقصد هنا إلا إلى دراسة الاتحاد من حيث هو طور من أطوار الحب ، مرت به نفس ابن الفارض في نهاية طريقها إلى اللـه . ولكي نبين حقيقة ما انطوى عليه الاتحاد الفارضي من المعاني الدقيقة ، يحسن أن نقسم هذا الاتحاد إلى مرتبتين : إحداهما أسمى من الأخرى وهاتان المرتبتان هما ما يعبر الصوفية عن

إحداهما بسكر الجمع ، وعن الأخرى بصحو الجمع . وصل ابن الفـارض إلى الأولى في بداية اتحاده ، ووصل إلى الأخرى في نهايته .

٥ - تتمثل بداية الاتحاد في أن ذات المحبوبة تنكشف للمحب وتتجلى له في كل مظهر . بحيث يرى المحب وجه المحبوبة متجليا على صفحة مـرآة المظاهر الكونية ، وإلى هذا التجلي يشير ابن الفارض بقوله :

وهـا أنـا أبـدي في تحـادي مبـدئي وأنهـي انتهـائي في تواضـع رفعتـي ٢٠٩

جلت في تجليهـا الوجـود لنـاظري ففـي كـل مـرئى أراهـا برؤيـة ٢١٠

ولا تقف بداية الاتحاد عند حـد تجـلي الـذات في المظـاهر المتعـددة ، ولكنها تتجاوز هذه المظاهر إلى باطن المحب نفسه : فابن الفارض حين فني عن نفـسه، وخـرج عـن حظوظهـا وأغراضـها ، ونظـر في باطنـه ، وجـد أنـه ومحبوبته شئ واحد . كما يقول :

وأشهدت غيبي إذ بـدت فوجـدتني هنالـك إياهـا بجلـوة خلـوتي ٢١١

ومعنى هذا أن للتجلي الـذاتي نـوعين : أحـدهما ظـاهر ، وهـو شـهود الوحدة في الكثرة ، والآخـر بـاطن وهـو شـهود الكـثرة في الوحـدة . وأفـضل التجليين وأقدرهما على إدراك الوحدة إدراكا صحيحا هو من غير شك التجلي الباطن الذي يـشهد فيـه الـسالك شـهودا مبـاشرا وحـدة المحـب والمحبـوب الناشـئة عـن فنـاء المحـب في المحبـوب ، ونـرى أيـضا أن الاتحـاد عنـد ابـن الفارض عبارة عن ظهور سلطان الأصل على الفرع ، وغلبة الوجـود المطلـق عـن الوجـود المعـين . بحيـث ينعـزل صـاحب الوجـود المعـين عـن صـفاته

من سمع وبصر وغيرهما ليتصل بالحقيقة المطلقة ، وليفنى في الذات الأحدية : فالإنسان في عالم الظاهر يرى أن صفاته وأفعاله صادرة عنه ، في حين أنها في الحقيقة ، أو قل في عالم الباطن ، للحق سبحانه وتعالى الذي يتصرف في العبد بصفاته الذاتية على نحو ما ورد في الحديث القدسي الذي أشار إليه ابن الفارض في الأبيات ٧١٩ - ٧٢١ من " تائيته الكبرى " . وعلى هذا لا يكون الاتحاد كما يفهمه الظاهريون امتزاجا بين شخصين متباينين حقيقة ووجودا ، بل هو فناء عن الإنية . وخروج عن النفس الإنسانية ، وغيبة عن انفصال النفس عن صفاتها ، بحيث لا يكون ثمة مجال لصفة ما تفسد الاتحاد الذي تحسه النفس في حضورها مع الله ، كما يقول ابن الفارض في هذه الأبيات :

خرجت بها عني إليها فلم أعد إلي ومثلي لا يقول برجعة ٢٠٦

وأفردت نفسي عن خروجي تكرما فلم أرضها من بعد ذاك لصحبتي ٢٠٧

وغيبت عن إفراد نفسي بحيث لا يزاحمني إبداء وصف بحضرتي ٢٠٨

ولو أردنا أن نتخذ لهذه المرتبة الأولى من الاتحاد الفارضي طابعا خاصا لما رأينا خيرا من أن نطلق عليها اسم مرتبة " أنا هي " أي المرتبة التي يقول فيها المحب : " أنا المحبوبة " . وقد استعمل بن الفارض نفسه هذا التعبير فقال :

ومن أنا إياها إلى حيث لا إلى عرجت وعطرت الوجود برحمتي ٣٢٦

وهذا من قبيل قول الحلاج :

أنا من أهوى ومن أهوى أنا　　　نحن روحان حللنا بدنا

غير أن الحلاج يثبت الاتحاد بينه وبين محبوبته عن طريق الحلول ، على حين أن ابن الفارض ينفي هذا الحلول وينزه عقيدته عنه ، على نحو ما سنبينه في موضعه من هذا البحث . على أن ابن الفارض في قوله " أنا إياها " - وإن تشابه إلى حد ما مع الحلاج في قوله " أنا من أهوى " - يتشابه والحلاج أيضا إلى حد بعيد في أن قوله " أنا إياها " هو من قبيل قول الحلاج " أنا الحق " ، وهنا يمكننا أن نقول في قول ابن الفارض " أنا إياها " ما قاله ابن سبعين في قول الحلاج " أنا الحق " : فابن سبعين يرى أن معنى " أنا الحق " هو أنه لا إنية إلا واحدة ، فإذا وقع الاتصاف ونطق بها وقع في ذلك معنى متشابه عند العامة وقتل القائل به ، على حين أن الذي حمله على ذلك محض الإفراد والإخلاص . ولكن الاتحاد الذي يصوره ابن الفارض والحلاج بقوليهما المشار إليهما ليس تاما بحيث تزول التفرقة عينا وأثرا ، بل إنهما يمحوان هذه التفرقة عينا ، ويبقيانها أثرا . وكأن ابن الفارض قد استدرك بقاء هذا الأثر من التفرقة فأراد أن يمحوه فقال :

وعن أنا إياي لباطن حكمة　　　وظاهر أحكام أقيمت لدعوتي ٣٢٧

وهكذا يعبر ابن الفارض بقوله " أنا إياي " عن حالة نفسية يشعر فيها بالاتحاد التام ، أو قل بالإفراد الكلي الذي يثبت أن الوجود كله ليس إلا واحدا لا أثر للتفرقة أو الاثنينية فيه .

بقي أن نعرف الفرق بين حياة المحب قبل وصوله إلى بداية الاتحاد ، وبينها بعد وصوله إلى هذه البداية . وابن الفارض يبين لنا الفرق بين حياته قبل بداية الاتحاد وحياته في هذه البداية ، كما يظهرنا على ما وصل إليه في نهاية اتحاده ، وذلك كله في هذه الأبيات التي يخاطب بها مريدا حقيقيا أو وهميا حيث يقول :

فلو واحدا أمسيت أصبحت واجدا ... منازلة ما قلته عن حقيقة ٢٢٦

ولكن على الشرك الخفي عكفت لو ... عرفت بنفس عن هدى الحق ضلت

وفي حبه من عز توحيد حبه ... فالبشرك يصلي منه نار قطيعة

وما شان هذا الشان منك سوى السوي ... ودعواه حقا عنك إن تمح تثبت

كذا كنت حينا قبل أن يكشف الغطا ... من اللبس لا أنفك عن ثنوية ٢٣٠

أروح بفقد بالشهود مؤلفي ... وأغدو بوجد بالوجود مشتَي

يفرقني لبي التزاما بمحضري ... ويجمعني سلبي اصطلاما بغيبتي

إخال حضيضي الصحو والسكر معرجي ... إليها ومحوي منتهى قاب سدرتي

فلما جلوت الغين عني اجتليتني ... مفيقا ومني العين بالعين قرت

ومن فاقتي سكرا عنيت إفاقة ... لدى فرقي الثاني فجمعي كوحدتي ٢٣٥

فمن هذه الأبيات ترى أن ابن الفارض لم يكن ينفك عن إدراك الأثنينية قبل أن يكشف عنه الحجاب ، وأن فقدانه لوجوده عند شهود الذات كان سبيله إلى الجمع ، كما أن وجدانه لوجوده كان علة تفرقته : فكلما سكر بغلبة سلطان الحال وغاب عن حضوره أدرك الجمع ، وكلما

لزم وجوده وعاد إلى عقله أدرك التفرقة . ولقد كان يظن الصحو مرتبة وضيعة يهبط إليها والسكر مرتبة رفيعة يسمو إليها ، والواقع أن المحو الكلي عن البقايا الوجودية التي هي مناط الصحو والسكر ، ومدار الغيبة والحضور ، هو منتهى غايته . وما زال على هذه الحال من التردد بين السكر والصحو ، ومن غلبة السكر عليه حبنا ، وعودة الصحو إليه حبنا آخر ، حتى ، حتى صقلت مرآة قلبه بزوال الحجاب عنه ، فإذا هو يرى نفسه صاحيا . فقرت عينه بمشاهدة الذات في حال صحو الجمع ، الذي يعبر عنه بالفرق الثاني (البيت ٢٣٥) . ويلاحظ هنا أن صحو الجمع هذا لم يصل إليه ابن الفارض إلا في نهاية اتحاده . وقد أبان القاشاني عن حقيقة نهاية الاتحاد الفارضي فقال : " ... وأما في النهاية ، وهو حال الصحو والإفاقة والبقاء بعد الفناء ، فلا يكون الخلق حجابا للحق ، ولا الحق حجابا للخلق ، ويتجلى الإله سبحانه على المكاشف باسمه الظاهر والباطن معا . والمراد أن الموحد في بداية حال الاتحاد قبل استقرار مقامه ، يحتاج في مشاهدة الذات إلى الغيبة عن الإحساس ونزول حال السكر ، وكلما عاد من سكره وغيبته إلى الشهود والصحو ، لم يبق له حال المشاهدة والاتحاد ، وهذا الشهود والصحو ليسا من جملة الأحوال والمقامات ، بل كان واحد منهما في مقابلة مقام ، والشهود الذي هو من جملة المقامات شهود الحق ، والصحو الذي هو من جملة المقامات صحو حاصل بعد المحو الكلي . وقول الناظم رحمه الله " اجتليتني مفيقا " إشارة إلى هذا الصحو . في هذا المقام ترتفع الحجب بأسرها فلا يكون ظاهر الوجود حجات الذات ، بل يشاهد صاحب هذا الصحو بعين بصره جمال

الذات الموصوفة باسمها الظاهر ، كما كان قبله في حال السكر مشاهدا بعين بصيرته جمال الذات الموصوفة باسمها الباطن ، وهذا معنى قوله " ومنى العين بالعين قرت " أي اكتحلت عيني الظاهرة بعين الذات " . فهنالك في مقام الفرق الثاني أو مقام التفرقة بعد الجمع أصبح المحب صاحيا مفيقا من سكره الذي كان غالبا عليه في بداية الاتحاد ، كما أصبح جمعه كوحدته سواء بسواء ، وهذا المقام هو نهاية الاتحاد التي يظفر فيها المحب بالمحبوبة ويتحد معها اتحادا لا سبيل إلى الانفصال معه ، بخلاف بداية الاتحاد ، فإنها يتطرق إليها الانفصال بمعاودة الحجاب . وهكذا نرى أي فرق بين بداية الاتحاد ونهايته عند ابن الفارض ، وأي كمال وصل إليه من اتحاده بالمحبوبة في نهاية الطور الثالث لحبه ، ونرى أيضا كيف كانت بداية الاتحاد الفارضي سكرا للجمع زالت فيه الاثنينية بين المحب والمحبوبة ، كما انمحت التفرقة بين ذات المحبوبة وبين المظاهر الكونية المتعددة فالمحب حين يغيب عن نفسه في بداية الاتحاد حيث يغلب عليه سكر الجمع يرى في مشاهدته لباطنه أنه عين محبوبته (البيت ٢١١) . وإن ابن الفارض ليعبر عن اتحاده هذا في أبيات غاية في رقة اللفظ ودقة المعنى فيقول :

فوصفي إذا لم تدع باثنين وصفها وهيأتها إذ واحد نحن هيئتي ٢١٥

فإن دعيت كنت المجيب وإن أكن منادي أجابت من دعاني ولبت

وإن نطقت كنت المناجي كذاك إن قصصت حديثا إنما هي قصت

فقد رفعت تاء المخاطب بيننا وفي رفعها عن فرقة الفرق رفعتي ٢١٨

ويقول أيضا :

فجاهد تشاهد فيك منك وراء ما وصفت سكونا عن وجود سكينة ٢٣٦

فمن بعدما جاهدت شاهدت مشهدي وهادي لي إياي بل بي قدوتي

وبي موقفي لا بل إلى توجهي كذاك صلاتي لي ومني كعبتي ٢٣٨

وليس الاتحاد في بدايته مقصورا على أنه بين المحب والمحبوبة ، ولكنه كذلك بين هذه المحبوبة وبين مظاهرها المتباينة : فكل ما في الكون من صور جميلة ، ومظاهر حسنة ، قد استمد حسنه من جمال هذه المحبوبة الحقيقية ، وإن قيسا حين أحب لبني ، وجميلا حين أحب بثينة ، وكثيرا حين أحب عزة ، والمجنون حين أحب ليلي ، لم ينجذب كل منهم إلا إلى صورة من صور الجمال الذاتي المتجلي في هذه المعشوقات ، فظن أولئك العشاق أنهم أحبوا غير المحبوبة الحقيقية ، والحق أنهم لم يحبوا سواها . وتجلى المحبوبة الحقيقية في المظاهر الكونية قديم منذ النشأة الأولى حيث تراءت هذه المحبوبة الحقيقية لآدم في صورة حواء ، فكان ذلك أول حب المظاهر بعضها لبعض : فما برحت المحبوبة الحقيقية على هذه الحال ، تظهر وتخفى حتى كان العشاق من بني آدم ، فأحب كل منهم محبوبة معينة ، والحقيقة أنه لم يحب غير المحبوبة الحقيقية في إحدى صورها الجميلة من ليلى وبثينة ولبنى وعزة وغيرهن . وكما أن المعشوقات المشار إليهن لسن سوى المحبوبة الحقيقية ، فكذلك العشاق ليسوا سوى محب هذه المحبوبة الحقيقية . وينتهي ابن الفارض من هذا كله إلى أنه في حبه للمحبوبة الحقيقية لم يحب

غير ذاته التي هي وذات المحبوبة شئ واحد ، فانتفت بذلك المعية وزالت التفرقة .

٦ - رأينا مما تقدم أن أخض ما تمتاز به الحال الموحدة في بدايتها هو السكر الذي يغيب فيه المحب عن نفسه ، يفتي عن شهوده ، ليشهد اتحاده بالذات من ناحية ، وليرى هذه الذات متجلية في المظاهر الكونية من ناحية أخرى . أما نهاية الحال الموحدة فإنها تختلف عن بدايتها اختلافا قويا ، يتلخص في أنه بقدر ما سيطر السكر على نفس المحب في البداية ، استحال هذا السكر هنا إلى صحو واسع النطاق ، يستطيع المحب أن يستشعر فيه الاتحاد . وليس من شك في أن الحال الموحدة التي وصل إليها ابن الفارض في نهاية اتحاده كانت أسمى وأرققى وأكمل من تلك التي وصل إليها في بدايتها : فإن من يدرك الوحدة وهو في حال الصحو ، كما كان يدركها في حال المحو ، لابد أن يكون قد تهيأ له من صفاء النفس ، وكمال الشهود ، حظ موفور ، وإلى هذا الصحو يشير ابن الفارض بقوله :

ففي الصحو بعد المحو لم أك غيرها وذاتي بذاتي إذا تحلت تجلت ٢١٤

وبقوله :

وقدري بحيث المرء يغبط دونه سموا ولكن فوق قدرك غبطتي ٣١٠

وكل الورى أبناء آدم غير أني حزت صحو الجمع من بين إخوتي

فسمعي كليمي وقلبي منبأ بأحمد رؤيا مقلة أحمدية

وروحي للأرواح روح وكل ما ترى حسنا في الكون من فيض طينتي ٣١٣

وبقوله :

وثـــم أمـــور تـــم لي كـــشف ســـترها بـصحو مفيـق عـن سـواي تغطـت ٣٩٤

إلى أن يقول :

وإني وإياهـــا لـــذات ومـــن وشي بهـا وثنـي عنهـا صـفات تبـدت ٣٩٩

فـــذا مظهــر للــروح هــاد لأفقهــا شـــهودا بـــدا في صـــيغة معنويـــة

وذا مظهـــر للـــنفس حـــاد لرفقهـــا وجـــودا غـــدا في صـــيغة صـــورية ٤٠١

فمن هذه الأبيات عامة ، ومن الأبيات الثلاثة الأخيرة خاصة ، تـرى أن ابن الفارض يحـدثنا عـن صـحو الجمـع الـذي وصـل إليـه في نهايـة اتحـاده وانتهى منه إلى هذا الشعور الذي أدرك فيه الحقيقة الواحدة وقد تجلت له في كل مظهر سواء أكان روحيا أم ماديا .

لقد كان ابن الفارض فيما سبق من أطوار حبه يظن الـصحو حضيـضه ومهبطه ، والسكر أوجه ومعرجه ، كما كان يرى أن المحو الكلي عـن البقايـا الوجودية منتهى غايته كما يقول في هذا البيت :

إخال حضيضي الصحو والسكر معرجي إليها ومحوي منتهى قاب سدرتي

فلما جلا عن مرآة قلبه صدأ الوجود الذي كان مسببا لسكره في بدايـة الاتحاد كما يقـول القاشـاني ، رأى نفـسه صـاحيا واكتحلـت عينـه بمـشاهدة الذات كما يقول في هذين البيتين :

فلـما جلـوت الغـين عنـي اجتليتنـي مفيقــا ومنـــى العـــين بـــالعين قـــرت ٢٣٤

ومــن فــاقتي ســكرا غنيــت إفاقــة لــدى فرقــي الثــاي فجمعــي كوحــدتي ٢٣٥

وهكذا نرى أن إدراك الوحدة عند ابن الفارض لم يكن في حال المحو أو سكر الجمح فحسب ، ولكنه كان كذلك في حـال الـصحو أو جمـع الجمـع ، وإن إدراك الوحدة على هذا الوجه الأخـير مـما يظهرنـا عـلى درجـة الكـمال التي وصل إليها ابن الفارض في نهاية اتحاده : فنحن نعلـم أن محـو الجمـع أو المحو الحقيقي - كما يسميه الجرجاني - هو فناء الكـثرة في الوحـدة ، وأن المحو جملة هو رفع الأوصاف بحيث يغيب العبد عنده عن عقله ، ويحصل منه أفعال وأقوال لا مدخل لعقله فيها كالـسكر مـن الخمـر . ونحـن نعلـم أيضا أن الصحو هو رجوع العارف إلى الإحساس بعد غيبته ، وزوال إحساسه ، وإذا كان ذلك كذلك فقد انبنى عليه أن يكون إدراك ابن الفارض للوحـدة في حال صحوه خيرا منه في حال محوه ، بمعنى أنه كـان في هـذه غائبـا عـن عقله ، فانيا عن حسه ، لا يـدوم إدراكـه لهـذه الوحـدة إلا بقـدر مـا يـدوم فناؤه عن حسه ، وغيبته عن عقله ، أما في تلـك فإنـه قـد رد إلى إحـساسه ، وعاد إليه عقله ، وأصبح في حال الوعي ، ومع هذا لم تـؤثر فيـه العـودة إلى الإحساس والشعور بل هو ما فني يدرك اتحاده بمحبوبته ، وشـهوده لهـا في ذاته من جهة ، وفي المظاهر الكونية من جهة أخـرى : وهـذا الإدراك الأخـير أتم وأكمل مـن الإدراك الأول ، إذ أن الـذي يـساعد عـلى إدراك الوحـدة في حال المحو هو الفناء والغيبة ، أما في حال الصحو فلا فناء ولا غيبة .

ومن هنا نتبين أن ابن الفارض قد جمع في اتحاده من بدايته إلى نهايته بين حالين ، اختلف صوفية المتقدمين في تفضيل إحداهما على الأخرى :

فأبو يزيد البسطامي كان يفضل السكر على الصحو ، ويرى أن الأول هو السبيل إلى الفناء عن الخلقية ، والبقاء بالحفية ، والجنيد كان يؤثر الصحو على السكر ، وأبو يزيد وأتباعه حين فضلوا السكر على الصحو قالوا بأن الصحو يتضمن بقاء الصفات الإنسانية وثبوتها ، وهذه الصفات ، في رأيهم ، أكثف حجاب بين الرب والعبد ، على حين أن السكر يتضمن محو هذه الصفات . أما الجنيد وأتباعه فيقرون الصحو ، وينكرون السكر ، لأنهم كانوا ينظرون إلى السكر على أنه يؤدي إلى اضطراب الحال العادية للعبد ، وفقدان السلامة ، وضبط النفس . ومبدأ التحقيق عند هؤلاء لا يمكن الوصول إليه ما لم يكن السالك سليما . أما ابن الفارض فقد كان في بداية اتحاده من أنصار أبي يزيد الذين يرون السكر سبيلا إلى الفناء عن الخلق والبقاء بالحق ، وكان في نهايته من أنصار الجنيد الذين كان صحوهم طريقا إلى المعرفة الحقيقية . ولكنه إن شابه الجنيد في هذه الناحية ، فإن هناك إلى جانب هذا التشابه فرقا : وذلك أن الصحو الذي يشترطه الجنيد ليس صحوا يأتي بعد المحو ، ولكنه صحو لابد منه للسالك منذ بداية سلوكه ، وأما صحو ابن الفارض فقد كان صحوا بعد محو وغيبة . وعلى كل حال فابن الفارض في نهاية اتحاده من أصحاب الصحو الذين لا يعوقهم مشاهدة الخلق ومخالطة الأكوان عن مشاهدة الحق ، بل كان ابن الفارض في حال صحو الجمع صاحب نظرين : نظر إلى الحق بعين الجمع ، ونظر إلى الخلق بعين التفرقة ، وهو في نظره

بعين التفرقة لا يسلب نظر الجمع ، وفي نظره بعين الجمع لا يفقد نظر التفرقة ، وهذه الرتبة التي يجتمع فيها النظران أرقى من غير شك من الجمع الصرف ، على نحو ما سنبينه بعد عند إظهار الفرق بين حال صحو الجمع أو جمع الجمع ، وحال سكر الجمع ، أو الجمع الصرف .

ولعل ما وصل إليه ابن الفارض في نهاية اتحاده من إدراك الوحدة في حال الصحو كان دافعا للمستشرق الإيطالي الأستاذ دي ماتيو إلى اعتقاد أن ابن الفارض كان من الآخذين بمذهب وحدة الوجود ، كما كان ابن عربي ولكنا نخالف الأستاذ دي ماتيو ونوافق الأستاذ نلينو في أن ابن الفارض لم يكن من أصحاب وحدة الوجود بالمعنى الدقيق . ودليلنا على أن ابن الفارض لم يكن من مدرسة ابن عربي هو أن إدراكه للوحدة في الصحو لم يخرج عن كونه إدراكا لها في حال من الأحوال النفسية التي تتعاقب على نفس السالك ، ناهيك بأن الفاني عن نفسه في حال السكر، كما كان شأن ابن الفارض في بداية اتحاده ، لا يرد إلى أوصافه بعد زوال السكر عنه ، وعودة شعوره إليه ، ولكنه يقام مقام البقاء بأوصاف الحق ، كما يقول الجنيد . وعلى هذا تكون الوحدة التي يشهدها ابن الفارض في نهاية اتحاده ، أو قل في صحو جمعه ، وحدة مدركة في حال يقيم الله فيها العبد ، وليست من قبيل الوحدة الوجودية الحقيقية التي يدركها العقل من حيث هو عقل مفكر لم تؤثر فيه الأحوال : هي وحدة لم يدركها ابن الفارض في صحوه الذي أعقب المحو ، كما كان يدركها في صحوه الذي كان يسبق هذا المحو ، إذ هو في صحوه الثاني ، أو قل في " فرقه الثاني " ، على حد تعبير ابن الفارض نفسه ، ما يزال قائما بالحق وبصفات الحق ، لا

قائما بنفسه ، وبصفاته هو ، كما كان في صحوه العادي ، ومهما يكن من اختلاف الصوفية في مسألة رد الفاني إلى أوصافه ، فإننا نرى في حل الجنيد لهذه المسألة على الوجه الذي قدمنا ما يلائم طبيعة الأحوال الصوفية بصفة عامة وأحوال ابن الفارض بصفة خاصة ، وعلى هذا يكون الصحو الذي وصل إليه ابن الفارض بعد المحو من قبيل الأحوال التي قضى الشاعر غالب حياته متأثرا بها ، خاضعا لها : الأحوال التي لا مدخل للكسب فيها ، بل هي منح من الله لعباده الذين يصطفيهم وهو اعتبرنا هذا الصحو صحوا عاديا ، ورجوعا إلى البقاء بعد الفناء على الوجه الذي كان عليه السالك قبل فنائه ، لكان في ذلك ما فيه من نسبة السلب إلى الله : إذ الفناء " فضل من الله عز وجل ، وموهبة للعبد ، وإكرام منه له ، واختصاص له به . وليس من الأفعال المكتسبة ، وإنما هو شئ يفعله الله عز وجل بمن اختصه لنفسه ، واصطنعه له ، فلو رده إلى صفته كان في ذلك سلب ما أعطى ، واسترجاع ما وهب، وهذا غير لائق بالله عز وجل" . ومن هنا يمكننا أن نقول إن صحو ابن الفارض الذي أدرك فيه الوحدة في الكثرة والكثرة في الوحدة ، لم يخرج عن كونه حالا أقامه الله فيها بصفته (أي الله) لا برده هو (أي العبد) إلى صفة نفسه .

بقي أن نعرف ما تمتاز به نهاية الاتحاد الفارضي على بدايته : ففي البداية نرى أن حال الجمع لم تكن مستقرة على الوجه الأكمل ، بل كانت تتعاقب على نفس السالك فيها حالتا الجمع والتفرقة ، يلوح له لائح الجمع تارة ، ويختفي أخرى ، وما يزال السالك مترددا بين هاتين الحالتين إلى أن يستقر في حال الجمع ، ويتمكن فيه بحيث لا يفارقه أبدا ، وبحيث

لو نظر بعين التفرقة إلى الخلق لما سلب نظر الجمع إلى الحق ، ولو نظر بعين الجمع إلى الحق ، لما فقد نظر التفرقة إلى الخلق . وهذه الحال التي يجتمع فيها نظر الجمع والتفرقة تسمى بالصحو أو الصحو بعد المحو ، أو صحو الجمع ، أو جمع الجمع ، أو الفرق الثاني كما يسميها ابن الفارض تمييزا لها عن الفرق الأول ، وهو الصحو السابق للمحو أو السكر ، وهو ما يدرك فيه السالك التفرقة بين ذاته والذات الإلهية . وهذا الصحو السابق للمحو ليس من الأحوال في شئ بخلاف الصحو بعد المحو فإنه حال يصير مقلعا ، كما أنه أسمى من السكر لاشتماله على الجمع والتفرقة، واستوائهما فيه لدى الواصل إليه . وابن الفارض في قوله : " إخال حضيضي الصحو والسكر معرجي " إنما يقصد الصحو الأول ، كما أنه في قوله : " ففي الصحو بعد المحو لم أك غيرها " إنما يريد الصحو الثاني الذي يشترك مع السكر في إدراك الجمع والوحدة ، ويختلف عنه في أن الوحدة والكثرة فيه سواء ، كما يقول ابن الفارض في هذا البيت :

تساوي النشاوي والصحاة لنعتهم   برسم حضور أو برسم حظيرة ٤٨٥

وصاحب الجمع الصرف في بداية الاتحاد تزول حاله ، وترتفع عنه بمخالطة الخلق ، والنظر إلى صور أجزاء الكون ، وأما صاحب صحو الجمع فتستوي لديه الخلطة والوحدة ، ولا يزول عنه إدراك الوحدة إذا نظر إلى الكثرة أو إدراك الكثرة إذا نظر إلى الوحدة كما يقول ابن الفارض في هذا البيت :

ومن فاقتي سكــرا غنيت إفــاقة   لدى فرقي الثاني فجمعي كوحدتي ٢٣٥

يضاف إلى هذا كله أن الجمع الصرف يورث الزندقة والإلحاد ، ويحكم برفع أحكام الظاهر ، كما أن التفرقة المحضة تقتضي تعطيل الفاعل المطلق ، والجمع مع التفرقة يفيد حقيقة التوحيد ، والتمييز بين أحكام الربوبية والعبودية . ولهذا قالت الصوفية : " الجمع بلا تفرقة زندقة ، والتفرقة بلا جمع تعطيل ، والجمع مع التفرقة توحيد " .

٧ - ولما كان ابن الفارض من أصحاب المواجيد والأذواق على الوجه الذي تبناه في الفصل الثاني من الكتاب الأول ، وكان ذا نفس رقيقة، وحس مرهف ، يتأثر بالسماع كما قلنا في ذلك الفصل ، فقد كان طبيعيا أن يستغل حاله عند السماع ، وما كان يحصل له فيها من الجذبات، في إظهارنا على أن حاله الموحدة التي انتهى إليها في آخر أطوار حبه للذات العلية أشبه ما تكون بحاله في السماع : فشاعرنا يرى أن السماع لا ينافي الاتحاد ، ولكنه ميسر له ، موصل إليه ، وهو أبياته التي وصف فيها حاله عند السماع قد أعاننا على فهم الحال الموحدة من الناحية النفسية الصرفة : فإن الإسكار والإطراب والوجد وغيرها من الحالات النفسية التي تستولي على الشعور عند سماع لحن أو نغم ، أو أداة من أدوات الموسيقى، من شأنها أن تؤثر في النفس ، وتسمو بها إلى عالم أرقى من العالم الأرضي، كما تعينها على الاتصال بالكائن الأسمى ، والوجود الأكمل الذي صدرت عنه ، وفاضت منه : هنالك تتجرد النفس عن إحساساتها التي فرقت بينها وبين عالمها ، وهنالك تجد النفس ما كانت قد فقدت بحكم اتصالها بالبدن، وتفقد ما كانت قد وجدت بحكم تجردها عن هذا البدن ، وبعبارة أخرى يمكن القول بأن السالك الواقع تحت تأثير الوجد الحاصل من

السماع يجد الله ، وما يزال كذلك حتى يزول عنه تأثير السماع فيفقد ما كان قد وجد ، وهذا الوجدان والفقدان هما أشبه ما يكونان بالطريقين الموصلين إلى إدراك الذات العلية : فالوجدان يشبه إدراك الذات بعين البصيرة ، والفقدان يشبه إدراكها ، وانظر إلى قول ابن الفارض :

ويحضرني في الجمع من باسمها شدا فأشهدها عند السماع بجملتي ٤٢٥

فينجو سماء النفح روحي ومظهري المـ ـستوى بها يحنو لأتراب تربتي

فمني مجذوب إليها وجاذب إليه ونزع النزع في كل جذبة

وما ذاك إلا أن نفسي تذكرت حقيقتها من نفسها حين أوحت

فحنت لتجريد الخطاب ببرزخ الـ ـتراب وكل آخذ بأزمتي ٤٢٩

وإلى قوله :

أحيوا الجوار فقد أمانته معاً بتحبير تال أو بألحان صيت ٤٣٧

كما يجد المكروب في نزع نفسه إذا ما له رسل المنايا توفت

فواجد كرب في سياق لفرقة كمكروب وجد لاشتياق لرفقة

فذا نفسه رقت إلى ما يدت به وروحي ترقت للمبادي العلية ٤٤٠

لترى كيف يصور حاله عند السماع ، وكيف كانت تعينه هذه الحال على مشاهدة الذات ، وعلى أن تصعد روحه إلى أفقها ، كما تهبط نفسه (وهي الروح في اتصالها بالبدن) إلى عالم الخلق ، وأنه في حنين روحه إلى عالمها العلوي كان متأثرا بالسماع الذي تذكرت فيه نفسه حقيقتها فجرد الخطاب الذي يقول عنه القاشاني : إن العبد لا يصل إلى مقامه (تجريد

الخطاب) إلا إذا خرج من برزخ التراب ولهذا يهم طائر روحه عند السماع أن يطير إلى وكر الأزل ، ولترى أيضا أن حال السالك عند غلبة سلطان الوجد عليه أشبه ما تكون بحال المكروب عند نزع نفسه . غير أن هذا يحن إلى عالم المادة ، وذاك إلى عالم الروح ، ولنرى بعد هذا كله أن ابن الفارض يريد أن يقول إنه في حال السماع لا ينفك عن مشاهدة الذات ، سواء بعين بصيرته ، أم بعين بصره ، وأن مثل النفس عند نزعها ساعة الموت ووجدها على فراق البدن ، كمثلها عند السماع في وجدها وحنينها إلى عالمها العلوي .

وابن الفارض في نظرته هذه إلى السماع ، واتخاذه منه وسيلة لترقية النفس ، وتنقيتها ، والسمو بها إلى أفق الروح ، إنما يذكرنا بما ذهب إليه أفلاطون من أن الموسيقى أداة صالحة لتهذيب العقل الإنساني ، وتصفية النفس البشرية، وتهيئتها لأن تصبح قادرة على الدخول في دائرة الإلهيات، وكشف أسرارها العليا ، فأفلاطون يرى في " المائدة " أن الموسيقى كافية لأن تسود من يبعث نغماتها ، ويتأثر بها ، على عقول غيره من البشر ، وهو يرى في " الجمهورية " أن هناك طريقين للتهذيب : أحدهما الرياضة البدنية ، وبها يكمل الجسم ويقوى ، والآخر هو الموسيقى ، وبها يرقى العقل وينفى ، وابن الفارض ينظر إلى السماع على أنه أداة صالحة تعين السالك في طريق المحبة الإلهية على تصفية نفسه ، وترقيق حسه ، والسمو به عن حضيض الحياة المادة ، والصعود إلى أوج الحياة الروحية ، حيث تتصل بعالمها العلوي ، وتعود إلى ما كانت عليه من صفاء ونقاء ، قبل أن تتصل بالبدن الذي أفسد عليها حبها القديم لمحبوبها الحقيقي ، وفرق بينها

وبينه ، فإذا هي عند السماع تجد هذا المحبوب بعد أن كانت قد فقدته ، وتتحد به بعد أن كانت قد انفصلت عنه .

٨ - على أن ابن الفارض ، إن كان قد أظهرنا على حقيقة اتحاده بإظهار وجه الشبه بين حاله الموحدة وبين حاله في السماع ، فإن ذلك لا يجعل المسألة مفهومة فهما عاما لدى . الناس ، وإنما هو ، على العكس من ذلك ، يجعل فهمها . مقصورا على من كان مثله من أصحالب الأذواق والأحوال ، لاسيما أن أخص ما تمتاز به الأذواق الروحية والمواجيد الباطنية هو اصطباغها بالصبغة الذاتية (الشخصية) التي تغلب عليها ، ولا تنفك عنها ، مهما حاول أصحابها أن يلبسوها ثوبا فلسفيا من شأنه أن يوهم الواقفين عليها من أهل الظاهر بأنها منطوية على أفكار ، بعضها مستمد من المشاهدة والواقع ، وبعضها الآخر مرجعه إلى العقل والنظر ، ومعنى هذا بعبارة أخرى أن الاتحاد الذي وصل إليه ابن الفارض في آخر طور من اطوار حبه وأحسه بين ذاته وبين ذات محبوبته الحقيقية ، لم يكن سبيله التجربة الخارجية أو التجربة العقلية ، وإنما كان سبيله تذوقه، ومحاولة كشف حقيقته للغير ، الشعور والذوق والوجد والسكر الذي ملك على شاعرنا حاله في بدايته ، والصحو الذي انتهى إليه حاله في نهايته . وسواء في البداية أو في النهاية لم يخرج عن كونه حالا يذاق ، لا فكرة تتعقل . ومن ثم لم يكن فهم الاتحاد في متناول كل الأفراد ، بل هو من حظ الذين يحيون حياة ذوقية خالصة ، قوامها الأحوال الشخصية ، والمواجيد الروحية . ومن ثم أيضا كان فهم هذه المسألة عسيرا على من

ليس من الحياة الذوقية في شئ . وكان جل اعـماده في الفهـم عـلى البرهـان المستمد من المشاهدة والواقع أو من العقل .

وكأن ابن الفارض قد أدرك مـا يكتنـف مـسألة الاتحـاد مـن الغمـوض والعسر، وصعوبة فهمها لدى الذين لايعرفون سبيلا إلى الفهم غير المشاهدة والواقع والعقل ، فأخذ يـضرب الأمثـال ، ويحـاول أن يكـشف عـن حقيقـة المسألة لمن لا يستطيع عقله أن يجوز رؤية الاثنين واحدا ، فقال :

فـإن لم يجـوز رؤيـة اثنـين واحـدا	حجـاك ولم يثبـت لبعـد تثبـت
سـأجلو إشـارات عليـك خفيـة	بهـا كعبـارات لـديك جليـة
وأعـرب عنهـا مغربـا حيـث لات حـ	ـين لـبس بتبيـاني سـماع ورؤيـة
وأثبـت بالبرهـان قـولي ضـاربا	مثـال محـق والحقيقـة عمـدتي

وهنا ضرب مثلين : احدهما مستمد من المـشاهدة . والآخـر مـستمد من السماع : فأما أولهما فمثل امرأة مـصروعة مـستها الجـن . فاتحـد بهـا واحد من هؤلاء الجن ، فإذا هـي تـصبح قـادرة عـلى الإتيـان بالعجائـب ، والإنباء عن الغرائب ، وإذا هي تنطق بلغة غير لغتها ، وحقيقـة حالهـا أن الجني الذي صرعها واتحـد بهـا هـو الـذي يـأتي عـلى يـديها ، وينبـئ عـلى لسانها، وينطق على فمها وأما ثاني المثالين وهو المستند من الـسماع ، فهـو ظهور جبريل متلبـسا بـصورة دحيـة ، واخـتلاف نظـر النبـي عليـه الـصلاة والسلام إلى هذه الصورة عن نظر غيره ممكن كان معه وقتئذ : نظر النبي إليها فإذا هو يشهد ملكأ يـوحي إليـه ، ونظـر غـيره فـإذا هـو يـرى رجـلا

معروفا باسم دحية . فابن الفارض يورد هذين المثالين ليستغلهما في إظهار حقيقة اتحاده من ناحية ، وفي إثبات إمكان هذا الاتحاد من ناحية أخرى . وفي التدليل على ان اتحاده على وجهه الذي انتهى إليه في آخر اطوار حبه لم يكن حلولا منافيا لتعاليم الإسلام وإنما هو من هذا اللبس الذي ورد في قوله تعالى :

" ولبسنا عليهم ما يلبسون " ، وفي قوله عليه الصلاة والسلام : " رأيت ربي في صورة كذا ..... " من ناحية ثالثة .

وهذان المثالان يظهران لابن الفارض فوق هذا كله مبلغ الفرق بين الناظر إلى الأشياء بعين التفرقة ، والناظر إليها بعين الجمع : فهذا ينظر إلى المرأة المصروعة والجني الذي صرعها ، وإلى جبريل ودحية الذي تلبس به ، وظهر فيه ، على أن كل اثنين من هؤلاء واحد ، وذاك ينظر إلى الأربعة على أن كلا منهم شخص له وجود مستقل عن وجود غيره .

٩ - وهكذا نرى من كل ما تقدم في الفصل ، وفي الفصل السابق من هذا الكتاب ، أن لابن الفارض مذهبا في الحب الإلهى ، وأن لهذا الحب اطواره المختلفة التي كان لكل منها غايته التي يرمي إليها ، وخاصته التي يمتاز بها :

ففي الطور الأول لم تكن نفس المحب قد خلصت بعد من أثرتها ، وحرصها على إشباع رغباتها من المحبوبة ، وإشفاقها من إعراض هذه المحبوبة وصدها . وفي الطور الثاني نرى نفس المحب وقد صفت وفنيت عن

حظوظها . لم تعد ترغب في شئ ، او تقبل على شئ ، كما كان ذلك شـأنها في الطور الأول ، بل هي تريد أن تقي عن ذاتها ، وعن كل شـئ ، لتـصبح بعـد ذلك شيئا آخر ، وتحس أنهـا اتحـدت بوجـود اوسـع نطاقـا مـن وجودهـا ، وأشمل لذاتها ولغيرها من الذوات ، الأمر الذي تحققت به في الطور الثالث من اطوار الحب . وليس من شك في أن أسمى هذه الاطوار وأرقاها جميعـا من الناحية الروحية هو طور الاتحاد الذي يسوده سكر الجمـع في بدايتـه ، وصحوه في نهايته ، على أن هـذا الاتحـاد لم يكـن آخـر مـا انتهـت إليـه لـبن القارض الروحية في طريق المحبة الإلهيـة : بـل إن شـاعرنا يحـدثنا في بعـض أبيات من " تائيته الكـبرى " بأنـه جـاوز حـد العـشق ، ووصـل إلى مـا وراء الاتحاد ، وفارق الفناء الحاصل مـن الحـب ، بحيـث أصـبح يـرى هـذا كلـه حجابا يحول بينه وبين شهود محبوبته ، كما يدل على ذلـك قولـه في هـذين البيتين :

قنا الحب مـا قـد بنـت عنـه يحكـم مـن   يــراه حجابــا فــالهوى دون رتبتــي ٢٩٤

وجـاوزت حـد العـشق فالحـب كـالقلي   وعـن شـأو معـراج اتحـادي رحلتـي ٢٩٥

فهو هنا قد أطلق نفسه عن الوقوف مع الحب والفناء والاتحـاد ، لأن وقوفه معها ، والتزامه لها ، من شأنهما أن يحجبـاه عـن مـشاهدة الـذات العلية . وهذا أقصى ما يمكن أن ينتهي إليه محب مـن كـمال حبـه ، ولـيس أدل على هذا الكمال من قول ابن الفـارض إنـه قـد اسـتوت لديـه الأضـداد بحيث أصبح الحب والقلى لديه سواء ، ومن أنه أصبح ينظر إلى الهوى عـلى أنه دون رتبته التي وصـل إليهـا ، وتحقـق بهـا . وابـن الفـارض فـيما وصـل

إليه في آخر أطوار حبه من اتحاد . ومما يتجاوز الاتحاد . وفيها انكشف له في هذه الأطوار من حقائق ومشاهدات تتفاوت درجاتها من الروحانية يتفاوت ما يتهيأ لنفس المحب من درجات الصفاء والنقاء ، إنما يصطنع منهجا نفسيا خالصا قوامه الذوق والوجد . ودعامته تطهير النفس . وكشف أستار الحس . وجلاء ذاته من صدا صفاتها . ومفارقة الجوارح . كما يدل على هذا كله قوله :

هناك إلى ما أحجم العقل دونه	وصلت وبي مني اتصالي ووصلتي ٥٢٢
فأسفرت بشرا إذ بلغت إلي عن	يقين يقيني شد رحل لسفرتي
وأرشدتني اذ كنت عني ناشدي	إلي ونفسي بي على دليلتي
وأستار لبس الحس لما كشفتها	وكانت لها أسرار حكمي أرخت
رفعت حجاب النفس عنها بكشفي الـ	ـنقاب فكانت عن سؤالي مجيبتي
وكنت جلا مرآة ذاتي من صدا	صفاتي ومني أحدقت بأشعة
وأشدتني أياي إذ لا سواي في	شهودي موجود فيقضي بزحمة
سمعني في ذكرى اسمي ذاكري	ونفس بنفي الحس أصغت وأسمت
وعانقتني لا بالتزام جوارحي الـ	ـجوانح لكني اعتنقت هويتي
وأوجدتني روحي وروح تنفسي	يعطر أنفاس العبير المفتت
وعن شرك وصف الحس كلي منزه	وفي وقد وحدت ذاتي نزهتي٥٣٢

عن أن ما وصل إليه ابن الفارض حبه من كشف الحقائق . ومعرفة الدقائق ، وإن كان ثمرة من ثمرات المنهج النفسي . والذوق الروحي . فإنه

قد انطوى مع ذلك على كثير من المعاني الفلسفية التي تقرب كثيرا أو قليلا من المذاهب التي أسسها أصحاب النظر العقلي من الفلاسفة . واستندوا في تأسيسها إلى الدليل والبرهان بقدر ما اعتمد ابن الفارض وأشباهه من الصوفية في أذواقهم على المشاهدة والعيان . والكشف عن هذه المعاني الفلسفية في حب ابن الفارض هو ما سنحاول في الكتاب الثالث من بحثنا . وحسبنا هنا أن نعلم أن ابن الفارض كان شاعرا صوفيا ، أحب الذات الإلهية ، وسبح بجمالها تسبيحا طويلا ، ورتل أنشودة حبها ترتيلا جميلا . ولعل تاريخ الآداب الصوفية العربية لا يعرف شاعرا وقف حياته الروحية كلها على حب الله والتغني بجمال ذاته كما فعل ابن الفارض: فشاعرنا ، من هذه الناحية ، يعد بحق سلطان العاشقين ، وإمام المحبين . ولقد أحس هو نفسه أنه انتهى من حبه لله ، وإقباله عليه إلى مرتبة لم يبلغها غيره ، كما يدل على ذلك قوله :

نسخت بحبي آية العشق من قبلي   فأهل الهوى جندي وحكمي على الكل

وكل فتى يهوى فإني إمامه   وإني بريء من فتى سامع العدل

ولي في الهوى علم تجل صفاته   ومن لم يفقهه الهوى فهو في جهل

ومن لم يكن في عزة الحب تائها   بحب الذي يهوى فبشره بالذل

وقوله :

قل للذين تقدموا قبلي ومن   بعدي ومن أضحى لأشجاني يرى

عني خذوا بي اقتدوا ولي واسمعوا   وتحدثوا بصبابتي بين الورى

وقوله مخاطبا محبوبه الحقيقي :

كـــل مـــن في حـــماك يهـــواك لكـــن	أنـــا وحـــدي بكـــل مـــن في حماكـــا
فيـــك معنـــى حـــلاك في عـــين عقـــلي	وبـــــه نـــــاظري معنـــــى حلاكـــــا
فقـــت أهـــل الجـــمال حـــسنا وحـــسنا	فـــــبهم فاقـــــة إلى معناكـــــا
يحـــــشر العاشـــــقون تحـــــت لـــــوائي	وجميـــع الملامـــح تحـــت لواكـــا

فهو في هذه الأبيات قد جعل من نفسه قائدا لجنـود الهـوى ، وإمامـا للمحبين، وقدوة للعاشقين . ولكن هل كـان ابـن الفـارض صـادقا في دعـواه! الحق أنه كان كذلك، وأكبر الظن أن فيما حللناه من حياته وشـعره ، وحبـه وأطواره ، ما يكفي لإثبات ذلك .

الكتاب الثالث

المنازع الفلسفية في حب الفارض الإلهي

تمهيد
بين الأذواق الصوفية والمذاهب الفلسفية

١ - تبينا من الكتاب الأول أن أخص ما كان يمتاز به ابن الفارض في حياته الصوفية هو هذه الصبغة النفسية التي اصطبغت بها أذواقه ومواجيده . وأقواله وأشعاره التي كانت متأثرة بهذه الأذواق والمواجيد. ومعبرة عنها ، وتبينا من الكتاب الثاني أن حب ابن الفارض . سواء ما كان منه إنسانيا او الهيا، كان بحكم كونه عاطفة من العواطف التي يحسها الشعور والذوق . وخاضعا لما تخضع له الحياة النفسية الإنسانية من عامل الذاتية أو الشخصية . ورددنا في غير موضع من هذين الكتابين القول بأن الفتوحات التي تكشف له في أحواله وأذاقه والحقائق التي عبر في شعره لاسيما " تائيته الكبرى " لا سبيل إلى أن يتعرفها . أو يدرك كنهها. ويقتنع بها, أو يقبلها في غير ما تحفظ أو تردد . إلا من كان صاحب ذوق مثله . يخضع لما خضع له من أحكام الغيبة والسكر . وللفناء عن الحسي، وكشف حجاب النفس ، وما إلى ذلك من الوان الرياضات والمجاهدات . وضروب الأحوال والمقامات ، التي بسطناها ، وفصلنا القول فيها، في الكتابين الأول والثاني من هذا البحث ، وهذه الصبغة النفسية الذاتية أو الشخصية تكاد تكون حظا شائعا بين كل الصوفية ، وكل ما يصدر عنهم من الآثار المنظومة والمنثورة، وهي التي حملت فريقا من علماء التفس والفلاسفة والنقاد القدماء والمحدثين على أن ينكروا على هذه الآثار قيمتها، إذا قيست إلى الآثار العلمية الصادرة عن المشاهدة الخارجية

والتجربة الحسية . والآثار الفلسفية المؤسسة على النظر العقلي والدليل المنطقي : فابن خلدون مثلا يحدثنا عن الكشف بما يفيد أنه من قبيل الوجدانيات التي لا عمل للدليل أو البرهان فيها ، وبأن هذا هو السبب الذي من أجله قصرت مدارك من لم يشارك القوم في طريقهم عن فهم أذواقهم ومواجيدهم

وحسن رضوان يرى أن كل عارف يترجم عما بدا له من المعاني بنور إيمانه ، إما باعتباره ، أو باعتبار من يخاطبه ، أو باعتبار الوقت ، أو باعتبار الأحوال : فتارة يصرح ، وتارة يشير برمز أو تلميح ، وهذا هو الموجب لاختلاف عباراتهم في كل مقصد تكلوا فيه ، وفي الحقيقة لا خلاف بينهم ، وإن ما يصل إليه الصوفية ليس نتيجة لتفكير عقلي ، وطريق وصولهم إليه هو الوحي والإلهام . وصالح بن مهدي المقبلي قد نقد مزاعم الصوفية فيها ينهون إليه عن طريق الكشف الذي هو أثر من آثار الذوق والوجدان ، فخاطب الصوفية بقوله:"... وأنتم تزعمون أن الكشف ذوقي ، ولا يمكن إقامة البرهان عليه ، فكل كشف ادعى يجوز خلافه بجواز غلط صاحبه ، ولا طريق إلى معرفة الصادق من الكاذب . وإن كان معرفة ذلك الغلط بالعقل ، كان الميزان هو العقل ، وكان حاصل الكشف دعوى علم بلا دليل يمكن إقامته ، وعلينا حينئذ أن نجري عليكم حكم من ادعى ما يستحيل إقامة البرهان عليه ، وقد يكون ممكنا لا يترتب على دعواه حكم، وقد يكون هذايانا ، وقد يكون كفرا ونحوه ..." . وإلى مثل هذا ذهب عالم النفس والفيلسوف المحدث وليم جيمس ، إذ قال إن الصوفية ليس من حقهم أن يلزمونا قبول ما تصل إليه أذواقهم الخاصة ، مادمنا خارجين عن

دائرة هذه الأذواق ، وما دمنا لا نشعر في أنفسنا بمثل ما يشعرون به في أنفسهم وهذا كله صحيح ، ومطابق للواقع إلى حد بعيد : إذ ليست الأذواق الصوفية إلا طائفة من العواطف والانفعالات التي لا يقر لها قرار ، ولا تلبث أن تظهر حتى تختفي ، وتختفي لتظهر من جديد ، ناهيك بأنه لا ضمان لها من العقل ، ولا ضابط لها من العرف المتواضع عليه بين عامة الناس ، فهي من هذه الناحية حظ مقصور على اصحابها ، لا يكاد يتجاوزهم إلى من ليس منهم . ولم يذق أذواقهم ، أو يكابد أحوالهم . وإذا كان ذلك كذلك، فقد تبين إذن أن الكشف الصوفي الذي يعرض للنفس، وقد صفت من شوائبها ، واتصلت بعالمها العلوي ، هو هذه الدعوى التي يدعيها أصحاب الأذواق ، ويزعمون فيها أنهم يستطيون الوصول إلى الحقيقة العليا عن طريق غير العقل والحواس الظاهرة . ولعلهم لم يكونوا في ذلك مخطئين ولا مسرفين : فقد تعرض للإنسان فيما بينه وبين نفسه حقيقة ما ، يستطيع أن يدركها إدراكا مباشرا ، وأن يستكنه سرها لأول وهلة تعرض فيها هذه الحقيقة لنفسه ، وأن يثبتها إثباتا يقينيا ، دون أن يكون في ذلك كله معتمدا على الحواس الظاهرة ، أو مستندا إلى العقل ، أو متخذا مقدماته مما يتخذ الفلاسفة والمناطق مقدماتهم منه ، بل كل ما هنالك هو شعور روحي بهذه الحقيقة ، وإشراق باطني يشع في جوانب القلب إشعاعا يكشف عن هذه الحقيقة ، ويكفي في عين من انكشفت له لأن يثبت وجودها .

٢ - على أن ما يوجهه التقاد إلى الكشف الصرفي ، ودرجة الحقائق التي تتجلى فيه من اليقين ، وإن كان صحيحا بالقياس إلى أكثر

الآثار الصوفية ، فإننا نجد مع ذلك طائفة من هذه الآثـار قـد امتـازت ، إلى جانب صبغتها النفسية ، وطابعها الذاتي ، بميزة أخرى هي أدنى ما تكـون إلى ما تمتاز به الآثارى الفلسفية الخالصة ، أو الآثار التيوزوفية من نظر وتأمل . وقد يغلب الطابع النظري ، والـروح الفلـسفي عـلى تلـك الآثـار الـصوفية ، حتى يخيل لنا في بعض الأحيان أننا إزاء أنظار فلسفية أقيمـت عـلى دعـائم من العقل ، بقدر ما نحس أننا إزاء تـصوف اسـتمدت عنـاصره مـن الـذوق الروحـي ، وانكـشفت حقائقـه في أحـوال الوجـد : فمـذهب الـسهروردي الحلبي المقتول سنة ٥٨٧ هـ في " حكمة الإشراف " . وفي " هياكل النـور " . وفي غير هذين الكتابين ، يظهرنا في وضوح وجلاء على أنه لم يكـن مـذهبا ذوقيا خالصا اصطنع صاحبه في تأسيسه منهج الصوفية. وتأثر فيه ذوقهم فحـسب ، بـل هـو ممتـزج أيـضا بعنـاصر عقليـة . وأنظـار ميتافيزيقيـة ، واستدلالات منطقيـة ، وكـل أولئـك مـن شـأنه أن يجعـل حكمـة الإشراف السهروردية حظا مشتركا بين الذوق الصوفي . والنظر الفلسفي . وقد حـدد حـاجي خليفـة معنـى هـذه الحكمـة تحديـدا نتبـين منـه أنهـا جـزء مـن الفلسفة ، وأنها تلعب في الفلسفة دورا شبيها بالدور الذي يلعبه التصوف في الدين الإسلامي ، كما أن الحكمة الطبيعية ، والحكمة الإلهية تلعبان في الفلسفة دورا شبيها بالدور الذي يلعبه الكلام في هذا الـدين . ولـيس أدل على ما بين حكمة الإشراق والفلسفة من آصرة قوية ليست أقـل شـأنا مـن آصرتها بالتصوف . مما يحدثنا به السهروري نفسه في مقدمة كتابـه الـذي يحمل اسم " حكمة الإشراق " : فهو يذكر ما يفيد أنه وضـع هـذا الكتـاب إجابة لطلب فريق من أصداقاءه كان يسأله وضـع كتـاب يـسجل فيـه مـا

حصل له بالذوق في خلواته ومنازلاته . ناهيك بما يذكره أيضا من أن ما حصل له لم يحصل بالفكر ، بل كان حصوله بأمر آخر ، ثم طلب الحجة عليه ، حتى لو قطع النظر عن الحجة مثلا ، ما كان يشككه فيه مشكك : لأن ما يذكره هنا من علم الأنوار ، وجميع ما يُبتنى عليه . ويساعده عليه كل من سلك سبيل الله عز وجل . وناهيك أيضا بما يشير إليه من أن منهجه في هذا الكتاب هو ذوق إمام الحكمة أفلاطن الذي يلقبه بصاحب "الأيد والنور" ، وبما يعدده بعد هذا من المصادر التي استقى منها حكمته، وأنها كانت هرمس وأنباذقليس وفيثاغورس ، وأن هذا هو الأساس الذي تقام عليه قاعدة الإشراق في النور والظلمة التي كانت طريقة حكماء الفرس مثل جاماسف وفرشادشور وبزرجمهر . وآية هذا كله أن حكمة الإشراق قد أقيمت على دعائم من مذهب التلفيق الذي نقل إلى الشرق فيما نقل من آثار الفلسفة اليونانية . وكتب الأفلاطونية الجديدة بنوع خاص ، وأنها فلسفة روحانية تذهب في المعرفة مذهبا صوفيا ذوقيا . وتقرر أن المعرفة الإنسانية إلهام من العالم العلوي يصل إلينا عن طريق عقول الأفلاك ، وتعبر عن الحقائق التي عرضت لها بلغة رمزية خاصة ، فتسمى الروحاني بالمنير ، والمادي بالغاسق أو المظلم ، والعقول بالأنوار ، وعقول الأفلاك بالأنوار القاهرة ، والله بنور الأنوار ، والجسم وهو الجوهر المظلم بالبرزخ ، إلى غير ذلك من الألفاظ والعبارات المجازية التي فاضت بها آثار السهروردي المنظومة والمنثورة ، لاسيما كتابه الجليل " حكمة الإشراق " .

ولم يكن الجمع بين التصوف والفلسفة . أو بين الذوق الروحي والنظر العقلي ، مقصورا على السهروردي المقتول وحده . بل هو يتجاوزه

إلى كثير من الصوفية الخلص الذين قضوا حياتهم متقلبين في مقامات الرياضة والمجاهدة . ومختلفين على أحوال الذوق والوجد ، سواء في ذلك من كان منهم شاعرا أو ناظما . ناثرا أو مؤلفا . وتاريخ التصوف الإسلامي حافل بأقوال الصوفية وأشعارهم التي يظهرنا كثير منها على أنها لم تكن أثرا من آثار الذوق والوجد فحسب " وإنما هي قد انطوت كذلك على عناصر ميتافيزيقية ، وأفكار فلسفية ، يلاحظ من تدبرها وأنعم النظر فيها أنها من قريب أو من بعيد بأمور هي أدخل ما تكون في باب النظر العقلي، وأدنى ما تكون إلى تصوير مذهب فلسفي منها إلى التعبير عن كشف روحي . وحسبنا هنا أن نذكر على سبيل المثال محي الدين بن عربي المتوفي ٦٣٨ هـ : فليس من شك في أنه كان صوفيا يصطنع ما يصطنعه الصوفية من رياضة ومجاهدة ويؤثر في بعض كتاباته ، إن لم يكن في كلها . ما يؤثره الصوفية من رمز وإلغاز . وليس من شك أيضا في أن ديوانه " ترجمان الأشواق " كان تعبيرا صادقا عن حبه الإلهي ، وأن شعره في هذا الديوان على ما هو من تصوير عاطفة ناظمة ، قد اشتمل في ثناياه على أفكار لها قسمتها من الناحية الفلسفية . بقدر ما لها شأنها من الناحية الصوفية . وبين أيدينا كتاباه " الفتوحات المكية " و " فصوص الحكم " يلاحظ المتأمل فيهما أنهما ليسا كتابين صوفيين ، ولا هما يعبران عن أذواق ومواجيد فحسب ، وإنما يجد القارئ الممحص نفسه عند قراءة كثير من نصوصهما ، أنه لا يقرأ كلاما صادرا عن صاحب ذوق وحال ، يعبر فيه عن أذواق ذاتية ومواجيد نفسية فحسب ، بل هو يقرأ أيضا كلاما له معانيه الفلسفية ، ولعله يتخذ دعائمه في بعض الأحيان من النظر العقلي

والاستدلال المنطقي ، اتخاذا لا يخفي على الفطن اللبيب . ويدل على هذا كله ما يقوله الأستاذ ماسينيون عن ابن عربي من أنه مأخوذ بالمنطق ، مرجح لكفة النظر العقلي على كفة لمحاسبة النفسية .

وتاريخ التصوف الإسلامي حافل بغير ما ذكرنا من الأمثلة التي تثبت ما عسى أن يكون في شعر الشعراء الصوفيين من المعاني الفلسفية : فالحلاج . وحافظ الشيرازي . وفريد الدين العطار ، وجلال الدين الرومي، وعفيف الدين التلمساني. ونجم الدين بن إسرائيل ، كل أولئك كانوا شعراء، ولم يكونوا فلاسفة بالمعنى الدقيق الذي تدل عليه الفلسفة ، ولكنهم قد ضمنوا شعرهم أفكارا ، وانتهوا من هذه الأفكار إلى نتائج . ولا نستطيع ونحن ندقق النظر فيها أن ننكر عليها ما لها من منزع فلسفي، وما وجهها من روح ميتافيزيقي . ولعلنا لو اردنا أن نثبت صدق ذلك بضرب الأمثال من النصوص ، لخرجنا عن القصد . ولتجاوزنا الحد الذي رسمناه لأنفسنا في هذا التمهيد ، فحسبنا هذه الإشارة ، ومن أراد التحقيق . والتحقق من صحة ما نذهب إليه . فليرجع إلى دواوين هؤلاء الشعراء . وما يروى عنهم من شعر في كتب التراجم والطبقات . فكلها شواهد صدق تنطق بأن شعر هذا او ذاك من هؤلاء الشعراء . ليس شعرا كغيره من الشعر الذي يعبر عن عاطفة ، ويترجم عن وجد . دون أن يكون وراء هذا الوجد ، وفي ثنايا تلك العاطفة ، اشياء أخرى هي أدنى ما تكون إلى الأفكار العميقة ، والحقائق الدقيقة .

٣ - وكذلك كان ابن الفارض : فهو شاعر صوفي قبل كل شئ . قضى حياته التي صورناها في الفصل الثاني من الكتاب الأول خاضعا لسلطان الوجد . مقبلا على الجمال الإلهي حيثما تجلى ، مرتلا أنشودة الحب ، متقلبا في أطواره المختلفة ، ومازال على هذه الحال حتى تهيا له في آخر هذه الأطوار حظ من الفناء عن نفسه لم يتهيأ له من قبل ، فإذا هو يشعر بأن ذاته وذات محبوبته قد أصبحتا ذاتا واحدة ، وبأن ذات هذه المحبوبة تتراءى لعين قلبه في كل مظهر ، وكل منظر . وكل معنى . وهنا نلاحظ أن ابن الفارض لا يمكن أن يكون فيلسوفا ولا شبيها بالفليلسوف: فعنصر العقل لا يكاد يوجد له أثر في شعره . بل عنصر العاطفة هو الذي له كل الأثر ، ولعله كان غالبا عليه في بعض الأحيان إلى الحد الذي يخيل لنا معه أن بعض شعره إنما يدل على أن صاحبه لم يكن إنسانا عاديا كغيره من الناس يحب كما يحبون . ويتغني الحب كما يتغنون . ويصف محبوبه أو محبوبته كما يصفون ، بل إن حبه أقوى وأعنف . وتغنيه الحب أمتع وأروع. ووصفه محبوبه أو محبوبته أمعن ما يكون في المبالغة والإسراف . وقد يذهب بعض النقاد في فهم هذا كله وتعليله ، مذهبا متطرفا . فيظنون بالرجل الظنون . ويتهمونه في عقله وخلقه ودينه على نحو ما رأينا في الفصل الرابع من الكتاب الأول ، والذي يعنينا هنا هو هذه الحياة العاطفية التي كان يحياها ابن الفارض. وهذه الصبغة الذاتية التي اصطبغت بها آثاره ، ومذهبه الذي تصوره هذه الآثار تصويرا صادقا . وقد رأينا أن ذاتية الآثار الصوفية وخلوها من ضابط العقل ، واعتمادها على أساس من الذوق الذي هو حظ مقصور على أصحابه ، كل أولئك كان مثارا لنقد الناقدين من

القدماء والمحدثين ، وحاملا لهم على أن ينظروا إلى هذه الآثار نظرة تغض من قيمتها ، وتضعها في مرتبة أدنى من مرتبة الآثار العلمية والفلسفية .

ويستطيع النقاد أن يذهبوا مذاهبهم في نقد الأحوال والمواجيد الصوفية . وفي إنكار قيمة الشعر الذي يعبر به ابن الفارض عما عرض لنفسه من هذه الأحوال والمواجيد ، ولكنهم لا يستطيعون مع ذلك أن ينكروا على شاعرنا ما تنطوي عليه أذواقه من المعاني القيمة ، وما ينزع إليه في شعره من المنازع الفلسفية .

فهذه " تائيته الكبرى " ، وهى ، كما سبق أن بينا في غير موضع من هذا البحث ، ثمرة من ثمرات أذواقه . ونفحة من نفحات فتوحاته ، ليست مجرد مرآة انعكست على صفحتها الحياة الذوقية للشاعر فحسب . وإنما هى قد اشتملت فوق هذا على كثير من الخطرات الفلسفية ، والتأملات الميتافيزيقية ، والمبادئ الأخلاقية ، والنتائج التي يمكن أن يكون لها أثر في الحياة الاجتماعية ، فأطوار الحب الإلهي التي تمثلها هذه القصيدة يمكن أن يلتمس لكل طور منها منزع فلسفي ينزع إليه . وينطوي عليه ، فالطور الأول بما يمثله من رضى الحب وصبره على تكاليف المحبة ، وابتهاجه بكل ما تمتحنه به المحبوبة من محن ، يذكرنا بالمذهب الفلسفي في التفاؤل إذ يرى أن العالم على ما هو عليه هو خير العوالم الممكنه . والطور الثاني بما يأخذ فيه المحب نفسه من رياضات ومجاهدات ، وتخل عن الحظوظ والاعراض . وفناء عن النفس ، وكشف الحجاب لحس ، ليس في حقيقته إلا تحقيقا لطائفة من المثل العليا الأخلاقية ، ينتهي بالنفس الإنسانية إلى الكمال

والصفاء اللذين هما سبيل السعادة . والطور الثالث بما يصوره من شعور المحب بالاتحاد مع محبوبته . وشهود هذه المحبوبة في مظاهر الوجود ، إنما يمثل مذهب ابن الفارض في الوحدة ، وهو مذهب ظن الكثيرون من القدماء أمثال ابن تيسية ، والبقاعي ، وابن خلدون ، ومن المحدثين أمثال دي ماتيو ، أنه عين مذهب ابن عربي في وحدة الوجود . وسواء أكان صحيحا أن وحدة ابن الفارض هي عين وحدة الوجود عند ابن عربي أم لم يكن ، فإن الذي يعنينا هنا هو أن نسجل أن ابن الفارض ، وقد كان من أصحاب الذوق الخالص . والعاطفة القوية . قد انتهى عن طريق ذوقه وعاطفته إلى مذهب في الوحدة ، هذه الوحدة التي لا يماري أحد في أنها فكرة فلسفية نسج حولها الفلاسفة مذاهب شتى . وجاراهم ابن عربي إلى حد ما ، فأثبت مثلهم أن الوجود واحد ، وأن وجود العالم ليس في الحقيقة إلا عين وجود الله . ومعنى هذا بعبارة أخرى أن ابن الفارض بمنهجه النفسي . وذوقه الروحي . قد انتهى إلى إثبات الوحدة التي انتهى إلى إثباتها الفلاسفة الخلص عن طريق منهجهم العقلي ، والصوفيون المتفلسفون عن طريق منهجهم الذي هو مزاج من الذوق والعقل . وليس هذا هو كل ما تشتمل عليه " التائية الكبرى " من منازع فلسفية ، بل هي قد تضمنت أشياء أخرى ليست أقل من هذا شأنا : فالمعرفة ودرجاتها ، وموضوع كل درجة وأداتها . والذات الإلهية وطبيعتها ، وأسماؤها وصفاتها وأفعالها ، وخلق الله للعالم ، وفيض العالم من الله أو صدوره عنه ، وهل كان الخلق مباشرا أو بواسطة ، وهل الأديان مختلفة حقيقة أو أن اختلافها لا يتجاوز ظاهر العبادات والشعائر في كل دين . وأنها جميعا مستمدة من

منبع واحد . مردودة إلى أصول واحدة ، والقضاء والقدر وعلاقة بالأديان ووحدتها ، كل أولئك وكثير غيره مسائل نلتقي بها في " التائية الكبرى " ، ونجد لابن الفارض رأيا فيها ، ونستطيع في يسر حينا ، وفي مشقة حينا آخر ، أن ندرك المعاني الفلسفية التي تنطوي عليها ، والمنازع الميتافيزيقية ، أو الأخلاقية ، أو الاجتماعية التي تنزع إليها .

ومثل هذا يمكن أن يقال في " الخمرية " : فهي قصيدة شعرية صوفية قبل كل شئ ، تأثر فيها صاحبها أسلوب الرمز والتلويح . وهى بعد قد عرضت لمسألة الخلق ومصدره ، والحياة ومنبعها ، وطبيعة الأرواح والأشباح واتصال بعضها ببعض ، وسمو بعضها عن بعض ، مما لا يدع مجالا للشك في أن ابن الفارض كان بارعا إذ جعل من الشعر الذي هو سبيل الشاعر إلى تصوير عاطفته وشعوره ، أداة للتعبير عن أدق المعاني وأعمق الأفكار .

على أننا لا نرمي من وراء هذا كله إلى أن نجعل من ابن الفارض وأشباهه من الصوفية وشعرائهم فلاسفة لهم ما للفلسفة من مذاهب ، ولذاهبهم ما للمذهب الفلسفية من خصائص نظرية وعقلية ، وإنما الذ نرمي إليه ، ونحب أن يتضح في الأذهان ، هو أن الذين يغضون من قيمة الأذواق والمواجيد الصوفية ، وينكرون على أصحابها ما وفقوا إليه من إدراك الحقائق العليا ، وما اصطنعوا في التعبير عن أذواقهم ومواجيدهم من شعر أو نثر يسوده الرمز والتلويح ، مسرفون على أنفسهم ، وعلى الحق معا ، فها هو ذا ابن الفارض قد رأينا كيف شاعرا ، وصاحب ذوق

وعاطفة ، وكيف استطاع مع ذلك أن يكون صاحب مذهب في الحب انبثت في تضاعيفه خطرات فلسفية ، وشاعت في ثناياه آراء أخلاقية واجتماعية .

وإذا كان ذلك كذلك فمن الإسراف إذن أن نذهب في تأويل أذواق ابن الفارض وشعره الذي عبر به عن هذه الأذواق مذهبا يجعل من الشاعر الصوفي فيلسوفا ، ومن الإجحاف أن نساير المنكرين في إنكارهم على هذه الأذواق ما عسى أن يكون فيها من فلسفة ، أو من منزع فلسفي على أقل تقدير ، ومن الإنصاف في حق ابن الفارض أن نتخذ لأنفسنا منه موقفا وسطا : فلا نعده فيلسوفا كأصحاب النظر والعقل من الفلاسفة الخلص ، ولا ننظر إلى ثمرات ذوقة ونفحات حبه ، على أنها خلو من كل معنى ، أو منزع فلسفي ، بل الخير كل الخير هو أن نقدره على أنه شاعر صوفي الذوق ، وضمن شعره كثيرا من المعاني الفلسفية ، وأضفى على ذوقه ثوبا يمكن تحليله إلى خيوط ذوقية مصبوغة بلون فلسفي .

٤ - وينتهي بنا هذا كله إلى نتيجة لابد منها ، وهي أن الصوفية بأذواقهم الروحية وأحوالهم النفسية ، ربما كانوا أقدر من العلماء والفلاسفة على إدراك الحقيقة الخفية ومعرفة الذات العلية ، لاسيما أن العلماء يصطنعون منهجا تجريبيا قوامه المشاهدة الحسية والتجربة الخارجية ، والذات الإلهية ليست من المادة في شي ولا سبيل إلى إخضاعها لهذا المنهج التجريبي ، والفلاسفة قد عرضوا الحقيقة الذات الإلهية ، وذهبوا في تفسيرها ومحاولة استكناه أسرارها مذاهب شتى ، واختلفوا في هذا منذ

العصور القديمة حتى الآن ، دون أن يجمعوا ، أو يجمع سوادهم الأعظم على رأي بعينه يكشف عن هذه الحقيقة بشكل تتوافق العقول السليمة على صحته والتسليم به وليس أدل على ذلك مما نلمسه في المذاهب المادية من عجز وقصور عن الوصول من أمر الحقيقة الإلهية إلى حل يلائم طبيعتها . ويبين خصائصها في غير ما تشبيه . وليس أدل عليه أيضا من أن أكثر المذاهب المادية قد وقفت من هذه المشكلة موقفا أغفلت فيه الذات الإلهية . وقصرت فيه البحث على حقيقة آثارها في الكون ، كأن هذا الكون قد صدر عن نفسه . ولم يكن في حاجة إلى مبدأ أسمى منه وأكمل يفيض عليه الوجود ، ويضفي عليه الجمال ، ويشيع فيه النظام والانسجام : فنيوتن يفسر عالم المادة ، ودارون يفسر عالم الحياة ، ولكن تفسيرهما من شأنه أن يجعل هذا العالم أو ذاك خلوا من كل روحانية . ومعنى هذا أن الماديين مهما أوتوا من دقة مناهجهم . وسلامة تجاربهم ، فلن يستطيعوا بحال ما أن يتجاوزوا مظاهر الكون ، التي يمكن إخضاعها لمشاهداتهم وتجاربهم ، إلى مبدع الكون وذاته التي لا يمكن ألبتة أن تكون في متناول هذه المشاهدات وتجاربهم ، إلى مبدع الكون وذات التي لا يمكن ألبتة أن تكون في متناول هذه المشاهدات والتجارب ، وبعبارة أخرى نقول : إن الذات الإلهية من حيث إنها أبعد ما تكون عن المادية ، وعن أن تجرى عليها المساحة والمقدار ، فإن اتصالها بالذوق الروحي أوثق . ومعرفتها عن طريق الوجد الصوفي ربما كانت أدق وأعمق . ولعل هذا راجع إلى أن الكشف - وإن كان مطعونا فيه لصفته الذاتية وطابعه النفسي - هو على كل حال سبيل إلى إدراك الحقيقة العلية إدراكا مباشرا . ومن هنا نتبين

الفروق التي توجد بين كل من العلم والفلسفة والتصوف ، فالعلم يؤسس القوانين المستندة إلى المشاهدة الخارجية والتجربة الحسية ، والتي يفسر بها أحداث الكون وظواهره دون أن يتجاوز هذه الأحداث والظواهر إلى ما وراءها. والفلسفة تحاول أن تتعرف حقائق الوجود، وحقيقة مبدعة أو مفيضة عن طريق النظر العقلي . والعلم والفلسفة يحومان حول حقيقة الحقائق من بعيد. أما التصوف فإن له غاية أسمى من غاية العلم والفلسفة، هو يرمي إلى الاتصال المباشر بحقيقة الحقائق ، ويرمي إلى شئ آخر أبعد من هذا الاتصال ، وهو الشعور بالاتحاد مع هذه الحقيقة العليا، والأنس بها ، ورد كل شئ إليها ، واعتبارها منبعا فياضا بكل ما في الكون من آيات الحق والخير والجمال . ويمكن إظهار هذه الفروق في عبارة أخرى فيقال إن العلم نظريات ، والفلسفة أنظار ، والتصوف أذواق .

وإذا كان التصوف على ما بينا من فرق بينه وبين العلم والفلسفة ، فقد تعين على الصوفي إذن أن يكون أسمى ما يكون عن عالم المحسوس بما فيه من أحداث متغيرة ، وظواهر متبدلة ، وأعراض زائلة ، وأن يترفع بقلبه وذوقه عن النظر إلى الأشياء بعين الكثرة التي لا يعرف الماديون عينا غيرها يبصرون بها ، وأن يتخذ سبيله إلى كشف الحقيقة من الإشراق الذي ينبثق من أعماق الروح وقد صفت وتحررت من سجنها المادي ، وأصبحت قادرة على الترقي إلى المبادئ العلية ، على حد تعبير ابن الفارض نفسه : فهنالك في ذلك الإشراق تكون الروح أقدر على الاتصال المباشر بالذات الإلهية ، وتذوقها تذوقا روحيا خالصا هو أكثر ما يكون ملاءمة لطبيعتها .

وإذا كان ذلك كذلك ، فليس من الإنصاف في شئ أن ينظر إلى ما وصل إليه ابن الفارض في حبه ، وعن طريق ذوقه ووجده ، نظرة ازدراء تجعل من فتوحاته محض أوهام ومجرد خيالات ، أو إدراكات شخصية لا ضابط لها من العقل، ولا عناء فيها: فها نحن أولاء قد رأينا أن هذا الشاعر الصوفي، وإن كان مختلفا عن العلماء والفلاسفة في منهجه وأسلوبه، فهو قد عرض في شعره لمسائل ليست أقل قيمة مما عرض له أولئك وهؤلاء ، واستطاع بذوقه أن يكشف عن كثير من الحقائق الدقيقة التي لم يستطيع العلماء أن يكشفوا منها شيئا بمناهجهم التجريبية ، ولم يوفق الفلاسفة حتى الآن إلى أن يقولوا فيها كلمة واحدة ، يبددون فيها ظلمة الشك بنور اليقين . ولكي يتبين لنا مبلغ ما لأذواق ابن الفارض من القيمة الروحية ، وما ينطوي عليه حبه من المنازع الفلسفية ، أفردنا هذا الكتاب من بحثنا لدراسة مذهب الشاعر الصوفي في المعرفة والوحدة والقبيطة والأديان . وحاولنا أن نبين كيف كان هذا كله ثمرة من ثمرات حبه ، ونتيجة منطقية من نتائجه .

الفصل الأول

الحب والمعرفة

علاقة الحب بالمعرفة عند الصوفية - علاقتهما عند ابن الفارض - تقدم المعرفة على الحب وتأخرها عنه - طبيعة الحب وطبيعة المعرفة - المعرفة الفطرية - أداة الحب وأداة المعرفة : النفس والروح عن المتقدمين - خلط ابن الفارض بين النفس والروح - تفرقته بينهما : النفس وخصائصها - الروح وطبيعتها - البدن ووظيفته - الإنسان ووحدته - معرفة الأسماء والصفات والأفعال ومعرفة الذات ، علم الظاهر وعلم الباطن - بين أطوار الحب ومراتب المعرفة .

١ - اتفقت جمهرة الصوفية على أن غاية التصوف العليا هـي الوصـول إلى الـلـه ، والاتصال به ، والفناء فيه ، والتحقق بمعرفته . ولكي يتحقق الصوفي بهـذه الغاية فلابد من أن يقطع طريقا تتعاقب فيها عـلى نفـس سلـسلة مـن المرلتـب التي يختلف بعضها عن بعض من وجه ، ويختلط بعضها مع بعض من وجه آخر ، وتعرف هذه المراتب عندهم باسم المقامات ، ولابـد لـه أيـضا مـن أن تختلـف على نفس أحوال عدة يباين بعضها بعضا من ناحية ، ويوافق بعـضها بعـضا مـن ناحية أخرى ، ومن هذه الأحوال ما تبتهج به نفسه السالك . وينبسط له قلبـه ، ومنها ما يولد في نفـسه الألم والحـسرة ، ويثـير في قلبـه القـبض والهيبـة . وهـذه الأحوال هي جماع ما يطلق عليه عن الصوفية اسـم الأذواق والمواجيـد ، كـما أن تلك المقامات هي المحـور الـذي تـدور عليـه عنـدهم الرياضـات والمجاهـدات . والمقامات والأحوال حميعـا هـي المـرآة الـصادقة التـي يـستطيع مـن نظـر فيهـا

أن يتصفح الصور المختلفة للحياة الخلقية والروحيـة التـي يحياهـا القـوم ، وما عسى أن يكون منطويا في ثناياهـا مـن حقـائق ودقـائق لهـا قيمتهـا في إظهارنا على المنازع الفلسفية التي يمكن أن يكـون قـد نـزع إليهـا أصـحاب المجاهدة والذوق ، فمما لا شك فيه أننا حين نقف على بعض ما انتهى إليـه الصوفية عن طريق مجاهداتهم وأذواقهم مـن قواعـد خلقيـة ، وملاحظـات نفسية ، ومكاشفات روحية ، يخيل لنا أننا إزاء بحوث في علم الأخلاق وعلم النفس وما بعد الطبيعة ، على نحو ما سبقت لإشـارة إلى ذلـك في التمهيـد الذي قدمناه بين يدي هذا الكتاب .

ومع أن الصوفية قـد اتفقـوا عـلى وجـوب مـرور الـسالك بالمقامـات ، واختلافـه عـلى هـذه الأحـوال . أو اخـتلاف هـذه الأحـوال عليـه . فـإنهم مختلفون في عدة كل من المقامـات والأحـوال ، وفـيما عـسى أن يكـون مـن هذه أو تلك : إذ كثيرا مـا نلاحـظ عنـد قـراءة كتـب الـصوفية أن مـا يعـده بعضهم من المقامات قد يعده بعضهم الآخر من الأحـوال : فـالطوسي مـثلا قد جعل المقامات سبعة ، كل واحد منها ثمرة للمقام الذي يتقدمـه . وهـي كما ذكرها في كتابه " اللمع " ترتـب عـلى الوجـه التـالي : التوبـة ، فـالورع ، فالزهد ، فالفقر ، فالصبر ، فالتوكل ، فالرضا ، وأبو طالب المكي قـد جعـل في كتابه " قوت القلوب " المقامات تسعة وهي : التوبـة ، والـصبر ، والـشكر ، والرجا والخوف، والزهد، والتوكل. والرضا والمحبة . والـسهروردي في كتابـه " عـوارف المعـارف " قـد جعـل مـن الإيمـان والتوبـة والزهـد ودوام العمـل لله تعـالى ظـاهرا وباطنـا ، أشـياء أربعـة يجـب أن يتحقـق بهـا مـن سـلك طريق اللـه على الوجـه الأكمـل . ورأي أن التحقـق بـتمام هـذه الأربعـة ،

يستعان عليه بأربعة أخرى هي : قلة الكلام ، وقلة الطعـام ، وقلـة المنـام ، والاعتزال عن الناس ، وأن من ظفر بهذا كله فقد استقامت لـه الأحـوال ، وصحت المقامات، وعند صاحب العوارف المقامات هـي : التوبـة ، والـورع، والزهد، والصبر، والفقر، والشكر ، والخوف ، والرجاء، والتوكل ، والرضا، وكما يختلف الصوفية في عدة المقامات وترتيبها ، فهم مختلفـون كـذلك في عـدة الأحوال وترتيبها ، على أن اختلافهم هذا أو ذاك لا ينفي أن الغاية القـصوى عنـدهم هـي التحقـق بمحبـة اللــه ومعرفتـه ، ومـشاهدة جمالـه وجلالـه وكماله ، وآثاره هذا كله في العوالم المختلف ، ومعنى هـذا بعبـارة أخـرى أن السالك بعد أن يختلف على المقامات ، وتختلف عليـه الأحـوال ، ينتهـي إلى كشف الحقيقة بحيث يصبح عارفا ، كما ينتهي إلى الشعور بحقيقة ذاته من حيث هو محب ، بالقياس إلى حقيقة الذات الإلهية من حيث هي محبوبة ، فاذا بالمحب يحس أنه وهذه المحبوبة ذات واحدة ، على نحو مـا بينـا ذلـك في الفصل الثاني من الكتاب الثاني .

والذي يعنينا هنـا هـو أن نحـدد مـع الـصوفية معنـى كـل مـن الحـب والمعرفـة وأن نتبـين العلاقـة الوثيقـة التـي تـربطهما ، وقـد عـرف كثـير من الصوفية الحب والمعرفة بتعريفات عدة ، ولكن هذه التعريفـات ، عـلى كثرتها وتعدد أصحابها ، تكاد تتفق في مؤداها ، وفي الطـابع العـام الـذي هـو حـظ مـشترك بينهـا جميعـا . ويخيـل لنـا ، ونحـن نقـرأ تعريفـات الحـب ، وتعريفات المعرفة ، أننا إزاء لغتـين تـصوران موضـوعا واحـدا ، وتعـبران عـن حقيقة واحدة ، وتحللان حالة نفسية واحدة ، بمعنى أن المحب حين يتحدث عن موضوع حبه ، ويصف حاله فيـه ، إنمـا يتحـدث عـن موضـوع المعرفـة ،

ويصف حال العارف ، ولكن في لغة الحب ، وكذلك العارف حين يتحدث عن موضوع معرفته ، ويصف حاله فيها ، ومكاشفاته التي انتهى إليها ، إنما يتحدث عن موضوع الحب ، ويصف حال المحب ، وما ينتهي إليه أمره من فناء عن ذاته ، وبقاء في ذاته محبوبته ، ولكن في لغة المعرفة : قد وصف الجنيد المحب في المحبة فقال : " عبد ذاهب عن نفسه ، متصل بذكر ربه ، قائم بأداء حقوقه ، ناظر إليه بقلبه ، أحرق قلبه أنوارهويته ، وصفا شربه من كأس وده ، وانكشف له الجبار من أستارغيبه ، فإن تكلم فبالله ، وإن نطق فعن الله ، وإن تحرك فبأمر الله ، وإن سكن فمع الله ، فهو بالله ولله ومع الله " . وعرف الحلاج حقيقة المحبة فقال : " حقيقة المحبة قيام مع محبوبك بخلع أوصافك " . وقال أبو يعقوب السوسي : " لا تصح المحبة إلا بالخروج عن رؤية المحبة إلى رؤية المحبوب بفناء علم المحبة " . وتدبر هذه التعريفات ، وكثير غيرها مما يذكره المؤلفون الصوفيون في كتبهم ورسائلهم ، يظهرنا على أن الفكرة الرئيسية المشتركة بينها ، والمحور الذي تدور عليه ، والغرض الذي ترمي إليه : فناء الإنسان عن نفسه ، وعن أوصافه وحظوظه ، وإنكار ذاته ، وإيثاره الله على ما سواه ، كل أولئك شروط أساسية ينبغي أن يتحقق بها المحب لكي يكون محبا صحت محبته .

ومثل هذا يمكن أن يقال في تعريفات المعرفة : فقد حدثنا القشيري في رسالته عن المعرف فقال : " هي صفة من عرف الحق سبحانه بأسمائه وصفاته ، ثم صدق الله تعالى في معاملته ، ثم تنفي عن أخلاقه الرديئة وآفاته ، ثم طال بالباب وقوفه ، ودام بالقلب اعتكافه ، فحظي من الله تعالى بجميل إقباله ، وصدق الله تعالى في جميع أحواله ، وانقطع عنه

هواجس نفسه ، ولم يصغ بقلبه إلى خاطر يدعوه إلى غيره ، فإذا صار من الخلق أجنبيا ، ومن آفات نفسه بريا ، ومن المساكنات والملاحظات نقيا ، ودام في السر مع الله تعالى مناجاته ، وحق في كل لحظة إليه رجوعه ، وصار محدثا من قبل الحق سبحانه بتعرف أسراره، فيما يجريه من تصاريف أقداره، يسمى عند ذلك عارفا ، وتسمى حالته معرفة ، وفي الجملة فبمقدار أجنبيته عن نفسه ، تحصل معرفته بر عز وجل " ، ووصف أبو يزيد البسطامي حال العارف فقال : " للخلق أحوال ، ولا حال للعارف ، لأنه محيت رسومه ، وفنيت هويته بهوية غيره ، وغيبت آثاره بآثار غيره " . وسئل ابن يزدانيار متى يشهد العارف الحق سبحانه ، فقال : " إذا بدا الشاهد ، وفني الشواهد ، وذهبت الحواس " ، وقال الحلاج : " علامة العارف أن يكون فارغا من الدنيا والآخرة " ، وظاهرة هنا ما تقرره هذه الأقوال ، من مبدأ عام مشترك بين بعضها وبعض من ناحية ، وبينها وبين ما ذكرناه آنفا من أقوال في المحبة من ناحية أخرى ، من أوجه الشبه التي تكشف في وضوح وصراحة عن أن مبدأ الفناء عن الشواهد والآفات والحواس ، وإسقاط العلاقات بين الإنسان وبين نفسه من ناحية ، وبينه وبين غيره من ناحية أخرى ، بحيث تنمحي رسومه ، وتنمحق هويته في ذات الله ، كل أولئك وغيره من المثل العليا ، والمبادئ الخلقية ، قد انطوت عليه هذه الأقوال التي عرفت بها المعرفة ووصفت فيها حال العارف ، كما انطوت عليها سابقاتها في تحديد معنى الحب ، ووصف حال المحب ، وهذا يؤدي إلى أن الحب والمعرفة عند صوفية المسلمين المتقدمين على ابن الفارض ، حالتان نفسيتان ، تصطبغان بصبغة واحدة ،

وتسلتزمان شروطا واحدة وترميان إلى غاية واحدة ، وتكشفان عـن حقيقـة عليا واحدة ، حتى كان المتحدث بلـسان الحـال في إحـداهما إنمـا يعـبر عـن حقيقة الأخرى ، وحتى إن من يقول إنه محب ، يمكن أن يقول إنه عـارف ، ومن يقول إنه عارف ، يمكن أن يقول إنـه محـب ، لأن الـشروط والـدواعي والأوصاف والموضوع والغاية والطريق في كل من الحب والمعرفة واحدة .

٢ - والمتأمل في أطوار الحب الإلهي عند ابن الفارض ، وفيما كان يفتح به عليه في كل طور ، يلاحظ أن هذا الشاعر لم يكن بدعا من الصوفية ، بـل كان مثلهم في ربط الحب والمعرفة ، وجعل المعرفة ثمرة من ثمـرات الحـب ، وحالا مثله موهوبا من الـلـه ، وليس مكتـسبا مـن جانـب العبـد : فـالطور الأول من أطوار الحب الفـارضي هـو في جملتـه تعبـير عـن الفنـاء الجـزئي ، والطور الثاني تعبير عـن الفنـاء الكـلي الـذي أسـلم ابـن الفـارض إلى الطـور الثالث وهو طور الاتحاد ، أو الحال الموحدة بما فيها من شهود المحب لذات محبوبته ، ومعرفة حقيقة ذاته ، وأنها ليست شـيئا بالقيـاس إلى ذات هـذه المحبوبة التي أصبحت عنده كل شئ ، ونحن إذا أنعمنا النظر في هذا الفناء، رأينا أنه ينطوي عـلى معنيـين ، وينتهـي إلى غـايتين : معنـى خلقـي، وغايـة عملية تتحقق بصفاء النفس، وتجردها عن الـشهوات ، واسـتحالتها إلى روح نقية لا تشوبها شائبة نقص ، ومعنـى عرفـاني ، وغايـة نظريـة (إن صـح أن نستعمل هنا صفة النظرية للدلالة على المعرفة التي تنكـشف لقلـب العبـد وقد ظفر بحظ موفور من الجلاء) ، تتحقق فيها النفس بالمعرفـة الإلهاميـة التي يكشفها الـلـه لعين القلب ، ومعنى هذا بعبـارة أخـرى أن بـين الحـب والمعرفـة عنـد ابـن الفـارض علاقـة وثيقـة لا تنفـصم عروتهـا، ولا يمكـن

إنكار ما لها من أثر في توجيه المعاني التي ضمنها ابن الفارض شعره توجيها يكشف عن خصائصها الفلسفية وبعبارة أوضح يمكن أن يقال إن الفناء كما هو عند ابن الفارض شرط المحبة وسبيل اتحاد المحب بمحبوبتها الحقيقية، فهو كذلك شرط المعرفة ، وسبيل العارف إلى معاينة ذات هذه المحبوبة .

فابن الفارض في اتخاذه من الفناء سبيلا إلى التحقق بالمعرفة ، كان مثله كمثل كثيره غيره من أصحاب الذوق . فالحلاج يرى أن شرط المعرفة هو محو الكل من العبد ، كما يدل على ذلك قوله :

شرط المعارف محو الكل منك إذا	بدا المريد بلحظ غير مطلع

وكذلك أبو سعيد بن أبي الخير المتوفي سنة ٤٤٠ هـ ، كان يرى أن خروج الإنسان عن نفسه هو الطريق الموصل إلى الله ، وأن الفناء عن النفس هو أن يحقق الإنسان عدمها ، ويحقق وجود الله ، وأن الحديث القائل بأن " من عرف نفسه فقد عرف ربه " ، إنما يعني أن من عرف نفسه على أنها عدم ، عرف الله على أنه وجود ويكفي أن نوازن بين ما ذهب إليه كل من الحلاج وأبي سعيد ابن أبي الخير ، وبين ما يشير إليه ابن الفارض في الأبيات التالية :

فأفنى الهوى ما لم يكن ثم باقيا	هنا من صفات بيننا فاضمحلت ١٥٩
فألفيت ما ألفيت عني صادرا	إلى ومني واردا بمزيدتي
وشاهدت نفسي بالصفات التي بها	تحجبت عني في شهودي وحجبتي
وإني التي أحببتها لا محالة	وكانت لها نفسي على محيلتي ١٦٢

لنتبين أولا أن شاعرنا إنما يصف شهوده للذات الإلهية ، ومعرفته إياها في هذه الحال التي يسميها الصوفية حال البقاء بعد الفناء ، وأنه يفاضل بين هذه الحال وبين ما كان عليه قبلها من حال الحجابية التي يكون العبد فيها محجوبا بصفاته الظاهرة عن نفسه الحقيقية التي ليست شيئا آخر غير الذات الإلهية ، ولنتبين بعد ذلك أنه فيما يصفه هنا ، يوافق الحلاج وأبا سعيد على القول بأنه على قدر ما تكون النفس متعلقة برغباتها ، تكون محبوبة عن الحقيقة ، حتى إذا ما عرضت لها البقاء بعد الفناء ، وأصبحت ذات الله مشهودها الوحيد ، فهنالك تنكشف لها الحقيقة ، وتعرف أنها لم تعد شيئا ، وأن الله هو كل شئ في عينها .

٣ - وإذا كانت النفس التي هي مصدر المعرفة ، هي كذلك المنبع الفياض بالحب ، فلابد إذن من أن نتعرف أيهما أسبق في وجوده في النفس على الآخر : هل يسبق الحب المعرفة ، وهل تنشأ المعرفة عن الحب ، أو أن المعرفة هي التي تتقدم على الحب بحيث يكون الحب نتيجة لها ؟ والحق أن من صوفية المسلمين من عرض لهذه المسألة ، ووفق بعضهم في محاولة تحليلها توفيقا لا يقل في قيمته النفسية والفلسفية عما وفق إليه بعض فلاسفة الغرب : فالغزالي مثلا يقدم لنا فيما يقدم من حديث عن المحبة في كتابه " إحياء علوم الدين " ، تحليلا لعلاقة الحب والمعرفة من هذه الناحية لعله ليس أقل وضوحا ودقة مما يستطيع أن يقدن أي عالم من علماء النفس المحدثين : فهو يقرر أنه لا يمكن أن يتصور حب إلا بعد معرفة وإدراك . إذ لا يحب الإنسان إلا ما يعرف، ولهذا لم يوصف الجماد بالحب، إنما الحب خاصة من خواص الحي المدرك.. ولما كانت الحواس هي المصادرة

الأولى للمعرفة ، فقد نشأ عن ذلك أن تكون لكل حاسة لذة ، ينشأ عنها حب لما تدرك : فلذة العين في النظر إلى الصور الجميلة والمناظر المبهجة ، ولذة الأذن في سماع النغمات الشجية والأجراس المنسجمة ... إلخ على أن هناك غير الحواس الظاهرة حاسة باطنة اختصت بإدراك الروحانيات والالهيات التي لا صلة بينها وبين عالم المادة ، وهي هذه الحاسة التي يسميها الغزالي عقلا أو قلبا أو نورا ، والحب الناشئ عن الإدراك بهذه الحاسة الباطنة مقصورا على الإنسان وحده ، على عكس الحب الناشئ عن الإداك بالحواس الظاهرة فإنه حظ مشترك بين الإنسان والحيوان ، ولهذا كان العقل الباطن أو النور الكامن أقوى وأرقي من الحس الظاهر ، وكان جمال المدركات بالبصيرة الباطنة أروع وأمتع من جمال المدركات بالحواس الظاهرة ، وهنا نلاحظ أن الغزالي في تقديم المعرفة على الحب ، وجعل الحب نتيجة للمعرفة ، كان أسبق إلى هذه الفكرة من فيلسوف أوربي له خطره في تاريخ الفلسفة الحديثة ، وأعنى به اسبينوزا (١٦٣٢ - ١٦٧٧م) الذي كان يري أن الحب يتولد من المعرفة الحدسية (Connaissance Intuitive) أو المعرفة التامة (Connaissance Adéquate) بالجوهر الإلهي ، فقد انتهى هذا الفيلسوف الهولندي إلى أن كل ما نعرفه بطريق الدرجة الثالثة من درجات المعرفة (المعرفة الحدسية الكلية) ، يحدث في أنفسنا لذة ، لأن أعظم ما نشعر به من اللذة العقلية غنما ينشأ عن هذه المعرفة ، وعقب على ذلك بقوله إن حب الله حبا عقليا ينشأ عن المعرفة الحاصلة بطريق هذه الدرجة الثالثة من درجات المعرفة ، لأن اللذة أنما تحصل عن هذه المعرفة مصحوبة بفكرتنا عن الله من

حيث هو علـى ، وهـذا - في رأي اسـبينوزا - هـو حبنـا اللــه لا مـن حيـث تصورنا له حاضرا ، بل من حيث معرفتنا به على أنه أزلي ، وهذا مـا يـسميه اسبينوزا بالحب العقلي لله . فالغزالي واسبينوزا متفقان هنا عـلى أن المعرفـة متقدمـة عـلى الحـب ، وأن اللـذة الحاصـلة في بـاطن الإنـسان إنمـا يتوقـف حصولها ونوعها على نوع المعرفة التـي تقابلهـا ، ومبلـغ هـذه المعرفـة مـن درجة الحسية الظاهرة أو الروحانية الباطنة .

ويتفق مع الغزالي واسبينوزا مؤلف مسلم آخر هو ابـن قـيم الجوزيـة صاحب " مدارج السالكين " حيث يرى أن صـفات اللــه ، ونعـوت كمالـه ، وحقائق أسمائه هي التي تجذب القلوب إلى محبته ، وطلب الوصول إليه ، لأن القلوب إنما تحب من تعرفه ، وتخافه ، وترجوه ، وتشتاق إليـه ، وتلتـذ بقربـه ، وتطمـئن إلى ذكـره ، بحـسب معرفتهـا بـصفاته ، فـإذا ضرب دونهـا حجاب معرفة الصفات ، والإقرار بها امتنع منها بعد ذلـك مـا هـو مـشروط بالمعرفة وملزوم لها ، إذ وجود الملزوم بدون لازمه ، والمشروط بدون شرطه ممتنـع ، ومعنـى هـذا أن المعرفـة متقدمـة عـلى الحـب ، وأن شرط الحـب المعرفة ، وهذا التقديم منطقي وملائم لطبيعة كل من الحب والمعرفـة : إذ لا يمكن أن نتصور أن إنسانا أحب إنسانا أو شـيئا دون أن يكـون قـد رآه أو سمع به على أقل تقدير ، والرؤية والسماع طريقان من طرق المعرفـة ، وإن كانا أقل رتبة من المعرفة الحدسية التي هي عند الفلاسفة أتم وأكمـل مـن المعرفة الحسية والمعرفة الاستدلالية ، وهاتان المعرفتان الأخيرتان أقـل رتبـة عند الصوفية من المعرفة بالبصيرة الباطنة .

أما ابن الفارض فإننا لانكاد نعثر له على حـل صريـح يبـين فيـه مكـان المعرفة من الحب على وجه التحقيق ، وهل هي متقدمـة عليـه أم متـأخرة عنه ، ومع ذلك نستطيع أن نلتمس مـن خـلال تحليلـه لأطـوار الحـب ومـا ينكشف للمحب في كل طور من ألوان المعارف تفسيرا يمكـن أن يقـال عنـه إنه حل أو شئ يشبه الحل لهـذه المـشكلة ، ولعـل أول مـا يبـدو لمتأمـل في أطوار الحب من ناحية ، وفيما يقابل هذه الأطوار من مراتـب المعرفـة مـن ناحية أخرى ، هو أن الحقائق التي تكشف عنها المعرفة الإلهامية ، هي عين الحقائق التي تنجذب إليها نفس المحب بعد صفائها من شوائبها ، الأمر الذي ينبنـي عليـه اعتقـاد أن المعرفـة والمحبـة في مـذهب ابـن الفـارض لا تـسبق إحداهما الأخرى ، بل تسيران في خطين متوازيين ، إن صح هذا التعبير : فحب ابن الفارض في طوره الأول كـان ناشـئا عـن التقيـد بمظهـر جميـل معـين مـن مظاهر الأفعال أو الصفات الإلهية التـي تـتجلى في المخلوقـات ، ولم يـزل ابـن الفارض على هذه الحال من التقيد بمطالعة جمال آثـار الأفعـال والـصفات في عالم الشهادة حتى كان الطور الثاني ، فإذا بالمحـب قـد فنـي هنـا عـن نفـسه وحسه فناء تاما أسلمه إلى الطـور الثالـث حيـث اتجـه الحـب اتجاهـا آخـر ، وانجذب المحب إلى شئ آخر ، أجمل وأكمل مما كان منجذبا إليـه مـن قبـل : ذلك بأنه هنا ينجذب إلى جمال الذات المطلق الذي لا يتعين بقيد ، ولا يتقيد برسم أحد ، ومن هنا يمكن القول بأن هناك توازيا أو تقابلا بين أطوار الحـب وبـين مراتـب المعرفـة : فعـن معرفـة الأفعـال والـصفات في مظـاهر الكونيـة نـشأ الحـب في الطـور الأول ، وعـن معرفـة الـذات المطلقـة نـشأ الحـب في الطور الثالث ، ومـا بـين الحـين مـن تفـاوت في درجـة الكـمال هـو كـما بـين

المعرفتين من هذا التفاوت ، ومعنى هذا بعبارة أخرى هو أن بين الحب والمعرفة ، توازيا في نفس الوقت الذي يكون فيه الحب ثمرة من ثمرات المعرفة ونتيجة لها ، على أن فهم المسألة بهذا المعنى قد يلقي اعتراضا من وجه بقدر ما يلقي قبولا من الوجه الذي ذكرنا : فلعل قائلا يقول إن طبيعة الحياة الصوفية التي كان يحياها ابن الفارض منذ صباه ، وميله إلى الجمال هذا الميل الذي شهدنا كثيرا من آثاره في الفصل الثاني من الكتاب الأول ، وعرفنا بعض أسراره في الفصل الأول من الكتاب الثاني ، وتقلبه في أطوار الحب الإلهي هذا التقلب الذي تبينا من خلال تحليلنا له في الفصل الثاني من الكتاب الثاني ، أن حبه كان في كل أطواره حبا للذات الإلهية تارة في مظاهرها المقيدة ، وصورها المعينة ، وتارة أخرى في ذاتها المطلقة عن كل قيد أو تعين ، كل أولئك يقضي بأن يكون الحب في مذهب ابن الفارض سابقا على المعرفة ، وبأن تكون المعرفة نتيجة له ، ولا غرو فقد انتهى الحب بابن الفارض إلى مشاهدة الذات الإلهية مشاهدة عينية تكشفت له فيها أسرارها وحقائقها ، مما ينبني عليه أن تكون المعرفة مشروطة بالمحبة : إذ لو لم يحب ابن الفارض الله هذا الحب ، ولو لم يتهيأ له هذا التقلب في أطواره ، لما وفق إلى معرفة الذات ، وهذا يعني أن الإنسان قد يحب قبل أن يعرف الذي يحبه ، وهو محال ، وغير ملائم للمنطق السليم ، وإذا سلمنا جدلا بأن ابن الفارض قد أحب الله قبل أن يعرفه ، فقد لزم أن نفسر هذه القضية تفسيرا ملائما لطبيعة الأشياء من ناحية ، ومتمشيا مع منطق العاطفة التي سيطرت على نفس ابن الفارض سيطرة تختلف قوة وضعفا وتتفاوت صفاء وكدورة باختلاف أطوار حبه ، وتفاوت

درجاتها من الروحانية من ناحية أخرى ، فالحق أن ابن الفارض أحب الله فعرفه ، وعرفه فأحبه ، ولكن كلا من الحبين ، وكلا من المعرفتين ، ولم يكونا متساويين : فحبه السابق على معرفته كان حيا ناقصا مشوبا بشوائب الأثرة ، مقيدا بحسن الصور ، ولا كذلك حبه الناشئ عن معرفته بالله فقد كان حبا كاملا صافيا موجها إلى جمال الذات المطلق ، وبعبارة أخرى يمكن أن يقال إن معرفة ابن الفارض لله في مظاهره وآثاره الكونية كانت سبيله إلى حبه إياه ، وكان حبه هذا سبيله إلى معرفة الله في ذاته معرفة يقينية مباشرة سقطت فيها الوسائل والوسائط . وجماع القول هنا أننا لا نستطيع أن نقرر بصفة عامة أن المعرفة متقدمة على المحبة في مذهب ابن الفارض على نحو ما كانته عن الغزالي وابن قيم ، وإنما هي متقدمة عليها من وجه ومتأخرة عنها من وجه آخر ، وأن المعرفة التي تأتي بعد المحبة أروع وأكمل من المعرفة التي تتقدم عليها : لأن هذه معرفة تتخذ موضوعها من أشياء معينة متكثرة ، وتلك معرفة بشئ مطلق واحد قد انطوى فيه كل شئ .

٤ - وإذا كانت تلك هي الصلة الوثيقة بين الحب والمعرفة ، وكان الفناء بمثابة القنطرة التي ينبغي أن يعبر عليها المحب والعارف على السواء ، فماذا عسانا أن نجد من أوجه الشبه بين الحب والمعرفة في معناهما وطبيعتهما وخصائصهما ؟ الحق أننا لا نكاد نعثر لابن الفارض على أبيات يمكن أن يقال عنها صراحة إنها تعطينا تعريفا أو تعريفات من شأنها أن تشرح معنى الحب ومعنى المعرفة ، وتبين عن حقيقة كل منهما عند هذا الشاعر الصوفي ، ولكننا واجدون مع ذلك أبياتا يصف فيها حبه ،

ويعرض ألوان المعارف التي انكشفت لعين قلبه في كل طور من أطوار هذا الحب ، و " التائية الكبرى " وغيرها من القصائد القصار فياضة بالأبيات التي من هذا القبيل ، والتي ينطق كل بيت منها بأن الحب والمعرفة يشتركان في معنى واحد ، ويحصلان عن طريق واحد : فكل منهما حال وهبي ، وكل منهما يمتاز بأنه من الوجدانيات التي يستشعرها الإنسان فيما بينه وبين نفسه ، وليس من العقليات التي يعمل العقل فيها عملا من أعماله ، أو يؤدي فيها وظيفة من وظائفه ، أو يصل فيها إلى نتيجة من نتائجه ، بل إن العقل سواء في الحب أم في المعرفة معطل تعطيلا فيا تاما عن القيام بأي مما يقوم به في الأحوال العادية التي ليست من أحوال الصوفية في شئ : فابن الفارض حين يقول مثلا في هذا البيت :

هو الحب فاسلم بالحشا ما الهوى سهل فما اختاره مضى به وله عقل

إنما يظهرنا على مبلغ ما في الحب من تكاليف ، وعلى أن الشرط الذي ينبغي أن يتوافر في المحب هو أن يطلق نفسه من قيود العقل ، ومثل المعرفة في هذا كمثل الحب : فهي لا تأتي من طريق العقل ، وليس لإرادة الإنسان أو قدرته فيها مدخل ، ولكنها تأتي عن طريق القلب ، وإرادة الله وقدرته هما اللتان تقذفانها في هذا القلب ، وتجعلان العارف يحيط بكل شئ على قدر ما تهيا له من صفاء النفس ، وكشف حجاب الحس ، والتحرر من سلطان العقل : فالمعرفة من هذه الناحية لدنية لا عمل فيها للحس وما يصطنعه أصحاب الحس من منهج تجريبي قوامه المشاهدة الخارجية والتجربة ، ولا أثر فيها للعقل وما يؤثره أهله من منهج عقلي قوامه البحث

النظري والاستدلال المنطقي ، وليس أدل على ذلك من الأبيات ١٦٥ - ١٦٤ من " التائية الكبرى " ، وهي الابيات التي يصف فيها الشاعر حبه ، ويبين انقطاع الصلة بينه وبين الكسب ، وقد أثبتنا بعضها آنفا ، ومن القصة التي يرويها سبط بن الفارض ، ويذكر فيها أن برهان الدين الجعبري جاء ذات مرة إلى جده (ابن الفارض) وسأله : هل أحاط أحد بالله علما؟ فأجابه بقوله : نعم ، إذا حيطهم بحيطون (كذا) ، فإن صحت هذه القصة كانت دليلا على طبيعة مذهب الن الفارض في المعرفة ، وهي أنها ممكنة ، ولكن بشرط أن تكون متوقفة على إرادة الله : فهو الذي يمنحها لمن يشاء ، ويقبضها عمن يشاء ، وأن ابن الفارض هنا لا يكاد يتجاوز ما عبر عنه ذو النون المصري حين سئل : بم عرفت ربك ؟ فقال : " عرفت ربي بربي ، ولولا ربي ما عرفت ربي " .

٥ - على أن ابن الفارض قد فصل مذهبه في المعرفة ، وذلك في قسم كبير من " تائيتة الكبرى " تحدث فيه إلى مريد حقيقي أو وهمي ، وأزهره على مبلغ الفرق بين المعرفة الإلهامية التي تحصل في مقام الجمع ، وبين المعرفة الحسية التي تحصل في مقام التفرقة ، وانتهى إلى أن النفس هي مصدر المعرفة ، إذ قد طبعت فيها هذه المعرفة منذ الأزل ، ، أي قبل أن تتصل الروح بالبدن هذا الاتصال الذي أفسد عليها حياتها الأولى ، وحال بينها وبين معرفتها الإلهامية المطبوعة فيها ، وجعلها عاجزة عن تجاوز المعرفة الحسية إلى هذه المعرفة الإلهامية التي هي أروع منها وأمتع ، وأدق وأنفع ، ويدل على هذا كله قوله مخاطبا ذلك المريد :

فإن كنت مني فانح جمعي وامح فرق صدعى ولا تجنح لجنح الطبيعة ٦٥١

فدونكها آيات إلهام حكمة ق صدعى ولا تجنح لجنح الطبيعة ٦٥١

ولكي يستدل ابن الفارض على أن النفس مصدر المعرفة ، وأن المعرفة مطبوعة فيها مذ كانت روحا تحيا في العالم العلوي ، نراه يضرب طائفة من الأمثال التي تؤيد مذهبه : كأن يمثل بأبي زبد السروجي بطل مقامات الحريري ، وما كان له من تلوينات في هذه المقامات ، وبصورة الإنسان في المرآة ، وصدى الصوت ، والرؤى التي يراها الإنسان في النوم ، وصور خيال الظل التي يجريها المشعبذ على الستار ، ولعل أهم هذه الأمثلة جميعا اثنان : أحدهما مثال الرؤى وما يعرض للنائم في نومه من المعارف ، والآخر مثال ستار خيال الظل وما يحركه المشعبذ عليه من صور وأشكال : فالإنسان عندما يقف جسمه عن الحركة ، وحواسه عن الإدراك ، وذلك في حال النوم ، لا تنقطع عنه كل معرفة ، بل هو تلقى إليه معارف وعلوم ارقى من تلك التي يحصل عليها وهو في حال اليقظة عن طريق الحواس ، وإن هذه المعارف والعلوم لا تتصل بالأحداث الماضية والحاضرة فحسب ، بل هي تتصل كذلك ، وفوق ذلك ، بالأحداث المستقبلة ، وإن الإنسان ليخيل له عندئذ أنه قد استمد معارف وعلومه من غيره ، والحقيقة أنه استمدها من نفسه ، وألقاها إلى نفسه : فالنفس هنا تتجلى للفاني أو النائم في صورة عالم يهديها إلى فهم المعاني الغريبة ، وهذا التجلي راجع إلى تجرد النفس عن مظهر البشرية (البدن) ، واشتغالها بعالمها العلوي الذي ألهمها فيه الله كل علم ، وطبع على صفحتها كل معرفة . واسمع إلى ابن الفارض حيث يقول :

وقـــل لي مـــن القـــى علومـــه   وقــد ركــدت منــك الحــواس بغفــوة

وما كنت تدري قبل يومك ما جرى   بأمــسك أو مــا ســوف يجــرى بغــدرة

فأصبحت ذا علـم بأخبـار مـن مـضى   وأسرار مـــن يـــأتي مـــدلا بخـــبرة

اتحــسب ماجــارك في ســنة الكــرى   ســـواك بـــأنواع العلـــوم الجليلـــة

ومـا هـي إلا الـنفس عنـد اشـتغالها   بعالمهـــا عـــن مظهـــر البـــشرية

تجلـت لهـا بالغيـب في شـكل عـالم   هـــداها إلى فهـــم المعـــاني الغريبـــة

وقـد طبعـت فيهـا العلـوم واعلنـت   بأســـمائها قـــدما بـــوحي الأبـــوة

وبالعلم مـن فـرق الـسوى مـا تنعمـت   ولكـــن بمـــا أملـــت عليهـــا تملـــت

ولــو أنهــا قبــل المنــام تجــردت   لـــشاهدتها مـــثلي بعـــين صـــحيحة

وتجريـــدها العـــادي أثبـــت أولا   تجردهــا الثــاني المعــادي فأثبــت٦٧٣

لترى أن تجرد النفس عن غواشي البشرية في حال اليقظة ، وتعطيل البدن ، وركود الحواس في حال النوم ، هما سبيل هذه النفس إلى المعرفة والشهود ، كما أن التحقق بهذا كله يثبت تجرد النفس عن البدن في الحياة الاخرى (المعاد) ، حيث تعود النفس إلى ما كانت عليه من صفاء ونقاء ، ويعود ما كان لها من علوم طبعت فيها من قديم . وقد انتهى شاعرنا من هذا إلى أن وراء العلم النقلي علما آخر هو أرقى منه واسمى ، وأدق وأجل من أن تتناوله العقول ، لأنه علم إلهامي لا تكتسبه النفس من التعلم ، ولا يلم به الإنسان عن طريق العقل والدرس ، وإنما هو آت من أعماق النفس التي تستمده من ذات نفسها ، وتفيضه على ذات نفسها . وقد أشار الشاعر إلى ذلك فيما خاطب به مريده وهو قوله :

ولا تــك ممــن طيــشته دروســه   بحيـث اسـتقلت عقلـه واسـتقرت ٦٧٤

فــثم وراء النقــل علــم يــدق عــن   مــدارك غايــات العقــول الــسليمة

تلقيتــه منــي وعنــي أخذتــه   ونفـسي كانـت مـن عطـائي ممـدتي ٦٧٦

وابن الفارض في اعتباره الـنفس مـصدرا للمعرفـة ، وفـيما يـصفه مـن حالها وقد تجردت سواء في اليقظة أم في المنام ، يشبه من وجوه كثيرة ابـن عربي حين يقول إن الإنسان إذا نام ، أو إذا كان صاحب غيبة أو فناء أو قوة إدراك ، لا تحجبه المحسوسات في يقظته ، فيدرك هذا الإنسان في يقظته مـا يدركـه النـائم في نومـه : وذلـك لأن اللطيفـة الإنـسانية تنتقـل بقواهـا مـن حـضرة المحـسوسات إلى حـضرة الخيـال المتـصل بهـا الـذي محلـه مقـدم الدماغ ، فيفيض عليهـا ذلـك الـروح الموكـل بالـصور مـن الخيـال المنفـصل عن الإذن الإلهي ما يشاء الحق أن يريـه لهـذا النـائم أو الغائـب أو الفـاني من إدراك المعاني متجسدة ، ونحو ذلك ، فيرى الحق في صوره . وهـو فـيما يقرره من أن المعرفة ليست كسبية ، بل هي مطبوعة في النفس منذ القـدم ، وأن اتصالها بالبدن هو الـذي أفـسد عليهـا معرفتهـا القديمـة ، إنمـا يـصور نظرية من نظريات أفلاطـون في صـورة لا تكـاد تختلـف عـن الـصيغة التـي وضعها فيها ذلك الفيلـسوف اليونـاني ، إلا في أن هـذه نـثر مرسـل مـصبوغ بصبغة الشعر ، وتلك نظم موزون مقفـى ملـون بلـون مـن ألـوان الفلـسفة الأفلاطونية ، وأعنى بهـذه النظريـة نظريـة العلـم والتـذكر التـي قـال فيهـا أفلاطون إن من المستطاع أن يستخرج من نفس الإنـسان معـارف لم يلقنهـا من أحد ، واستدل على ذلك بإجراء تجربة على فتى لم يكن لـه سـابق علـن بالهندسة ، ولكنه مع ذلك يجيب عـلى مـا يوجـه إليـه مـن الاسـئلة إجابـة

محكمة ، بحيث يمكن أن يستخرج من نفسه مبادئ هذا العلم ، الأمر الذي رتب عليه أفلاطون هذه النتيجة التي تلخص نظريته ، وهي أنه لابد أن تكون النفس قد منحت معارفها في حياة سابقة على حياتها الراهنة (مينون ، ص ٨٠ - ٨٦) .

وقد افاض ابن الفارض في اثبات أن النفس هي مصدر كل علم ، فضرب المثال الآخر الذي قلنا عنه فيما سبق إنه أحد المثالين اللذين يعدان أهم الأمثلة التي استعان بها الشاعر على تأييد مذهبه ، وأعني بهذا المثال مثال النشعبذ ، وتشبيه النفس فيما يصدر عنها من معرفة ، بهذا المشعبذ فيما يصدر عنه من أفعال . وإليك ما قاله ابن الفارض في هذا الصدد موجها فيه الخطاب إلى مريده :

ولاتك باللاهي عن اللهو جملة	فهزل الملاهي جد نفس مجدة ٦٧٧
وإياك والإعراض عن كل صورة	مموهة أو حالة مستحيلة
فطيف خيال الظل يهدي إليك في	كرى اللهو ما عنه الستائر شقت
ترى صور الأشياء تنجلي عليك من	وراء حجاب اللبس في كل خلعة
تجمعت الأضداد فيها لحكمة	فأشكالها تبدو على كل هيئة ٦٨١

حتى يقول :

وكل الذي شاهدته فعل واحد	بمفرده لكن بحجب الأكنه ٧٠١
إذا مت أزال الستر لم تر غيره	ولم يبق بالأشكال إشكال ريبة

وحققت عند الكشف أن بنورها هـ ـتديت أفعال بالـد جنة

كـذا كنت ما بيني وبيني مسبلا حجاب التباس النفس في نور ظلمة ٧٠٧

إلى أن يقول :

فأشكاله كانت مظاهر فعله بستر تلاشت إذ تجلى وولت ٧١١

وكانت له بالفعل نفسي شبيهة وحسي كالأشكال واللبس سترتي

فلما رفعت الستر عني كرفعه بحيث يدت لي النفس من غير حجبة

وقد طلعت شمس الشهود فاشرق الـ وجود وحلت بي عقود أخيه

قتلت غلام النفس بين إقامتي الـ جدار لأحكام وخرق سفيني ٧١٥

فواضح من هذه الأبيات التي يسودها أسلوب ابن الفارض في التلويح والتمثيل أن النفس هنا تشبه المشعبذ ، والبدن يشبه الستار والصور والاشكال التي تظهر على هذا الستار هي الأشياء المدركة بالحس ، وواضح أيضا أن تلاشي الحس عند تجلي النفس كتلاشى الصور والأشكال عند ظهور فاعلها وهو المشعبذ المختفي وراء ستار خيال الظل ، وأن إسبال حجاب البدن دون النفس كإسبال ستار خيال الظل دون المشعبذ ، وواضح بعد هذا كله أن الفكرة الجوهرية التي يدور عليها هذا التشبيه هي أن مثل النفس فيما يحجبها ويحجب عنها علمها القديم ، وفيما يصدر عنها من علوم مختلفة تثبت أنها هي المنبع الوحيد لهذه العلوم ، كمثل المشعبذ فيما يختفي وراءه من ستار ، وفيما يصدر عنه من صور مختلفة وأشكال متنوعة تثبت أنه فاعلها ومصدرها ، ناهيك بأنه كما يبدو

المشعبذ للعيان عند إزالة الستار ، ويعرف أنه مصدر الصور والأشكال ، فكذلك تبدو النفس عند زوال حجاب البدن ، ويتبين أنها المعين الفياض بكل العلوم والمعارف . وهنا يكشف ابن الفارض مرة أخرى عن العلاقة الوثيقة بين الفناء والمعرفة من ناحية ويظهرنا على مبلغ براعته في استغلال قصص القرآن واصطناعه ألفاظ هذا القصص وعباراته في الرمز إلى ما هو بصدد تصويره من مذهب في المعرفة من ناحية أخرى . ويكفي أن نستعيد هذا البيت :

قتلت غلام النفس بين إقامتي الـ جدار لأحكام وخرق سفيني ٧١٥

لندل به على أن ما ورد فيه ليس إلا رمزا وتلويحات استقاها الشاعر من سورة الكهف : فقتل غلام النفس هنا كناية عن فنائها ، وإقامة الجدار لأحكامه رمز على قيام ابن الفارض بفرائض الشرع ، ومحافظة على أحكامه وتكاليفه ، وخرق سفينته إشارة إلى ما أخذ به بدنه من رياضات عنيفة ومجاهدات قوية .

وهنا ملاحظة لابد من تسجيلها : ذلك أن ابن الفارض لم يكن من هؤلاء الصوفية الذين يزعمون أنهم وصلوا إلى الحق ، واتصلوا بالذات العلية ، فتحرروا من قيود الشرع ، وسقطت عنهم تكاليفه ، ولكنه كان مع منزلته من الفناء عن نفسه والبقاء في ذات محبوبته ، وشعوره بالاتحاد معها ، معنيا بالأحكام الشرعية محافظا عليها : فهو من هذه الناحية قد جمع بين الحقيقة والشريعة .

وخلاصة هذا كله هي أن معرفة ابن الفارض سواء في طبيعتها ومصدرها وموضوعها وأداتها ، مختلفة كل الاختلاف عن العلم بمعناها المتواضع عليه الآن سواء ما كان من ذلك العلم معتمدا على المشاهدة الخارجية والتجربة ، أو على النقل والعقل . ولعل ابن الفارض كان في هذا شبيها بأفلوطين إذ انتهى إلى تقرير أن ما يرى وما يسمع في شهود الله ليس عقلنا ، ولكنه شئ سابق على عقلنا ، وأسمى من عقلنا ... فإن من يرى على هذا النحو لا يتصور شيئين ، ولا يميز بينهما ، بل إنه يتغير ويعطل عن أن يكون هو عين نفسه ، بحيث لا يبقى له شئ من نفسه ، فهو من حيث هو مستغرق في الله ، فقد أصبح والله شيئا واحدا : فأداة المعرفة عند كل من ابن الفارض وأفلوطين ليست العقل ، والحال الموحدة عند كليهما هي خير ما يوصل إلى إدراك الحقيقة ، وشهود الله شهودا مباشرا . ومعنى هذا بعبارة أخرى هو أن معرفة ابن الفارض معرفة وجدانية وصل إليها كشفا وذوقا ، لا عقلا ونقلا ، وذلك ما يمكن أن يعبر عنه في لغة علم النفس الحديث بقول وليم جيمس إن شعور الإنسان العادي اليقظ ، أو شعوره العقلي (Rational Consciousncss) ، ليس غير ضرب من ضروب الشعور ، وأن هناك ضروبا أخرى لهذا الشعور كامنة في غياهب النفس ، ومختلفة كل الاختلاف عن الضرب الأول .

٦ - رأيت من خلال حديثنا عن طبيعة الحب وطبيعة المعرفة ، ومما انتهينا إليه في هذا الحديث أن الحب والمعرفة عند ابن الفارض حالتان نفسيتان يرتكز كل منهما على الشعور الباطن دون الحس الظاهر أو العقل المفكر . وليس من شك في أن القدر الذي أوردناه في هذه المسألة يكفي

لأن نستخلص منه أن اتفاق الحب والمعرفة على الوجه الذي تبينت في مذهب شاعرنا يؤدي بنا إلى إدراك اتفاق آخر في الاداة التي يعتمد عليها كل من الحب والمعرفة ، والتي هي للحب بمثابة مركز للعاطفة والشعور وللمعرفة بمثابة محل للكشف والمشاهدة : هذه الأداة التي يشترك فيها الحب والمعرفة ليست حاسة من الحواس الظاهرة ، ولا عقلا يعتمد على الدليل والبرهان ، ولكنها شئ آخر أسمى وأرقى من الحواس الظاهرة والعقل، يسميه الغزال بالنور أو القلب أو العقل ، ويسميه ابن الفارض مرة بالنفس ، وتارة بالطور وطورا بالقلب إلى غير ذلك من الاسماء التي - وإن اختلفت في ظاهرها - تدل على شئ واحد .

على أنه يحسن بنا قبل أن نكشف عن حقيقة النفس أو الروح عند ابن الفارض أن نقدم لهذا الموضوع بمقدمة موجزة نلم فيها بفكرة عامة عن هذه المسألة عند المسلمين لعلها تعيننا على فهم ما ذهب إليه ابن الفارض فيها وموازنته بما ذهب إليه غيره : فقد اختلف الناس منذ زمن بعيد في النفس والروح : أشئ واحد هما ، أم شيئان مختلفان ؟ فابن زين يروي عن أكثر العلماء ما يفيد أنهما شئ واحد : فقد ورد في الاخبار إطلاق كل منهما على الآخر . ويقول ابن حبيب إنهما شيئان : فالروح هو النفس المتردد في الإنسان والنفس أمر غير ذلك ، لها يدان ورجلان ورأس وعينان ، وهي التي تلتذ وتتألم ، وتفرح وتحزن ، وإنها هي التي تتوفي في المنام ، وتخرج وتسرح ، وترى الرؤيا ، ويبقى الجسد دونها بالروح فقط لا يلتذ ولا يفرح حتى تعود . وكان بعضهم يرى أن النفس طينية نارية ، والروح نورية روحانية ، وبعضهم الآخر يقول إن النفس ناسوتية والروح لاهوتية وقد

روي عن ابن عباس أنه قال : إن في ابن آدم نفسا وروحا بينهما مثل شعاع الشمس ، فالنفس هي التي بها العقل والتمييز ، والروح هي التي بها النفس والتحرك ، فيتوفيان عند الموت ، وتتوفى النفس وحدها عند النوم .

وأما رأي الصوفية في النفس والروح فالقشيري يحدثنا بأن المراد بالنفس عند القوم هو ما كان معلولا من أوصاف العبد ، وما كان مذموما من أخلاقه وأفعاله (كالمعاصي والمخالفات والأخلاق الدنيئة التي إذا عالجها بالمنازلة والمجاهدة انتفت عنه) . ويذكر القشيري فوق هذا الكلام الذي يحدد معناها بمتعلقاتها ، تعريفا يمكننا أن نقول عنه إنه يحدد معناها بجوهرها وطبيعتها الحقيقية : فمن المحتمل عنده أن تكون النفس لطيفة مودعة في هذا القلب الذي هو الجسم وأنها محل للأخلاق المذمومة ، كما أن الروح لطيفة في هذا اللقب ، وأنها محل للأخلاق المحمودة ، وإن جملة الروح والنفس والبدن تكون إنسانا واحدا بعضه مسخر لبعض ويلاحظ القشيري إلى جانب هذا أن حقيقة الروح مختلف فيها عند المحققين من أهل السنة : منهم من يقول إنها الحياة ، ومنهم من يقول إن الأرواح أعيان لطيفة مودعة في القوالب ، وإن الحياة تسرى في القوالب ما دامت الأرواح مودعة فيها . وللأرواح ترق في حال النوم ومفارقة للأبدان ثم رجوع إليها . والإنسان روح وجسد . ومن قال إن الأرواح قديمة غير مخلوقة فقد أخطأ خطأ عظيما .

فإذا نظرنا إلى هذه الآراء المختلفة نظرة فاحصة رأينا أنها تتفق من وجه وتختلف من وجه ، ورأينا أيضا أن الاختلاف بينهما قوي إلى حد

يؤدي إلى الخلـط والاضـطراب اللـذين يؤديـان بـدورهما إلى أن نقـف مـن المسألة موقف الحيرة والتردد ، لا ندري هل الـروح هـي الـنفس أو غيرهـا ، وهل يصح أن نطلق خـصائص الـروح عـلى الـنفس أو لا يـصح ، فأمـا وجـه الإتفاق فيظهر لك إذا لاحظت ان ابـن حبيـب وابـن عبـاس والمحققـين مـن أهل السنة مجمعون على أن الروح هي الحياة أو مـصدر الحيـاة عـلى أقـل تقديرا ، وأما وجه الخلاف فيبدو من أن ابن حبيـب ينظـر إلى الـنفس عـلى أنها شهوية تلتذ وتتألم ، وابن عباس ينظر إليها على أنها عاقلة تـدرك وتميـز وتحكم . ولا يقف الاتفاق والخلاف عند هذا الحد ، بل هو يتجاوزه إلى شئ آخر : فابن حبيب وابن عباس متفقان على أن النفس وحدها تتوفى في حال النوم ، ويخالفهما في ذلك بعض المحققين من أهل السنة إذ يـذهبون إلى أن الروح التي تفارق البدن وتترقى في حال النوم .

ومهما يكن من أمر هذا الخلاف، وما ينشأ عنه من الخلط والاضطراب في تحديد طبيعة النفس والروح ، فقد خلصنا الجرجاني من الوقـوع في مثـل هذا الخلط والاضطراب، وذلك في تعريفاتـه حيـث كـشف لنـا عـن حقيقـة النفس والروح فقال عن الأولى مـا نـصه: "هـي الجـوهر البخـاري اللطيـف الحامــل لقــوة الحيــاة والحــس والحركــة الإراديــة . وســماها الحكــيم الروح " الحيوانية. فهو جوهر مشرَف للبدن ، وعند الموت ينقطـع ضـوؤه عن ظاهر البدن وباطنه ، وأما في وقت النوم فينقطع عن ظاهر البدن دون باطنه ، فثبت أن النوم والموت من جنس واحـد ، لأن المـوت هـو الانقطـاع الناقص. وثبت أن القادر الحكيم دبر تعلق جوهر النفس بالبدن على ثلاثـة أضرب الأول إن بلغ ضوء النفس إلى جميع أجزاء البدن ظاهره وباطنه فهـو

اليقظة ، وإن انقطع ضوؤها عن ظاهره دون باطنه فهو النـوم ، أو بالكليـة فهو الموت". وقال عن الثانية ما نصه: "الروح الإنساني هـو اللطيفـة العالمـة المدركة من الإنسان الراكبة على الروح الحيواني ، نازل من عالم الأمر ، تعجـز العقول عن إدراك كهنة ، وذلك الروح قد يكون مجردا وقد يكون منطقبا في البدن ". ونحن نستطيع أن نرد تعريفي الجرجاني للـنفس والـروح إلى أصـل واحد: ذلك أن في الإنسان جوهرا لطيفا واحدا هو من أمر الـلـه ، قد يكـون مجردا عن البدن ، وقد يكون متصلا به مختـصا بتـدبيره ، فـإذا كـان مجـردا عنه سمي " روحا " وإذا كان متصلا به مختصا بتـدبيره مـن حيـث انبعـاث الحياة والحس والحركة فيه سـمي " نفـسا " أو " روحـا حيوانيـا " وبعبـارة أخرى يمكننا القول بأن النفس هى ما تعلقت به أوصاف البـشرية ، بخـلاف الروح فإنها منزهة عن هذه الأوصاف مجرد عنها.

٧ - فلو أردنا أن نتعرف وجه الحق في استعمال ابـن الفـارض للفظتـي النفس والروح ، وأن نقف من تضاعيف شعره على حقيقة مذهبـه في كـل منهما : لرأينا أن هاتين اللفظتـين شـائعتان شـيوعا قويـا ظـاهرا في ديوانـه ، سواء ما كان من هذا الديوان قصائد غزلية ذات وجهين ، أو قصائد صـوفية بحتـة . وإن ابـن الفـارض ليـستعمل لفظـي الـنفس والـروح وغـيرهما مـن الألفـاظ التـي تجـرى مجـراهما كالـسر والقلـب سـواء في تحليلـه لأطـوار الحب ووصفه لأحواله في كل طور ، أم في تصويره لما انكشف لـه وفـتح بـه عليه من المعارف والحقائق في المشاهدة . ولعل أول ما يلاحظ عليـه أنـه في استعماله لهـذه الألفـاظ عامـة ، وللفظتـي الـنفس والـروح خاصـة لم يكـن متحريا للدقة والوضـوح إلى الحـد الـذي نـتمكن معـه مـن معرفـة حقيقـة

مذهبه في هذه المسألة الدقيقة : هل النفس عنده هي الروح أو هي غيرها . فنحن نقرأ بعض شعره فنحن إحساسا قويا أن النفس هي الروح والروح هي النفس ، وذلك لأن الشاعر يستعمل اللفظين على وجه يشعرنا بأنهما مترادفان ، ونقرأ مع ذلك البعض الآخر من شعره فنتبين في وضوح وجلاء أن النفس غير الروح والروح غير النفس ، إذ حديث الشاعر في هذا الشطر الثاني من شعره ينتهي بنا إلى أن النفس بشرية مشوبة بشوائب الحس ورغبات البدن ، على عكس الروح فإنها إلهية من عالم الأمر : النفس أقل مرتبة في حبها ومعرفتها من الروح ، لأن النفس محل الشهوات والحظوظ الباطلة والأماني الحائلة ، أما الروح فإنها محل الحب الإلهي الذي منحته في عالم الأمر ، ومركز الشهود الذي يدرك فيه الذات الإلهية إدراكا عينيا لا مدخل للحواس فيه . ومن هنا يكون لابن الفارض مذهبان متناقضان في مسألة هامة كهذه : يرى في أحدهما أن النفس لا تختلف عن الروح ، ويرى في الآخر أنها تختلف ولنضرب لهذا بعض الأمثلة من شعره . قال ابن الفارض :

مالي سوى روحي وباذل نفسه ... في حب من يهواه ليس بمسرف

وقال :

٥٨ ومن يتحرش بالجمال إلى الردى ... رأى نفسه من أنفس العيش ردت

ونفس ترى في الحب ألا ترى عنا ... متى ما تصدن للصبابة صدت

٦٠ وما ظفرت بالود روح مراحه ... ولا بالولا نفس صفا العيش ودت

وقال في وصف حبه في طوره الذي لم يكن قد خلصت فيه نفسه من رغبتها وميولها التي هي دائما الحجاب الكثيف الذي يحول بين الحب وبين محبوبته :

١١٤ أغار عليها أن أهيم بحبها وأعرف مقداري فأنكر غيرتي

١١٥ فتختلس الروح ارتياحا لها وما أبرى نفسي من توهم مسنية

فهذه الأبيات تكفي لإظهارنا على أحد المذهبين اللذين يذهبهما ابن الفارض في فهمه للنفس والروح ، وفي استعماله لهما على أنهما مترادفتان . على أننا نستطيع أن نلتمس لابن الفارض عذرا إذ يستعمل النفس والروح على هذا الوجه من الترادف في شعره الإنساني الإلهي ، وقد ضربنا له مثلا بالبيت الأول من الأبيات التي أثبتناها آنفا ولا نستطيع بحال ما أن نلتمس له هذا العذر في الأبيات التي استقيناها من " تائية الكبرى " واثبتناها بعد ذلك : فقد كان ابن الفارض في القسم الأول من شعره ، وهو الإنساني الإلهي ، شاعرا أكثر مما كان صوفيا ، فهو يقصدا إلى انسجامه وتناغمه مع غيره من الألفاظ أكثر مما يعني بما ينطوي عليه هذا اللفظ من المعنى أو بما يؤدي إليه من التناقض . وأكبر الظن أن هذا راجع إلى تغلغا العاطفة من نفسه إلى حد بلغ من قوته وعنفه أن أصبح هم الرجل كله محصورا في أن يصور لنا حبه تصويرا قويا يتناسب مع ما لهذا الحب على نفسه من سلطان ، وأن يعبر عن عاطفته هذا التعبير الصادق الصارخ في الألفاظ التي تكفي لأن تعينه على هذا التعبير . على أننا إن التمسنا له العذر في هذا القسم من شعره فلن نستطيع مع ذلك أن نلتمس له هذا العذر في

القسم الصوفي الخالص الذي يتألف من قصيدتيه العظيمتين " التائية الكبرى " و " الخمرية " ، فالشاعر في هاتين القصيدتين صوفي بكل معاني الكلمة ، ينزع في بعض الأحيان منزعا يمكن أن ينعت بأنه فلسفي على الرغم من شاعريته التي تغلب عليه في كثير من مواطنهما ، فخليق به - وهو ما هو من صوفية في هاتين القصيدتين بصفة خاصة - أن يكون أكثر دقة في استعمال الاصطلاحات بحيث لا يؤدي استعماله لها إلى شي من الخلط بينها .

ولعل معترضا يعترض فيقول : إن ابن القارض كان صاحب ذوق ووجد لا صاحب عقل وتفكير ، وإن " التائية الكبرى " خاصة ليست إلا ثمرة مباشرة من ثمرات الغيبة التي اختلفت على نفسه بين حين وحين : فكيف إذن تطلب إلى رجل هذه حاله أن يعمد إلى الدقة فيما يصدر عنه من الآثار ؟ غير أننا ندفع هذا الاعتراض بالحقيقة الواقعة وهي أن في " التائية الكبرى " نفسها أبياتا صدرت عن الشاعر في حال الغيبة وكانت متأثرة كغيرها ذوقه ووجده ، وهي مع ذلك غاية في دقة الألفاظ والعبارات ، ولقد يسرف الشاعر في هذه الدقة إلى الحد الذي يرجح لدينا كفة العقل المفكر الواعي بما يفكر فيه على كفة الغيبة أو اللاوعي ، ودليلنا على صحة ما نذهب إليه الأبيات التي يتحدث فيها عن النفس والروح فيفرق بينهما في وضوح تفرقة تكشف عن وطبيعة كل منهما وتبين أن ما يطلق عليه اسم النفس مختلف عما يطلق عليه اسم الروح . وإذن فكيف يكون ابن الفارض دقيقا وغير دقيق في قصيدة واحدة خضعت فيها نفسه لحالة

نفسية واحدة ؟ وكيف يفرق مرة بين النفس والروح ، ولا يفرق بينهما مـرة أخرى ؟

٨ - على اننا إذا استثنينا من شعر ابن الفارض الأبيات التـي يقـع فيهـا الخلط بين النفس والروح ، رأينا أن القاعدة العامة عنده هي التفرقة بينهما ، وانه في إثبات هذه التفرقة إنما يتمشى مـع كثـير مـن المحققـين مـن أهـل السنة الـذين أشـار إلـيهم القـشيري في رسـالته ، وأوجزنـا لـك مـذهبهم في تقدمتنا لهذا الموضوع الذي نحن بصدده . وإن مثله في هذا التفريق كمثـل هؤلاء المحققين في موافقهم لتعاليم القرآن الكريم الذي فاضت آياتـه بـذكر النفس والروح ، وبإثبات الخصائص التي تميز إحداهما من الأخـرى : فـنحن نلاحظ أن ابن الفارض حين يتحدث عن النفس في هذه المرة إنما يصورها لنا من حيث هي شهوية ، ومتلبسة بالحس ، ومصدر للشر ، لا يمكن أن تتحـد مع اللـه إلا إذا خلصت من شهواتها ، وهتكت حجاب حواسها . واسمع إلى الشاعر وقد تحدث على لسان المحبوبة التي تظهر له أن حبـه لهـا نـاقص لم يكمل بعد لأن بعض أوصافه النفسية ما زالت عالقة به وهـي تريـده فانيـا عن هذه الأوصاف النفسية :

وقـد آن أن أبـدي هـواك ومـن بـه	ضـناك بمـا ينفـي ادعـاك محبتـي
حليـف غـرام أنـت لكـن بنفـسه	وأبقـاك وصـفا منـك بعـض أدلتـي
فلـم تهـوني مـالم تكـن في فانيـا	ولم تفـن مـا لا تجـتلي فيـك صـورتي ٩٩

واسمع إليه أيضا حيث يقول عن النفس :

هـي الـنفس إن ألقـت هواهـا تـضاعفت قواهـا وأعطـت فعلهـا كـل ذرة ٥٩٩

وحيث يقول عن مجاهدته لنفسه وما أثمرته هذه المجاهدة من سمو النفس في عالم المحسوسات :

ولمـا نقلـت الـنفس ملـك أرضـها بحكـم الـشرا منهـا إلى ملـك جنـة ٤٦١

وقـد جاهـدت واستـشهدت في سـبيلها وفـازت ببـشرى بيعهـا حـين أوفـت

سـمت بي لجمعـي عنـد خلـود سـمائها ولم أرض إخـلادي لأرض خليفتـي ٤٦٣

وحيث يصف حاله ، وقد خلصت نفسه من حجاب الحس ، فوصلت إلى مقام الجمع ، وشاهدت الحقيقة التي لم تكن لتنكشف لها قبل ذلك :

وأسـتار لـبس الحـس لمـا كـشفتها وكانـت لهـا أسرار حكمـي أرخمـت ٥٢٥

رفعت حجاب النفس عنها بكشفي الـ ـنقاب فكانـت عـن سـؤالي مجيبتـي

وكنـت جـلا مـرآة ذاتي مـن صـدا صـفاتي ومنـي أحـدقت بأشـعة

وأشـهدتني إيـاي إذ لا سـواي في شـهودي موجـود فيقـضي بزحمـة

وأسـمعنى في ذكـرى اسـمى ذاكـري ونفـسي بنفـي الحـس أصغت وأشـمت

وعـانقتي لا بـالتزام جـوارحي الـ جـوانح لكنـي اعتنفـت هـويتي

وأوجـدتني روحـي وروح تنفـسي يعطـر أنفـاس العبـير المفتـت

وعـن شرك وصـف الحـس كـلي منـزه وفي وقـد وحـدث ذاتي نزهتـي ٥٣٢

ألا ترى إلى هذه الأبيات أنها تدور جميعا حول نقطة واحدة هي أن النفس محجوبة بحسها عن الحقيقة العلية ، وأن حجابيتها هذه أشبه ما تكون بالصدأ الذي يتراكم على صفحة المرآة ، ولكن نفي الحس عن النفس يؤدي بها إلى إدراك الحقيقة الواحدة وشهود الذات التي تسقط معها الكثرة والتعدد ، وهما أثر من آثار التباس النفس بالحس . وعلى هذا النحو من الإبانة عن طبيعة النفس يتحدث ابن الفارض في هذه الأبيات وفي غيرها مما أغفلنا ذكره - إذ لو ذكرنا كل ما صدر عنه في هذه المسألة لتجاوزنا القصد وخرجنا عن الغاية . فهو يذهب إلى أن النفس مركز للصفات الحسية والشهوات البدنية والأخلاق المذمومة مما يحول بينها وبين الاتصال بالحق ، وشعورها باتحادها معه ، وشهودها له .

٩ - فإذا أردنا بعد معرفتنا لطبيعة النفس عند ابن الفارض أن نتعرف طبيعة الروح وكيف كان الشاعر يثبت لكل من الطبيعتين ما يميز إحداهما عن الأخر ، رأينا أن أخص ما تمتاز بع الروح سبقها في الوجود على البدن : فهي موجود في عالم الأمر قبل أن يوجد البدن في عالم الشهادة ، وهي مستقلة في حبها للذات وفي معرفتها لها استقلالا تاما عن البدن وحواسه : إذ هي لا تتخذ موضوع معرفتها من المظاهر الخارجية للذات ، ولكنها تتخذ هذا الموضوع من الذات نفسها . وإليك بعض الأبيات التي يذكر فيها ابن الفارض الروح بما يميزها عن النفس ، أو قل بما يجعلنا نميزها عنها . فقد قال ضمن ما كان يخاطب به محبوبته واصفا حبه لها بأنه قديم قائم بنفسه لا بغيره ، ودليله على ذلك القدم سبق روحه على بدنه في الوجود :

وبعـــد فحـــالي فيـــك قامـــت بنفـــسها   وبينـــي في ســـبق روحـــي بنيتـــي ٤١

وقال في هذا المعنى :

منحــت ولاهــا يــوم ولا يــوم قبــل أن   بــدت عنــد أخــذ العهــد في أوليتــي ١٥٦

فنلـــت ولاهـــا ولابـــسمع ونـــاظر   ولاباكتـــــساب واجـــــتلاب جبلـــــة

وهمــت بهــا في عــالم الأمــر حيــث لا   ظهــور وكانــت نــشوتي قبــل نــشأتي ١٥٨

وقال أيضا :

فخــذ علــم أعــلام الــصفات بظــاهر الــ   ــمعالم مــن نفــس بــذاك عليمــة ٥٣٧

وفهــم أســامي الــذات عنهــا ببــاطن الــ   ـــعوالم مـــن روح بـــذاك مـــشيرة

ظهــور صــفاتي عــن أســامي جــوارحي   مجــازا بهــا للحكــم نفــسي تــسمت

رقــوم علــوم في ســتور هياكــل عــلى   مـــا وراء الحـــس في الـــنفس ورَت

وأســـماء ذاتي عـــن صـــفات جـــوانحي   جـــوازا لأسرار بهـــا الـــروح سرت

رمـــوز كنـــوز عـــن معـــاني إشـــارة   بمكنــون مــا تخفــي الــسرائر جفــت ٥٤٢

فهذه الأبيات الأخيرة على ما فيها من رمز وألغاز تضع أيدينا على فرق جوهري بين النفس والروح :

هو أن موضوع المعرفة النفسية ليس إلا الأشياء المحسوسة التي تظهر عن الذات في العالم الخارجي (البيت ٥٣٧) ، على حين أن موضوع المعرفة الروحية هو أسماء الذات التي ليست في الحقيقة إلا الذات متسمة بصفة كاسم " الرحيم " فإنه ليس شيئا آخر غير ذات اللـه متصفة البيت

٥٣٨ . وهذا دليل واضح على أن موضوع المعرفة الروحية أسمى وأخفى من موضوع المعرفة النفسية .

ومع أن الأبيات التي أوردناها قد تكفي لبيان الفرق بين النفس والروح إلا أن ابن الفارض لا يقف عندها ، بل يتجاوزها إلى أبيات أخرى قد تكون أقوى في مدلولها من التي أثبتناها آنفا . فاسمع إليه حيث يتحدث عن نفسه وقد اتحدت ذاته بذات المحبوبة وصفاتها اتحادا تاما :

وإني وإياها لذات ومن وشي   بها وثني عنها صفات تبدت

فذا مظهر للروح هاد لأفقها   شهودا بدا في صيغة معنوية

وذا مظهر للنفس حاد لرفقها   وجود عدا في صيغة صورية

ومن عرف الأشكال مثلي لم يشبـ   ـه شرك هدى في رفع إشكال شبهة ٤٠٢

والذي يعنينا من هذه الأبيات البيتان الثاني والثالث : فهما من غير شك أدل على التفرقة بين النفس والروح : فالبيت الثالث قد جعل وظيفة النفس محدودة بإدراك الوجود كما يبدو في الصور الحسية بخلاف البيت الثاني ، فإنه حدد وظيفة الروح بجعلها شهودا للمعاني التي ليس لها وجود خارجي يتعين بأين أو كيف أو وضع . ويؤيد هذا كله ما ذكره ابن الفارض في هذا البيت :

فبالنفس أشباح الوجود تنعمت   وبالروح أرواح الشهود تهنت ٤٠٥

وديوان ابن الفارض على ضآلته حافل بالأبيات التي تـدل دلالـة قويـة على الفرق بين النفس والروح . وأكبر الظن أن ما أوردناه من هـذه الأبيـات كاف لإثبات ما نقصد إليه مـن إظهارهـذا الفـرق . وجملـة القـول أن لابـن الفارض مذهبين في النفس والروح ، وأن كـلا مـن هـذين المـذهبين منـاقض للآخر ، كما سبق أن أشرنا إلى ذلك آنفا ، ورأينا أن الاعتذار عن هذا التناقض بأن ابن الفارض كان صاحب ذوق وحال ، ولم يكن صـاحب عقـل وتفكـير لا يصح الاقتناع به . وكل الذي نستطيع أن نعلل به خلط الشاعر واضطرابه في هذه المسألة هو أن منطق الذوق والحال عنده لم يكن سليما في كل الأحيان ، بل هو سليم في بعضها ، ومريض سقيم في بعضها الآخر . ولـو كـان سـليما أبدا لما تحدث ابن الفارض عن الـنفس والـروح بلغـة واحـدة مـرة وبلغتـين مختلفتين مرة أخرى .

ومهما يكن من شئ فإن المذهب الثاني لابن الفارض ، وهو الذي يفرق فيه بين النفس والروح ، أكـثر ملاءمـة لطبيعـة الأشـياء مـن المـذهب الأول الذي يخلط بينهما . وإذن نحن نستطيع أن نقول إن للحب وللمعرفـة عنـد ابن الفارض أداتين مختلفتين : إحـداهما الـنفس ، والأخـرى الـروح : الـنفس منجذبة إلى عالم الطبيعة ، متعلقـة بالـصور الحـسية ، والـروح منجذبـة إلى الذات ، قادرة على الاتصال بها والمشاهدة لها : هذه تحب الحقيقة المجردة وتعرفها ، وتلك تحب مظاهر هذه الحقيقة وتعرفها . وفرق مـا بـين الحبـين والمعرفتين كفرق ما بين الأداتين والموضوعين .

١٠ - ولكن ما عسى أن يكون مكان البـدن مـن الـنفس والـروح ، ومـا ينكشف لهما من المعارف ؟ ينظر ابـن الفـارض إلى البـدن نظـرة لا تقـل في قيمتها النفسية عن نظرة علـماء الـنفس : فالبـدن عنـده محـل الإحـساس ، والروح محل المعاني الخفية المقابلة للمحسوسات الظاهرة ، وبعبـارة أخـرى نقول مع ابن الفارض إن حواس البدن تـدرك بواسـطة الـنفس المتعلقـة بـه صور الأشياء في عالم الشهادة ، على حين أن الروح بفضل تجردها عن البـدن وحواسه تدرك معاني هذه الصور في عالم الغيب . وانظر إلى قولـه في هـذين البيتين :

أروح بقلـــب بالـــصبابة هـــائم وأغـــدو بطـــرف الكابـــة هـــام

فقلبـــي وطـــرفي ذا بمعنـــى جمالهـــا معنـــى وذا مغـــري بلـــين قـــوام

وإلى قوله :

فـالعين تهـوي صـورة الحـسن التـي روحـي بهـا تـصبو إلى معنـى خفـي

لترى أن الإدراك عند شاعرنا على ضربين ، لكل منهما أداة خاصة به :

وإدراك حسي وأداته الحواس الظاهرة كـالعين مـثلا ، وإدراك قلبـي أو روحي وأداته القلب أو الروح . وموضوع الإدراك الحسي كل ما يقـع تحـت الحـس مـن المظـاهر الخارجيـة كالـصور الحـسنة مـثلا ، وموضـوع الإدراك الروحي كل مالايمت إلى الحس بصلة من المعاني . ولا يقف ابن الفارض عند حد التفريق بين الصورة والمعنى ، بل إنه يجاوزه إلى شئ آخـر فيفـرق بـين الـصورة المحـسوسة والـصورة المتخيلـة التـي تقـوم في الـذهن بعـد غيبـة

الصور المحسوسة عن الحس ، فهو يقـول متحـدثا عـن محبوبتـه في صـيغة الجمع :

وما برحوا معنى أراهم معي فإن   نأوا صورة في الذهن قام لهم شكل

وليس ممن شك في أن هـذا البيـت يـذكرنا بمـا ذهـب إليـه فيلـسوف عظيم هـو ابـن سـينا في تحليلـه للـنفس الإنـسانية ، ففـرق بـين المحـسوس والمتخيل قائلا : " الشئ قد يكون محسوسا عندما يشاهد ، ثم يكون متخيلا عند غيبته ، تتمثل صورته في الباطن كزيد الذي أبصرته مثلا إذا غـاب عنـك فتخيلته .. "

١١ - نستخلص من كل ما تقدم أن الإنسان في نظـر ابـن الفـارض روح ونفس وبدن ، وأن لكل من هذه الأشياء الثلاثة ما يميز مـن الآخـر سـواء في موضعه أم في طبيعته . وليس معني هذا أن في الإنـسان جـزءا مـستقلا عـن غـيره مـن الأجـزاء سـمى الـروح واخـتص بـإدراك المعـاني الخفيـة ، وجـزءا ثانيـا مـستقلا سـمي : الـنفس واخـتص بتـدبير البـدن ، وجـزءا ثالثـا سـمي البدن ذا الحواس واختص بإدراك الصور المحسوسة ، بل الإنسان المؤلف من هذه الأجزاء هـو وحـدة بعـضها مـسخر لـبعض ، ومتـصل بعـضها بـبعض . ويستدل ابن الفارض على هذه الوحدة بدليل اسـتده مـن تجاربـه الذوقيـة شـأنه في كـل شـعره الـصوفي ذي النزعـة الفلـسفية : فهـو لا يـرى في تعـدد الحواس واختصاص كل منها بمدركات معينة مطعنا في هذه الوحـدة ، وإنمـا الإنسان عنده وحـدة عـلى الـرغم مـن الإحـساسات المختلفـة التـي تحـسها

نفسه بطريقة الحواس المتعددة ، ولم تختص كل حاسة بنوع خاص من المحسوسات إلا من حيث الظاهرة : فالإنسان حين يسمع صوتا أو يرى لونا ليست أذنه هي التي تسمع ولا عينه هي التي ترى ، ولكن الأذن والعين وأضرابهما من الحواس ليست إلا محال لإدراكات نفس واحدة هي هي بعينها التي تسمع وترى وتلمس ... إلخ . وإليك الأبيات التي يصور فيها الشاعر هذه الوحدة تصويرا يبين لنا أن كل الملكات التي تبدو لنا منفصلا بعضها عن بعض في البدن إنما تكون موحدة في النفس بحيث لا يكون ثمة تمايز بينها . قال ابن الفارض :

فلفظ وكلي بي لسان محدث ولحظ وكلي في عين لعبرتي ٥٤٦

وسمع وكلي بالندى أسمع الندا وكلى في رد الردى يد قوة

معاني صفات ماورا اللبس أثبت وأسماء ذات ماروي الحس بثت ٥٤٨

وقال أيضا :

وكلي لسان ناظر مسمع يد لنطق وإدراك وسمع وبطشة ٥٧٩

فعيني ناجت واللسان مشاهدة وينطق مني السمع واليد أصغت

وسمعي عينن تجتلي كل ما بدا وعيني سمع إن شد القوم تنصت ٥٨١

إلى أن قال :

وما في عضو خص من دون غيره بتعيين وصف مثل عين البصيرة ٥٨٦

ومني على إفرادها كل ذرة جوامع أفعال الجواح أحصت

يناجي ويصغي عن شهود مصرف بمجموعه في الحال عن يد قدرة ٥٨٨

ألا ترى إلى هذه الأبيات أنها صريحة في التعبير عن هذه الفكرة التي سيطرت على نفس ابن الفارض، وأبت إلا أن تظهر في صور مختلفة في ديوانه عامة وتائيته الكبرى وخمريته خاصة ، وأعني بها فكرة الواحدية : فليست أعضاء البدن وحواسه هي التي تسمع وتتكلم وتبصر ، ولكنها النفس في جملتها هي التي تقوم بهذه الوظائف جميعا . ولقد تتمثل هذه الوحدة عندما يصل السالك إلى مقام الجمع حيث تختلط وظيفة حاسة معينة بوظيفة حاسة أخرى ، فيحس الإنسان بإحدى حواسه ما كان يحسه بالحواس الأخرى بحيث إذا تكلم الإنسان أصبحت نفسه كلها لسانا، وإذا أبصر صارت نفسه كلها عينا ، وإذا سمع كانت نفسه كلها أذنا ، وهكذا في بقية الحواس .

هذا ما تظهرنا عليه " التائية الكبرى " من خلال وصف ابن الفارض لحاله في الطور لحبه كما بيناه في الفصل الثاني من الكتاب الثاني ، ولكن ابن الفارض يتناول هذه الوحدة في خمريته فيصورها لنا في صورة جديدة تظهر فيها علاقة النفس أو الروح بالبدن : فالشاعر يرى في هذه القصيدة أن لطافة البدن نتيجة للطافة الروح ، كما يرى أن روحانية الإنسان تنمو وتزيد بقدر ما تنمو لطافة بدنه وتزيد ، فهناك إذن علاقات متبادلة بين الروح والبدن ، كما يظهرنا على ذلك قول الشاعر في هذا البيت :

ولطف الأواني في الحقيقة تابع للطف المعاني والمعاني بها تنمو ٢٧

على أن ابن الفارض يذهب إلى أبعد من هذا ، إذ يرى أن التفريق بـين الروح والبدن تفريق ظاهري ، والحقيقة أن الـروح والبـدن شـئ واحـد ، أو هما على أقل تقدير مشتركان في المصدر الذي صدرا عنـه . ولـو تأملنـا قـول شاعرنا في البيت التالي وما يشتمل عليه من الرمز :

وقد وقع التفريق والكل واحد   فأرواحنا خمر وأِشباحنا كرم . ٢٨

لرأينا أن التفريق بين الأرواح والأبدان مثله كمثل التفريق بـين الخمـر والكرم ، هذا مادي ، وتلك روحانية ، والحقيقة أنهما من أصل واحد .

وقد ذهب صوفي مصري محدث مذهب ابن الفارض في هذه الوحـدة، وإن كان يصورها في صورة تختلف عن صورة شـاعرنا اختلافـا ظـاهرا ، فـإن الفكرة التي يريد إثباتهـا كـل مـنهما واحـدة ، وأعنـي بهـذا الـصوفي حـسن رضوان صاحب " روض القلوب المـستطاب " ، إذ يـرى أن الأصـل في الـنفس الوحـدة لا التعـدد ، وأن مـا يتعـدد فيهـا إنمـا هـي أحوالهـا التـي تختلـف عليهـا في سـيرها : فهـي أمـارة لوامـة وملهمـة مطمئنـة ، وراضـية مرضـية كاملـة ، فـالنفس هنـا واحـدة بـرغم تعـدد أحوالهـا ، هـي أمـارة بالـسوء مـن حيـث خـضوعها لـسلطان البـدن ، وهـي متـصفة بغـير هـذا الوصـف مما ذكر من حيث تجردها عن البدن ، ولكنهـا عـلى كـثرة هـذه الأوصـاف ، وتعدد الأحوال ، هي هي النفس . ولعل ابن الفـارض وحـسن رضـوان فـيما ذهبا إليه يشبهان الغزالي من بعض الوجوه ، فابن الفارض يوحد النفس مرة ، ويوحد النفس والبدن مرة أخـرى ، وحـسن رضـوان يوحـد الـنفس ، وأمـا

الغزالي فإنه يتفق معها في فكرة التوحيد ، إلا أن هذا التوحيد لا ينصب عنده إلا على القوى الباطنة : فقد ذكر عنه ابن سبعين في أحد كتبه المخطوطات المحفوظة ببرلين ، نصا يظهرنا على أن الغزال يعتقد في العقل ما يعتقده الفيثاغوريون، إذ يطلقون العقل على الذي يطلقون عليه النفس، وهذا يفهم من كلامه في " المعارج العقلية " وفي " شرح عجائب القلب " عندما قال : " جميع ذلك لطيفة " (يعني العقل والروح والنفس) . ويظهر ذلك أيضا في تقسيمه للأرواح في " مشكاة الانوار " وما أشار في " كيمياء السعادة " ... وإن كان الحكماء يطلقون النفس على ما يطلقون علي العقل ، ويقولون بأن الجواهر الروحانية لا تتنوع ، ولا تختلف ، فإنهم لا يضيعون الرتب العقلية والعقول المادية ....

ومهما يكن في مذهب الغزالي من الوجوه القابلة للنقد والتجريح - وقد لاحظها ابن سبعين - فإن الذي يعنينا هنا أن نثبت أن الغزال وابن الفارض وحسن رضوان متشابهون في فكرة الوحدة التي وجهت مذهب كل منهم ، إلا أن الغزالي قصرها على القوى الباطنية ، وحسن رضوان على الأحوال النفسية ، وابن الفارض جاوزهما إلى القوى الباطنية والوظائف الجسمية ، فكان بهذا أغرق في الوحدة منهما ، ناهيك بأن النفس التي يتحدث عنها ابن الفارض ، ويتخذ منها أداة لحبه ومعرفته ، ليست من قبيل النفس الناطقة أو العقل الذي يشيع ذكره في كثير من كتب الغزالي وغير الغزالي من الصوفية المتفلسفين والفلاسفة الأصليين ، إنما النفس الفارضية ملكة باطنية أو هي مركز للشعور والوجدان وما يتصل بالشعور والوجدان من حب ومعرفة . وهي فوق هذا كله لا تمت إلى العقل النظري

بصلة ، وإن ابن الفارض ليذهب مذهبا صريحا في ازدواء العقل وإنكار قيمة كل علم يستفاد به ، كما يدل على هذا قوله :

أسافر عن علم اليقين لعينه ... إلى حقه حيث الحقيقة رحلتي ٥١٤

وأنشدني عني لأرشدني على ... لساني مسترشدي عند نشدتي

وأسألني رفعي الحجاب بكشفي الـ ... نقاب وبي كانت إلى وسيلتي ٥١٦

إلى أن يقول :

إلى أن بدا مني لعيني بارق ... وبان سني فجرى وبانت دجنتي ٥٢١

هناك إلى ما أحجم العقل دونه ... وصلت وبي مني اتصالي ووصلتي

فأسفرت بشرا بلغت إلى عن ... يقين يقيني شد رحل لسفرتي

وأرشدتني إذ كنت عني ناشدي ... إلى ونفسي بي على دليلتي

وأستار لبس الحس لما كشفتها ... وكانت لها أسرار حكمي أرخمت

ورفعت حجاب النفس عنها بكشفي الـ ... نقاب فكانت عن سؤالي مجيبتي

وكنت جلا مرآة ذاتي من صدا ... صفاتي ومني أحدقت بأشعة

وأشهدتني إياي إذ لا سوي في ... شهودي موجود فيقضي بزحمة ٥٢٨

فأنت ترى من هذه الأبيات جميعا أن ابن الفارض أبعد ما يكون عن الأخذ بفكر نفس ناطقة أو عالقة ، وأشد ما يكون إنكارا لقدرة العقل على المعرفة اليقينية ، وتمسكا بأن النفس إذا خلصت من حجاب الحس

كانت قادرة على الوصول إلى الشهود الذي تنكشف لها فيه الحقيقة العليا، التي يعجز العقل عن إدراكها ولا يجرؤ على كشفها .

١٢ - ينبني على ما تقدم أن يكون للمعرفة ضربان : أحدهما يستدل فيه العارف بظاهر الأفعال والصفات على الذات ، وثانيهما لا يعني فيه العارف بظاهر الأفعال والصفات ، وإنما هو منصرف عن هذا الظاهر ومقبل بكل نفسه على ما وراءه ، وهو الذات التي تعرف عن طريقها أسماؤها وصفاتها وأفعالها . وليس من شك في أن الضرب الثاني أرقى وأكمل من الضرب الأول من حيث إنه طريق لا تسلكه إلا النفوس الصافية والقلوب النقية التي تحملها العناية الإلهية من عالم الظاهر والكثافة إلى عالم الباطن واللطافة . وقد أشار ابن الفارض إلى هاتين العرفتين في قوله على لسان الله في الأبيات التالية :

ومدح صفاتي بي يوفق مادحى ... لحمدي ومدحي بالصفات مذمتي

فشاهد وصفي بي جليسي وشاهدي ... به لاحتجابي لن يحل بحلتي

وبي ذكر أسمائي تيقظ رؤية ... وذكرى بها رؤيا توسن هجعتي

كذلك بفعلي عارف بي جاهل ... وعارفه بي عارف بالحقيقة ٥٣٦

وهنا يظهر مرة أخرى ازدراء ابن الفارض للعلم الذي يأتي عن طريق الاستدلال بفعل الله أوصفته على ذاته : فإن من يشاهد الصفات عن طريق الذات عارف بالحقيقة واصل إليها ، على عكس من يعرف الذات أو يشاهدها عن طريق صفاتها فإنه لن يعرفها أو يصل إليها حقيقة.

وكذلك من يعرف الأسماء عن طريق الذات أشبه ما يكون بيقظ يرى مشهودا حقيقيا لا خياليا ، على عكس الذي يعرف الذات عن طريق الأسماء فإنه أشبه ما يكون بنائم يرى خيالا لاحظ له من الحقيقة . ومثل هذا التحقير لشأن كل معرفة الأفعالية ، إذ يستدل فيها العارف على ذات الله بأفعال ، ومن كان كذلك فهو في نظر ابن الفارض جاهل بالحقيقة . ومن هنا ترى أن ابن الفارض في تحقيره للمعرفة الاستدلالية ، أو قل للعلم الاستدلالي ، وإكباره للمعرفة المباشرة ، لا يفعل أكثر من أن يقدم لنا رأي الصوفية في العلوم الظاهرة من حيث إنها أقل قيمة من العلوم الباطنة : فعلم الظاهر عند شاعرنا أشبه ما يكون بالسراب الذي يحسبه الظمآن ماء حتى إذا دنا منه لم يجده شيئا ، كما يشير إلى هذا بقوله لمريده :

منحتك علما إن ترد كشفه فرد   سبيلي واشرع في اتباع شريعتي ٢٨٦

فمنبع صدى من شراب نقيعه   لدى فدعني من سراب بقيعة

ودونك بحرا خضته وقف الألى   بساحله صونا لموضع حرمتي ٢٨٨

إلى أن يقول لهذا المريد أيضا :

فطب بالهوى نفسا سدت أنفس الـ   عباد من العباد في كل أمة ٢٩٦

وفز بالعلا وافخر على ناسك علا   بمظاهر أعمال ونفس تزكت

وجز مثقلا لو خفت طف موكلا   بمنقول أحكام ومعقول حكمة ٢٩٨

وعلى هذا النحو من إيثار علم الباطن على علم الظاهر ، يوافق ابن الفارض غيره من الصوفية موافقة تامة ، ولا يكاد يختلف عنهم إلا في طريق

الأداء الذي يسلكه في التعبير عما يقصده إليه : فهو - وإن كان مختلفا مع الغزالي الفيلسوف في أن النفس عند هذا الأخير يمكن أن تفهم في بعض كتبه على أنها عقل ، في حين هي عند شاعرنا شئ مخالف للعقل تماما - متفق هنا مع الغزالي الصوفي اتفاقا لا غبار عليه في تقسيمه العلوم إلى ظاهرة وباطنة ، وفي تفضيله لهذه على تلك ، فالغزالي الفيلسوف إن كان يرى في " المعارج العقلية " وفي " كيمياء السعادة و " مشكاة الأنوار " أن يطلق العقل على ما يطلق عليه النفس ، فإنه كصوفي يرى في " رسالته اللدنية " أن العلم الإنساني يحصل من طريقتين : أحدهما التعلم الإنساني ، والثاني التعلم الرباني ، فأما الطريق الأول فطريق معهود ومسلك محسوس يقر به جميع العقلاء ، وأما التعلم الرباني فهو عند الغزالي على وجهين : أحدهما من خارج وهو التحصيل بالتعلم في الظاهر ، فإن التعلم استفادة الشخص من الشخص الجزئي ، والتفكر استفادة النفس من النفس الكلي، والنفس الكلي أشد تأثيرا وأقوى تعليما من جميع العلماء والعقلاء، والعلوم مركوزة في أصل النفوس بالقوة كالبذر في الأرض والجوهر في قعر البحر أو في قلب المعدن . ويسمى الغزالي العلم الذي يحصل عن طريق الرباني الباطن بالعلم اللدني ، وهو عنده عبارة عن سريان النور الإلهامي وهكذا هو بعينه ما يكني عنه ابن الفارض بالشراب الذي نقيعه لديه وذلك في البيت ٢٨٧ من " التائية الكبرى " ، أي العلم الذي لم يستفده من غيره ، وهو خير عنده من العلم الذي يحصله الإنسان بطريق التعلم من الغير ، ويكني عنه بالسراب في البيت المشار إليه . يضاف إلى هذا أن ابن الفارض كابن عربي يرى أن المعرفة العقلية لا توصل إلى الذات وإنما

طريق معرفة الذات هي المشاهدة التي تحصل للنفس وقد خلصت من حسها وغابت عن إدراكها العقلي كما سبق أن أشرنا إلى ذلك أكثر من مرة . وحسبك أن تنظر فيما لخص به الشعراني رأى ابن عربي في هذه المسألة لترى أن ابن عربي على الرغم من أن النزعة االفلسفية كانت أغلب عليه من النزعة الصوفية الخالصة في أكثر مؤلفاته ، كان في مسألة المعرفة كابن الفارض يفضل المشاهدة النفسية على المعرفة العقلية ، فهو يرى أن طلب معرفة ذات الله تعالى يكون عن طريقين : أحدهما عن طريق الأدلة العقلية ، والآخر طريق المشاهدة ، وأن الدليل العقلي في رأيه يمنع من المشاهدة ، وأن الدليل السمعي قد أومأ إليها ، وأن الدليل العقلي قد منع من إدراك ذات الله تعالى عن طريق الصفة الثبوتية النفسية قد التي هو في نفسه عليها ، إذ العقل لا يدرك من الذات إلا صفات السلوب . ومن هنا نتبين أن العلم اللدني الذي يأتي من الباطن عند الغزالي ، والمعرفة التي تحصل من المشاهدة عند ابن عربي ، والمعرفة التي تحصل في الأحوال الذوقية والمواجيد الروحية عند ابن الفارض ، كل أولئك شئ واحد متفق عليه بين ثلاثتهم اتفاقا يظهرنا على أن المذاهب الصوفية على ما فيها من التعدد الناشئ من تعدد أصحابها ، ومن اختلاف كل منهم في منهجه وأسلوبه ، ليست في جملتها إلا شيئا واحد لا يكاد يختلف عند أحدهم عما هو عليه عند الآخر إلا في بعض التفاصيل ، أما الجوهر أو اللب فمتفق عليه عند سوادهم الأعظم ، فمهما يكن من تسمية الصوفية لكل من المعرفة العقلية والمعرفة الإلهامية بأسماء مختلفة فيسمون الأولى بالعلم الظاهر وبعلوم الدراسة وبالعلوم العقلية والنقلية ، ويطلقون على الثانية

اسم علم الباطن وعلوم الوراثة والعلم اللدني ، فإنها جميعا تعبر عـن شـئ واحد وترمي إلى غاية واحدة هي أن المعرفة على ضربـين ، تحـصل بواسـطة أداتين : معرفة عقلية ظاهرة وأداتها العقل ، ومعرفة إلهامية روحانية باطنة وأداتها النفس إذا خلصت من البدن (الروح) . والأخيرة هـي التـي يؤثرهـا ابن الفارض ويصطنعها كما فعـل غـيره ممـن سـبقوه أو عـاصروه أو جـاءوا بعده من الصوفية الخلص أو الصوفية المتفلسفين .

١٣ - بقى أن نتعرف كيف اشترك الحب والمعرفة عند ابـن الفـارض في موضوع واحد ، كما تبينا من قبل كيف كانا مشتركين في طبيعتهما وأداتهما ، وأن نكشف كما ترتب على هذا الاشتراك في الموضوع من أوجه التقابـل بـين أطوار الحب وبـين مراتـب المعرفـة . ولعـل أول مـا يبـدو للمتأمـل في هـذا الصدد هو أن ابن الفارض قد اتخذ من الجمال المطلق موضوعا لحبه ، ومن الذات الأحدية موضوعا لمعرفتـه . ولكنـه لم ينتـه إلى حـب الجـمال المطلـق ومعرفة الذات الأحدية دفعة واحدة ، بل هو قد انتقـل مـن حـب الحـسن المقيد في صورة من الصور الكونية إلى حب الجمال المطلق الكونية إلى حـب الجمال عن كل قيد أو تعين ، كما انتقل مـن الوقـوف عنـد معرفـة مظـاهر الذات وصور أفعالها وتجليات أسمائها وصفاتها ، إلى شهود الذات ومعرفتها في ذاتها . ولـيس أدل عـلى هـذا الانتقـال مـن أطـوار الحـب التـي حللناهـا في الفصل الثاني من الكتاب الثاني ، ومما سبقت الإشـارة إليـه في موضـوعه من هذا الفصل . ومعنـى هـذا أن ابـن الفـارض قـد انتهـى ، سـواء في حبـه وفي معرفته ، إلى أن أصـبح مـن الـذاتيين الـذين يقـول الجـيلي عـنهم إنهـم من كانت اللطيفة الإلهية فـيهم ، إذ العبـد إذا تجـلى عليـه الحـق ، وأفنـاه

عن نفسه قام فيه لطيفة إليهة ، وتلك اللطيفة قد تكون ذاتية أو صـفاتية ، فإذا كانت ذاتية كان ذلك الإنسان هو الفرد الكامل ، والغوث الجامع ، عليه يدور أمر الوجود ، وله يكون الركوع والـسجود ، وبـه يحفـظ الـلــه العـالم, وليس من شك في أن ابن الفارض فيما انتهى إليه من اتخـاذ الـذات الإلهيـة موضوعا يركز فيه حبه ، ويقصر عليه شهوده ، قد انتهى إلى أقصى ما ينتهي إليه محب أو عارف من الكمال . وهذا راجع إلى أن الذات أكمل وأتـم مـن مظـاهر وتجليـات أفعالهـا ، ناهيـك بـأن الـذات هـي المنبـع الفيـاض بكـل المظاهر والتجليات ، والحقيقة الشاملة لها جميعا ، ومن أحب الـذات فإنمـا يحب تجلياتها الصفاتية والأفعالية ، كما أن من عرفها يعرف هذه التجليات التي اندمجت فيها ، وصدرت عنها . وبعبارة أخـرى يمكـن القـول بـأن كـثرة أسماء الذات وصفاتها وأفعالهـا ، ومـا يبـدو مـن آثـار هـذا كلـه في العـوالم المختلفة ، لا يعد عند الفارض مطعنا في أحدية الذات . وحسبنا أن ننظر مع شاعرنا فيما يثبته من العلاقة بين أسماء الذات وبين مراتب الشهود والوجود في العوالم المختلفة التي تظهر فيها تجليات هـذه الأسـماء وآثارهـا : فلهـذه الأسماء تجليات في عالم الشهادة ، وفي عالم الغيب ، وفي عالم الملكـوت ، وفي عـالم الجـبروت . وسـبيل معرفتهـا في العـالم الأول هـو الحـس ، وفي العـالم مجازات تسمت بها الذات ، كما يدل على ذلـك قـول ابـن الفـارض في هـذه الأبيات :

فخـذ علـم أعـلام الـصفات بظـاهر الــ ـــمعالم مــن نفــس بــذاك عليمــة ٥٣٧

وفهـم أسـامي الـذات عنهـا ببـاطن الــ ـــــعوالم مــــن روح بــــذاك مــــشيرة

ظهور صفاتي عن أسامي جوارحي مجازا بها للحكم نفسي تسمت ٥٣٩

وقوله في هذه الأبيات أيضا :

فمرجعها للحس في عالم الشها دة المجتدي ما النفس مني أحست ٥٦٥

ومطلعها في عالم الغيب ما وجد ت من نعم مني على استجدت ٥٦٧

وموضعها في عالم الملكوت ما خصصت من الإسرا به دون أسرتي ٥٦٩

وموقعها في عالم الجبروت من مشارق فتح للبصائر مبهت ٥٧١

ومنبعها بالفيض في كل عالم لفاقة نفس بالإفاقة أثرت ٥٧٣

فمؤدي مذهب ابن الفارض في الأبيات الثلاثة الأولى هو أن تجليات الأسماء في مراتب الوجود والشهود ، ليست إلا عين تجليات الذات في هذه المراتب ، إذ الذات في كل مرتبة من هذه المراتب ، ليست في الحقيقة إلا أحد أسمائها متصفا بصفة من الصفات ، والمظاهر الخارجية الصادرة عن الصفات ، والصفات التي تنطوي عليها الأسماء ، والأسماء التي هي الذات متصفة بصفة من الصفات ، كل أولئك ليس إلا مجازات قصد بها إلى التعبير عن حقيقة واحدة هي الذات التي تتسمى بهذه الأسماء ، وتتصف بهذه الصفات ، وتصدر عنها كل هذه المظاهر والتجليات . ومؤدي مذهبه في الأبيات الخمسة الأخيرة هو أن للأسماء مرجعا في عالم الشهادة هو ما يدركه الحس من المظاهر الخارجية ، ومطلعا في عالم الغيب دليله ما ينكشف للباطن من النعم ، وموضوعا في عالم الملكوت يستدل عليه من خلال تحققه في مقام الجمع باسم من أسماء الذات الإلهية تحققا أسرى بنفسه وسما بها على أنفس غيره من السالكين الذين لم يصلوا بعد إلى

مثل ما وصل إليه ، وموقعا في عالم الجبروت آيته ما ينكـشف للبـصائر مـن أنوار الفتح ، إذ المشاهد لعالم الجبروت متحقق بما لا يتهيأ له التحقق به في غيره من العوالم ألا وهو شهود الذات ، ناهيك بأن مشاهدة عـالم الجـبروت لا يتحقق بها إلا آحاد من البشر هم الأنبياء وخواص الأولياء الـذين منحـوا قدرة التصرف فيما دون هذا العالم الأعلى من العـوالم الأخـرى. ومهـما يكـن مـن أمـر مرجـع الأسـماء ، ومطلعهـا وموضـعها وموقعهـا في هـذه العـوالم الأربعة على التعاقب . فإن ابن الفارض قد بين بعد ذلك مبلغ شمولها لهذه العوالم جميعا ، وفيضها عليها ، فجعل لهـا منبعـا فياضـا في كـل منهـا ، كـما جعل الوقوف على هذا المنبع متوقفا على التحقق بنهاية اتحاده التي فصلنا حقيقتها في الفصل الثاني من الكتاب الثـاني حيـث عرفنـا أنهـا كانـت صـحوا للجمع .

وإذا كان ذلك كذلك فنحن نستطيع إذن أن نقـول إن مراتـب الوجـود عند ابن الفارض أربع تقابل كـل منهـا عالمـا مـن العـوالم الأربعـة المتقدمـة الذكر ، وإن ما في عالم الشهادة من المظاهر المعينة والـصور المتعـددة التـي يقع عليها الحس ليس إلا تعبيرات جزئية عـن المعـاني الكليـة التـي تنطـوي عليها الأسماء والصفات والذات في العوالم الثلاثة الأخرى التـي لا سـبيل إلى وقوعها تحت الحس أو معرفتهـا بطريقـه . وإنمـا سـبيل ذلـك هـي الـنفس والـروح والقلـب والبـصيرة وأن مـا يوجـد في عـالم الـشهادة معينـا متكـثرا يوجد في أي من هذه العوالم الثلاثة مطلقا موحدا في صفة من صفات الذات ، أو في اسم من أسمائها ، أو في الـذات نفـسها ، ولننظـر فـيما يخاطـب بـه ابن الفـارض محبوبتـه حيـث يقـسم بالـصفات الجوهريـة لهـذه المحبوبـة

وهي الكمال والجلال والجمال ، ويبين آثار هذه المعاني الكلية التي هي وراء الحس في العالم المحسوس ، فيقول :

ووصف كمال فيك أحسن صورة | وأقومها في الخلق منه استمدت ٧١
ونعت جلال منك يعذب دونه | عذابي وتحلو عنده لي قتلي
وسر جمال عنك كل ملاحة | به ظهرت في العالمين وتمت
وحسن به تسبي النهى دلني على | هوى حسنت فيه لعزك ذلتي
ومعنى وراء الحسن فيك شهدته | به دق عن إدراك عين بصيرتي
لأنت مني قلبي وغاية بغيتي | وأقصى مرادي واختياري وخيرتي

لنتبين أن الكمال والجلال والجمال ، وكلها صفات كلية من صفات الذات الأحدية ، قد أفاضت من معانيها على الكائنات الجزئية فأكسبتها حسنها الذي يحببها إلى النفس ، ولنتبين أيضا أي فرق يوجد بين هذه الصفات وبين مظاهرها في الكائنات : فهذه جزئية في متناول الحس ، وتلك كلية وراء الحس تدق عن إدراك عين البصيرة ، على حد تعبير ابن الفارض نفسه ، ولنتبين بعد هذا كله أن الشاعر الصوفي المسلم يذكرنا هنا بنظرية المثل الأفلاطونية التي لعبت دورا خطيرا في تاريخ الفلسفة القديمة ، وتاريخ الفلسفة في العصور الوسطى ، وكان من أصدائها في تلك العصور المذهب الوجودي (Le Réalism) ، وهو المذهب القائل بأن الكليات أو المعاني الكلية لها وجود حقيقي خارج عن الأشياء الجزئية والأفراد المتكثرة ، وبأن هذه الكليات نماذج أو مثل أزلية خلقت الأشياء الجزئية

على غرارها ، وتختلف عنها في أن وجودها حادث ، في حين أن وجود تلك المثل قديم .

على أن ابن الفارض إن كان يرى في الحب أطوارا مختلفة ، وفي المعرفة مراتب متباينة ، ويدلنا من ثنايا شعره على أن موضوع كل طور من أطوار الحب ، وكل مرتبة من مراتب المعرفة ، يتفاوت ما يقابله من مراتب الوجود التي يمثلها عالم الشهادة ، وعالم الغيب ، وعالم الملكوت ، وعالم الجبروت ، وبمقدار قربه من الذات أو بعده عنها فإن الشاعر الصوفي لا يكبر ولا يؤثر من هذه المراتب والأطوار إلا مرتبة واحدة وطورا واحدا ، وهما اللذان يكون موضوعهما الذات : فالمعرفة اليقينية حقا ليست عنده الوقوف عند صفة من صفات الذات ، ولا عند فعل من أفعالها ، ولا هي تحصل بالانتقال من معرفة الصفة أو الفعل إلى معرف الذات وإنما هي التي تتخذ موضوعها من الذات مباذرا ، ويشهد فيها العارف الذات شهودا عينيا روحيا لا مدخل فيه للحس أو العقل كما هو الشأن في العلوم العقلية والنقلية . وكذلك المحبة الحقيقية الصادقة ليست عنده انجذاب النفس الإنسانية إلى مظهر الجمال المتجلي في الكائنات الواقعة تحت الحس ، ولكنها تجاوز الحسن المقيد إلى ما وراءه من معنى للجمال لا يقع عليه الحس ، وأعني به جمال الذات الإلهي المطلق الذي استمدت منه الكائنات الجزئية حسنها الظاهر المقيد .

ولعل ابن الفارض في اتخاذه من الذات الإلهية موضوعا لأرقى أطواره حبه ، وأسمي مراتب معرفته ، وفي إيثار حب الذات ومعرفتها على حب

أي شئ آخر ومعرفته ، وفي نظره إلى الكائنات على أنها صور تفيضها الـذات من صفاتها ، لعله في هذا كله كان مثلـه كمثـل اسـبينوزا الـذي جـاء بعـده بحوالي خمسمائة عام ، ورأى أن الجوهر الإلهي هو كل شئ في الوجود، وأن كل ما في الكون من نفوس وأجسام حية وغير حيـة إنمـا هـو مظـاهر لهـذا الجوهر الذي له عند هذا الفيلسوف صفتان جوهريتان هما عين الجـوهر ، ويعني بهما الفكر من ناحية والامتداد من ناحية أخرى ، فمن الفكر فاضت كل الأفكار الجزئية ، ومن الامتداد فاضت كـل الأجـسام الفرديـة ، إنـسانية كانت أو حيوانيـة أو جماديـة ناهيـك بـأن المعرفـة اليقينيـة عنـد اسـبينوزا ليست معرفة المظاهر الخارجيـة للجـوهر ، أو أعراضـه كـما تبـدو لحواسـنا وتتخيلها مخيلتنا ، بل هي معرفة عقلية مباشرة من شأنها أن تثبت أن هـذا الجوهر هو كل شئ في الوجود . وما عداه فمظاهر فائضة منه صادرة عنـه: فابن الفارض إذن كاسبينوزا . سبقه إلى القول بأن موضوع المعرفة الحقيقـي هو الذات الإلهية التي يذكرها الشاعر صراحة تارة، ويشير إليها تلويحا تـارة أخرى ويسميها بأسماء من شاء من المعشوقات أطوارا مختلفة ، على نحو ما رأينا في موضعه من الفصل الأول من الكتاب الثاني .

وكما أثبت ابن الفـارض أن الإنـسان لله قـديم منحتـه الـروح في عـالم الأمر قبل أن تهـبط إلى البـدن في هـذا العـالم الـسفلي ، وأن المعرفـة أزليـة مطبوعة في الروح التي تلقتها في العالم العلوي ، فكذلك اسبينوزا يقـرر أننـا نحب باللـه أزلية ، لأن إدراكنا له إنما هو حبه لنفـسه في صـورتنا ، كـما أن معرفتنا باللـه أزلية ، لأن إدراكنا لـه إنمـا هـو إدراكـه لنفـسه في صـورتنا ، وهذا هو ما يعبر عنه اسبينوزا بعبارة أخرى فيقول : إن الحب العقلي الذي

تشعر به النفس الإنسانية نحو اللـه جزء من الحب اللانهائي الذي يحب به اللـه نفسه ... ومهـما يكـن مـن تـشابه بـين الـشاعر الـصوفي المـسلم وبـين الفيلـسوف الأوربي الإسرائـيلي ، فـإن هنـاك اختلافـا قويـا بيـنهما لاسـيما في المنهج الذي اصطنعه كل منهما ، ذلك بأن منهج ابن الفارض ذوقي روحي ، دعامته الرياضية والمجاهدة ، ومنهج اسـبينوزا عقـلي خـالص قوامـه النظـر والتأمل ، ولهذا كان الفيلسوف يطلق على حبه اسم الحـب العقـلي ، وعـلى معرفته اسم المعرفة العقلية .

وهكذا نرى أن الذوق الصوفي ممثلا في ابـن الفـارض ، والنظـر العقـلي ممثلا في اسبينوزا، قـد ينتهيـان إلى نتـائج واحـدة، ويعرضـان لحـل مـسائل واحدة ، ويتشابهان في كثير من المواطن التي لا تقـل قيمتهـا عنـد أحـدهما عما هي عليه عند الآخر. ولـيس معنـى هـذا أننـا نجعـل مـن ابـن الفـارض فيلسوفا كاسبينوزا، ولا من اسبينوزا تلميذا لابـن الفـارض، فهـذه مـسألة لا يمكن القطع فيها برأى إلا أن يتوافر الدليل على أن الفيلسوف الإسرائيلي قرأ الشاعر الصوفي وتأثر به تأثرا مباشرا أو بواسطة، كما أن ذلـك قـول لا يقولـه إلا مسرف أو مغال، ما دام التصوف يعتمد على الذوق والوجدان. والفلسفة تستند إلى العقل والبرهان . وإنما الذي نعنيـه هنـا هـو إثبـات أن التـصوف برياضاته ومجاهداته، وأذواقه ومواجيده، يستطيع أن يكشف الحقيقة التي تعرض لها الفلسفة. وتكشف عنها بما لها من نظر عقلي، واستدلال منطقـي، وقدرة على الإقناع بالدليل والبرهان .

الفصل الثاني

الحب والوحدة

وحدة ابن الفارض ووحدة غيره - أراء المتقدمين في وحدته : ابن تيمية ونقده لمذاهب الاتحادية - آراء المتحدثين : رأي ماسينيون - رأى دي ماتيو - رأى نلينو - رأى ليكلسون - رأي درمنجم - حقيقة وحدة ابن الفارض - الصورة الأولى لهذه الوحدة - شهود ابن الفارض وحلول الحلاج - حلول الحلاج ولبس ابن الفارض - جلال الدين الرومي وشهود ابن الفارض وحلول الحلاج - وحدة الشهود في مذهب ابن عربي - الفرق بين وحدة الشهود ووحدة الوجود : ابن الفارض ومالبرتش ، ابن عربي واسبينوزا - الصورة الثانية لوحدة ابن الفارض - ابن الفارض والحلاج : أنا الحق ، " اللاهوت والناسوت " - ابن الفرض وابن عربي : التجلي ، اللبس - الفيض الأفلوطييني بين ابن عربي وابن الفارض .

١ - رأينا فيما تقدم من فصول هذا البحث أن ابن الفارض كان شاعرا رقيـق النفس ، دقيق الحس ، مرهف الشعور ، أحب بكل ما في قلبه من عاطفـة قويـة ، وسيطرت هذه العاطفة على حياته الشعورية سيطرة انتهت بـه إلى هـذا الاتحـاد الذي شهدنا في الفصل الثاني من الكتـاب الثـاني أنـه كـان في بدايتـه سـكرا للجمـع يشعر فيه المحب بفنائه عن ذاته وبقائه بذات محبوبتـه ، وكـان في نهايتـه صـحوا للجمع لا يقف فيه المحب عند شعوره بالاتحاد مع محبوبته ، وبأن ذاته أصـبحت عين ذات هذه المحبوبة فحسب ، وإنما هو يتجـاوز هـذا الـشعور إلى الجمـع بـين النظر إلى الذات الإلهيـة بعـين الوحـدة ، والنظـر إلى الأشـياء الـصادرة عـن هـذه الذات بعين التفرقة ، وإلى أن كل ما في الكون من كائنات روحية وماديـة لـيس في

الحقيقة غير مظاهر تتجلى على صفحتها الذات الإلهية بما لها من صفات الجمال والجلال والكمال . ومعنى هذا أن الاتحاد الذي انتهى إليه حب ابن الفارض في أرقى أطواره ، كان من ناحية اتحاد بين ذات المحب وذات المحبوبة ، أو بين الإنسان والله ، وكان من ناحية أخرى اتحادا بين ذات الله وآثارها المتفرقة ومظاهرها المتكثرة في العالم المحسوس ، ولكنه لم يخرج من الناحيتين عن كونه حالة نفسية مصطبغة بصبغة الذوق الشخصي والوجد الروحي اللذين هما أساسي يبتني عليه كل تصوف . وهذا من شأنه أن يحملنا على التفكير في حقيقة الوحدة التي ينطوي عليها اتحاد شاعرنا ، وهل هي من قبيل وحدة الوجود التي أثبتها الفلاسفة الخلص والصوفية المتفلسفون بين الله والعالم ، أو هي وحدة من طراز آخر . والحق أن كثيرا من المؤرخين والفقهاء والباحثين القدماء والمحدثين قد اختلف اختلافا ظاهرا حول وحدة هذا الشاعر الصوفي : ففريق يرى أنها وحدة وجودية من نوع وحدة ابن عربي وأمثاله من الصوفية الذين غلب عليهم النظر العقلي بقدر ما استوعب نفوسهم الذوق الروحي ، وفي هذا ما فيه من اعتبار ابن الفارض معتنقا لعقيدة منافية لتعاليم الكتاب والسنة ، وفريق يذهب إلى أن وحدة ابن الفارض إنما هي ثمرة من ثمرات حال الغيبة والسكر والدهش التي كثيرا ما كانت تختلف على نفسه وتغيبه عن حسه فإذا هو يشعر بأنه لا وجود له . ولا وجود للعالم الخارجي في ذاته ، وإنما الوجود كله لله . وإذا هو يشهد أن ذاته وذات الله قد أصبحتا ذاتا واحدة ، وإذا هو يصيح من أعماق قلبه كالسكران أو كالمجنون قائلا إنه عين المحبوبة ، أو إن نفسه أحبت نفسه . أو إن ذاته تحلت بذاته ، إلى غير ذلك من العبارات المسرفة

التي ضمنها ابن الفارض شعره ، وعبر بها عن اتحاده ، وأثبتنا كثيرا منها في سياق الفصل الثاني من الكتاب الثاني . وهذا الفريق إذ ينظر إلى اتحاد شاعرنا هذه النظرة . ينظم عباراته التي من هذا القبيل في سلك الشطحات االتي تصدر عن القوم في حال الغيبة والسكر ، ويصفون بها وجدا فاض بقوته ، وهاج بشدة غليانه وغلبته ، وفي هذا ما فيه من التماس العذر للرجل . وعدة غير مؤاخذ على ما صدر عنه من أقوال يمكن أن يؤول باطنها على وجه يخالف ظاهرها ، ويبرأ قائلها مما عسى أن يحوم حوله من الشبه أو يوجه إلى عقيدته من المطاعن .

وابن الفارض فيما انتهى إليه من الوحدة ، وفيما عبر به عن هذه الوحدة ، لم يكن بدعا من الصوفية ، وإنما كان مثله كمثل كثير منهم ، يرى ما يرون من وحدة الرب والعبد ، أو الحق والخلق ، أو الله والعالم ، إلا أنه كان يمتاز بهذه البغة العاطفية التي صبغ بها أشعاره وأقواله ، فبدت في صورة غزلية رائعة تخفي وراءها المعاني الفلسفية التي انطوت عليها ، ويخيل لمن يقف عليها لأول وهلة أنها مجرد مرآة لما احندم في نفس الشاعر من عواطف وانفعالات والواقع أنها شئ آخر أكثر من هذه العواطف والإنفعالات . ومن هنا كان الباحث عن حقيقة وحدة هذا الشاعر الصوفي مضطرا إلى أن يقف وقفات يوازن فيها بين شعره وبين ما أثر عن غيره من شعر ونثر ، وأن يلتمس من هذه الموازنة أوجه الشبه وأوجه الخلاف التي يمكن أن يكون لها وجود بين وحدة ابن الفارض ووحدة غيره من الفلاسفة والصوفية : فقد عاش ابن الفارض ، ونظم شعره وأسس مذهبه في الحب والوحدة في عصر كانت الأفكار الفلسفية وتعاليم الفرق

الإسلامية قد شاعت فيه شيوعا قويا ، وكانت الحياة العقلية والروحية الإسلامية قد مهدت لها العصور السالفة السبيل أحسن تمهيدا ، فوجد الصوفية أنفسهم أمام تراث من الأنظار العقلية والأذواق الروحية ، والعقائد الدينية ، فإذا هم يستغلونها ويتأثرون بها على أوجه مختلفة من الاستغلال والتأثر . وقد كان ابن الفارض واحدا من هؤلاء الصوفية ، ولابد أن يكون لهذا التراث العقلي والروحي أثره في مذهبه ، كما سنبين هذا كله من خلال هذا الفصل وغيره من فصول هذا الكتاب . وحسبنا هنا أن نشير إلى بعض الصوفية الذين شاركوا في تكوين التراث الروحي في الإسلام ، وكنت لهم مذاهب في الحب والوحدة ويمكن أن يكون بين مذاهبهم وبين مذهب ابن الفارض صلة من قريب أو بعيد :

فالحسين بن منصور الحلاج المتوفي سنة ٣٠٩ هـ يمكن أن يعد أول صوفي مسلم قدم في شعره ونثره تفسيرا جديا لمسألة الاتحاد ، وهي هذه المسألة التي عرفت من قبله معرفة ساذجة وعبر عنها أبو زيد البسطامي تعبيرا متطرفة تصورها شطحاته الكثيرة ، وعارضها التستري والجنيد معارضة قوية ، فقد كان الاتحاد عند الحلاج عبارة عن هذه الحال النفسية التي يشعر فيها الإنسان بأنه عندما يخلص من بشريته يصبح هو والله شيئا واحدا من حيث الحقيقة كما يدل على ذلك قوله : " ..... دع الخليقة لتكون أنت هو " الله " . او هو أنت من حيث الحقيقة " . ومن هنا كانت مقالته المشهورة : " أنا الحق " التي لقى من أجلها حتفه . والتي كان لها ولأمثالها من أقوال الحلاج وأشعاره آثارها في طبع التصوف الإسلامي بطابع يختلف عن طابعه في القرنين الأولين للهجرة : فلم يعد التصوف مجرد عكوف على العبادة . وانقطاع إلى الله تعالى ، وإعراض عن

زخرف الدنيا وزينتها ، وما إلى ذلك مما أخذ به الصحاب والتابعون أنفسهم على انه غاية تسمو إليها هممهم ، بل أصبحت هذه الأشياء وأشباهها وسائل لغاية أبعد منها مثالا ، وأسمى مراما . كاتحاد العبد بالرب ، وحلول الرب في العبد ، ومعرفة الحق على أنه كل شي ، وما سواه على أنه ليس شيئا ، وإن نظرة فاحصة إلى ما صدر عن صوفية القرنين الثالث والرابع تكفي لإظهارنا على ما كان مختلطا بالتصوف وقتئذ من العقائد الدينية والآراء الفلسفية والمذاهب الصوفية الأجنبية ، وما كان لهذا كله من أثر فيما يذهب إليه الصوفية من مذاهب تدور حول المعرفة والنور والإشراق والفيض والاتحاد والحلول ، وغير ذلك مما لم يكن للمسلمين الأول سابق عهد به ، وكان له بعد ذلك أبعد الآثار عند القائلين بالوحدة من صوفية القرون التالية . وترجع أهمية الحلاج في تاريخ التصوف الإسلامي إلى شئ آخر غير الذي ذكرنا :

ذلك بأنه في قوله بالحلول يعد ممثلا لتأثر التصوف الإسلامي بالعقيدة المسيحية القائلة بالطبيعتين اللتين تسمى إحداهما باللاهوت . والأخرى بالناسوت . وبالأثر اليهودي القائل بأنه الله خلق آدم على صورته . يضاف إلى ذلك ما عرفه المسلمون في القرن الرابع من الفلسفة اليونانية على أيدي القرامطة ، والرازي الطبيب ، وابن سينا ، مما كان له أثره في تكوين معجم ميتافيزيقي استمدت عناصره من (لاهوت أرسطو) : ومذهب أفلاطون المثالي ، ونظرية أفلوطين في الفيض ، واستطاع صوفية العصور التالية أن يمدوا أيديهم إليه . يلتمسون منه كثيرا من الألفاظ والعبارات التي أعانتهم على تصوير مذاهبهم في الوحدة وما يتصل بها من المسائل ذات الخطر كمسألة خلق الله للعالم ، وصدور العالم عن الله .

على أن هذه العقائد والأفكار الأجنبية كانت هي والمذاهب الصوفية التي تأثرت بها ، محلا لنقد الناقدين ، وطعن الطاعنين من رجال الدين الذين كفروا كل من دعا إليها أو تأثر بها ، وأفتوا بإباحة دم القائل بها ، أو الداعي إليها على نحو ما فعلوه بالحلاج . وليس من شك في أن قتل الحلاج كان له أثره في أن تختفي العناصر الأجنبية المنافية لتعاليم الإسلام ، أو تكمن على أقل تقدير ، وأن تسود التعاليم السنية على هذا الوجه الذي يظهرنا عليه الغزالي في القرن الخامس للهجرة : فالغزالي ، على الرغم من أنه كان في فلسفته وفي تصوفه متأثرا بالفلسفة اليونانية ، إلا أنه كان مع ذلك معنيا بأمور الدين ، حريصا على أن يلائم بين فلسفته وتصوفه وبين أحكام الكتاب والسنة .

وهكذا مهدت القرون الخمسة الأولى للهجرة أحسن تمهيد للقرنين السادس والسابع حيث تقع حياة ابن الفارض ومذهبه في الوحدة ، فكان ما كان وقتئذ من الآثار والصوفية الخصبة المشتملة على مذاهب أصحابها، والتي يلائم بعضها تعاليم الكتاب والسنة ، وينافي بعضها الآخر هذه التعاليم منافاة متطرقة أو معتدلة ، كما كان ما نلحظه في كثير من هذه الآثار من استغلال الفلسفة استغلالا يختلط فيه ما هو من حظ النظر العقلي وما هو من أثر الذوق الروحي : فغلاة الصوفية المتكلمون بالمواجد قد خلطوا مسائل علم الكلام والفلسفة الإلهية بأذواقهم وأحوالهم النفسية ، كما يظهر ذلك واضحا من كلامهم في الذات والصفات ، وفي المشيئة والقضاء والقدر، وفي الفيض والاتحاد والحلول ، مما جعل التصوف أدنى ما

يكون إلى الحكمة الإشراقية منه إلى الرياضة العملية والتربية الخلقية للنفس الإنسانية .

ولعل أهم ما يمتاز به القرنان السادس والسابع للهجرة هو ظهور صور كثيرة لمذهب الوحدة ، واتخاذ هذا المذهب صورة متطرفة في بعض الأحيان ، وصورة معتدلة في بعض الأحيان الأخرى ، فهنالك ظهرت مذاهب ابن عربي ، وابن الفارض ، وصدر الدين القونوي ، وعبد الحق بن سبعين ، وعفيف الدين التلمساني وغيرهم ممن أظلم ذلك العصر ، إلا أن أمعن هذه المذاهب في التطرف هو مذهب ابن عربي ومدرسته المعروفة باسم " المدرسة الوجودية " ، إذ أن زعيم هذه المدرسة وتلاميذه كانوا يقولون بأن وجود الله هو عين وجود العالم .

وطبيعي أن تكون هذه الحركة الواحدية قد وجدت بذورها في أقوال الصوفية المتقدمين ، التي يشيرون بها إلى الوحدة تارة ، وإلى الاتحاد تارة أخرى ، وإلى الحلول أطوار ، كأقوال أبي يزيد البسطامي والحلاج ، وما يجرى مجراها مما هو أدخل في باب الشطحات منه في باب المذاهب الصوفية ذات الصبغة الفلسفية . وطبيعي أيضا أن تكون عقائد القرامطة ، وتعاليم الإسماعيلية البطانية وإخوان الصفاء ، ومذاهب الروحيين والإشراقيين من الفلاسفة أمثال أفلاطون وفيلون اليهودي وأفلوطين الإسكندري ، منهلا عذبا ورده وروى منه الواحديون على اختلاف صور مذاهبهم في الوحدة ، وأن يكون هذا كله قد عمله وآتى أكله أذواقه روحية تدور حول بحور واحد ، وتتركز في نقطة واحدة هي تقرير الوحدة

بين الحق والخلق ، أو الـلـه والعالم كما يذهب إلى ذلك ابن عربي ، والشعور باتحاد المحب والمحبوبة ، او اتحـاد الـذات الإلهيـة ومظاهرهـا كـما يظهرنـا عليه ابن الفارض .

وقد ظهرت بعد عصر ابـن عـربي وابـن الفـارض طائفـة مـن المـذاهب الواحدية التـي يقـرر فيهـا أصـحابها وحـدة الوجـود تـارة ، واتحـاد المحـب والمحبوبة تارة أخرة ، ولكنهم على كل حـال كـانوا يمـدون أيـديهم إلى هـذا المعجم الفلسفي الصوفي الذي تألفت مواده على مر العصور ، فيأخذون منه ما يسعفهم ، ويعينهم عـلى التعبـير عـما هـم بـصدد إثباتـه مـن الوحـدة ، فـسعيد الـدين الفرغـاني وعبـدالكريم الجـيلي ، وعبـدالغني النابلـسي ، وعبدالرازق القاشاني ، وحسن رضوان ، كل أولئك ومثير وغيرهم كانوا تلاميذ لمدرسة ابن عربي ، منهم من وقف عن ترديد ما قاله الشيخ الأكبر ، ومـنهم من زاد عليه ، أو حذف منه ، أو حور فيـه . أو كـان أمعـن منـه في اعتنـاق الوحدة الوجودية . وليس أدل على هذا الإمعان من أن الذين شرحوا ديـوان ابـن الفـارض مـنهم أمثـال الفرغـاني والقاشـاني والنابلـسي لم يـستطيعوا أن يخلـصوا مـن تـأثرهم بمـذهب أسـتاذهم وإيثـارهم لـه ، حتـى لقـد كـانوا يفسرون أبيات ابن الفارض في الاتحاد على أنها تعبير عن مذهب ابـن عـربي في وحدة الوجود ، فكانت شروحهم لديوان الـشاعر الـصوفي المـصري عرضـا لمذهب الصوفي الأندلسي ، على نحو ما سبقت الإشارة إليـه في موضـعه مـن الفصل الثالث من الكتاب الأول .

٢ - على أن اعتبار ابن الفارض تلميذا لابن عربي لم يكن وقفا على الذين شرحوا ديوان الأول من تلاميذ الثاني ، بل شاركهم في ذلك ، وذهب مذهبهم فيه طائفة من القدماء والمحدثين ، فيهم الفقيه المحقق ، والباحث المدقق ، والناقد المتعصب ، فنظروا إلى وحدة ابن الفارض على أنها عين وحدة الوجود التي أثبتها ابن عربي ، ونظموا الرجلين وكثيرا غيرهما من الصوفية الذين ذهبوا مذهبهما في سلك الملاحدة القائلين بأن وجود الله هو عين وجود العالم وأفاض الفقهاء من هؤلاء النقاد في توجيه المطاعن إلى الشعر الصوفي على الوجه الذي قدمنا طرفا منه في الفصل الرابع من الكتاب الأول . ونريد هنا أن نتعرف وجه الحق في دعوى القائلين بأن الوحدة التي أنتهى إليها حب ابن الفارض هي عين الوحدة الوجودية التي أثبتها ابن عربي . ولعلنا إذا وقفنا عند رأي ابن تيمية - وهو عندنا أهم من عرض من المتقدمين لهذه المشكلة وأقواهم حجة - كان ذلك كافيا لإعطاء صورة عما كان يراه المتقدمون في وحدة ابن الفارض ووحدة ابن عربي ، وما كان في رأيهم من أوجه الصواب وأوجه الخلط والاضطراب ، فإن من يوازن بين أقوال ابن تيمية وبين أقوال غيره من الفقهاء والمحدثين الذين ذكرهم البقاعي في كتابيه " تنبيه الغبي " و " تحذير العباد " ، وقد أبنا عن محتوياتهما في الفصل الرابع من الكتاب الأول يلاحظ أن ابن تيمية يمكن أن يعد بحق المصدر الرئيسي الذي استقى منه ، كل من جاء بعده ، الحجج التي نثبت أن وحدة ابن الفارض هي عين وحدة ابن عربي ، وأوجه النقد والتجريح التي يمكن أن توجه إلى الوحدتين ، وألوان المطاعن التي تنال من خلق الرجلين .

وضع ابن تيمية طائفة من الرسائل خصصها لنقد مذاهب الصوفية بوجه عام ، ومذهبي ابن عربي وابن الفارض بوجه خاص ، وحاول أن يوزان بين بعض هذه المذاهب وبعضها الآخر من ناحية ، وبينها وبين العقائد المسيحية والشيعية من ناحية أخرى . ولعل أول ما يلاحظ على هذا الفقيه المتكلم أنه أطلق اسم " الاتحادية " على طائفة من الصوفية كان منهم القائل بالاتحاد حقيقة ، ولكن فيهم من كان حلوليا يقول بحلول اللاهوت في الناسوت ، ومن كان من أصحاب وحدة الوجود يعتقد أن الوجود واحد ، وأنه لا فرق بين وجود الله ووجود العالم إذ العين واحدة : فالحلاج وابن عربي والقونوي وابن الفارض وابن سبعين والتلمساني ، كل أولئك كانوا عند ابن تيمة من الاتحادية ، مع أن هذه التسمية إن صح إطلاقها على ابن الفارض والتلمساني اللذين كان اتحاديين بالفعل ، وكان الاتحاد عندهما حالة نفسية يشهد فيها الإنسان وحدة المحب والمحبوبة ، ووحدة الذات الإلهية ومظاهرها ، فإنها لا تصح بالقياس إلى ابن عربي الذي - وإن كان اتحاديا بهذا المعنى في بعض نواحي تصوفه - كان الأغلب على مذهبه وحدة الوجود التي هي أدني إلى وحده الفلاسفة منها إلى اتحاد الصوفية ، ولا تصح أيضا بالقياس إلى الحلاج الذي تشعر عباراته وأشعاره بالاتحاد . ولكنها تنطوي في حقيقتها على الحلول ، وفرق ما بين الاتحادي والحلولي كفرق ما بين القائل بأن حقيقتين اتحدت إحداهما بالأخرى فصارتا حقيقة واحدة ، وبين القائل بأن حقيقة حلت في حقيقة أخرى فاتحدتا دون أن تمتزج إحداهما بالأخرى أو تستحيل إحداهما إلى الأخرى ، بل إن كلا منهما ما تزال محتفظة بطبيعتها ، فهما ما تزالان حقيقتين على الرغم من

هذا الحلول . ومهما يكن من شئ فإن وجه تسمية الاتحادية بهذا الاسم يرجع في نظر ابن تيمية إلى أمرين لايقرون أولهما وهو أن الاتحاد على وزن الاقتران ، والاقتران يقتضي شيئين اتحد أحدهما بالآخر ، وهم لا يقرون بوجودين أبدا . أما ثانيهما فهو أن الكثرة صارت وحدة ، وهذا إما أن يكون على مذهب ابن عربي حيث يفرق بين الوجود والثبوت ، ويقول إن وجود الحق فاض على ثبوت الممكنات ، فيصح الاتحاد بين الوجود والثبوت ، وإما أن يكون على قول من لا يفرق فيقول إن الكثرة الخيالية صارت وحجة بعد الكشف ، أو إن الكثرة العينية صارت وحدة إطلاقية ، وأكبر الظن أن هذا الكلام الأخير قد قصد به ابن تيمية إلى تصوير مذهب ابن الفارض واشباهه من القائلين بالاتحاد .

ويرى ابن تيمية أن الاتحاد بين الخالق والمخلوق ممتنع : لأن الخالق والمخلوق ، إن اتحدا ، فإما أن يكونا بعد الاتحاد اثنين كما كانا قبله ، وهذا تعدد وليس باتحاد ، وإما أن يستحيلا إلى شئ ثالث كما يتحد الماء واللبن ، والنار والحديد ، ونحو ذلك من شبيهات الفرق النصرانية ، فقد لزم من ذلك أن يكون الخالق قد استحال وتبدلت حقيقته كسائر ما يتحد مع غيره ، وهذا ممتنع على الله ، إذ الاستحالة تقتضي عدم ما كان موجودا، والله تعالى واجب الوجود بذاته وصفاته اللازمة له التي هي كمال والتي إذا عدمت كان ذلك نقصا يتنزه الله عنه . وينتهي ابن تيمية من بسطه لمذاهب الاتحاد وتحليله ونقده لها إلى أن أقوال أصحابها تناقضا وفسادا ، وأن هذه المذاهب لا تخرج عن الاتحاد والحلول ووحدة الوجود ، مثلها في ذلك كمثل عقائد النصارى وغالية الشيعة ، غير أن النصارى

وغالية الشيعة يقولون بالحلول المقيد الخاص ، والاتحادية يقولون بـالحلول المطلق العام ، فالسطورية يقولون بأن الـلـه حـل في عيـسى ووافقهـم عـلى ذلك غالية الرافضة الذين يقولون بأن الـلـه حل في على بن أبي طالب وأئمـة بيته ، وغالية النساك الذين يقولون بالحلول في الأوليـاء ، أو مـن يعتقـدون فيه كالحلاج والحاكم مثلا . وكما يعتنق الاتحادية الحلول العـام ، يعتنقـون كذلك الاتحاد العام ، فيزعمون أن وجود الـلـه عين وجود الكائنات ، ولهـذا كانوا في نظر ابن تيمية أكفر مـن اليهـود والتـصارى مـن وجهـين : أحـدهما أنهم يقولون إن الرب يتحد بعبده الـذي قربـه واصـطفاه بعـد أن لم يكونـا متحدين ، وثـانيهما أن النـصارى خـصوا هـذا الاتحـاد أو هـذا الحلـول بمـن عظموه كالمسيح ، وأما الاتحاد فقد جعلوا ذلك ساريا في الكـلاب والخنـازير وغيرهما من المكروهات ، فإذا كان الـلـه قد أنزل في حق من قالوا بأن الـلـه هو المسيح هذه الآية : "لقـد كفـر الـذين قـالوا إن الـلــه هـو المـسيح بـن مريم".، فكيف بمن قال إن الـلـه هو الكفار والمنافقون والمجانين وكل شئ . ولهذا يخطئ أصحاب وحدة الوجود المطلقة النـصارى في أنهـم يخصـصون ، كما يخطئون عباد الأصنام لأنهم قصروا عباداتهم عـلى بعـض المظـاهر دون بعض، وأما هم (أصحاب الوحدة المطقة) فإنهم يجـوزون الـشرك وعبـادة الأصنام على وجه الإطلاق والعموم ، وفي هذا ما فيـه مـن الكفـر والـضلال . ومن ثم يظهرنا ابن تيمية على أن القول بالحلول أو ما يناسبه مـن الوحـدة والاتحاد قد وقع فيه كثير من متأخري الصوفية ، فزعموا كما زعم ابن عـربي أن إفراد المحدث عن القدم كما قال به الجنيد ليس توحيد ، وإنما التوحيـد هو ألا يكون ثمة فرق بين الرب والعبد .

ونحن نستطيع بعد ما قدمنا أن نوجز مع ابن تيمية النقط الرئيسية التي وجه إليها نقده ودار حولها تجريحه لمذهب الاتحادية :

(ا) يقول الاتحادية إن الله تجلى للحقائق الكونية ، وظهر لها ، لا إنه دل بها خلقه عليه ، وجعلها آيات له . والتجلي على هذا الوجه مخالف لما أثبته القرآن من أن المصنوعات آيات يستدل بها على الله . ولو قال الاتحادية إن الله تجلى بالحقائق الكونية ، وظهر بها ، لكان المعنى صحيحا ، ولكن المفهوم من كلامهم في التجلي والظهور أنه تجل وظهور للعين ، بدليل ما صرح به ابن عربي في قوله : " فلا تقع العين إلا عليه " . وإذن فقول الاتحادية بأن المرئي بالعين هو الله كفر صريح ، لأنه مخالف لما ورد في صحيح مسلم من قول النبي عليه الصلاة والسلام . " واعلموا أن أحكم لن يرى ربه حتي يموت " أما إذا قيل إن الله ظهر في المخلوقات وتجلى ، فإن اللفظ يصبح مشتركا بين أمرين : أن تكون ذاته فيها ، أو أن تكون بمثابة المرآة التي يظهر فيها مثال المرئي ، وكلا الأمرين باطل في نظر ابن تيمية : لأن ذات الله ليست في المخلوقات ، ولا ترى المخلوقات في نفس ذاته ، كما يرى المرئي في المرآة ، وإنما ظهورها دلالتها عليه وشهادتها له .

(ب) لو كان كل ما في الكون موجودا في الله لترتب عليه أن تكون المخلوقات جميعا جزءا من الله ، وأن يكون الله متغيرا تغير هذه المخلوقات ، مترددا مثلها بين الكمال والنقص ، وبين النقص والكمال .

(ج) إن في جعل الحق وجودا مطلقا تارة ، وفي جعل الوجود المطلق ظاهرا في الحق تارة أخرى تناقضا : فالله في إحداهما ظاهر ، وفي الأخر مظهر ، فإذا كان المراد بالظهور الوجود ، فقد ترتب على ذلك أن يكون الرب قد وجد مرة بعد مرة ، وهذا كفر شنيع ، إذ كيف يتصور تكرر وجوده ، وأنه قد وجد في نفسه بعد أن لم يكن موجودا في نفسه ؟ أما إذا كان المقصود بالظهور الوضوح والتجلي ، فليس هناك مخلوق يظهر له ويتجلى لأن العالم لم يخلق بعد ، والقائلون بالتجلي يدعون أن الحق ظهر فيه (ابن عربي) ، ولم يجعلوا ظهوره معلوما ولا مشهورا ، فكيف يتصور أن يكون متجليا لنفسه بعد أن لم يكن متجليا ؟ إن هذا وصف لله بأنه لم يكن يعلم نفسه حتى علمها .

هذا فيما يتعلق بنقد ابن تيمية لمذاهب الاتحادية عامة ، أما فيما يتعلق بمذهب ابن الفارض خاصة ، فإن ابن تيمية يصور شاعرنا على أنه من القائلين بوحدة الوجود ، وإن كان لا يصرح في كلامه بمثل ما يصرح به ابن عربي من أن وجود المخلوقات هو عين وجود الخالق ، ولا بمثل ما يصرح به القونوي من أن الله هو الوجود المطلق والوجود المعين ، وأن المطلق لا يوجد إلا في الأعيان الخارجية ، وأنه ليس لله وجود إلا الوجود القائم بالمخلوقات ، بل إن مذهب ابن الفارض أقر إلى مذهب التلمساني الذي لا يفرق بين وجود الله وثبوت الممكنات كما فعل ابن عربي ، ولا بين المطلق والمعين كما فعل القونوي ، والأمر عنده هو أنه ليس ثمة غير ولا سوى بوجه من الوجوه ، وأن العبد إنما يشهد السوى ما دام محجوبا ، فإذا انكشفت حجابه رأى أنه لا أثر للغيرية ولا للكثرة التي لا توجد إلا في

ذهن الإنسان المحجوب عن شهود الحقيقة على خلاف من انكشف حجابه فإنه يعاين أنه ليس غير ولا سوى ، وأن الرائي عين المرئي ، والمشاهد عين المشهود .

ولعلنا إذا نظرنا إلى ما أوردنا من رأي ابن تيمية في مذاهب الاتحادية عامة ، ورأيه في مذهب ابن الفارض خاصة ، نظرة فاحصة ، لاحظنا أن حظه من عمق التفكير ودقة المنطق في توجيه الاعتراض والإبانة عن أوجه الفساد كان موفورا ، ولكنه لم يكن مع ذلك من تحري الدقة في استعمال الألفاظ على مقتضياتها الاصطلاحية أو مدلولاتها التي تدل عليها في أغلب الأحيان بحيث يصطنع في فهمه أو في نقده لكل مذهب من المذاهب الواحدية من الألفاظ والعبارات ما يميزه عن غيره من المذاهب الأخرى إذا نظر إلى كل مذهب على حدة ، وما يشركه مع غيره من المذاهب إذا أريد أن يتعرف الطابع العام الذي يطبعها ، والإطار الذي يضمها ويجمعها : فلفظة " الاتحادية " عنده لفظة مرنة تتسع لكل مذهب يمت إلى الوحدة بصلة من قريب أو من بعيد وإنه ليطلقها على القائلين بالاتحاد على أنه حالة صوفية تسقط فيها الاثنينية بين المحب والمحبوب ، وعلى القائلين بالحلول على أن الطبيعة الإلهية حلت في الطبيعة الإنسانية بغير امتزاج ، وعلى القائلين بوحدة الوجود وحدة حقيقية تثبت أن وجود الله هو عين وجود العالم وهي أقرب إلى وحدة الفلاسفة في اعتماد أصحابها على منهج هو مزاج من الذوق والنظر منها إلى اتحاد الصوفية الذي هو ذوق خالص . ولهذا كان من السهل أن يتسرب إلى ذهن القارئ أن الاتحاد والحلول ووحدة الوجود كلها ألفاظ تدل على مذاهب متفقة ، والحقيقة هي أن

الاتحاد والحلول ووحدة الوجود يختلف بعضها عن بعض ، وبدل بعضها على مالايدل عليه البعض الآخر : فابن الفارض اتحادي ، والحلاج حلولي ، وابن عربي من أصحاب وحدة الوجود إذا أردنا أن نلتمس لكل منهم مذهبا خاصا بغض النظر عما عساه أن يكون عند أحدهم من العناصر التي استقاها من غيره ، فإن ذلك لا يمنع من أن يكون لكل مذهب طابعه الخاص الذي يميزه عن غيره من المذاهب الأخرى ، كما سنتبين ذلك في موضعه من كلامنا عن حقيقة مذهب ابن الفارض في الوحدة .

لم يكن ابن تيمية إذن موفقا في تسميته الاتحاد بهذا الاسم الذي أطلقه على قوم منهم من هو اتحادي حقيقة ، ومن هو اتحادي في ظاهر الأمر والحقيقة أنه حلولي ، ومن قال بوحدة الوجود وحدة حقيقية ، فابن الفارض والتلمساني اتحاديان في أعماق مذهبيهما بمعنى أن الاتحاد عندهما لا ينفك عن الحالة النفسية التي تعرض للسالك في سلووكه ، وينكشف فيها الحجاب عن نفسه فيشهد أن المحب عين المحبوب والرائي عين المرئي والمشاهد عين المشهود . وأما الحلاج فيشبه ابن الفارض والتلمساني في ارتباط الاتحاد الظاهر عنده والذي هو في حقيقة الأمر حلول ، بهذه الحالة النفسية التي تغلب فيها سلطان العاطفة على العقل . وعلى العكس من ذلك ان عربي والقونوي وأشباهما من متفلسفة الصوفية ، فإن الاتحاد عندهم عبارة عن الوحدة الذاتية الحقيقية بين الحق والخلق ، أو بين المطلق والمعين ، بحيث لا يكون لأحدهما وجود مستقل عن وجود الآخر . ناهيك بأنه ليس من مستلزمات إدراك هذا الاتحاد أو هذه الوحدة عند ابن عربي أن يكون الإنسان دائما في حالة نفسية خاصة إذا زالت عنه زال معها

الشعور بانتفاء الاثنينية والكثرة وبثبوت الوحدة - ولهـذا تـرى أن اسـتعمال ابن تيمية للفظة " الاتحـاد " عـلى هـذا الوجـه العـام دون تحديـد معناهـا الاصطلاحي الخاص في كل مذهب من المـذاهب المثبتـة للوحـدة ، فيـه مـن الخلط والاضـطراب مـا يـؤدي إلى كثـير مـن التنـاقض في فهـم مـذهب ابـن الفارض على حقيقته وجعله مرة من القائلين بالاتحاد الذي هو حالة نفسية، ومرة اخرى من القائلين بوحدة الوجود التي هي أقرب إلى الوحدة الحقيقية . ويؤيد هذا ما وقع فيه ابن تيمية نفـسه مـن هـذا التنـاقض ، إذ عـد ابـن الفارض في عداد الاتحادية ثم قال عنه بعـد ذلـك إنـه مـن أصـحاب وحـدة الوجود ، وإن كان لا يصرح بقول ابن عربي من أن وجود المخلوقات هو عين وجود الخالق ، ومعنى هـذا الاتحـاد الفـارض مـرادف إلى حـد مـا لوحـدة الوجود التي أثبتها ابن عربي ، ومذهبه فيه مشابه لمذهب التلمساني الذي يقول بأن شهود السوى ناشئ عن حالة الحجابية التي يخضع لهـا العبـد ، والتـي إذا زالـت عنـه ، وانكـشف بزوالهـا الحجـاب ، لم يـشهد الـسوى ، بـل شـهد الوحـدة بـين الـرائي والمـرئي ، وإذن فكيـف نوفـق بـين هـذه المتناقضات ؟ الحقيقة أن للفظة " الاتحاد " معناها الخاص في كل مـذهب من المذاهب التي قالت به ، ولو قد أطلق ابن تيمية على هـذه المـذاهب اسم " الواحدية " بدلا من " الاتحادية " ، لكان أكثر توفيقـا ومِنجـاة مـن الوقوع في التناقض لأن الواحدية نسبة إلى الواحد الذي قـد يكـون إدراكـه بطريق الشعور ، قـد يكـون بطريـق العقـل ، وقـد يكـون بطريـق بلتقـي فيه الشعور والعقل معا ، وبهـذا يمكـن ان ينـدرج تحـت اسـم الواحديـة مذهب ابن الفارض الذي هو اتحاد نفسي . ومذهب أمثالـه مـن أصـحاب

الأحوال والمواجيد التي ينقيد بها إدراك الوحدة ، كما ينـدرج مـذهب ابـن عربي أمثاله من الذين تكاد تكون وحدتهم وحدة حقيقية . ولسنا ننكر هنـا كل تشابه بين ابن الفارض وابن عربي ولكن الذي ننكره هو أن يكون مـؤدي الاتحاد في جملته عند ابن الفارض عين مؤدي وحدة الوجود في جملتها عنـد ابن عربي ، وأقول الاتحاد في جملته أي من حيـث علاقتـه بالحالـة النفـسية التي خضعت لها نفس الفارض بشكل عام ، وذلك أنه يمكن النظر إلى اتحاد ابن الفارض من ناحيتين : إحداهما هذه الناحية العامة التي ينظر منها أليه في جملته على أنه أثر الـذوق والوجـد ، والأخـرى هـي الناحيـة التـي ينظـر منها إلى هذا الاتحاد في تفاصيله ، فـإذا تأملنـا بعـض هـذه التقاصـيل عـلى أنها أجزاء يستقل كل منها بنفسه عـن الكـل الـذي يتـألف منهـا ، رأينـا أن بينها وبين العناصر الموجودة في مـذهب ابـن عـربي تـشابها قويـا إلى الحـد الذي يغلب معه على الظن ان ابـن الفـارض كـان تلميـذا لابـن عـربي ، وأن مذهب الأخير كان مصدرا استقى منـه الأول عنـاصر مذهبـه . ولعـل هـذه النظرة هي التي حملت ابـن تيميـة وغـيره مـن الفقهـاء المتقـدمين وبعـض المحدثين الذين سنبسط آراءهم فـيما بعـد ، عـلى أن يعتقـدوا أنـه لا فـرق بين تائية ابن الفرض وفصوص ابن عربي إلا في أن هذه نثر وتلك شعر ، كـما أنه لا فرق بين عقيدة الـرجلين وحكمهـا في نظـر الـشرع ، فكلاهـما معتنـق لعقيدة وحدة الوجود وما يندرج فيهـا مـن الأفكـار المنافيـة لـروح الإسـلام كالحلول والتجلي وغيرهما مما فصله ابن تيمية وأوجرناه آنفـا . ولـو فرضـنا مع القائلين بهذا الرأي أن ابن الفارض قد استمد بعض عنـاصر مذهبـه مـن ابن عربي ، وسلمنا جدلا بأن هذا صحيح ، على الـرغم مـما يوجـه إليـه مـن

الاعتراضات التي تنفي صحة ذلك من الناحيتين التاريخية والمذهبية ، فإننا لا نستطيع بحال ما أن نزعم ان ابن الفارض قد أبقى ما أخذه عن ابن عربي على ما هو عليه ، بل الحقيقة أنه غير فيه وبدل ، وحوره تحويرا جعله ملائما كل الملائمة لمذهب صيفي يريد صاحبه أن يكون في حدود الكتاب والسنة ، وبمنجاة من الوقوع تحت طائلة رجال الدين . ومن هنا كانت هذه الصبغة النفسية التي أفاضها ابن الفارض على مذهبه ، والتي تغلبت فيها العاطفة على العقل تغلبا قويا كان من جرائه أن أصبح كلام الرجل في الاتحاد أشبه ما يكون بالخيالات السابحة منه بالحقائق الثابتة . ولو قد نظر ابن تيمية وأمثاله ممن كفروا ابن الفارض ، كما كفروا ابن عربي ، وقدروا الظروف التي أحاطت بنفس الشاعر ، لالتمسوا له العذر ولاستطاعوا أن يفرقوا بين مذهبه ومذهب ابن عربي .

ومن عجب أنهم حاولوا شيئا من هذا القبيل على نحو ما فعل ابن تيمية في تصويره لمذهب ابن الفارض وموازنته بمذهب التلمساني . وإظهار الصلة بين الاتحاد وبين حالة الكشف التي يزول فيها الحجاب عند كل من الشاعرين . ولكن من النقاد الذين عرضوا لمذهبي ابن الفارض وابن عربي من حاول هذه المحاولة ، ولكنه قصد بها إلى الطعن في خلق الرجل ، وتشويه عقيدته وسمعته على نحو ما فعله الفاضي عضد الدين الأيجي صاحب " المواقف " ، ونقله عنه علاء الدين البخاري صاحب " ناصحة الموحدين وفاضحة الملحدين " ، وأثبته برهان الدين البقاعي في كتابيه " تنبيه الغبي " و " تحذير العباد " ، وأشرنا إليه في موضعه من الفصل الرابع من الكتاب الأول ، وهو ان ابن الفارض كان يأكل الحشيش كابن عربي ،

وأن ما كان يدعيه من حصول الكشف ورؤية النبي في المنام إنما هو من الخيالات الناشئة عن فعل الحشيش . ونحن لا ننكر أن ابن الفارض كان في كثير من لحظات حياته ، وفي بعض نواحي مذهبيه ، من أصحاب الخيالات ، ولكن الذي ننكره هو أن تكون هذه الخيالات من أثر الحشيش في نفس من يأكله أو يدخنه ، فقد يغيب الإنسان عن نفسه ، ويتخيل أمورا مخالفة لما يتخيله غيره ، وذلك ولمجرد انفعال نفس قوي ، أو عاطفة عنيفة استوعبت حياته الشعورية كلها . وقد قضى ابن الفارض حياته الصوفية التي حللناها في الفصل الثاني من الكتاب الأول خاضعا لسلطان الوجد ، متأثرا بما كان يثيره الحب والجمال في نفسه من ألوان الانفعال الذي كان يقوي ويشتد في بعض الأحيان حتى يجعله غائبا دهشا لا يشعر بمن حوله من الناس ، ولا يتأثر بما يحيط به من الأشياء ، وأنما هو شاخص ببصره إلى السماء لا يأكل ولا يشرب ولا ينام ، وإنه ليقضي على هذه الحال أياما قد تبلغ العشرة ، وقد تزيد أو تنقص . وهنا نستطيع أن نقول إن لحظة يحب فيها الإنسان كما ينبغي ، ويركز فيها شعوره فيمن يحب ، على وجه ينصرف معه عن كل ما سواه ، تكفي لأن تغيبه عن نفسه ، وعن كل شئ ، وتشعره بأنه قد اتحد بمحبوبه ، وتصور له من الخيالات ما لا يقاس إليه فعل الحشيش ومن هنا يمكن القول بأنه إذا كان اتحاد ابن الفارض خيالا ، فهو ليس خيالا حاصلا من فعل الحشيش كما يزعم خصوم ابن الفارض ، ولكنه خيال راق مهذب لا يسبح في سمائه إلا أصحاب النفوس الراقية المهذبة الذين أوتوا من جلاء القلب وصفاء الحب مثل ما أوتي ابن الفارض .

٣ - وكما ذهب أكثر للمتقدمين " وعلى رأسهم ابن تيمية ، إلى أن وحدة الوجود كانت نتيجة رئيسية لحبه ، وطابعا مشتركا بين تصوفه وتصوف ابن عربي ، فقد ذهب هذا المذهب أيضا بعض المحدثين من المستشرقين ، وخالفهم فيه بعضهم الآخرممن رأوا أن وحدة الوجود عند ابن الفارض لم تكن وحدة حقيقية كما هو شانها عند ابن عربي ، بل كانت وحدة لفظية . ولكي يتبين لنا هذا فلابد من وقفات لعرض فيها لرأي كل من الأستاذة ماسينيون ودي ماتيو ونالينو ونيكلسون ودرمنجم :

فالأستاذ ماسينيون يرى أن فكرة الإله عند السهروردي المقتول وفريد الدين العطار وابن عربي تشبه فكرته عند الفلاسفة الاتفاقيين (occasionalistes) أمثال ديكارت ومالبرانش ، واما أكثر الصوفية أمثال ابن الفارض وجلال الدين الرومي والششتري والنابلسي فإن الله عندهم عبارة عن وجه جميل محبوب يتجلى فيه وتشع منه أنواره ، وهذا في رأي الأستاذ ماسينيون مشابه لإله عشاق الجمال من أهل الفن أمثال ليونادري فنسي . وليس من شك في أن ما يصور به الأستاذ ماسينيون إله ابن الفارض صحيح وملائم لطبيعة مذهبه في الحب والجمال ، وتؤيده النصوص الكثيرة من شعر الشاعر حيث يقول مثلا :

وصرح بإطلاق الجمال ولا تقل بتقييده ميلا لزخرف زينته ٢٤١

فكل مليح حسنة من جمالها معار له بل حسن كل مليحة ٢٤٢

وحيث يقول ايضا :

تــراه إن غــاب عنــي كــل جارحــة — في كــل معنــى لطيــف رائــق بهــج

في نغمـــة العـــود والنـــاي الـــرخيم — إذا تألفـا بـين ألحـان مـن الهــزج

وفي مـــسارح غـــزلان الخمائـــل في — بــرد الأصـائل والإصـباح في الـبلج

وفي مـــساقط أنـــداء الغـــمام عـــلى — بــساط نـور مـن الأزهـار منتـسج

وفي مـــساحب أذيـــال النـــسيم إذا — أهـــدى إلى ســـحيرا أطيـــب الأرج

وفي التشـامي ثغــر الكــأس مرتــشفا — ريــق المدامــة في مــسنتزه فــرج

لم أدر مـا غربـة الأوطـان وهـو معـي — وخــاطري أيــن كنــا غــير منــزعج

فالــدار داري وحبــي حــاضر ومتــى — بـــدا فمنعـــرج الجرعـــاء منعـــرج

فهذه الأبيات ، وكثير غيرها مما يجري مجراها ، تثبت صدق ما يذهب إليه الأستاذ ماسينيون في تصوير إله ابن الفارض . ولكننا نأخذ على الأستاذ ماسينيون حصره تجلي إله ابن الفارض في الصورة الجميلة ، وجعله منه وجها جميلا يتجلى جماله وتشع أنواره في هذه الصور الجميلة دون غيرها : ففي شعر ابن الفارض أبيات كثيرة تثبت أن تجلي الجمال الإلهي ليس محصورا في دائرة الصور الجميلة وحدها ، وإنما هو أوسع من ذلك نطاقا ، وأبعد آفاقا إذ يشمل الوجود كله ، ويتراءى في كل ما تقع عليه العين من المرئيات ، ومن ذلك قوله :

جلــت في تجليهــا الوجــود لنــاظري — ففــي كــل مــرئي أراهــا برؤيــة

فهو هنا يطلق تجلي الذات الإلهية مع الوجود دون أن يقيده بطائفة من الصور والمعاني دون غيرها ، ويعمم هذا التجلي تعميما يجعله شاملا لكل المرئيات التي ليس من شك في أنها تتفاوت في درجاتها من الحسن .

٤ - على أن ما عرضه الأستاذ ماسينيون من مذهب ابن الفارض في الذات الإلهية لم يكن من التفصيل بحيث يظهرنا على حقيقة هذا المذهب ، وهل هو وحدة للوجود بالمعنى الذي يفهمه ابن عربي ، أم وحدة من نوع آخر .

ولعل المستشرقين الإيطاليين دي ماتيو ونلينو هما أهم من عرض لهذه المسألة ، وحاول كل منهما أن يحلها على وجه مخالف للوجه الذي يحلها عليه الآخر .

وقد دار الخلاف بين هذين المستشرقين حول نقط ثلاث يرتبط بعضها ببعض ارتباطا وثيقا وهي : (ا) هل كان ابن الفارض تلميذا لابن عربي أخذ عنه مذهبه في وحدة الوجود أو لم يكن ؟ (ب) هل كان ابن الفارض خارجا على أحكام الكتاب والسنة ، عن شعور بذلك وعمد إليه، أو كان متمسكا بهذه الأحكام ، عاملا على الملاءمة بين مذهبه وبينها ؟ (ج) هل تأثر ابن الفارض ببعض الأفكار الأفلاطونية الجديدة ؟ وهل بين تصوفه وبين تصوف أفلوطين أوجه شبه ، أو أنه ليس شعره أثر لهذا ؟

ولننظر الآن فيما يجيب به ماتيو عن كل من هذه الأسئلة الثلاثة :

(ا) فعن المسألة الأولى نراه يورد في مقدمة ترجمته الإيطالية للتائية الكبرى بعض نصوص من " فصوص الحكم " لابن عربي ، كما يورد من

تائية ابن الفارض الكبرى الأبيات ٥٦٠ - ٦٣٨ . وهو إنما يرمي من وراء هـذا إلى إبراز مميزات مذهب ابن عربي في وحـدة الوجـود مـن ناحيـة ، وإثبـات التطابق التام بين هذا المذهب وبين مـذهب ابـن الفـارض الـذي يعـده دي ماتيو تلميذا لابن عربي من ناحية أخرى : فـابن الفـارض في نظـر دي مـاتيو من أصحاب وحدة الوجود ، لأنه في البيتـين ٢١٥ - ٣٩٩ يوحـد ذاتـه بـذات المحبوبة التي يترجمها المستشرق الإيطالي بلفظـة (Sostanza)، ومعناهـا " الجوهر " في فلسفات وحدة الوجود التي ترى أن هذا الجوهر والعـالم شـئ واحد . ويستدل دي ماتيو على أن ابن الفارض كـان كـذلك بالأبيـات ٢٤١ - ٢٦٤ التي يتحدث فيها عن الوجود الجميلة فيصورها حينا على أنها مظـاهر خارجية للجمال المطلق الحقيقى وهو جمال الذات وذلـك في البيـت ٢٤٥ ، ويوحدها حينـا آخـر بالمحبوبـات وذلـك في البيتـين ٢٥٢ و ٢٥٣ ، ويـستدل كذلك بالأبيات ١٦٢ و ٢١١ و ٢١٤ - ١١٥ و ٢١٨ و ٢٦٣ و ٣٩٩ التـي يتحـد فيها المحب بالمحبوبة ، وبالبيتين ٢٥٤ و ٢٥٥ اللذين يتحد فيهما بكل جميل وبالبيتين ٢٥٦ و ٢٥٧ اللذين يتحد فيهما بالعشاق الذين يظهـر في صـورهم المختلفة : فابن الفـارض مـن حيـث توحيـده ذات بـذات المحبوبـة ، وبكـل عاشق ، وبكل جميل ، هو عند دي ماتيو من أصحاب وحدة الوجـود ، لأنـه يرفـع التماريـز بـين الأشـخاص والـذوات ، ويـسقط التفرقـة بـين الأعـضاء والملكات ، الأمر الذي يترتب عليه أن يستغرق كل شئ في وحدة تامـة عـلى نحو ما يثبته الشاعر في الأبيات ٥٧٩ - ٥٨٨ ، وفي الأبيات ٦٣٩ - ٦٤٢ وهـذا كله ينتهي بدي ما تيـو إلى نتيجـة واحـدة هـي أن مـذهب وحـدة الوجـود

يسود " التائية الكبرى " . وهذه النتيجة تؤدي بدورها إلى أن يكون ابن الفارض خارجا على تعاليم الكتاب والسنة .

(ب) وعن السؤال الثاني يجيب دى ماتيو بأن ابن الفارض كان كابن عربي في أنه لم يستغل مثله الكتاب والسنة ليؤيد بهما العقيدة الإسلامية القائلة بوجود إله مستقل عن العالم ، بل هو قد استغلهما ، وأعلن تمسكه بهما ليؤيد عقيدة في وحدة الوجود ، فهو لم يعمد إلى ضرب المثل بظهور جبريل في صورة دحية ، وإثبات الفرق بين رؤية النبي ، وبين رؤية غيره وذلك في الأبيات ٢٨١ - ٢٨٥ ، إلا ليوضح النظرية القائلية بوجود ذات واحدة ، أو جوهر واحد يختفي وراء صور الكائنات المتعددة ، وهذا شئ له نظيره عند ابن عربي في ديوانه " ترجمان الأشواق " . وابن الفارض لم يظهر في البيت ٢٨٥ تمسكه بأحكام الكتاب والسنة وعدم تجاوزه هذه الأحكام بشكل لا شبهة فيه ولا غبار ، لأنه قد أبان قبل ذلك في البيتين ٢٦٧ و ٢٦٨ عن السبب الذي من أجله رجع إلى أعمال العبادة ، فقال إن هذا الرجوع لم يكن لشئ إلا لأنه يريد أن يصد خصوم الأوليات من الطاعنين عليهم المرجفين بهم . ومعنى هذا كله في رأي دي ماتيو هو أن ابن الفارض معتنق لوحدة الوجود ، مستعين على إثباتها بما ورد في الكتاب والسنة .

(ج) وأما السؤال الثالث الذي يدور حول ابن الفارض بأفلوطين وتشابه مذهبهما ، فقد تتلخص إجابة دي ماتيو عنه بأنه لما كان ابن الفارض من القائلين بوحدة الوجود فلابد من أن يكون قد استقى عناصر

مذهبه فيها من ابن عربي ومن بعض النظريات الأفلاطونية الجديدة ، ولهذا عقد دي ماتيو في مقدمة ترجمته الإيطاليه للتائية الكبرى فصلا خاصا أثبت فيه تأثر ابن الفارض بأفلوطين ، وبين أوجه الشبه بين فلسفة هذا وتصوف ذاك ، وأظهرنا على أن ذلك التأثر لم يكن في القول بالنفس الكلية ، بل كان في القول بالعقل الأول ، وتلك دعوى دحضها الأستاذ نلينو .

وجملة القول هي أن دي ماتيو يجعل من ابن الفارض تلميذا لابن عربي ، استقى مذهبه في وحدة الوجود من كتابي هذا الأخير " الفتوحات المكية " و " فصوص الحكم " ، وأنه كان من هذه الناحية مخالفا للعقيدة الإسلامية الصحيحة ، وأن تضمين عره بعض إشارات إلى آيات قرآنية وأحاديث قدسية لم يكن إلا استعانة على دعم عقيدته في وحدة الوجود ، مثله في ذلك كمثل ابن عربي الذي كان من المهارة الفائقة والقدرة العجيبة بحيث يستطيع تأويل نصوص القرآن والحديث ، وتوجيهها توجيها يحملها فيه من معاني وحدة الوجود ما تحتمل وأكثر مما تحتمل ، وهذا كله ليضفي على مذهبه ثوبا إسلاميا يجعله ملائما لتعاليم الكتاب والسنة .

على أن دي ماتيو لم يكن موفقا في كل ما أبداه من الملاحظات . ولعل مثله في هذا كمثل ابن تيمية وغيره من المتقدمين الذين خلطوا بين الاتحاد الصوفي الذي هو عند ابن الفارض حال من الأحوال التي تدرك فيها الوحدة في مقام سكر الجمع ، أو في مقام صحو الجمع ، وقد فصلنا القول فيهما في الفصل الثاني من الكتاب الثاني ، وبين وحدة الوجود التي هي حقيقة واقعة بصرف النظر عن إدراك الإنسان لها أو عدمه في حال

معينة . ومن هنا يمكن أن نوجه إلى دي ماتيو نفس الإعتراض الذي وجهناه إلى ابن تيمية من قبل . وأما أن ابن الفارض كان متأثرا ببعض عناصر الأفلاطونية الجديدة ، فتلك مسألة يحسن أن نرجي الخوض فيها حتى نعرض بقية أراء المحدثين في مذهب شاعرنا ، وعندئذ نستطيع أن نعرض للمصادر المختلفة التي يمكن أن يكون ابن الفارض قد استقى منها بعض عناصر مذهبه ، ومن بين هذه المصادر الفلسفية الأفلاطونية الجديدة من غير شك .

٥ - ولعل الأستاذ نلينو كان أكثر توفيقا في كشفه عن وجه الحق في المسائل الثلاث التي أثارها دي ماتيو حول مذهب ابن الفارض :

(ا) فهو يرى أن ابن الفارض لم يكن فيلسوفا من فلاسفة وحدة الوجود بل كان شاعرا صوفيا ليست قصيدته " التائية الكبرى " إلا تعبيرا عن ذوقه الشخصي الذي كان سبيله إلى الاتحاد بالذات الإلهية تارة ، وبالحقيقة المحمدية تارة أخرى ، وهذا مخالف لما يراه دي ماتيو من أن شعر ابن الفارض أثر فلسفي صور فيه صاحبة مذهبا في وحدة الوجود ، فوحدة الوجود التي يزعمها دي ماتيو مذهبا لابن الفارض ليست ، هي وما تستتبعه من خروج الشاعر على أحكام الكتاب والسنة ، إلا أمرا شكليا في رأي الأستاذ نلينو ، بدليل أن كثيرا ممن يعدون حجة في الدين كانوا من مشرب ابن الفارض : فالغزالي مثلا ، على الرغم من تعبيره عن الاتحاد الصوفي في عباراته جريئة ، فإنه لم يعد خارجا على الشرع ، لأن هناك فرقا بين الاتحاد الصوفي ، ووحدة الوجود الفلسفية . ومن هنا كان نلينو

متحفظا في اعتبارابن الفارض تلميذا لابن عربي ، لاسيما أن مذهب ابن عربي يمتاز بمزج العناصر الفلسفية والدينية المختلفة مزجا غريبا ليس له نظير في " التائية الكبرى " أو في التائية الصغرى " للشاعر المصري الذي لم يكن مشتركا مع ابن عربي إلا فيما كان يتألف منه التراث الشائع بين ضروب التصوف . وفضلا عن هذا فقد استدل نلينو على نفي تأثير ابن الفارض بابن عربي تأثر التلميذ بأستاذه ، برسالة بعث بها آسين بالاسيوس (Asin Palacios) إلى دي ماتيو ذكر فيها أسماء مائة من الصوفية كانت بينهم وبين ابن عربي صلة التلاميذ بأستاذهم ، ولم يرد ذكر لاسم ابن الفارض بين هذه الأسماء . يضاف إلى هذا كله ما يوجد من فرق بين شعر ابن الفارض وشعر ابن عربي : فأولهما يمتاز بخصائص فنية أبرزها أنه غنائي موسيقي ، في حين أن ثانيهما مطبوع بطابع الجمود العاطفي ومصبوغ بصبغة فلسفية ، فيه نصيب كبير للصناعة اللفظية التي تظهر في ديوانه " ترجمان الأشواق "

(ب) وأما عن عقيدة ابن الفارض الدينية ، وموقفه من احكام الكتابة والسنة ، فقد رأى الأستاذ نلينو أن الشاعر كان في ذلك متمسكا بتلك الأحكام كما يدل على ذلك البيت ٢٨٥ من " التائية الكبرى " ، وأن كلامه في الاتحاد لا يخرج عما ورد من أحاديث وروي من أخبار على نحو ما تظهره الأبيات ٧١٩ ، ٧٢١ من القصيدة نفسها : ناهيك بما كان يؤديه ابن الفارض من أعمال العبادة ، ومن تجريد عزمه في التجريد كما يدل عليه قوله في الأبيات ٢٦٥ - ٢٧٦ ، وهذا في نظر الأستاذ نلينو أدق أنواع التمسك بالشرع .

(ج) وأما عن أثر أفلوطين في مـذهب ابـن الفـارض ، فالأسـتاذ نلينـو يرى غير ما يراه الأسـتاذ دي مـاتيو في هـذا الـصدد : فعنـده أن ذلـك الأثـر أظهر ما يكون في مذهب ابـن عـربي منـه في مـذهب ابـن الفـارض الـذي لا يتحدث في شعره عن الـنفس الكليـة أو الـروح الكليـة ، ولـو أنـه يـستعمل لفظة هي من أخص خصائص الأفلاطونية الجديـدة هـي لفظـة " الفـيض " التي يذكرها في هذا البيت :

وجادت ولا استعداد كسب بفيضها وقبل التهي للقبول استعدت ٤٠٤

على أن هذا لا يمنع من أن بين أفلـوطين وابـن الفـارض فروقـا كـشفها الأستاذ لينو ، ودحض بها مزاعم الأستاذ دي ماتيو ، ويمكن أن نجملها فـيما يلي :

(ا) إلى أفلوطين هو الواحد الـذي لا يمكـن نعتـه بـصفة الوجـود ، لأن ذلـك معنـاه تحديـده ، وهـو لا يـصح أن ينـسب إليـه الحيـاة ، والحركـة ، والجمال ، والعقل ، والإرادة ، بل الأسماء التي تليق به هي الواحد ، الخير ، المطلق ، الأول ، وكل ما في عالم الشهادة قد صدر عن هذا الواحد ، بواسـطة فيوضات متعاقبة . أما إله ابن الفارض فهو إله المـسلمين المتـصف بـالإرادة والقدرة على الخلق والإبداع بغير واسطة . وإله أفلوطين هو الخـير المطلـق، ليس الجمال إلا مظهرا وضيعا من مظاهره ، وإله ابن الفـارض هـو الجـمال المطلق الذي يصدر عنه الحـسن الظـاهر في هـذا العـالم . ولا يتحـدث ابـن الفارض عـن الخـير المطلـق . لأن هـذا لا يتفـق ألبتـه والعقيـدة الإسـلامية الصحيحة .

(٢) تقوم فلسفة أفلوطين على القول بسلسلة من الفيوضات المتعاقبة التي ليس لها أثر في تصوف ابن الفارض إلا في البيت ٤٠٤ من تائيته الكبرى ، قد ذكرناه آنفا . ولكن استعمال ابن الفارض للفظة " الفيض " في هذا البيت مخالف لاستعمال ما يقابلها عند افلاطوين .

(٣) العقل الأول عند أفلوطين هو الذي يمنح الصور والأشكال للمادة عن طريق النفس الكلية ، وليس عند ابن الفارض ما يشبه هذا القول .

(٤) تشغل مسألة التناسخ محلا ممتازا في فلسفة أفلوطين ، في حين أن ابن الفارض قد أنكر التناسخ إنكارا تاما .

(٥) على أننا إن كنا نوافق الأستاذة نلسينو على أن ابن الفارض لم يكن تلميذا لابن عربي ، ولا خراجا على تعاليم الكتاب والسنة ، وكنا نقره على بعض ما لاحظه من فروق بين مذهبي أفلوطين وابن الفارض ، فلن نوافقه أو نقره على أن مذهب شاعرنا كان خلوا من كل أثر للافلاطونية الجديدة، لاسيما في المواضع التي يتحدث فيها ابن الفارض عن الحقيقة المحمدية حديثا نتبين من خلاله أنه يشير إلى ما يشبه النفس الكلية والمادة الأولى ، وإلى فيض الاجسام الجزئية من هذه ، وفيض الأرواح الجزئية من تلك علة نحو ما سنبينه في هذا الفصل ، وفي الفصل الذي يليه .

٦ - ويؤيد الأستاذ نيكلسون وجهة نظر الأستاذ نلينو فيما خالف فيه الأستاذ دي ماتيو : فالمستشرق الإنجليزي يرى أن " التائية الكبرى"، سواء في صورتها أم في مادتها ، لا توحي بانها كانت متأثرة بابن عربي ، بل

هي مختلفة عن غيرها من القصائد التي يظهر فيها أثر ابن عربي كعينية الجيلي ، فالتائية الكبرى ترجمة شخصية وضعها الشاعر الصوفي عن نفسه، ووصف فيها حياته الباطنية ، والوحدة التي يصورها الشاعر في هذه القصيدة ليست ثمرة من ثمرات الفكر ، وإنما هي حالة من حالات الشعور . ومع ذلك يبدو نيكلسون مترددا في أن يقطع برأي في أمر هذه الوحدة ، وهل كان ابن الفانض فيها من أصحاب وحدة الوجود حقيقة ، أو أنه كان صوفيا معتنقا لدينه اعتناقا سليما ، وعبر عن شعوره بالاتحاد مع الله في لغة وحدة الوجود ، وهل تردد النائية نظريات ابن عربي على الوجه الذي يعتقده شراحها ؟ هذه أسئلة يرى نيكلسون أنه ليس من اليسير الإجابة عنها إجابة قاطعة ، فقد ينتهي مذهب الاتحاد الصوفي منطقيا إلى مذهب ابن عربي في وحدة الوجود ، ولكن الذين يجدون في التائية صورة شعرية لهذا المذهب يخلطون بين التصوف والفلسفة . ومع أن في بعض أبيات التائية أفكار فلسفية مثال ذلك : الفيض في الأبيات ٤٠٣ - ٤٠٥ ، وعالما الامر والشهادة ، واستمداد ما فيهما من الحياة من الروح الكلية والنفس الكلية في البيت ٤٠٥ ، واللاهوت والناسوت ، وهما لفظتا الحلاج ، فإن ابن الفارض قد اتعملهما في البيت ٤٥٥ كما استعملهما ابن عربي للدلالة على الوجهين الباطن والظاهر للوجود الحق الذي يتحد به السالك ، وسبق النفس في وجودها على البدن في الأبيات ٤١ و ١٥٧ و ١٥٨و ٤٢٨ و ٦٧٠ و ٧٥٩ . فمع أن هذه الأفكار توجد في التائية إلا أن نيكلسون لا يرى في ذلك مبررا لأن يكون ابن الفارض من أتباع ابن عربي ، وذلك لأنها تتضمن مذهب وحدة الوجود ، يضاف إلى

هذا أن ابن الفارض يختلف عن الجيلي في أنه لا يظهر لنيكلسون ما يدله على تأثيره باصطلاحات ابن عربي الفلسفة ، أو أن يكون - على قدر ما يلاحظ نيكلسون - متأثرا بابن عربي تأثرا مباشرا بطريق ماله اعتباره . ومن هنا انتهى المستشرق الإنجليزي إلى أن ابن الفارض لم يكن من أصحاب وحدة الوجود حقيقة ، بل إنه في حالة الموحدة الدائمة التي يصفها ويقرر أنه وصل إليها لم يستطع أن يعبر في غير أسلوب وحدة الوجود .

هذه خلاصة ما يراه نيكلسون في مذهب ابن الفارض وعلاقته بمذهب ابن عربي ، وهو كما نلاحظ موافق لما يراه نلينو من ناحية ومخالف له من ناحية أخرى ، فأما موافقته فظاهره في أنه ينظر كنلينو إلى وحدة ابن الفارض على أنها حالة نفسية . وأما مخالفته له فهي في أن نيكلسون يلاحظ في تائية ابن الفارض وجود بعض الألفاظ والأفكار الفلسفية كالفيض وما إليه مما يجعل بين ابن الفارض وبين الأفلاطونية الجديدة سببا ما . ونحن إن كنا نوافف نيكلسون على رأيه في وحدة ابن الفارض التي تختلف اختلافا قويا عن وحدة ابن عربي إذا نظر إلى كل منهما على حدة ، فإننا لا نستطيع مع ذلك أن ننكر ما يوجد بين الوحدتين من أوجه الشبه إذا نظرنا إليهما في تفاصيلهما .

٧ - على أن مستشرقا فرنسيا هو إميل درمنجم الذي وضع كتابا عن خمرية ابن الفارض قد عقب على ملاحظات نيكلسون بقوله : إنها غاية في الدقة ، كما عقب بملاحظة جديدة ذهب فيها إلى أن الوحدة عند النابلسي الذي هو تلميذ لابن عربي ،بل عند هذا الأخير نفسه . ليست

وحدة الوجود بالمعنى الحديث المعروف لدى الغربيين . و إنما هي مذهب آخر يختلف عن وحدة الوجود

(Panthélsne) ويسمى باسم آخر هو (Pancnthéisme) ومعناه المذهب القاتل بشهود الأشياء في اللـه وشهود اللـه في الأشياء وشموله لها . ومؤدي هذه الملاحظة التي أضافها درمـنجم هـو أن ابـن عـربي والنابلـسي متفقات مع ابن الفارض في الأخذ بوحدة الشهود التي تختلف عن وحـدة الوجود . ولكن هذه الملاحظوة إن صحت بالقياس إلى مذهب ابـن الفـارض الذي الـذي لم يكـن في جملتـه إلا وحـدة للـشهود التـي يـشترك معـه فيهـا مذهب النابلسي إلى حد بعيـد . فإنهـا لا تـصلح بالقيـاس إلى مـذهب ابـن عربي بوجه عام : فقد كان مذهبا ابن الفارض والنابلسي شهوديين يـدوران حول فكرة تجلى اللـه في مظاهر الكـون ، وشـهود الـسالك بـذات الإلهيـة شهودا يرى فيه كل شئ على أنه عدم في ذاتـه بالقيـاس إلى الوجـود الحـق الواحد ، وهو وجود اللـه . أما مـذهب ابـن عـربي فعـلى الـرغم مـن أنـه يشترك مع مذهبي ابـن الفـارض والنابلـسي في وحـدة الـشهود هـذه التـي تزهر في بعض نواحيه حين يتحدث عن الذوق والوجد وما ينكشف للـسالم فيهما من شهود الوحـدة وتجـلى الـرب للعبـد ، فـإن الأغلـب عنـده لـيس وحدة للشهود بالمعنى الصوفي الذوقى الخالص ، كما هو عند ابـن الفـارض والنابلسي . وإنما الوحدة عنده وحدة الوجود بـالمعنى الفلـسفي النظـري : وطريقــه في إثباتهــا لــيس الــذوق والوجــد ومــا يجــرى مجــراهما مــن الأحوال الصوفية النفسية المجـردة عـن التفكـير النظـري أو النظـر العقـلي فحسب ، بل هو طريق يتعاون فيه الذوق والنظر وتلقتى عنـده الفلـسفة

بالتصوف بحيث يخيل إلينا ونحن تقرأ كثيرا من نصوص " نصوص الحكم " مثلا أننا إزاء كتاب فلسفي أكثر من أن نكون إزاء كتاب صوفي : ففي هذا الكتاب بصفة خاصة وفي بعض نواحي " الفتوحات المكية " نري أن ابن عربي كثيرا ما يرجع إلى العقل ويستعين بالمنطق على إثبات وحدة الوجود ، الأمر الذي يجعل مذهبه ومنهجه مخالفين مخالفة قوية لمذهب كل من ابن الفارض والنابلسي .

ولسنا ننكر بقولنا هذا كل تشابه بين ابن الفارض وابن عربي واتفاقهما في بعض النواحي ، ولكن الذي ننكره هو هذه التسوية التي يفعلها درمنجم بين مذهبي الرجلين بشكل ينتفي معه كل تفريق بين الشاعر الصوفي والصوفي المتفلسف . ولهذا نرى أن بين وحدة ابن الفارض ووحدة ابن عربي تشابها من بعض الوجوه وتخالفا من بعضها الآخر ، لعلنا فيما يلي إلى إظهار هنا بما يكشف عن حقيقة الوحدة الفارضية وعلاقتها بالحب على وجه يمكننا من وضعها في المكان اللائق بها المذاهب الواحدية في تاريخ التصوف الإسلامي .

٨ - ويتوقف تعرفنا لحقيقة هذه الوحدة ، على فهمنا لمعنى لفظة " الاتحاد الذي وصل إليه ابن الفارض في الطور الثالث من أطوار حبه ، ووصفناه في الفصل الثاني من الكتاب الثاني ، وهل يدل هذه الاتحاد عند ابن الفارض على ما يدل عليه عند غيره من الصوفية ، أو أن له مدلولا خاصا

وطابعا معينا يميزه عن مدلوله وطابعه عند هـذا الغـير ؟ فالاتحـاد في اصـطلاح الـصوفية بـصفة عامـة هـو النظريـة القائلـة بـأن اتحـاد الخـالق والمخلوق أمر ممكن ويرى المحافظون على أحكام الـشرع مـن الـصوفية أن الاتحاد بين الخالق والمخلوق ليس معناه امتزاج الاثنـين في كـائن واحـد ، أو حلول الـلـه في الانسان وتجـسده فيـه ، فـإن ذلـك مـن الآراء الـضالة التـي يرفضها بحجة أن الاتحاد على هذا الوجه يتضمن مجانـسة بـين الوجـودين ، وهذا ينا في عقيدة التوحيد الحقيقي التي لا تقرر وجودا حقيقيا غير وجـود الـلـه ، والاتحاد بهذا المعنى يتضمن وجـود كـائنين امتـزج أحـدهما بـالآخر فصارا شيئا واحدا ، عـلى حـين أن الاتحـاد عنـد هـؤلاء الـصوفية المتمـسكين بالشرع لـيس إبـا فتـاء للظـواهر في الحـق الواحـد الأبـدي ، ويعـبرون عنـه بقولهم " الفناء في الحق " . وقد يستعمل لفظ " اتحاد " في بعـض الأحيـان كما يستعمل اللفظان الصوفيان " وحدة " أو توحيد " للدلالة على المـذهب القائل بأن الكائنات لا توجد بذواتها بل هي تـستمد وجودهـا مـن الـلــه ، وعلى هذا المعنـى تكـون الكائنـات والـلــه شـيئا واحـدا . ويـذهب بعـض الصوفية إلى أن معنة الاتحاد عندهم هـو فنـاء مـراد العبـد في مـراد الحـق تعالى، كما يقول عن بن وفا . فمن أي هذه المعاني كان اتحاد ابن الفارض ؟

الحق أن اتحاد ابن الفارض لا يمكـن تحديـد معنـاه تحديـدا دقيقـا أو تأويله تأويلا معينا خاصا بـه دون غـيره مـن الـصوفية : فـإن نظـرة مدققـة في بعض أبيـات الـشاعر تكفـي لإظهارنـا ، عـلى أن الاتحـاد عنـده قـد أخـذ بطرف من كل المعاني الآنفة الذكر على وجه ما : فهو ليس امتزاجا بين الرب والعبـد مـن نـوع الامتـزاج الـذي يـؤدي إلى حلـول الـلــه في الإنــسان

كحلول جسم في جسم ، او تحلل جرم لجرم ، كما يدل على ذلك قوله في الخمرية :

وهامت بها روحي بحيث تمازجا اتـ ـحادا ولا جــــرم تخلله جرم

وقوله في التائية الكبرى :

متى حلت عن قولي أنا هي أو أقل وحلشا لمثلي أنها في حلت ٢٧٧

وهو قد يدل على ما يدل عليه المذهب القائل بأن كل الكائنات تستمد وجوده وحياتها من الحقيقة المحمدية التي لم يخرج عنها شئ كما يشير إلى هذا بقوله :

ولا تحسبن الأمر عني خارجا فما ساد إلا داخل في عبودتي ٦٣٦

ولولاي لم يوجد وجود ولم يكن شهود ولم تعهد عهود بذمة

فلا حي إلا عن حياتي حياته وطوع مرادي كل نفس مريدة ٦٣٨

وهو يدل بعد هذا وذاك على فناء مراد العبد في مراد الحق تعالى كما يظهرنا على ذلك قوله :

وكنت بها صبا فلما تركت ما أريد أرادتني لها وأحبت ٢٠٤

فصرت حبيبا بل محبا لنفسه وليس كقول مر نفسي حبيبتي ٢٠٥

فأنت ترى من هذه الأبيات أن للاتحاد عند ابن الفارض معاني عدة يمكن أن يدل كل معنى منها على مذهب خاص ، ولكن شاعرنا قد أخذ

هذه المعاني كلها وأدخلها في مذهبه على وجه جعله ملائما لأحكام الدين، بخلاف غيره من الصوفية الذين قال بعضهم بالحلول ولم يقل بالامتزاج كالحلاج ، وقال بعضهم الآخر بوحدة الله والعالم ، وأنه ليس للعالم وجود غير وجود الله كابن عربي . على أنه وإن لم يكن معنيا بتحديد معاني الألفاظ والتدقيق فيها إلى الحد الذي يزيل كل شبهة ، ويمحو كل لبس ، ويوجه أفكاره توجيها واحدا مستقينا ، فإن لمذاهبه في الاتحاد مميزاته الخاصة التي تميزه من اتحاد الحلولية أو القائلين بوحدة الوجود ، كما أن بينه وبين أولئك وهؤلاء تشابها في بعض الألفاظ والعبارات والأساليب . ولكي نتبين هذا كله ونتمكن من إظهار الوحدة الفارضية على حقيقتها ، فقد قسمنا كلامنا عن هذه المسألة الدقيقة إلى قسمين يشتمل كل منهما على صورة معينة : إحداهما صورة الوحدة الفارضية في جعلتها وفي طابعها الخاص الذي طبعت به ، والأخرى صورتها في تفاصيلها التي تألفت منها ، وما عسى أن يكون في هذه التفاصيل من العناصر الصوفية أو الفلسفية الإسلامية وغير الإسلامية التي استقاها ابن الفارض من مذاهب غيره ، أو التي تشعر على أقل تقدير بأن بينه وبين أصحابها وجها من أوجه الشبه أو التقارب في الأفكار والمنازع .

٩ - فأما الصورة الأولى فهي التي تمثل العلاقة بين حب ابن الفارض ووحدته من حيث هي نتيجة نهائية لهذا الحب ، ولا يمكن النظر إليها مستقلة عن الحالة النفسية التي أدرك فيها الشاعر هذه الوحدة بين نفسه وبين الذات الإلهية تارة ، وبين هذه الذوات وبين مظاهرها في العالم الخارجي تارة أخرى ، وتبدو الوحدة هنا مختلفة كل الاختلاف عن وحدة

الوجود بمعناها الفلسفي المعروف ، فقد رأينا عند الكلام على أطوار الحب في الفصل الثاني من الكتاب الثاني أن فناء ابن الفارض لم يكن فناء عن وجود السوي ، وهو هذا الفناء الذي قال عنه ابن قيم الجوزية إنه فناء الملاحدة القائلين بوحدة الوجود ، وبأنه ما ثم غير الله ، وبنفي التعدد والتكثر عن الوجود بكل اعتبار ، وبأنه ليس ثمة فرق بين وجود الرب ووجود العبد ، ولا بين الله والعالم . لم يكن فناء ابن الفارض من هذا النوع، بل كان من ناحية ، فناء عن شهود السوي ، بمعنى أن الانسان لا ينفي وجود ما سوى الله في الخارج ، وإنما هو ينكر في شهوده وحسه هذا السوي ، وكان من ناحية أخرى ، فناء عن إرادة السوي بمعنى أن المحب يفني عن مراده بمراد محبوبه ، وهذا الفناء الأخير هو فناء خواص الأولياء وأئمة المقربين ، كما أن الاتحاد الذي يتضمنه صحيح لدى العقل (ابن قيم الجوزية) . ولهذا كان أخص ما يمتاز به الاتحاد الفارضي أنه حالة نفسية يشعر فيها المحب بأنه هو والذات الإلهية شئ واحد ، كما يشهد فيها تجلي الذات في مظاهر الكون . ولو رجعنا إلى ما ذكرناه في الفصل الثاني من الكتاب الثاني عن بداية هذا الاتحاد ونهايته ، وأنه كان في بدايته سكرا للجمع وفي نهايته صحوا للجمع ، لتبينا أنه لم يخرج في كلتا الحالتين عن كونه شعورا نفسيا باتحاد المحب والمحبوب ، وأن الأمد بعيد بينه وبين وحدة الوجود التي يقول أصحابها بالفناء عن وجود السوي ، ونفي الغيرية أو التفرقة بين الله والعالم . ولكن الذين يقرمون شعر ابن الفارض في وصف اتحاده دون نظر إلى ظروفه النفسية يذهبون إلى أنه إنما يعبر عن وحدة الوجود التي يعبر عنها غيره من المعتنقين لها . ولعل تصريح ابن الفارض

بأنه قد أدرك اتحاد ذاته بذات المحبوبة في حال الصو كما أدركها في حال السكر ، كان مبررا في نظر البعض لأن يكون الشاعر من أصحاب وحدة الوجود زاعمين أنه إن صح أن يكون السكر حالا يغيب فيها الإنسان عن وعيه وعقله فيعبر عن مشاهداته بعبارات كتلك التي عبر بها ابن الفارض عن اتحاده ، فإنه لا يصح أن يكون الصحو حالا كالسكر ، ولا أن يكون حكم ما يقال في أحدهما كحكم ما يقال في الآخر ، إذ صاحب السكر غائب عن وعيه وعقله ، وأما صاحب الصحو فليس كذلك . غير أن الذين يذهبون هذا المذهب يستطيعون أن يلتمسوا لابن الفارض عذرا فيما عبر به عن اتحاده مع محبوبته في صحوه ، إذا علموا أن صحو ابن الفارض ليس صحوا عاديا كالذي يشترط الجنيد في السالك منذ بداية سلوكه ، وإنما هو صحو يأتي بعد المحو والغيبة ، ولهذا لا يخرج عن كونه حالا صوفية من الحالات التي تتعاقب على نفس السالك ، لاسيما أن الفاني عن نفسه في حال السكر ، كما كان ابن الفارض في بداية اتحاده ، لا يرد إلى أوصافه بعد زوال سكره عنه ، وعودة الصحو إليه ، بل يقام في مقام البقاء بأوصاف الحق كما يقول الجنيد . ومن ثم كانت الوحدة التي أدركها ابن الفارض بأوصاف في صحو وحدة في حال أقامه الله فيها ، وأشهده عليها، وليست من قبيل وحدة الوجود التي يقررها العقل من حيث هو عقل خاضع لقواعد المنطق وأساليب النظر ، وغير متأثر بالأحوال النفسية التي يختلف حكمها عن حكم الأنظار العقلية . وكأن ابن الفارض قد أحس بما سيوجه إليه من لوم ومؤاخذة فأفصح عن حقيقة مذهبه ، والتمس لنفسه العذر لدى العقل في قوله عن ظهور المحبوبة له في هذه الأبيات :

أطيـــب مـــا فيهـــا وجـــدت بمبتـــدا غرامـــي وقـــد أبـــدى بهـــا كـــل نـــذرة ٣٣٤

ظهـوري وقـد أخفيـت حـالي منـشدا بهـــا طربـــا والحـــال غـــير خفيـــة

بـدت فرأيـت الحـزم في نقـص تـوبي وقـام بهـا عنـد النهـي عـذر محنـي ٣٣٦

وإذا كان ذلك كذلك فقد تحرر ابـن الفـارض إذن مـن سـلطان العقـل وأطلق نفسه على سجيتها ، وخلي بينها وبين عاطفتها القويـة العنيفـة نحـو محبوبته الحقيقية ، وعبر عن اتحاده بها وشهوده لهـا ، بعبـارات قـد يبـدو بعـضها لأول وهلـة مسـشنعا ، ومـوهما بوحـدة الـشهود ووحـدة الوجـود اختلاطا ا يكاد يبين معه موقف الرجل بـشكل واضـح ، وهـل وحدتـه التـي يصفها هي عين وحدة ابن عربي وأشباهه من متفلـسفة الـصوفية ، أو هـي مختلفة عنها : فنحن نـراه يتحـدث عـن الـتجلي وهـو هـذه النظريـة التـي جرحها ابن تيمية ، وأثبت مناقضتها للدين الصحيح ، ولكنه في حديثـه عـن هذا التجلي إنما يمزجه بوحدة ، ويلبسه هذا الثوب النفساني الذي يميزه عـن ابن عربي في أكثر نواحي مذهبه ، فاسمع إليه حيث يقول :

جلـــت في تجليهـــا الوجـــود لنظـــاري ففـــي كـــل مـــرئي أراهـــا برؤيـــة ٢١٠

وأشـــهدت غيبـــي إذ بـــدت فوجـــدتني هنالـــك إياهـــا بجلـــوة خلـــوتي

وطـاح وجـودي في شـهودي وبنـت عـن وجـود شـهودي مـا حيـا غـير مثبـت

وعانقـت مـا شـاهدت في محـو شـاهدي بمـشهده للـصحو مـن بعـد سـكرتي

ففـــي الـــصحو بعـــد المحـــو لم أك غيرهـــا وذاتي بـــذاتي إذ تحلـــت تجلـــت ٢١٤

لترى أن المحبوبة في تجليها له قد أظهرته أيضا على الوجود فإذا هو يراها في كل مرئي رؤية عينية ، وأنه لما انكشف له باطنه وجد أنه أصبح والمحبوبة شيئا واحدا عند هذا التجلي ، فلم يبعد يرى لنفسه وجودا إلى جانب وجود المحبوبة ، لأن وجود قد أمحى في شهوده ، وأ،ه قد أصبح في صحوه بعد سكره فانيا عن الوجود الظاهر ، متحققا بوجود المحبوبة التي سقط كل تمايز بين ذاته وذاتها . وكيف يمكن أن تكون وحدة ابن الفارض وحدة للوجود وهو يبين لنا الفرق بين الوجود والشهود ، وبين حالة في إدراك أحدهما وحاله في إدراك الآخر ، فيقول في وصف نفسه قبل أن ينكشف عنه الحجاب ، وحين لم يكن مستطيعا للتخلص من التنوية :

كذا كنت حينا قبل أن يكشف الغطا	من اللبس لا أنفك عن ثنوية ٢٣٠
أروح يفقد بالشهود مؤلفي	وأغدو بوجد بالوجود مشتي
يفرقني لي النزاما بمحضري	ويجمعني سلبي اصطلاما بغيبتي
إخال حضيضي الصحو والسكر معرجي	إليها ومحو منتهى قاب سدرتي ٢٣٣

ألا ترى إلى البيت الثاني من هذه الأبيات كيف يكشف في وضوح عن معنى كل من الشهود والوجود ؟ فالشهود عند شاعرنا هو علة فقده لوجوده الذاتي ، واتحاده بذات محبوبته ، على عكس الوجود ، فإنه علة وجده لذاته وتفرقته عن ذات محبوبته. ثم ألا ترى إلى البيت الثالث الذي يؤكد فيه الشاعر ذلك الفرق بين الوجود والشهود ، فيقول إن العقل هو علة التفرقة الحاصلة عند إدراك الوجود ، كما أن الغيبة عن هذا العقل هي علة الجمع ، أو الاتحاد الحاصل في الشهود ، الأمر الذي يجعل للفظ

الوجود معناه الخاص عند ابـن الفـارض الـذي يـضعه في مرتبـة هـي دون مرتبة الشهود من حيث إدراك الوحدة بين المحـب والمحبـوب ؟ ولـيس أدل على هذا من استعماله للفظتي " الوجود والشهود ، في قوله " :

وشفع وجودي في شهودي ظل في اتـ حادي وترا في تيقظ غفوتي ٤٥٣

وفي قوله :

تعانقـت الأطـراف عنـدي وانطـوى بـساط الـسوي عـدلا بحكـم الـسويد ٤٩٠

وعـــاد وجـــودي في ثنويـــة الـــ وجـــود شـــهودا في بقـــا أحديـــة ٤٩١

فالبيتان الأول والثالث صريحان في إظهارنا على أن ابن الفارض حريص كل الحرص على أن يعبر عن الثنوية (الـشفع) بـالوجود ، وعـن الأحديـة (الوتر) بالشهود ، مـما لا يـدع مجـالا للريـب في أن للوحـدة التـي يـصورها معناها الخاص الذي يختلف عن معناها عند القائلين بوحـدة الوجـود، وأن الخير كل الخير هو أن نطلق عـلى وحـدة ابـن الفـارض اسـما نـستمده مـن مدلولات الألفاظ التي يستعملها ونميزها به عن غيرها ، فنقول وحدة شهود (Panenthéisme) لا وحدة وجـود (Panthéisme) وهـو الاسـم الـذي إطلاقة على مذهب عربي في جملته .

١٠ - هذه هـي وحـدة ابـن الفـارض مـن الناحيـة اللفظيـة ، أمـا مـن الناحيـة المعنويـة ، أو قـل مـن الناحيـة المذهبيـة ، فـإن ابـن الفـارض لم يكن ، كما أشرنا في أوائل هذا الفـصل ، فيلـسوفا ولا صـاحب ذوق وحـال ،

غلبت عليه العاطفة القوية ، وخضعت نفسه لسلطانها ، وانتهت به في آخر الأمر إلى شهودا الوحدة ، أو وحدة الشهود التي سقط فيها كل تمايز بينه وبين الذات الإلهية ، وفنى معها كل وجود فردي عند تجلي الذات تجليا لا يشهد معه غيرها ، بل يشهد معه الذات متجلية في كل مرئي ، فإذا هو يصبح ممن أعماق نفسه كالمجنون أو كالسكران قائلا :

متى حلت عن قولي أنا هي أو أقل وحاشا لمثلي أنها في حلت ٢٨٧

وقائلا :

ومن أنا إياها إلى حيث لا إلى عرجت وعطرت الوجود برجعتي

وعن أنا إياي لباطن حكمه وظاهر أحكام أقيمت لدعوتي

فغاية مجذوبي إليها ومنتهى مرادية ما أسلفته قبل توبتي ٣٢٨

وإن ابن الفارض في تعبيره عن الاتحاد بمثل هذه العبارات ، وفي حالة التي أدرك فيها هذا الاتحاد كان مشابها من بعض الوجوه للحسين بن منصور الحلاج ومخالفا له من بعض الوجوه الأخرى : أليس قول ابن الفارض في البيت ٢٧٧

" أنا هي " وقوله في البيت ٣٢٦ " أنا إياها " هما بعينهما قول الحلاج " أنا الحق " وقوله " أنا من أهوى ومن أهوى أنا " : وإلى هنا يتفق ابن الفارض مع الحلاج ، ولكنهما يفترقان بعد ذلك إذا لاحظنا أن عبارات ابن الفارض صريحة في التعبير عن الاتحاد بمعنى الشهود الآنف الذكر ، ولا تنطوي إلا عليه أو على ما يناسبه ، أما عبارات الحلاج ، وإن

كانت مشعرة في ظاهرها بالاتحاد ، فإنها قد انطوت على معنى آخر مخالف كل المخالفة للاتحاد كما عرفه ابن الفارض ، ومناف بالتالي لأحكام الشرع وتعاليمه ، ذلك بأن الحلاج كان حلوليا يعتقد بحلول المحبوب في المحب ، أو اللاهوت في الناسوت دون أن يكون هناك امتزاج تام بينهما ، وذلك إذا فتى العبد عن صفات العبودية ، وحلت محلها صفات الربوبية ، والحلول بهذا الوجه لا ينفي الاثنينية بين المحب والمحبوب ، كما ينفيها اتحاد ابن الفارض : فمؤدي مذهب الحلاج هو أنه على الرغم من إمكان اتحاد الطبيعتين الإلهية والإنسانية تحت ظروف خاصة ، وفي حالة معينة يبلغ فيها الإنسان درجة معينة من الصفاء ، فإن هذا الاتحاد بينهما لا يكون جوهريا أو ذاتيا تمتزج فيه الطبيعتان امتزاجا تصيران فيه طبيعة واحدة ، إذ مهما بلغ الإنسان من هذا الصفاء ومن الفناء عن نفسه في حال الاتحاد ، فإنه يظل مع ذلك مختفظا بشخصيته ، مثله في ذلك كمثل الماء إذا مزج بالخمر فإنه لا يصير خمرا مع هذا الامتزاج . وإلى هذا الحلول يشير الحلاج بقوله:

أنا من أهوى ومن أهوى أنا ... نحن روحان حللنا بدنا
فإذا أبصرتني أبصرته ... وإذا أبصرته أبصرتنا

وبقوله :

أنت بين الشفاف والقلب تجري ... مثل جري الدموع من أجفاني
وتحل الضمير جوف فؤادي ... كحلول الأرواح في الأبدان

وإلى نفي الامتزاج بين اللاهوت والناسوت يشير بقوله :

".... وكما أن ناسوتيتي مستهلكة في لا هويتك غير ممازجة لها فلا هوتيتك مستولية على ناسوتيتي غير ممازجة لها " .

وبقوله :

" من ظن أن الإلهية تمتزج بالبشرية ، والبشرية بالإلهية فقد كفر ، فإن الله تعالى تفرد بذاته وصفاته عن ذوات الخلق وصفاتهم ولا يشبههم بوجه من الوجود ولا يشبهونه " .

فالحلاج إذن حلولي ينظر إلى اللاهوت والناسوت ، أو الرب والعبد، أو المحبوب والمحب ، على أنهما شيئان متمايزان في ذاتهما وحقيقتهما ، ولكنه يعتقد كذلك أن اللاهوت يمكن أن يتحد بالناسوت إذا بلغ هذا الأخير درجة خاصة من الفناء والصفاء الروحي ، وأن هذا الاتحاد معناه تخلل شئ لشئ آخر دون أن يمتزج به ، وهذا مخالف كل المخالف للمذاهب الواحدية الأخرى سواء ما كان منها قائلا بوحدة الشهود كمذهب ابن الفارض ، أو ما كان قائلا بوحدة الوجود كمذهب ابن عربي : فليس الاتحاد عند ابن الفارض تخللا لجسم في جسم ، ولا حلولا لطبيعة الله في طبيعة الإنسان ، وإنما هو فناء عن شهود ما سوى الله فناء تاما بحيث لا يشهد السالك إلا ذاتا واحدة هي ذات الله التي فنيت فيها كل الذوات . وها نحن أولاء قد رأينا من الأبيات التي أثبتناها له آنفا كيف عبر عن اتحاده في لغة الشهود التي لا تحتمل غير تأويل واحد هو أنه لا

يشهد إلا ذاتا واحدة هي الذات الإلهية ، وأن شهوده لها ليس مهناه أنه كان قبل الشهود وجودا مستقلا عن وجود الذات ثم اتحد الوجودان ، حل في الأخر وتخلله كما يتخلله كما يتخلله جسم جسما آخر ، ولكن معناه نفي الثنوية بين الله والإنسان من ناحية ، ونفي التعدد بين الله والكائنات من ناحية أخرى ، وإثبات أنه في شهود لا يرى إلا ذاتيا واحدة قد انعدم إلى جانبها كل شئ . وليس أدل على مذهب ابن الفارض في هذه المسألة من أبياته التي يعبر فيها عن شهود للوحدة بما ينفي الامتزاج والحلول اللذين لا يكونان دائما إلا بين شيئين مختلفين ذاتا وطبيعة ، فإنه في هذه الأبيات قد نفي المعبة والأثنينية نفيا لا يدع مجالا للشك في أن الاتحاد أو الوحدة عنده مختلفان كل الإختلاف عما كانا عليه عند الحلاج . قال ابن الفارض بعد أن تحدث عن ظهور الذات الإلهية وتجليها بصورة العشاق والمعشوقات من فتيان العرب وفتيانهم :

وما زلت إياها وإياي لم تزل ... ولا فرق بل ذاتي لذاتي أحبت ٢٦٣

وليس معي في ذلك الملك شئ سواي والـ ... معينة لم تخطر على ألمعية ٢٦٤

وقال أيضا :

وأستار لبس الحس لما كشفتها ... وكانت لها أسرار حكمي أرخمت ٥٢٥

رفعت حجاب النفس عنها بكشفي الـ ... نقاب فكانت عن سؤالي مجيبتي

وكنت جلا مرآة ذاتي من صدا ... صفاتي ومني أحدقت بأشعة

وأشهدتني إياي إذ لا سواي في ... شهودي موجود فيقضي بزحمة ٥٢٨

فالبيت الثاني من البيتين الأولـين والبيـت الرابـع مـن الأبيـات الأخـيرة يكفيان لإظهارنا على مبلغ الفرق بين اتحاد الحلاج واتحاد ابن الفارض ، فـإن هذا الأخير بنفيه للمعية وللسوى المشار إليهما قد نفي أيضا إمكانية الحلول الذي لا يمكـن أن يكـون إلا بـين شـيئين يتحـد أحـدهما مـع الآخـر أو يحـل أحدهما في الآخر ، على حين أن الأول كـان صريحـا في اعتناقـه للحلـول كـما تنطق به نصوصه التي أثبتناها آنفا . ومـن هنـا كـان ابـن الفـارض واحـدي المذهب وكان الحلاج اثنينه .

١١ - وإذا لم يكن اتحاد ابـن الفـارض اتحـادا مـن نـوع اتحـاد الحـلاج وحلولـه فـماذا عـسى أن يكـون إذن ؟ لقـد ضرب ابـن الفـارض مـثلا أبـاق فيه عن حقيقة مذهبه في هذه الناحية ، وأنه ملائم لأحكام الكتاب والـسنة مـما يـؤدي في النهايـة إلى إظهـار الفـرق بينـه وبـين الحلـول الـذي ينـافي هذه الأحكام ، فـشاعرنا يـضرب المثـل بظهـور جبريـل للنبـي عليـه الـصلاة والسلام في صورة دحيـة الكلبـى ، ويـرى أنـه لـيس في ظهـور جبريـل بهـذه الصورة حلول ، ولكنه شئ آخر مستمد من القرأن والحديث اسمه " اللـبس " ، يختلف عن الحلول في أن هذا الأخير يتضمن تداخل الطبيعـة الإلهيـة في الطبيعة الإنسانية كتداخل الـروح في البـدن ، عـلى حـين أن " اللـبس " كـما يفهم من مؤدي أبيات ابن الفارض الآنفة الـذكر ، والأبيـات التـي سـنوردها بعد ، عبارة عن الفكر القائلة بأن الإنسان إذا كـشف عنـه حجـاب الحـس ، وفني عن علائق النفس ، وأصبح في حالة من الروحانية لم تكن له من قبل ، استطاع أن يـشهد شـهودا ذوقيـا ، الـذات الإلهيـة المطلقـة عـن كـل قيـد ،

المنزهة عن كل تعين ، كما يقول ابن الفارض ، وقد وصف لنا هذه الحال التي وصل إليها في هذه الأبيات :

وعانقتني لا بالتزام جوارحي الـ ـجوانح لكنني اعتنقت هويتي ٥٣٠

وأزجدتني روحي وروح تنفسي يعطر أنفاس العبير المفتت

وعن شرك وصف الحس كلي منزه وفي وقد وحدت ذاتي نزهتي ٥٣٢

واستطاع أن يتبين أيضا أن الله لم يخلق المظاهر الكونية إلا ليظهر نفسه لنفسه لا لغيره ، لأنه ليس ثمة معه في الوجود غيره حتى يظهر نفسه له ، كما سبق أن نفي المعية والسوي في البيتين ٢٦٤ و ٥٢٨ . ونحن إذا تأملنا ما ينطوي عليه مذهب ابن الفارض من أنه شهود لا يعترف فيه بغير الذات الواحدة بحيث لا يدع منفذا للحلول أو ما يشبه الحلول من الأفكار الضالة التي نسبها إليه خصومه من الفقهاء ، وإذا تدبرنا كذلك أبياته التي صرح فيها بالاتحاد تارة وباللبس تارة أخرى ، كما صرح بنفي الحلول عن عقيدته حيث يقول :

متى حلت عن قولي أنا أو أقل وحاشا لمثلي أنها في حلت ٢٧٧

إلى أن يقول :

وها دحية وافي الأمين نبيا بصورته في بدء وحي النبوءة ٢٨٠

أجبريل قل لي كان دحية إذ بدا لمهدي الهدى في هيئة بشرية

وفي علمه عن حاضريه مزية بماهية المرئى من غير مرية

يــرى ملكــت يــوحي إليــه وغــيره يـــرى رجـــلا يـــدعي لديـــه بـــصحبة
ولي مـــن أتـــم الـــرؤيتين إشـــارة تنـــزه عـــن رأي الحلـــول عقيـــدتي
وفي الـذكر ذكـر اللـبس لـيس بمنكـر ولم أعـد عـن حكمـي كتـاب وسـنة ٢٨٥

أقول إذا تدبرنا هذا كله أمكننا أن نستخلص منه النتائج التالية :

١ - ابن الفارض يشبه الحـلاج في حالـه وفي عاطفتـه : فكلامهـما رجـل سيعا الحب على نفسه سيطرة قوية .

٢ - مذهب ابن الفارض يختلف عن مـذهب الاحـلاج في أن أولهـما لا يمت إلى الحلول بصلة ، بل إن الاتحاد الذي هو نقطة الارتكاز فيه يـصح أن يطلق عليه اسم الشهود أو اللبس ، على حـين أن مـذهب الثـاني اتحـادي في ظاهره وحلولي في جوهره ، ولهذا كان مذهب ابن الفارض واحديا ومـذهب الحلاج اثنينيا .

٣ - مذهب ابـن الفـارض مـن حيـث هـو لـيس، مـستمد مـن القـرآن والكريم والحديث الشريف، في حين مذهب الحـلاج مـن حيـث هـو حلـول متأثر بالأفكار المسيحية القائلة بالاهوت والناسوت وبحلول الأول في الثاني.

٤ - لم يكـن ابـن الفـارض في ضربـه المثـل بظهـور جبريـل للنبـي في صورة دحية ، وفي قوله عن هذا الظهور إنه لبس ذكر في القرآن ، وإنـه لم يتجاوز به حدود الكتاب والسنة ، مدعيا لعقيـدة ضـالة أراد أن يـسترها

وراء هذه الألفاظ وللعبارات ليدخل في روع المعارضين له الطاعنين عليه أن مذهب ملائم لأحكام الكتاب والسنة ومستمد منهما ، ولكنه كان على العكس من ذلك صادقا فيما يقول ، وفيما أيد به مذهبه من الإشارة إلى اللبس الذي ورد في القرآن الكريم والحديث الشريف ، ولو سلمنا جدلا أن اللبس الوارد في القرآن لا يدل تماما على كل ما يدل عليه شهود ابن الفرض ، فقد يكون عدم وجود أي أثر من آثار الحلول الصريحة في هذا الشهود كافيا لإثبات أن ابن الفارض لم يقرر كالحلاج فكرة منافية لأحكام الإسلام ، ومستمدة من تعاليم مسيحية عارضها القرآن بشدة ، وأبان عن وجه البطلان فيها .

١٢ - على أن هناك شاعرا صوفيا فارسيا آخر قد يكون أقرب إلى مشاركة ابن الفارض في مذهبه في التجلي ، وإن كان في الوقت نفسه من الآخذين بمذهب الحلاج في الحلول ، وأعني بذلك الشاعر جلال الدين الرومي المتوفي سنة ٦٧٢ هـ ، فكما كان ابن الفائض يقرر أن الذات الإلهية قد جلت له الوجود في تجليها حتى أصبح يشهدها في كل مرئي (البيت ٢١٠ من النائية الكبرى) ، كذلك جلال الدين الرومي كان يرى أن العوالم الظاهرة ليست إلا صورا لذات الله ، وأن هذه الصور ليست حقيقية في ذاتها لأنها غير موجودة ، ولأن الوجود الحقيقي الذي لا يفنى ، والحقيقة التي لا تبلى ، إنما هو ذات الله وحده . فكل من الشاعر المصري والشاعر الفارسي يذهب إلى أن مظاهر الوجود المتكثرة ، وصوره المتعددة ليست في الحقيقة إلا طائفة من المجال التي تتجلى فيها الذات بحيث لا يشهد المتحقق بالشهود مزهرا أو صورة منها إلا ويشهد الذات فيه .

ولكن جلال الدين الرومي لا يلبث أن يفترق عن ابـن الفـارض ليتفـق مـع الحلاج في القول مثله بالحلول ، ولعل حلوله كان أوسع نطاقا ، وأبعد آفاقـا من حلول الحلاج ، فأكثر ما يظهر حلول الحـلاج في العلاقـة بـين الاهـوت أو الـلـه أو المحبوب ، وبين الناسوت أو الإنسان أو المحب ، في حـين أن حلـول جلال الدين الرومي - إلى جانب اتخـاذه هـذه الـصورة الخاصـة التـي هـي أخص خصائص الحلول عند الحلاج - يتخذ صورة أخرى أعم وأشمل ، وهـي التي يظهرنا من خلالها على حلـول الـصفات الإلهيـة في كـل ذرة مـن ذرات الاكوان : فأما الصورة الأولى فيدل عليها خطابـه لمحبوبـه حيـث يقـول : : " سعيدة هذه اللحظة التي أراني فيها جالسين في القصر ، بما لنـا مـن صـورتين ووجهين ، ولكن بما لك ولي من روح واحدة " . وأمـا الـصورة الثانيـة فيـدل عليها اعتقاده أن كل ذرة في الوجود إنما تظهر صفة من صـفات الـلــه ، لأن هذه الصفات تتجلى وتحـل في هـذه الـذرات بمقـادير مختلفـة . ومـن هنـا نـستطيع أن نقـول إن جـلال الـدين الرومـي كـان شـهوديا كـابن الفـارض ، وحلوليا كالحلاج . ولـيس مـن شـك في أن ابـن الفـارض كـان أكـثر توفيقـا ، وأسلم منطقا من الحلاج وجلال الدين الرومي ، إذ أن وحدتـه التـي انتهـى إليها في شهوده كانـت أكـثر ملاءمـة لمذهبـه في الاتحـاد ، وأقـدر عـلى نفـي الاثنينية بين الـلـه والإنسان ، ومحو الكثرة التي تفرق بين الـلـه وبين مظاهر الكون ، ومن حلول الحلاج ومن شهود الرومـي اللـذين عـلى مـا تـشعر بـه عباراتهما من اتحاد ووحدو ، فإن عنـصر الحلـول عنـدها لا يلغـي الاثنينيـة والكثرة إلغاء تاما ، ولا يثبت الوحدة إثباتا لا شبهة فيه ولا غبار عليه .

١٣ - ولعل في مذهب ابن عربي ناحية لا تكاد تختلف في كثير أو قليل عن مذهب ابن الفارض في إثباته لوحدة الشهود ونفيه للحلول ، كما أن فيه ناحية أخرى مناقضة له كل المناقضة ، لا في أن ابن عربي يعارض فيها الوحدة ويثبت الحلول ، بل لأن الشيخ الأكبر قد اصطنع في الأولى منهج ابن الفارض الذوقي النفساني الخالص ، ووصل عن طريقه إلى وحدة الشهود التي لا يقول معها بالحلول ، على حين أنه في الثانية قد اصطنع منهجه هو ، الذي ليس ذوقا خالصا ولا شعورا نفسانيا بحتا ، وإنما هو منهج قد اختلط فيه عنصر الذوق بعنصر العقل ، وأثبت به وحدة من نوع آخر غير وحدة الشهوظ ، وأعنى بها وحدة الوجود التي تختلف عن الأولى في معناها ، وتتفق معها في نفي الحلول ، فأما وحدة الشهود عند ابن عربي فتظهر واضحة جلية حيث يتحدث في الباب الثاني والخمسين بعد المائتين من " الفتوحات الملكية " عن الاتحاد ، فيضرب مثلا بالقمر ليس فيه شئ من نور الشمس ، ولا أن الشمس تنتقل إليه بذاتها ، بل القمر مجلى لها ، وكذلك العبد ليس فيه شئ من خالقه ولا حل فيه . يضاف إلى هذا ما ذكره ابن عربي في " الرسالة الغوثية " من أن الاتحاد حال ، وأن من آمن بالاتحاد الذاتي قبل وقوع الحال فقد كفر ، ومن أراد التعبير عنه بعد الوصول إليه فقد أشرك ، وما ذكره في كتاب " الجلالة " من أنك إذا سمعت بالاتحاد من أهل الله تعالى أو وجدته في مصنفاتهم فلا تفهم منه ما فهمت من الاتحاد الذي يكون بين الموجودين .

فإن مرادهم من الاتحاد ليس إلا شهود الوجود الحق المطلق الذي الكل به موجود، فيتحد به الكل من حيث كون كل شئ موجودا به، معدوما بنفسه،

لا من حيث أن له وجودل خاصا اتحد به، فإنه محال . ناهيك بـأن ابـن عـربي قد تكلم عن الاتحاد بين المحبوب والمحب والرب والعبـد عـلى نحـو مـا تكلـم عنه الـصوفية مـن أصحاب الفنـاء أمثـال الحـلاج وابـن الفـارض، وذكـر هـذا الحديث القدسي الذي يستدلون به على ذلك الاتحاد وهو: "... ولا يزال عبـدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببتـه كنـت سـمعه الـذي يـسمع بـه ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجلـه التـي يمـشي بهـا : فبـي يسمع ، وبي يبصر، وبي يبطش ، وبي يمشي "... واستغل هذا الحديث إسـتغلالا انتهى منه إلى أن العبد بعد فنائه يصبح عين الحق لا صفته ، ومن حيث ذاتـه يصبح عينة الثابته في العلم الإلهي . فابن عربي هنا كـابن الفـارض صـاحب ذوق وحال وفناء، يرى مثله هذا الاتحاد الذي يشهده السالك بين نفـسه وبـين الـذات الإلهية إذا صفت منه هذه الـنفس وبلغـت مـن الروحانيـة هـذه الدرجـة التـي تمكنها من شهود ذلك الاتحاد، الأمر الذي يستخلص منـه أن ابـن عـربي في هـذه الناحية من نواحي مذهبه لم يكن من أصحاب وحـدة الوجـود (**Panthéisme**)، ولكنه من أصحاب وحدة الشهود (**Panenthéisme**). لـسنا نـزعم هنـا أن ابـن عربي كان في كل مذهبه من أصحاب وحدة الشهود دون أن يكـون مـن أصـحاب وحدة الوجود بحال ما، بل إنه كان في إحدى نواحيه من القائلين بوحدة الـشهود التي رأيناها آنفا ، ورأينا مبلغ تطابقها مع وحدة ابـن الفـارض ، وكـان في ناحيـة أخرى من المعتنقين لوحدة الوجود بمعناها الفلسفي وبمنهجها الـذي - وإن كـان ذوقيا - قد اشتمل على عنصر العقل والاستدلال المنطقي . وهذه الناحية الثانيـة هي التي غلبت على مذهب ابن عـربي حتـى أصـبح لا يعـرف إلا بهـا عنـد أكـثر القدماء والمحدثين الذين أوردنا آراءهم في أوائل هـذا الفـصل : فأولئـك وهـؤلاء ينظرون إلى مذهب ابن عربي على أنه وحدة للوجود في عمومه ، فأولئك وهؤلاء ينظـرون إلى مـذهب ابـن عـربي عـلى أنـه وحـدة للوجـود في عمومـه ، شـأنه

في هذه الوحدة كشأن اسبينوزا ، وفاتهم أنه من ناحية أخرى وحدة للذهود هي أشبه ما تكون بمذهب مالبرانش المعروف باسم الشهود في اللــه (La Vision en Dieu) ، وأنه هنا موافق لابن الفارض ، على حين أنه هناك مخالف له ، ومتفق مع اسبينواز .

١٤ - ويمكننا أن نبين بعد هذا مقدار الفرق بين وحدة الشهود يدل عليها مذهب ابن الفارض في جملته ومذهب ابن عربي في أحد وجهيه من ناحية ، وبين وحدة الوجود التي هي وجه ثان لمذهب ابن عربي من ناحية أخرى . ولعل أول ما يظهر من ابن عربي هو أن ثقته في الأحوال وما ينشأ عنها من الشهود والكشف ليست ثقة قوية ، وإلا لما قال عن الحلاج إنه ليس من أهل الاحتجاج . ومصدر هذا القول أن الحلاج كان صاحب غيبة وفناء ، وصاحب الغيبة والفناء أكثر ما يكون سكران دهشا لا يؤبه له ولا يعتبر بكلامه . وإذا كان هذا هو رأي ابن عربي في واحد من أصحاب الأحوال الذين كان ابن الفارض منهم فلا يبعد إذن أن ينظر إلى ابن الفارض كما نظر إلى الحلاج ، وأن يترتب على ذلك أن تكون هذه الوحدة التي شهدها ابن الفارض في فنائه عن نفسه والتي أقرها ابن عربي فيما سلف ، لا يبعد أن تكون من ضعف الأساس الذي أقيمت عليه والشك في سلامة الحال الذي شوهدت فيه بحيث ينصرف عنها ابن عربي إلى وحدة أخرى قد تكون أقوى أساسا ، وأدق منهجا ، وأبلغ في التعبير عما يقصد إليه . وهذا ما وصل إليه بالفعل حيث أسس مذهبه في وحدة الوجود على دعائم ليست مستمدة من الأحوال فحسب ، بل هي مؤيدة كذلك بنظر فيه شئ غير قليل من التأثر بأساليب الفلاسفة حين يريدون

أن يثبتوا نظرية من نظرياتهم . وحسبنا أن نبين الفروق بين وحدة الشهود ووحدة الوجود فيما يلي :

١ - المـنهج الـذي اصـطنعه ابـن الفـارض للوصـول إلى إدراك الوحـدة الشهودية لمنهج ذوقي نفساني ، عدته الفناء عن البـشرية ، وهـو مـن هـذه الناحية منهج شخصي ذاتي لا يعتمد على العقل ، وأما المنهج الـذي اسـتعان به ابن عربي على إثبات الوحدة الوجودية فحظ العقل فيه لا يقل عن الحظ الذوق والشعور .

فابن عربي يرى في " الفتوحات " أن أحدية كل شي معقولـة بحيـث لا يمتري فيها من لـه مـسكة عقـل ونظـر صـحيح . وأنـت إذا نظـرت إلى هـذا الواحد فلابد أن تحكم عليه بأن له رتبـة يكـون عليهـا في الوجـود : فإمـا أن يكون مؤثرا ، أو مؤثرا فيه ، وإما أنه لا يكون واحدا منهما ، وإمـا أن يكـون المجموع : فالمؤثر هو الفاعل ، والمؤثر فيه محل الانفعال ، فما في الوجـود إلا المجموع . فهذا الأسلوب المنظم المرتب ، وهذا التقسيم لمراتب الوجود ، أشبه ما يكون بأسـلوب أصـحاب النظـر وتقـسيمهم ، منـه بكـلام أصـحاب الأحوال والمواجيد .

٢ - وحدة ابن الفارض التي أدركها سواء في محوه أم في صحوه لا تخرج عن كونها حالا أقامه الـلـه فيها ، بمعنى أنـه لـو جـاز أن يـسلبه الـلـه هـذه الحال ، لما شاهد هذه الوحدة ، وأما وحدة ابن عربي فحقيقة واقعـة دائمـة . سواء أدركهـا الإنـسان أم لم يـدركها . وإن التعـدد في الوجـود أمـر تقـضي بـه

الحـواس الظـاهرة والعقـل القـاصر عـن إدراك الوحـدة الذاتيـة بـين اللــه والكون على ما هي عليه في الواقع ونفس الأمر ، فوجـود الحـق في مـذهب ابن عربي هو عين وجود الخلق لا فـرق بيـنهما إلا مـن حيـث وجهـة النظـر الاعتبارية ، بمعنى أنك إذا نظرت إلى أحدهما سميته لاهوتا وربا ومحبوبـا ، وإذا نظرت إلى الآخر سميته ناسوتا وعبدا ومحبـا ، والحقيقـة الواقعـة هــي أنهما في ذاتها عين واحدة كما يدل على ذلك قوله :

فـالحق خلــق بهـذا الوجــه فـاعتبروا ... ولــيس خلقـا بهـذا الوجـه فـاذكروا

مــن يــدر مــا قلــت لم تخـذل بـصيرته ... ولــيس يدريــه إلا مــن لــه بــصر

جمــع وفــرق فــإن العــين واحـــدة ... وهـــي الكثــيرة لا تبقـــي ولا تـــذر

ومن هنا كانت وحدة الشهود عند ابن الفارض عبارة عـن الفنـاء عـن شهود التكثر والتعدد بين المشاهِد والمشاهَد ، لا نفي هذا التكـرث والتعـدد عــن حقيقــة الوجــود ، إذ ابــن الفــارض رجــل قــد انتهــى مــن ســلوكه إلى الاستغراق في بحر التوحيد فاضمحلت ذاتـه وفنيـت في ذات الحـق ، فغـاب عن كل ما سواه ، ولم يشهد في الوجود إلا اللـه ، وهذا هو مـا يعـرف عنـد القوم بـ " الفناء في التوحيد " . أما وحدة ابن عـربي الوجوديـة فهـي عبـارة عن إسـقاط التكـثر والتعـدد في الوجـود العينـي ، إذ أن حـضرة الجمـع قـد استوعبت كل شئ ، وألغت كل تكثر أو تتعدد سواء في الشهود الشخـصي أم في الوجود الحقيقي ، بحيث تـصبح الأشـياء جميعـا مـن عـين واحـدة ، بـل تكون هي هذه العـين الواحـدة ، لأن الكـل في الحقيقـة واحـد يتكـرر عـلى مظاهر متعددة .

٣ - مذهب ابن الفارض مـن حيـث هـو شـهود للوحـدة أو وحـدة في الشهود مصطبغة بهذه الصبغة النفـسية التـي تبيناهـا ، أدنى مـا يكـون إلى مذهب فلسفي ظهر في أوربـا في القـرن الـسابع عـشر للمـيلاد ، وأعنـى بـه مذهب مـالبرانش المعـروف باسـم " الـشهود في الـلـه " (La Vision en Dieu) : ووجه ذلك أن مالبرانش يرى أن هناك اتحـادين يحـصل أحـدهما بين روح الإنسان وجسده من ناحية ويحصل الآخر بين روحه وبين الـلـه من ناحية أخرى ، وأن أهم هذين الاتحادين هو الاتحاد بالـلـه . وهـذا الاتحـاد هو ما انتهى إليه ابن الفارض في الطور الثالث من أطـوار حبـه كـما نعلـم . ويـدعو مـالبرانش إلى النـضال ضـد نـير البـدن عـلى الـروح ، وإلى أن يـوالي الإنسان وجهه نحو الـلـه الذي قد اشتمل وحده على كل الحقائق وكل النور . وفي هذا يتفق الفيلسوف المسيحي مع الصوفي المسلم ، إذ يرى هذا الأخير أن سـبيل الاتحـاد بالـلــه وشـهود الحقيقـة هـو الفنـاء عـن أهـواء الـنفس وشهوات البدن . وفوق هذا كله فإن مالبرانش يقـول إن الـلــه قـد اشـتمل على كل المعاني واحتواها في ذاته التي نشهد فيها كل شئ ، ونشهدها في كـل شئ ، وبأن معرفتنا للموجودات . ونحن قد تبينا مما أسلفنا أن ابن الفـارض يقول بمثل هذا ولا يكاد يعدوه ، ناهيك بأنه يقول بـشمول الـذات الإلهيـة لكل المظاهر الجميلة التي لم تكن عنده إلا مجلى تتجلى الذات الإلهية فيـه وتظهر ، كما يدل على ذلك قوله في مخاطبته للمحبوبة الحقيقة:

ووصــف كــمال فيــك أحــسن صــورة وأقومهــا في الخلــق منــه اســتمدت ٧١
ونعــت جــلال منــك يعــذب دونــه عــــذابي وتحلــــو عنــــده لي قتلتــــي

وسر جـــمال عنـــك كـــل ملاحـــة　　بـــه ظهـــرت في العـــالين وتمـــت ٣٧٣

وقوله الذي يتحدث فيه عن هذه المحبوبة :

لـئن جمعـت شـمل المحاسـن صـورة　　شـهدت بهـا كـل المعـاني الدقيقـة ٣٧٤

فقـد جمعـت أحـشاي كـل صـبابة　　بهـا وجـوي ينبيـك عـن كـل صـبوة ٣٧٥

وكأني بابن الفـارض حـين يقـول في البيـت ٣٧٤ عـن محبوبتـه إنهـا إن كانت مشتملة على كل صورة جميلة ، فإنه يشهد فيها كل المعـاني الدقيقـة، كأني به حين يقول هذا القول قد وصـل إلى نتيجـة هامـة مـن النتـائج التـي وصل إليها مالبرانش بعده بنحـو أربعـة قـرون : فمـما لا شـك فيـه أن ابـن الفارض في البيت المشار إليه قريب من مالبرانش الذي يقـول إننـا لا نـشهد الأشياء في نفسها ، وإنما نحن نشهد معانيها في الـلـه وبالـلـه ، غـير أن ابـن الفارض - وإن كان متفقا مع مالبرانش هذا الاتفـاق الغريـب - قـد اختلـف عنه اختلافـا يظهـر في أن الـشاعر الـصوفي المـسلم قـد غلبـت عليـه النظـرة الواحدية أكثر مما غلبت على الفيلسوف المسيحي ، وكان من نتائج ذلك مـا ذهب إليه أولهما من المبالغة في التعبير عـن الوحـدة ، هـذه المبالغـة التـي انتهت به إلى القول بأن الذات الإلهية حين تظهر له في غيرها لا يرى سـواها ، كما يقول في هذه الأبيات :

نـــاب بـــدر التهـــام طيـــف محيـــا　　ك لطـــرفي بيقظـــي إذ حكاكـــا

فراءيـــــت في ســـــواك لعـــــين　　بـــك قـــرت ومـــا رأيـــت ســـواكا

وكـــذلك الخليـــل قلـــب قـــبلي　　طوفـــه حـــين راقـــب الأفلاكـــا

أما مالبرانش فكان أكثر اعتدالا من ابن الفارض ، وأقل مبالغة منه، فذهب إلى أن شهودنا للأشياء في الله ليس معناه أننا نرى عين ذاته المطلقة عن كل تعين ، بل معناه أننا نرى هذه الذات بالنسبة إلى المخلوقات التي تشارك فيها ، لاسيما أن ما نشهده في الله ناقص وقابل لتجزئة والشكل والتكثر ، على حين أن الله بسيط وكامل إلى غير نهاية . وأكبر الظن أن يكون هذا الفرق بين ابن الفارض ومالبرانش راجعا إلى أن أولهما كان ينظر إلى المسألة بعين العاطفة ، على عكس ثانيهما الذي كان ينظر إليها بعين العقل .

هذا فيما يتعلق بمذهب ابن الفارض وما عسى أن يكون له من توجيه فلسفي له نظيره بين المذاهب ذات الصبغة الفلسفية الحقة .

أما مذهب ابن عربي في وحدته الوجودية فمختلف عنه في أن المذاهب الذي يمكن أن يقابله مذاهب بين مذاهب الفلاسفة هو مذهب اسبينوزا وليس مذهب مالبرانش ، فابن عربي في ناحية مذهبه التي تمثل وحدة الوجود وتخالف نايته الأخرى التي تمثل وحدة الشهود كما عرفناها عنده ، وتبينا مبلغ تشابهه فيها مع ابن الفارض ، قد قرر الوحدة الذاتية بين الله والعالم كأن يقول : " سبحان من خلق الأشياء وهو عينها " وقرر كذلك أن التفرقة بين ذات الله وذات المخلوقات آتية من وجهة النظر التي ينظر الإنسان منها إلى كل من ذات الله وذوات المخلوقات على حدة، بحيث إذا نظر من وجه قال حقا ، وإذا نظر من وجه آخر قال خلقا، ومع ذلك فالعين واحدة يعرفها من كان له بصر ، كما يدل على

ذلك قوله في الأبات التي أثبتناها آنفا . فلا فرق عنده إذن بين الواحدة والكثرة إلا بالاعتبار والنظر ، والعارف يستطيع أن يدرك بطريق الذوق وحدتهما ، الأمر الذي رأى معه الشيخ الأكبر أن الحس الظاهر والعقل عاجزان كل العجز عن إدراك الحقائق . واسيبنواز قد أثبت أن كل موجود إنما يوجد ولا يدرك جوهر آخر دون الله الذي هو شئ يوجد في ذاته ، وأما الأعراض أو المظاهر المتغيرة فلا يمكن أن توجد إلا في جوهر ، ولهذا لم يكن هناك جوهر آخر خارج عن الجوهر الإلهي ، كما لم يكن الله علة خارجة عن الموجودات ، وإنما هو علة مولدة لها غير مستقلة عنها . وإذا كان ذلك كذلك فقد ترتب عليه ألا يكون الله علة وجود هذا أو ذاك من الأجسام الإنسانية فحسب ، بل هو كذلك عين ذاتها التي لا يمكن إدراكها إلا من خلال ذات الله . وفوق هذا كله فإن اسبينواز يقسم المعارف إلى ثلاث أقسام أساسية ، يندرج في القسم الأول ضربان هما معرفة تأتي عن طريق التجربة الغامضة والمعول فيها على الأشياء الجزئية التي تتمثل لعقلنا مختلطة مضطربة على غير حقيقتها ، ومعرفة تأتي عن طريق الدلالات كأن نذكر أشياء معينة إذا قرأنا أو سمعنا كلمات معينة فيتكون لدينا عن تل الأشياء أفكار معينة شبيهة بهذه الأفكار التي نتخيل من خلالها الأشياء ، ويطلق اسبينواز على هذين الضربين اسم معرفة الجنس الأول ، وهي المعرفة التي تنشأ عن المسموع والمقول والمتخيل ، وأما القسم الثاني فهو ما يسميه اسبينوزا بمعرفة الجنس الثاني فتدخل فيه المعرفة العقلية التي نعرف بها طابع الأشياء عن طريق ما لدينا من الأفكار المشتركة والمعاني الكلية ، وأما القسم الثالث وهو معرفة الجنس الثالث

بمشتمل على المعرفة الحدسية التي تنشأ من البدء بفكرة كاملة لصفة معينة من صفات الله والانتهاء إلى المعرفة التامة لذات الأشياء . ومعرفة الجنس الأول هي عند اسبينوزا مصدر الخطأ ، في حين أن معرفة الجنسين الثاني والثالث هي مصدر الصواب .

وظاهر من موازنة ما قال ابن عربي بما قاله اسبينوزا في هذا القدر الذي يتشابه المذهبان هذا التشابه القوي الذي ليس في الفكرة قدمنا إلى أي حد الأساسية التي يرتكز عليها كل منهما فحسب ، بل هو يكاد يكون في التفاصيل أيضا . وإن هذه الموازنة لتنتهي بنا إلى أن نلاحظ :

١ - أن قول ابن عربي بأن الله خلق الأشياء وهو عينها ، وبأن العين واحدة ، وبأنه لا فرق بين الواحد والكثير إلا بالاعتبار ، يشبه قول اسبينوزا بأنه لا يوجد شئ خارج عن الله ، وبأن الأعراض أو المظاهر المتغيرة لا يمكن أن توجد إلا في الجوهر الإلهي الذي ليس علة وجودها فحسب ، بل هو كذلك عينها .

٢ - أن ابن عربي حين يقول إن التفرقة بين الحق والخلق ناشئة من النظر والاعتبار بوجه دون وجه ، ومن الحس الظاهر والعقل القاصر عن إدراك الوحدة الذاتية ، وبأنه لا يستطيع إدراك هذه الوحدة على ما هي عليه إلا من كان له بصر ، لا يكاد يخرج في هذا كله عما قال اسبينواز حين قسم المعارف وانتهى من تقسيمها إلى أن الحس والمخيلة وأضرابهما مصدر الخطأ ، بمعنى أن المعرفة اليقينية تكشف عن الحقيقة ، وإنما المعرفة

الصحيحة هي المعرفة الحدسية . أليس إنكار اسبينوزا على الحس والمخيلة معرفة الحقيقة على ما هي عليه هو عين قول ابن عربي إن الحس الظاهر والعقل قاصران عن إدراك الوحدة الحقيقية بين الحق والخلق ؟ ثم أليس إيثار اسبينوزا للمعرفة الحدسية هو عين قول ابن عربي إن إدراك الوحدة لا يستطيعه إلا من كان له بصر مثله ؟ بلى ! إن ابن عربي واسبينوزا منفقان في هذا اتفاقا واضحا لا تكاد ترى معه فرقا بينهما إلا في أن ابن عربي ، بحكم صوفيته ، اتهم العقل كما اتهم الحس بالقصور عن معرفة الحقيقة ، على عكس اسبينوزا فإنه كان فيلسوف عقليا بنوع خاص ، وهو لهذا قد اعترف بقيمة العقل وقدرته وبيقينه المعرفة الحاصلة عن طريق . ومهما يكن من أمر هذا الخلاف بين الرجلين حول هذه النقطة التي لابد من أن يختلف فيها أحدهما عن الآخر ليتبين الفرق بين التصوف والفلسفة ، فإن مذهب ابن عربي في وحدة الوجود أدنى إلى مذهب اسبينوزا بقدر ما رأينا من تقارب بين مذهب ابن الفارض في وحدة الشهود وبين مذهب مالبرانش في الشهود في الله .

ولعل في القدر الذي قدمنا في هذا الصدد ما يكفي لإظهار الفرق بين وحدة ابن الفارض وبين وحدة ابن عربي ، وقد خلطهما أكثر القدماء والمحدثين على نحو ما تبينا في هذا الفصل وفي الفصل الرابع من الكتاب الأول ، فها نحن أولاء نرى أن الاعتراضات التي يوجهها ابن تيمية إلى الاتحادية ، إن صحت بالقياس إلى مذهب ابن عربي ، وإلى مذاهب تلاميذه المتأثرين به حقيقة ، فهي لا تصح بالقياس إلى مذهب ابن الفارض الذي وضح أن التحاد فيه لم يكن حقيقة واقعة بين ذات الله وذات

الإنسان ، ولا بين ذات الـلـه والمخلوقات على نحو ما كانه عند ابـن عـربي ، بل هو بخلاف ذلك شهود للذات الإلهية الأحدية على أنها كل شئ ، وشهود لكل شئ في هذه الـذات ، وذلـك في حـال معينـة ، وتحـت شروط خاصـة ، وصاحب الحال مقهور مغلوب على أمره ليس له نفسه إلا ما أراده الـلـه له وما أظهر عليه ، فهو إذن معذور غير مؤاخذ . يضاف إلى هذا أنه على الـرغم من تشابه ابن الفـارض مـع الحـلاج وجـلال الـدين الرومـي وعفيـف الـدين التلمساني ، فإن شاعرنا لم ينته في مذهبـه الـذي تظهرنـا عليـه هـذه الـصورة التي صورناه فيها إلى مثل مـا انتهـى إليـه الحـلاج والرومـي والتلمـساني مـن النتائج التي تعارض معارضة قوية روح الإسلام وتعاليمه : فالحلاج والرومـي قد انتهيا إلى الحلول ، وكان الحـلاج في ذلـك أكـثر تطرفـا ، وعبارتـه أدل عـلى تأثره بالعقائد المسيحية القائلة بحلول اللاهوت في الناسوت ، والتلمساني قـد انتهى إلى أقوال ما أظن أن مسلما يسمعها إلا ويحكم على قائلها بأنه إمـا أن يكون مسلوب العقل ، وإما أن يكون معتمدا لهذا الكفر الصريح الـذي يـدل عليه قوله : " البنت الأم والأجنبية شئ واحد ليس في ذلك حرام علينا ، وإنما هؤلاء المحجوبون قالوا حرام فقلنا حرام عليكم " ، وقوله " القـرآن كلـه شرك ليس فيه توحيد ، وإنما التوحيد في كلامنا .. " وأما ابن ابن الفارض فلـم يقـل بالحلول ، وهو إن استعمل لفظتي اللاهوت والناسوت فإن استعماله لهـما لم يكن كاستعمال الحلاج كما سنتين ذلك في موضـعه مـن الكـلام عـلى الـصورة الثانية لوحدة ابن الفارض ، وهو لم يقل قولا يشبه من قريب أو من بعيد ما قال التلمساني فيها أثبتناه له آنفا ، وهو لم يقل قولا يشبه من قريب أو مـن

بعيد ما قال التلمساني فيما أثبتناه له آنفا . ولعل معترضا يقول : إن التلمساني كان صاحب حال ، ولا يبعد أن تكون أقواله المستشنعة قد صدرت عنه وهو في حال . السكر والدهش ، ولكننا نرد عليه بأن ابن الفارض كان كالتلمساني خاضعا لسلطان الوجدو غلبة الحال ، بل كان أكثر ما يكون غائبا عن نفسه وحسه ، ومع ذلك لم تصدر عنه كلمة واحدة جارحة لعقيدة الإسلام أو مشعرة بكفر .

ومن هنا كان ابن الفارض معتدلا في حاله وفي مقاله يعبر عن وحدته بعبارات قد تبلغ حدا بعيدا من المبالغة والإسراف في بعض الأحيان ، ولكنها مع ذلك معقول مقبولة لا تنفر المسلمين من صاحبها .

نستخلص إذن من كل ما تقدم في هذه الصورة التي أظهرنا فيها مذهب ابن الفارض :

١ - أن هذا المذهب لم يكن اتحادا بمعنى أن الاتحاد فيه عبارة عن وحدة الوجود كما زعم ابن تيمية ودي ماتيو وغيرهما من القدماء والمحدثين، بل كان واحديا بمعنى أن الاتحاد فيه مرادف للشهود الذي هو حضور الذات وانكشافها لعين السالك . وفرق ما بين وحدة الوجود ووحدة الشهود كفرق ما بين الحقيقة الواقعة في ذاتها مستقلة عن حس الإنسان وشعوره وعقله ، وبين الحقيقة من حيث إدراكها في حالة خاصة وتحت تأثير شعور معين .

٢ - أن ابن الفارض لم يكن خارجا على الكتاب والسنة لأن فناءه الـذي كان سبيله إلى إدراك الوحدة لم يكن فناء عن وجود السوي ، ولكنه فناء عن شهوده وإرادته ، هذا من ناحية ، ومن ناحيـة أخـرى لم يكـن ابـن الفـارض حلوليا ، بل هو ، كما رأينا ، قـد رفـض الحلـول ونـزه عقيدتـه عنـه ، وهـذا الرفض والتنزيه لم يكونا من باب الكلام الظاهر الـذي يتخـذ منـه الملاحـدة ستارا يحجبون وراءه أغراضهم . ولكن ابن الفارض كان صادقا في رفـضه وفي تنزيهه ، لأن طبيعة مذهبه كـما صـورنا في هـذه الـصورة تقتـضي ألا يكـون الرجل حلوليا أو شبيها بالحلولية . ناهيك بأن رفضه للحلـول لـيس مقـصورا على حاول اللـه في الإنسان فحسب ، إنما هو يتناول أيضا حـاول الأرواح في الأجسام بالمعنى المعروف باسم النسخ أو التناسخ كما يدل على ذلـك قولـه في مخاطبته لمريده في " التائية الكبرى " :

ومـن قائـل بالنـسخ والمـسخ واقـع به إبـرا وكـن عـما يـراه بعزلـة ٦٥٢

ودعـه ودعـوى الفـسخ والرسـخ لائـق بـه أبـدا لـو صـح في كـل دورة ٦٥٣

٣ - أن ابن عربي لم يكـن مـن أصـحاب وحـدة الوجـود فحـسب ، بـل كـان كـذلك مـن أصـحاب وحـدة الـشهود ، عـلى عكـس مـا كـان يظـن أكثر المتقـدمين والمتـأخرين ، الأمـر الـذي نلاحـظ معـه بـأن مذهبـه كـان في ناحيته الأولى منافيا لتعاليم الإسلام قـابلا لأن ينـسحب عليـه نقـد ابـن تيمية ، على حين أنه في الناحية الثانية كمذهب ابن الفارض ملائـم لأحكـام الكتاب والسنة ، أو هو على أقل تقدير يمكن أن يلتمس له غيه العذر الذي يلـتمس دائمـا لأصـحاب الأذواق الخاضـعين لـسلطان الأحـوال ، ولهـذا كـان

درمنجم في نظره إلى مذهب ابن عربي موفقا حين اعتبره وحدة للشهود ، ومخطئا حين نظر إليه على أن الأمر فيه ليس أمر وحدة للوجود بمعناها الحديث الاعروف لدى الغربيين ، إنما هيوحدة للشهود من نوع وحدة ابن الفارض والنابلسي لا أكثر ولا أقل . وها نحز أولا قد أثبتنا إلى أي حد كان ابل عربي في ناحية من نواحي مذهبه مشبها كل الشبه لفيلسوف من كبار فلاسفة وحدة الوجود الأوربيين في العصر الحديث وهو اسيبنوزا ، كما أثبتنا إلى أي حد يمكن أن يبعد مذهب ابن الفارض في وحدته الشهودية عن مذهب اسيبنوزا في وحدة الوجود ، ويقرب من مذهب مالبرانش فيما يسميه هذا الأخير ، " الشهود في الله " .

١٥ - رأينا من الصورة الأولى التي عرضناها لمذهب ابن الفارض كيف كان هذا المذهب متأثرا بالحالة النفسية التي أدرك فيها صاحه وحدة المحب والمحبوبة ، ووحدة المحبوبة والمظاهر الكونية ، بحيث كانت هذه الوحدة في جملتها وحدة شهودية مختلفة عن الوحدة الوجودية ، ولكننا إذا نظرنا إلى هذه الوحدة في تفاصيلها مستقلة عن تلك الحالة النفسية ، تبين لنا أنه قد اختلط بها بعض العناصر الغريبة عن الإسلام ، وأن من هذه العناصر ما له نظيره عند الحلاج في حلوله ، وعند ابن عربي في وحدة وجوده ، وعند أفلوطين في فيوضاته . غير أن ابن الفارض حين مزج هذه العناصر الغريبة بوحدته لم يستعملها على ما كانت عليه عند أصحابها الذين استمدت من مذاهبهم ، وإنما هو قد يستعمل في بعض الاحيان ألفاظا يستعملها الحلاج مثلا ، ولكنه يدل بها على معنى غير الذي يقصده هذا الأخير ، وهو قد يتفق في بعض الأحيان الأخرى مع غيره من الصوفية

في بعض الأفكار . ويختلف عنهم في الألفاظ التي تصاغ فيها هـذه الأفكـار، وهو يتفق بعد هـذا وذاك مـع غـيره مـن الـصوفية أو الفلـسفية في اللفـظ والمعنى والفكرة التي يدور حولها كـل اللفـظ والمعنـى . وإن الكـشف عـن هذه العناصر التي امتزجت بوحدو شاعرنا على أي وجه من أوجه الامتزاج ، وتعرف ما عسى أن يكون بين ابن الفارض وبين غيره من الصوفية والفلاسفة من دلائل الشبه أو الخلاف ، هـو مـا نرمـي إلى إظهـاره مـن خـلال الـصورة التالية التي سنعرض فيها التفاصيل التي انطوت عليها وحدة ابن الفارض .

١٦ - ولعل الحلاج هو أحد صوفية المسلمين الذين استقى ابن الفارض منهم بعض العنـاصر التـي يتـألف منهـا مذهبـه ، ولكنـه قـد غـير في هـذه العناصر تارة من ناحية اللفظ ، وتارة أخرى من ناحيـة المعنـى ، كـما نتبـين ذلك مما يلي :

١ - أراد ابن الفارض أن يستصغر شأن الأراجيف التي أثارهـا خـصومه حول مذهبه ، وأن يثبت أنه لم يكن من القـائلين بالحـاول فاسـتعمل لفظـة قد توهم بادئ ذي بدء أنه استعملها على نحو مـا كـان يـساعملها الحـلاج . قال ابن الفارض :

وكيف وباسم الحق ظـــل تحققي   تكون أراجيف الضلال مخيفتي ٢٧٩

فقد يظن أن " الحق " في هذا اليت يقابل " الحق " في مقالـة الحـلاج المشهورة التي قال فيهـا : " أنـا الحـق " والـذي لا شـك فيـه أن اتفـاق ابـن

الفارض والحلاج في هذا اللفظ ليس معناه اتفاقا في المعنى ، لأن ابن الفارض إنما يقصد بالحق أحد أسماء اللـه الحسنى ، اما الحلاج فإنه يريد بـالحق " الجوهر المخلوق به " كما يدل على ذلـك قولـه وقـد سـئل عـن هـذا الحـق فأجاب : " معل الأنام ولا يعتل " . ومن هنا يمكننا أن نقول إن ابن الفارض يظهرنا في بيته المشار إليـه أنـه كـان مـن هـؤلاء الـصوفية الـذين يروضـون أنفسهم باختيار اسم من أسماء اللـه وترديده ترديدا طـويلا حتـى يتحقـق بحقيقة ذلك الاسم . كأن يختار أحدهم اسم " اللطيف " ويختار الآخر اسم " العليم " ... إلـخ . وقـد اختـار ابـن الفـارض اسـم " الحـق " وردده حتـى تحقق به ولم يعد يخـشى مـا ينـسج حولـه مـن الأباطيـل ، وأهمهـا اتهامـه بالحلول الذي نزه عقيدته عنه بعد ذلك في الأبيات التالية للبيـت المـذكور (٢٨٠ - ٢٨٥) أما الحلاج فإن بقوله " أنـا الحـق " أراد أن يعـبر عـن اتحـاده بالذات الإلهية التي هي علة لكل شئ وليست معلولـة لـشئ ، وهـو بهـذا يظهرنا على نهاية اتحاد العبد بالرب ، بخلاف ابن الفارض فإنه يظهرنـا عـلى بداية السلوك التي يأخذ الإنسان فيها نفسه بألوان من الرياضات من بينهـا ترديده لاسم الحق .

٢ - على أن ابن الفارض إن كان مختلفا عن الحلاج في معنى " الحـق " برغم اتفاقه وإياه في لفظه ، فإنه قد عـبر عـن كلمـة الحـلاج " أنـا الحـق " بعبارات وإن اختلفت عنهـا في اللفـظ فقـد اتفقـت معهـا في المعنـى : فقـد وصل ابن الفارض في نهاية أطوار حبه إلى شـهود وحـدة المحـب والمحبوبـة، وأراد يعبر عن هذه الوحدة فقال في البيت ٢٧٧ " أنا هي " وفي البيت ٣٢٦ " انا إياها " . ثم قال بعد ذلك :

فما عالم إلا بفـــضلي عـــالم   ولا ناطق في الكون إلا بمدحتي٣٣١

أليس قول ابن الفائض " أنا هي " أو " أنا إياها " إلا عين قول الحـلاج " أنا الحق " ؟ أليست " هي " و " إياها " وهما عند ابن الفارض الـضميران العائدان على المحبوبة التي هي الذات الإلهية " إلا " الحق " الذي هو عند الحلاج عبارة عـن هـذه المحبوبـة ، أو هـذه الـذات ؟ ثـم ألـيس قـول ابـن الفارض وقد اتحد بمحبوبته وتحدث بلسانها إن فضله هو الأصل أو العلة في وجود كل عالم ، إلا أسلوبا آخر للتعبير عن قول الحلاج في الحق إنـه " معـل الأنـام ولا يعتـل " ؟ بـلى ! إن التـشابه بـين ابـن الفـارض والحـلاج في هـذه المسألة أظهر وأوضح من أن تخفيـه الألفـاظ أو العبـارات التـي تختلـف في ظاهرها عند أحدهما عما هي عليه عند الآخر ، والتي تدل دلالة قوية عـلى معنى واحد هو اتحاد العبد بالرب اتحادا هو الحلول عند الحلاج ، والاتحاد المطلق عند ابن الفارض:

٣ - ولا يقف أمر التشابه بين الحلاج وابن الفارض عند هذا الحـد، بـل هو يتجاوزه إلى مسألة أخرى لهـا قيمتهـا في فلـسفة الحـلاج التـصوفية مـن ناحية أنها تمثل العنصر المسيحي الـذي اخـتلط بالإسـلام منـذ أيـام الفـتح ، وكان يظهر ذلك عند الصوفية مـن إلى حـين متخـذا صـورا مختلفـة ومعـاني متباينـة ، ولكنهـا عـلى اختلافهـا وتباينهـا مـردودة إلى أصـلها في العقائـد المسيحية ، وأعني بهذه المسألة نظرية اللاهـوت والناسـوت التـي قـال بهـا الحلاج وغيره من الذين عاصروه كأبي الحسين النوري ، واللذين جاءوا بعـده كـابن عـربي وابـن الفـارض أكـثر الحـلاج مـن اسـتعمال كلمتـي " اللاهـوت

والناسوت " ، وكان لكل منهما معانيها التـي تبـدو في ظـاهر الأمـر مختلفـة متفاوتة . والحقيقة أنها تدور حول فكرة معينة ، وتدل على معنـى واحـد . وقد استعمل كذلك ألفاظا أخرى كمرادفات اللاهوت والناسـوت تـدل عـلى المعنى الذي يرمي إليه ، فالناسوت عند الحلاج قد يكـون عبـارة عـن خلـق آدم الذي خلقه اللـه على صورته لـيرى نفـسه فيـه كـما تظهرنـا عـلى ذلـك نظرية الإنسان الكامل المعروف عند الحلاج باسـم " هوهـو " والـذي يـدل عليه قوله في هذه الأبيات :

سـبحان مـن أظهـر ناسـوته ... سرسـنا لاهوتـه الثاقـب

ثـم بـدا لخلقـه ظـاهرا ... في صـورة الآكـل والـشارب

حتـى لقـد عاينـه خلقـه ... كلحظـة الحاجـب بالحاجـب

ويطلـق الحـلاج عـلى اللاهـوت والناسـوت اسـمي " الطـول والعـرض " وتقابل نظرية الطول هذه النظرية اليونانية التي صبغها مترجمـو الأفلاطونيـة الجديدة بالصيغة الإسلامية ، وهي النظرية القائلة باثنينية عالم الأمر أو عـالم الغيب ، أو عالم الأرواح وعالم الخلـق ، أو عـالم الـشهادة ، أو عـالم الأجـسام . والمفهوم من كلام ابن عـربي عـن الحـلاج أن الطـول عنـد هـذا الأخـير معنـاه الروحانية والعرض معناه الطبيعة ، فقد قال ابن عربي في فتوحاته عن الحـلاج " .... " كان يقول باللاهوت والناسوت ، وأين هو ممن يقـول العـين واحـدة ، ويحيـل الـصفة الزائـدة .. العـرض محـدود والطـول ظـل ممـدود.،. " فظـاهر هنـا أن قـول الحـلاج بـاللاهوت والناسـوت أو بـالطول والعـرض لم يـرق في نظـر ابـن عـربي ، وذلـك لأن الأمـد بعيـد بـين مـذهبي الـرجلين ، إذ تـؤدي

نظرية الحلاج إلى الاثنينية التي توجد بين الطول والعرض ، على حين أن ابن عربي ينتهي إلى إثبات الوحدة المطلقة أو العين الواحدة . يضاف إلى هذا اعتناق الحلاج لعقيدة الحلول التي لا تتفق والاثنينية بحال ما ، على عكس ابن عربي فإنه لم يعتنق الحلول ولم يقل به : فالناسوت عند الحلاج عبارة عن الطبيعة البشرية التي هي في جملتها روح وبدن ، أو طول وعرض، كما يقول الحلاج ، وإن الطبيعة الإلهية لا يمكن أن تتحد بالطبيعة البشرية إلا بواسطة حلول شبيه بحلول الروح الإنساني في البدن الإنساني في البدن الإنساني على حد تعبيره هو . وعلى كل حال فقد كان الحلاج أثنيني المذهب يقول باللاهوت الذي هو الطبيعة الإلهية وبالناسوت الذي هو الطبيعة البشرية وبحلول الأول في الثاني .

أما ابن عربي فإنه استعمل لفظتي الحلاج " اللاهوت والناسوت " كما استعمل ألفاظ أخرى ترادفهما ، كالذات والحق فإنهما عند مرادفان للاهوت ، وكالصورة والخلق فإنهما مرادفان للناسوت ، ومع ذلك فإن الفرق في معنى الألفاظ ، وفي وجهتي النظر بين الرجلين ما يزال جوهريا : إذ الحلاج ينظر إلى " اللاهوت والناسوت " ، أو " الطول والعرض " على أنهما شيئان مختلفان ذاتا وطبيعة ، وإلى أن اللاهوت يمكنه أن يحل في الناسوت في حدود شروط خاصة ، أما ابن عربي فإن اللاهوت والناسوت عنده وجهان اعتباريان ، والحقيقة أن العين واحدة من المجموع في المجموع على حد تعبيره . وبعبارة أخرى يمكن أن يقال إن اللاهوت عند ابن عربي عبارة عن الوجه الروحي الدائم من أوجه الحقيقة المطلقة ، وإن الناسوت عبارة عن الوجه المادي المتنوع في صوره ، المتعدد في مظاهره .

ولعل ابن الفارض حين يقول في البيت التالي :

ولم أله باللاهوت عن حكم مظهري ولم أنس بالناسوت مظهر حكمتي ٤٥٥

وقد استعمل " اللاهوت والناسوت " على نحو مقارب من استعمال ابن عربي لهما :

فاللاهوت عند شاعرنا هو هذا الوجه الروحاني الذي أدركه في مقام الجمع الذي لا تفرقة فيه ، والناسوت هو هذا الوجه المادي الذي يدركه الإنسان عادة إذا لم يكن من أصحاب الجميع ، فينظر إلى الوجود بعين الكثرة والتفرقة . وبعبارة أخرى يمكن أن نقول أن اللاهوت هنا هو مظهر الوحدة التي يتحقق بها السالك بين ذاته وذات اللـه في مقام الجميع ، على حين أن الناسوت هو مظهر الكثرة أو البشرية الذي يفرق فيه السالك وهو في مقام التفرقة بين ذات اللـه وذوات المخلوقات . وكأني بابن الفارض يريد أن يصور لنا مبلغ ماوصل إليه من الكمال في شهوده الحقيقة بحيث أصبح نظره بعين الجمع إلى اللاهوت مساويا لنظره يعين التفرقة إلى الناسوت ، أو قل إنه في كلا النظرين وإدراك الوجهين لا يشهد إلا حقيقة واحدة وذاتا واحدة هي حقيقة اللـه وذاته . وليس أدل على ذلك من قوله إن اشتغاله باللاهوت لم يلهه عن الناسوت ، كما أن إقباله على الناسوت لم يصرفه عن اللاهوت ، وهذا هو ما يعرف في اصطلاح الصوفية ، بالفرق الثاني ، الذي يجمع فيه بين شهود حق وخلق ، رب وعبد ، في آن، فيعطي المشاهد العبودية حقها من الخضوع والخشوع والافتقار والانكسار . ولو تأملنا بيت ابن الفارض المتقدم على البيت الآنف الذكر حيث يقول:

لرأينا أن الحقيقة وهي علم الباطن ، أو مشاهدة اللاهوت والوحـدة ، لا تختلف أو تنافي عنده الشريعة ، وهي علـم الظـاهر أو معرفـة الناسـوت والتفرقة . ومـن هنـا نـستطيع أن نـستخلص أن ابـن الفـارض في اسـتعماله للفظتي " اللاهوت والناسوت " كان أبعد ما يكون عـن الحـلاج الـذي فـرق بينهما تفرقة ذاتية ، واعتبرهما حقيقتين مستقلتين ، وأنه كان أدنى ما يكـون إلى ابـن عـربي الـذي اتفـق معـه عـلى أن " اللاهـوت والناسـوت " مظهـران لحقيقة واحدة يقرر الإنسان وجودهما إذا نظر إلى كل منهما بعـين خاصـة . ومن هنا أيضا نتبين أن ابن الفارض قد اصطنع هـاتين اللفظتـين المـسيحيتين اللتين اصطنعهما الحلاج على ما كانتا عليه في المسيحية ولكنه لم يكن يفهـم منهما ما كان يفهمه الحلاج ومن أنهما طبيعتـان مختلفتـان يمكـن أن تحـل إحداهما في الأخر ، إنما هو قد اصطنع اللفظين المسيحيين ليعـبر بهـما وعـن مذهبه الصوفي في الوحدة الذي لا يختلف في قراره عن أحكام الشرع . الأمر الذي يترتب عليه القول بأن تـشابه الحـلاج وابـن الفـارض في هـذه المـسألة ليس إلا تشابها لفظيا . أما مـا تنطـوي عليـه الألفـاظ مـن المعـاني والأفكـار الفلسفية فمختلف عند أحدهما عما هو عليه عند الآخر .

١٧ - ولعل تشابه مذهب ابن الفارض في بعض تفاصيله ومذهب ابـن عربي كان أقوى وأظهر من تشابهه ومذهب الحلاح ، فقـد ذهـب المؤرخـون مذهبا بعيدا انتهوا فيه إلى أن ابن الفـارض كـان تلميـذا لابـن عـربي اعتنـق مثلـه عقيـدة وحـدة الوجـود . وأنهـم في إثبـات هـذه الـصلة ليـستندون

إلى أمرين : أحدهما تاريخي يدور حـول العلاقـة الشخـصية بـين الـرجلين ، والآخر فنـي يـدور حـول تائيـة ابـن الفـارض الكـبرى وفتوحـات ابـن عـربي وفصوصه ، وموازنته هذه النـصوص بعـضها بـبعض ، وتلمـس أوجـه الـشبه بينهما ، واستخلاص أن ابن الفارض في تائيته كان متأثرا بما قاله ابن عـربي في فتوحاته وفصوصه .

ولقد اعتمد المثبتون العلاقة الشخـصية التـي زعموهـا بـين الـرجلين عـلى زيارة ابن عربي لمصر في أثناء رحلته في المشرق ، وهي هذه الرحلـة التـي بـدأها عام ٥٨٩ هـ وتجـول فيهـا خـلال بـلاد كثـيرة منهـا مكـة وبغـداد وحلـب وآسـيا الصغرى إلى أن استقر أخيرا بدمشق حيث توفى عام ٦٣٨ هـ ، فقد روي عن ابـن عربي أنه مر بمصر ، وأن الناس أتهموه بالزندقة وحاولوا اغتياله فيها . ونحـن لا ننكر زيارة ابن عربي لمصر أو مروره بها ، ولكن الـذي لا نـستطيع التثبـت منـه هو : هل التقـى ابـن الفـارض حقـا بـابن عـربي ونـشأت بيـنهما صـلة شخـصية تبودلت فيها الآراء الصوفية أم لا ، وذلـك راجـع إلى أنـه مـازال يعوزنـا الـدليل المادي الذي يثبت هذه الصلة إثباتا قاطعا . ومن هنا ذهب الأسـتاذ نيكلـسون إلى أن ابن الفارض وابـن عـربي لم يلتقيـا قـط ، وإلى مثـل هـذا ذهـب الأسـتاذ ماسينيون في محاضرة له عن ابـن الفـارض والشـشتري ألقاهـا بقاعـة الجمعيـة الجغرافية الملكية بالقاهرة في ٥ فبراير سنة ١٩٣٧ ، فاستبعد أن يكون ابن عربي في زيارته لمصر قد عرف ابن الفـارض ، وإن كـان كـل مـنهما قـد أحـس بوجـود صاحبه في عالم الشعر والتصوف . ومهما يكن من شئ فإن إنكار الصلة بين ابـن الفارض وابن عربي كإثباتها فرض لم يقم عليه البرهان الـذي يؤيـده . هـذا أحـد الأمرين اللذين يـدور حـولهما المؤرخـون . أمـا الأمـر الثـاني وهـو المرتكـز عـلى موازنة النصوص وإثبات تأثر ابن الفارض بابن عربي عن طريـق هـذه الموازنـة ،

فالأصل فيه رواية تناقلها المؤرخون ورد فيها أن ابن عربي بعث إلى ابن الفارض يسأله أن يشرح تائيته الكبرى ، فأجابه ابن الفارض بقوله إن الفتوحات المكية شرح لها ... ولكننا نعلم فيما نعلم من حياة ابن الفارض أنه نظم بعض شعره في الحجاز في أثناء الطور الثالث لحياته ، وهو الطور الذي يبدأ بسنة ٦١٣ ، وينتهي بسنة ٦٢٨ هـ ، ونعلم أيضا أنه أملى ديوانه في القاهرة بعد عودته إليها من الحجاز ، وذلك في الطور الرابع الذي يبدأ بسنة ٦٢٨ او ٦٢٩ هـ ، وينتهي بوفاته سنة ٦٣٢ هـ ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرة فإننا نعلم مما أثبته ابن عربي في نهاية " الفتوحات المكية " أنه فرغ من وضع هذا الكتاب في يوم الأربعاء الرابع والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ٦٣٦ هـ ، أي بعد أن كان ابن الفارض قد نظم ديوانه ونسق مذهبه بزمن غير قصير ، بل بعد وفاة ابن الفارض بأربعة أعوام ، فكيف يمكن أن يقال إذن إن ابن الفارض أجاب ابن عربي بهذا الجواب الذي تحتويه الرواية المشار إليها ، والتي تنطوي في جوهرها على أن " الفتوحات المكية " صورة أخرى " للتائية الكبرى " ؟ الحق أن في هذه الرواية تناقضا مع الحقائق التاريخية من ناحية ، ومبالغة في تصوير تأثر ابن الفارض بابن عربي من ناحية أخرى . ولسنا بهذا القول نذهب إلى أن ابن الفارض لم يطلع على آراء ابن عربي على وجه الإطلاق ، أو نستبعد إن يكون الشاعر المصري قد وقف على بعض آراء الصوفي الأندلسي التي يحتمل أن تكون قد وصلت إلى مصر وشاعت فيها قبل أن يفرغ الرجل من كتابه فراغا تاما . أما أن تكون الفتوحات شرحا للتائية ، أو أن تكون التائية صورة أخرى للفتوحات ، فذلك مالا نقلبه أو نذهب إليه كما قبله وذهب إليه أكثر القدماء وبعض المحدثين . أما " الفصوص ' فإن أمرها يكاد يكون مختلفا عن أمر " الفتوحات " . والذين يرون في نصوص ابن عربي وتائية ابن الفارض صورتين مختلفتين لمذهب واحد قد يكونون مصيبين إلى حد بعيد ، فابن عربي يحدثنا في '

فصوصه " بأنه بدأ هذا الكتاب في أوائل سنة ٦٢٧ هـ وانتهى منه سنة ٦٢٨ هـ ، فإن صح هذا التاريخ كان معناه أن كتاب الفصوص تمت كتابته قبل وفاة ابن الفارض بأربعة أعوام . وإذن فلا يبعد أن يكون ابن الفارض قد اطلع على هذا الكتاب عندما أخذ يملي ديوانه بالقاهرة فيما بين سنتي ٦٢٨ أو ٦٢٩ أو ٦٣٢ هـ ، وأن تكون بعض العناصر الموجودة في الفصوص قد امتزجت ببعض أبيات التائية الكبرى . غير أننا لا نعتقد مع ذلك ما يعتقده بعض القدماء كالشيخ مدين وغيره من أن " التائية " هي " الفصوص " لا فرق بينهما إلا في أن هذه نثر وتلك شعر ، وإنما الذي نعتقده هو أن يكون ابن الفارض قد استعان ببعض الألفاظ والعبارات والأمثلة التي وردت في الفصوص على بسط صوفي في وحدة الشهود ، مختلف عن مذهب ابن عربي في وحدة الوجود ، الأمر الذي نستخلص منه أن يكون التشابه الواقع بين المذهبين تشابها لفظيا ، لا يتجاوز الألفاظ إلى ما وراءها من لب المذهبين ، وذلك على نحو ما رأينا عند إظهار أوجه الشبه بين الحلاج وابن الفارض .

وإذا كان كذلك ذلك فما عسى أن تكون إذن العناصر التي ضمنتها ابن عربي مذهبه ، ويمكن أن نجد لها نظيرا أو شبيها في مذهب ابن الفارض؟

١ - كان مذهب ابن الفارض في جملته وحدة شهودية أو شهود الوحدة ، وكذلك كان مذهب ابن عربي في إحدي ناحيتيه صورة لهذه الوحدة الشهودية . وقد انطوى هذا المذهب في وحدة الشهود عند كل من الشاعر المصري والصوفي الأندلسي على القول بالتجلي الذي إن كان مختلفا عن الحلول فإن ابن تيمية وأشباهه من الناعين على الصوفية قد

كفروا القائلين به ، وأظهروا مبلغ ما يؤدي إليه من منافاة لأحكان الإسلام وعقدته الصحيحة ، فابت الفارض يقررر في " تائيه الكبرى " أن الوجود هو ما ينكشف للسالك عند تجلي الذات له ، بحيث يرى الذات في كل مرئى ، ويشهدها في وكل موجود : إذ المرئيات هي في الحقيقة مجال متعددة للذات الواحدة ، فهو يقول :

جلت في تجليها الوجود لناظري ففي كل مرئي أراها برؤية ٢١٠

وأشهدت غيبي إذ بدت فوجدتني هنالك إياها بحلوة خلوتي

وطاح وجودي في شهودي وبنت عن وجود شهودي ماحيا غير مثبت

وعانقت ما شاهدت في محو شاهدي بمشهد الصحو من بعد سكرتي

ففي الصحو بعد المحو لم أك غيرها وذاتي بذاتي إذ تحلت تجلت ٢١٤

ويقول أيضا :

فلما جلوت العنين عني اجتليتني مفيقا ومني العين بالعين قرت ٢٣٤

ويقول أخيرا :

يشاهد مني حسنها كل ذرة بها كل طرف جال في كل طرفة

وابن عربي يرى أنه لا يعرف الوجود إلا أهل الشهود ، وأن العين تثبت العين ، وأن عالم الطبيعة صور متعددة في مرآة واحدة بل صورة واحدة في مرايا مختلفة ، وأن المحل هو عين العين الثابتة التي بها يتنوع الحق

في المجلى لتنوع الأحكام عليه ، ويقبل كل حكم . وما يحكم عليه إلا عين ما تجلى فيه .

وهنا نتبين أن ابن عربي وابن الفارض متفقان على أنه إذا ارتفع الحجاب وتم الكشف وحصل العلم الشهودي . وصفا العرفان الذوقي . استطاع الإنسان أن يشهد الوجود الواحد الحق المتجلي في صور المرئيات، كما يقول ابن الفارض أو الأعيان الثابتة في الوجود الواحد الحق ، كما يقول ابن عربي .

٢ - وهناك مسألة أخرى قد يكون اشترك ابن الفارض وابن عربي فيها أكثر وضوحا منه في سابقتها : وذلك أن شاعرنا حين أراد أن يبين الفرق بين مذهبه وبين الحلول ضرب مثلا بظهور جبريل في صورة دحية ، فرآه النبي على أنه جبريل ، بينا رآه من كان حاضرا مع النبي على أنه دحية ، وقال ابن الفارض عن هذا إنه ليس حلولا وإنما هو " لبس " ورد ذكره في القرآن . وليس شك في أن ما ذهب إليه ابن الفارض هنا وأيد به نظريته يذكرنا بما أورده ابن عربي من هذه النظرية في فتوحاته وفصوصه : فهو يحدثنا في " الفتوحات " بأنه لولا التلبس الداخل على البصر لما شهد الصحابة في جبريل أنه من البشر ، والحقيقة أنه ليس كذلك . ولو أن الصحابة كانوا يحكم الفهم ، لتفكروا فيما أبصروا ، ولهذا كانوا يقولون إن لم يكن هذا المشهود روحا تجسد : فهو دحية كما يشهد ، ولو ظهر في أماكن مختلفة في زمان واحد وتعدد فلا يقدح ذلك فيحيبته ، فإنه في كل صورة بهويته ، وتلك الصور لهويته كالأعضاء لعين الإنسان ، فهو واحد

مع كثرة الأعضاء التي في الأكوان . ولا يقف ابن عربي في هـذه المـسألة عنـد هذا الحد ، بل هو يعرض لها في فـصوصه ويحـاول أن يفـسرها مـن النحيـة الفسية فيقول إن النبي عليه الصلاة والـسلام كـان إذا أوحـى إليـه ، سـجى وغاب عن الحاضرين عنـده ، حتـى إذا سرى عنـه رد عـما أدركـه في حـضرة الخيال التي لا يسمى معها نائما ، وإن تمثل الملك له عليه الـسلام رجـلا مـن حضرة الخيال ، فليس المتمثل رجلا وإنما هو ملك دخل في صورة إنسان نظر إليه الناظر العارف حتى وصل إلى صـورته بالحقيقـة فقـال : " هـذا جبريـل أتاكم ليعلمكم ديـنكم " ، وإن قولـه عليـه الـسلام : " ردوا عـلى الرجـل " ، وتسميته له بالرجل راجع إلى اعتباره للصورة التي مال هذا الرجـل المتخيـل إليهـا ، فهـو صـادق في المقـالتين صـدق العـين الحـسية وصـدقها في العـين الحقيقية .

وإذن فأنت ترى إلى أي حد يتفق ابن الفارض وابن عربي على استغلال خبر من الأخبار الواردة في السير استغلالا يدعم به كل منهما مذهبه " .

١٨ - على أن تشابه ابن الفارض وابن عربي لا يقف عنـد الحـد الـذي قدمنا ، بل هو يتجاوزه إلى شئ آخـر يـشترك فيـه الـصوفيان ، ويـستمدان منـه بعـض العنـاصر التـي يتـألف منهـا مـذهب كـل مـنهما ، وأعنـي بذلك الأفلاطونية الجديدة : فقـد عـاش ابـن الفـارض عـربي في عـصر كـان المسلمون قد عرفوا فيه الشئ الكثـير مـن فلـسفة أفلـوطين ، وإن لم تخـل معرفتهم بشخصية ومؤلفاته من الغموض الـذي يبلـغ أحيانـا حـد الخلـط

والاضطراب . وليس أدل على ذلك من أن ما وصل إلى المسلمين من فلسفة أفلوطين قد وصلهم منسوبا إلى أوسطوطاليس في كتاب " أتولوجيا " الذي ليس في حقيقته إلا مقتطفات من " التاسوعات " نقلها السريان وقدموها إلى المسلمين بعنوان " أتولوجيا أرسطوطاليس " ، وقبلها هؤلاء على أنها صورة لفلسفة المعلم الأول في الإلهيات . وليس من شك في أن ما امتازت به الفلسفة الأفلاطونية الجديدة من نزوع إلى الإشراق والروحانية ، كان ملائما كل الملائمة لطبيعة التصوف الإسلامي ، الأمر الذي ترتب عليه أن جاء أكثر المذاهب الصوفية وفيه كثير من ألفاظ هذه الفلسفة وعباراتها ومعانيها : فنحن نستطيع مثلا أن نستخلص من مؤلفات ابن عربي الآثار التي تركتها نظرية الفيوضات في مذهب هذا الصوفي المسلم، ونستطيع أيضا أن نفتش عن هذه الآثار في تائية ابن الفارض الكبرى ، ولو أن حظ هذا الأخير منها كان ضئيلا بالقياس إلى حظ الأول. ولعل هذا راجع إلى أن ابن عربي كان في اطلاعه واستيعابه للمذاهب المختلفة دينية كانت أو فلسفية أوسع أفقا من ابن الفارض . ومن يدري فلعل ابن عربي قد تأثر بالأفلاطونية الجديدة هذا التاثر الذي نلمسه في كثير من مواطن فتوحاته وفصوصه وغيرهما من مؤلفاته العديدة ، ثم وقف ابن الفارض عليها من ثنايا وقع له من مؤلفات ابن عربي لاسيما كتابه " فصوص الحكم " ، وقد سبق أن رأينا أن تاريخ انتهاء مؤلفه من كتابته متقدما بأربعة أعوام على تاريخ وفاة ابن الفارض أو كان بعبارة أخرى موافقا لنفس التاريخ أي بدأ ابن الفارض يملي فيه ديوانه بعد عودته من الحجاز إلى القاهرة ، فمن المحتمل إذن أن تكون فصوص ابن عربي

وصلت إلى ابن الفارض ، وقرأ فيها بعض الأفكار الأفلاطونية الجديدة لا سيما فكرة " الفيض "فأدخلها في تائيته الكبرى على هذا الوجه الغامض الذي تختفي معه الفكرة وراء ما يعمد إليه الشاعر من رموز وإشارات .

وقد أظهرنا الدكتور أبو العلا عفيفي في بحث له من المصادر التي استقى منها محي الدين ابن عربي فلسفته التصوفية . على أن الشيخ الأكبر عرف نظرية الفيوضات الأفلاطونية الجديدة ، وكانت معرفته بها مخالفة لمعرفة إخوان الصفا الذين كانوا أقرب من ابن عربي إلى المذهب الأفلاطويني ، فالدكتور يثبت أن ابن عربي لم يعتقد كما اعتقد إخوان الصفا أن الفيوضات سلسلة من الموجودات كل منها يصدر عن الفيض المتقدم عليه ، كمالاته ، بل يقول إن هذه الفيوضات إن هي إلا أسماء لجهات مختلفة من الوحدة المطلقة ، أي الذات الإلهية المطلقة التي لا تقبل التكثر بحال : فالواحد ليس سوى هذه الذات في إطلاقها وتجردها ، والعقل الأول ليس سوى هذه الذات ظاهرة بصورة القوة المدبرة لسائر الكون ، والجسم الكلي ليس سوى هذه الذات ظاهرى بصورة العالم المادي . أما ابن الفارض فلا نكاد تجد في شعره ذكرا للفيوضات بهذا المعنى ، وعلى هذا الوجه . لعل كل ما نجده من ذلك هو لفظة " الفيض " التي يستعملها بشكل عام ، وتعبير عن هذا الفيض بعبارات قد تدل عليه، وتنطوي على معناه ، ولا تنطق به صراحة ، وذكره لبعض الألفاظ التي - وإن لم تكن من معجم الأفلاطونية الجديدة - يمكن أن تفهم مع ذلك على وجه يشعر بأن لها مقابلا عند أفلوطين ، كما يتبين هذا كله مما يلي :

١ - فأما استعمال شاعرنا للفظ " الفيض " صراحة فأكثر ما يظهر ضمن حديثه عن الاتحاد بالقطب الذي هو الحقيقة المحمدية ، كما يعرفها الصوفية على أنها المخلوق الأول الذي خلقه الله ثم فاضت منه بقية المخلوقات سواء ما كان منها روحيا أم ماديا ، ولهذا آثرنا إرجاء الكلام في هذا الموضوع إلى الفصل التالي حيث حيث نتحدث عن الحب والقضبية مبينين ما عسى أن يكون بين ان الفارض وأفلوطين من تشابه في هذه المسألة ، لأن الذي يعنينا هنا هو إظهار العناصر الأفلاطونية الجديدة التي يمكن أن تكون موجودة في وحدة ابن الفارض التي وصل إليها عن طريق حبه للذات الإلهية واتحاده بها ، لا هذه الوحدة التي يمثلها القطب والتي يحدثنا ابن الفارض عنها من خلال حديثه عن اتحاده بهذا القطب .

٢ - وأما " الفيض " الذي نجده عند شاعرنا متعلقا بالذات الإلهية فإننا نلاحظ أنه يعبر عنه بعبارات قد تدل عليه ضمنا ، ولا تنطق به صراحة كما قلنا آنفا : فابن الفارض حين يأمر مريده أن يصرح بإطلاق الجمال ، وألا يقول بتعينه في صورة معينة ، وحين يدلل على ذلك بأن قيس لبني ، وكثير عزة ، وجميل بثينة ، لم يحب كل منهم إلا الذات الإلهية مقيدة بصورة لبني أو عزة أو بثينة متلبسة بصورة معينة - ابن الفارض حين قال هذا كله وقرره لم يخرج عن كونه يعبر عن الفيض الأفلوطيني بعبارة إن اختلفت في ظاهرها عن عبارات أفلوطين نفسه فإنها تدل من غير شك على فكرة من أفكاره . ويكفي أن ننظر في قول ابن الفارض إلى مريده :

وصرح بـــإطلاق الجـــمال ولا تقـــل بتقييـــده مـــيلا لزخـــرف زينـــة ٢٤١

فكـــل ملـــيح حـــسنه مـــن جمالهـــا معار لـه بـل حـسن كـل مليحـة ٢٤٢

وأن نوازن بينه وبين قول أفلوطين في الواحد المطلق الذي يسميه تـارة بالفكر الأعظم ، وتارة أخرى بالخير الأعظـم وطـورا بـالجمال الأعظـم ، وأن هذا الواحد بسيط لـيس فيـه تنـوع ، كـما أنـه شـئ آخـر غـير الوجـود ، إذ الوجود معين له . ماهية محدودة معقولة ، وإنما هو مبدأ الوجود ووالـده ، وأنه كامل ، ولهذا فهو فياض ، وفيضه يحدث شيئا غيره ، وأن الـذي يفـيض من الواحد المطلق ليس مطلقا مثله ، بل هو معين بمعنى أن ما كان مطلقـا في الأول يصير محدودا معينا في الثاني ، لنرى مبلغ التشابه بـين ابـن الفـارض وأفلـوطين في الفكـرة العامـة لا في الأسـلوب والعبـارة والتفاصـيل : ألـيس الجمال الذي يعلن ابن الفارض إطلاقه هو عين الواحد المطلق عند أفلـوطين الذي يسميه بالجمال الأعظم ؟ ثم أليس قول ابن الفـارض بالعاريـة أو قـل باستمداد الصور الحسنة حـسنها مـن هـذا الجـمال المطلـق هـو عـين قـول أفلوطين بأن الواحد كامل غير مفتقـر إلى غـيره . وفيـاض يحـدث غـيره مـن المعينات ؟ ثم أليس قول ابن الفارض بظهور المحبوبة الحقيقية وهي الذات الإلهية في صور المعشوقات من لبنى وبثينـة ولـيلى وعـزة قـد انطـوى عـلى نفس الفكرة التي يقول فيها أفلوطين ، إن مـا كـان مطلقـا قبـل الفيوضـات يصبح معينا متنوعـا في هـذه الفيوضـات ؟ بـلى ! إن ابـن الفـارض في هـذه الناحيـة مـن نـواحي مذهبـه لم يخـرج عـن كونـه معـبرا عـن الفيوضـات الأفلاطونيـة الجديـدة تعبـيرا عامـا ، وإن لم يكـن قـد اسـتعمل مـن ألفـاظ أفلوطين واصطلاحاته إلا لفظ " الجمال " . ولعـل ابـن الفـارض حـين يقـول

بأن الجمال المطلق هو مصدر الحسن المعين ، أو أن الحسن المعين صورة أو مظهر من صور الجمال المطلق ومظاهره ، يقرب من ابن عـربي إذ يقـرر أن العين واحدة وإن اختلفت الأحكام ، كما أن كل إنسان يعلم من نفـسه أنـه صـورة الحـق ، فاختلطـت الأمـور " وظهـرت الأعـداد بالواحـد في المراتـب المعلومة ، فأوجد الواحد العـدد ، وفـصَل العـدد الواحـد ، ومـا ظهـر حكـم العدد إلا بالمعدود . أليس قول الـشيخ الأكـبر بـأن الواحـد منـشئ العـدد ، والعدد مفصل الواحد ، شبيها بقول ابن الفارض إن الجمال المطلق هو أصل في وجود الحـسن المعـين الظـاهر بـصورة لـيلى أو بثينـة أو مـن شـئت مـن المعشوقات الجميلات ؟ ألا ينطوي قول ابـن الفـارض بـأن تعينـات الجـمال المطلق هي مظاهر لهذا الجمال تتعدد بتعـدد صـورها والحقيقـة أنهـا عـين هذا الجمال المطلق ، على فكرة ابن عربي القائلة بأن العدد هو الذي يفـصل الواحد ، أي يجعله متكثرا معينا بعـد أن كـان واحـدا مطلقـا ؟ الحـق الـذي لاشك فيه أن ابن الفارض متفق هنا مع ابن عربي ، ولا يكاد يختلف عنه إلا في الألفاظ التي تدل في الواقع على فكـرة واحـدة شـائعة بـين الـرجلين ، ولا تختلف عند أحدهما عما هي عليه عند الآخر إلا في هذه العناصر الفلسفية التي يدخلها الشيخ الأكبر إلى مذهبه ويغذيه بها ، كأن يـشرح مـثلا مـسألة المراتب الوجودية ويسلسلها من

الواحد مرتبة بعد مرتبة ، وكأن يبين كيفية ظهور الواحد في كـل مرتبـة وتفصيل هذه المراتب لهذا الواحد ، فإن شيئا من تلـك التفـصيلات لا يكـاد يوجد عند ابن الفارض ، إنما هو كلام مجمل عام يحوم صاحبه حـول إثبـات ذات واحدة ، جمالها واحد مطلق ، صدر عنه كـل مـا في الكـون مـن وجـوه

حسنة وصور مستحبة ، ومن هنا يمكن بأن كلا من ابن الفارض وابن عربي كان معبرا بأسلوبه الخاص عن فكرة واحدة هي في جوهرها من أفكار المدرسة الأفلاطونية الجديدة .

٣ - وثمة فكرة أخرى تظهر تائية ابن الفارض وفصوص ابن عربي وهى في ظهورها عند الصوفيين المسلمين ليست إلا فكرة صوفية قد امتزج بها عنصر الفيض الأفلوطيني امتزاجا ربما كان أقوى وأوضح فيها منه في الأفكار الأخرى التي تكلمنا عنها آنفا ، وأعني بها استعداد الماهيات لقبول الفيض الذي تفيضه عليها الذات " فابن الفارض يرى أن الذات الإلهية قد أمدت العوالم المختلفة بأمدادها التي تكثرت فيها الذات وتنوعت بعد أن كانت واحدة مطلقة ، وأن السبب في صدور الكثرة عن الذات الواحدة بطريق الفيض ليس كثرة الاستعدادات التي تكسب الماهيات وجودها ، بل إن الذات قبل أن تهيأ هذه الماهيات لقبول الوجود كانت مستعدة لإضافة الكثرة ، ومن ثم تنعمت الأشباح بالوجود في النفس ، كما تنعمت الأرواح بالشهود في الروح ، وليست هذه الروح . ولا هذه النفس إلا عين الذات التي أفاضت الوجود على الأولى والشهود على الثانية . وانظر إلى قول ابن الفارض في هذه الأبيات حيث يتحدث بلسان الجمع مع الذات الإهية :

فذاتي باللذات خصت عوالمي	بمجموعها أمداد جمع وعمت ٤٠٣
وجادت ولا استعداد كسب بفيضها	وقبل التهي للقبول استعدت
فبالنفس أشباح الوجود تنعمت	وبالروح أرواح الشهود تنهت ٤٠٥

لترى أن تكثر العوالم وتنوعها من عوالم الغيب إلى عالم الـشهادة ، ومـا يستمتع كل عالم من الوجود أو الشهود ، إنما هو يصدر عن الذات الفياضـة لا يتوقف تكثرها في العوامل المختلفة على استعداد ما في هذه العوامل مـن الماهيات لقبول الوجود أو الشهود ، بل يتوقف على مـا في الطبيعـة الـذات الواحدة من الاستعداد لفيض الكثرة ، ولترى أيضا مبلغ التشابه الذي يوجـد بين أفلوطين في فيوضاته وبين ابن الفارض في هذه الأبيات : أليست العوامل المختلفة عند ابن الفارض مقابلة للفيوضات المتنوعة المعينة عند أفلـوطين ؟ ألا يمكن أن يكوم عالم الجبروت وعالم الغيب، وهما العالمان الروحيان اللذان لا أثر فيهما للمادة . مقابلين للعالم المعقـول الـذي يـسميه أفلـوطين بالعقـل الاول ؟ ثم ألا يصح أن يكون عالم الملكوت الأعـلى عنـد ابـن الفـارض مقـابلا للنفس الكلية عند أفلوطين وعالم الملكوت الأدنى أو الشهادة عند ابن الفارض مقابلا للجسم الكلي عند أفلوطين ؟ بلى ! وهذا هو ابن الفارض نفسه قد عبر في البيـت ٤٠٥ عـن شـئ يكـاد يكـون قريبـا مـن هـذه المعـاني الأفلاطونيـة بالجديدة ، فذكر النفس التي تفيض الوجود ، والروح التـي تفـيض الـشهود . وليس الوجود هنا إلا الوجود الظاهر الذي يعرفـه الإنـسان مـن الموجـودات الكائنة في عـالم الـشهادة . كـما ان الـشهود لـيس إلا انكـشاف عـين الحـضرة العلمية أو حضور الذات الإلهية في عالم لا أثر فيه للتعينات والصور المتكـثرة . وإذا كان ذلك كذلك فقد ظهر ما بين هذا الكلام وبين ما يقوله أفلوطين من التشابه الذي لا بخلو من وجـود بعـض الفـروق بيـنهما لاسـيما في اسـتعمال الالفـاظ الاصـطلاحية وبيـان مـدلولاتها كـأن يـستعمل ابـن الفـارض الـنفس

على أنها منبع للوجود الظاهر المفاض على الموجودات ، والروح على انها مصدر لما يمتاز به العالم العلوي من الشهود الذي لا صلة بينه وبين عالم المادة ، ويمكن أن يقال عنه إنه الوجود الباطن . أفلا يمكن إذن أن تكون الروح الفارضية هنا الفياضة بالشهود . أو قل بالوجود الباطن مقابلة النفس الكلية التي هي عند أفلوطين صورة من العقل الأول الذي يشبه الواحد ويفيض قوته فيحدث هذه الصورة وهي النفس الكلية التي تتوجه نحو العقل الصادرة عنه ، فتفيض فيوضا كثيرة منها نفويس البشر والكواكب وسائر المخلوقات وأن تكون النفس الفارضة الفياضة بالموجودات الظاهرة في عالم الشهادة مقابلة للجسم الكلي الأفلوطيني الفياض بالأجسام المعينة المحسوسة ، وأن يكون كل ما بين ابن الفارض وأفلوطين من الفرق هو أن الأول يستعمل الروح للدلالة على النفس الكلية والنفس للدلالة على الجسم الكلي . وهنا نرى أنفسنا مضطرين إلى مخالفة الأستاذ نلينو الذي ينكر كل أثر للنفس الكلية أو الروح الكلية في شعر ابن الفارض : فقد رأينا كيف يمكن أن نخرج منه تلميذا له ، استغل مذهبه ، واصطنع ألفاظه كما هي في منطوقها ومفهومها ، ولكنها عبارات وألفاظ اشتمل عليها شعر ابن الفارض ، وأراد الشاعر أن يعبر بها عن مذهب صوفي كمذهب أفلوطين ، فكان طبيعيا أن يلتقي الشاعر الصوفي بالفيلسوف اليوناني عند بعض النقط ، وأن يعبر عما يريد بألفاظ وعبارات إن لم تكن هي عين ألفاظ أفلوطين وعباراته " فليس أقل من أنها مقاربة لها شبيهة بها .

ولعل ابن الفارض في هذه الناحية مذهبه التي تدور حول الفكرة القائلة بأن الذات أفاضت الوجود والشهود على الكائنات قبل استعداد هذه الكائنات لتلقي هذا الفيض ، لعله كان في ذلك شبيها بابن عربي الذي عرف الأفلاطونية الجديدة واستغلها ،

وكانت معرفته بها واستغلاله لها أعمق وأدق من معرفة شاعرنا واستغلاله . وقد رأينا آنفا كيف غذى ابن عربي مذهبه في وحدة الوجود بعناصر مستقاة من الأفلاطونية الجديدة : فقد قال ابن عربي بما قاله ابن الفارض من استعداد الذات للفيض قبل استعداد الموجودات لتلقي هذا الفيض وهو وإن كان يظهر الفكرة في صورة مخالفة لصورتها عند ابن الفارض - متفق وإياه على الفيض الذاتي قديم : فابن عربي يرى في " الفصوص " : " أن اللـه خلق العالم وأوجده في أول أمره وجود شبح مسوى لا روح فيه ، فكان كمرآة غير مجلوة ، وأن من شأن الحكم الإلهي أنه ما سوى محلا إلا ولا بد أن يقبل روحا إلهيا عبر عنه بالنفخ فيه ، وهذا هو حضول الاستعداد من تلك الصورة المساواة لقبول الفيض أو التجلي الدائم لم يزال ولا يزال ، فما بقى إلا قابل ، والقابل لا يكون إلا من فيضه الأقدس ، فالأمر كله منه ابتداؤه وانتهاؤه " : فإن صح تفسير القاشاني للفيض الأقدسي بأنه تجلى الذات بدون الأسماء وهو التجلي الذي لا كثرة فيه أصلا ، وإنه سمى أقدس ، أي أقدس من التجلي الشهودي الأسمائي الذي هو بحسب استعداد المحل ، تبنينا إلى أي حد كان ابن الفارض في البيتين ٤٠٣ ، ٤٠٤ من تائيته الكبرى متحدثا كابن عربي عن فيض الذات ، ومشيرا مثله إلى أن لهذا الفيض سورتين : إحداهما سورة التجلي الذاتي الذي يرجع إلى استعداد الذات لإفاضة هذا الفيض على العوالم . وهو ما يسميه ابن عربي بالفيض الأقدس ، والأخرى سورة تجلي الذات في العوامل تجليا راجعا إلى

استعداد هذه العوالم لقبول ذلك الفيض ، وهذا ما يسميه ابن عربي بالتجلي الشهودي الأسمائي الذي هو بحسب استعداد المحل ، وتبينا من خلال هذا كله كيف أدخل كل من الصوفيين المسلمين فكرة الفيض الأفلوطيني إلى مذهبه ، وكيف كان اب عربي بنوع خاص أكثر استغلالا لها ، وأوسع تعبيرا عنها من ابن الفارض

من كل ما قدمنا هذا الفصل نستخلص أن الوحدة التي انتهى ابن الفارض إلى إثباتها عن طريق حبه ، إن كانت قريبة من بعض النواحي من وحدة الوجود فإنها في قرارها لم تكن من وحدة الوجود إلا من حيث بعض الألفاظ والعبارات التي استقاها شاعرنا من معجم وحدة الوجود ، ولم يجد خيرا منها يسعفه عما هو بصدد التعبير عنه من وحدته الشهودية او شهود الواحدي .

ومن هنا يمكن القول إن ما نجده في ثنايا وحدة ابن الفارض من العناصر الفلسفية والصوفية التي هي صميم المذاهب المخالفة لمذهبه ، لم يكن أكثر هذه أدوات يستعين بها الشاعر على تصوير اتحاده بمحبوبته من ناحية ، وتجلي هذه المحبوبة في الكائنات من ناحية أخرى . وذلك كله في حال وجوده وشهوده وخضوعه لسلطان الحب الذي ملك عليه كل حياته الروحية ، الأمر الذي يترتب عليه أن تظل هذه الوحدة ، التي انتهى إليها الشاعر الصوفي في حدود هذه الشروط ، محتفظة بطابعها النفسي وصبغتها الذوقية التي تجعل منها حقيقة متوقعه في شهودها على الشعور الشخصي ، أكثر مما تجعل منها حقيقة واقعة في ذاتها سواء أدركها الشعور أم لا يدركها كما هو الشأن في وحدة الوجود .

الفصل الثالث

الحب والقطبية

اتحاد بالذات الإلهية واتحاد بالقطب أو الحقيقة الحقيقية تسمى " القطب " ، قطب حادث وقطب قديم ، و قطبية ابن الفارض روحية أو معنوية قديمة لا حسية حادثة ، والقطب عند ابن عربي والجيلي هل لابن الفارض نظر به في " الحقيقة المحمدية " ؟ " الروح المحمدي " قديم فياض بالوجود والحياة " الروح المحمدي " ، " الكلمة " المسيحية . " الروح المحمدي " وإله من الافلوطين صورة العالم المنطوية في الروح المحمدي ، انتقاله من " الوتر " إلى " الصور " و " الروح المحمدي " مفيض للعرفان والحب ، الأنبياء والعلماء والعارفين صور الروح المحمدي معجزات الأنبياء وشرائعهم - كرامات الخلفاء والأولياء " الروح المحدي " و " العقل الأول " عند الإسماعيلية ، و " فور محمد " أي الواحد على الحقيقة " عند كليمان الإسكندري ، و " الكلمة الإلهية " .

١- أشرنا في الفلصلين الأول والثاني من الكتاب الثاني مـن هـذا البحـث إلى أن الاتحاد وهو آخر طور من أطوار الحب الإلهـي عنـد ابـن الفـارض لم يكن اتحادا بين نفسه وبين الذات الإلهية فحسب . ولكنه كان كذلك اتحـادا بين هذه النفس وبين الحقيقة المحمدية التـي لا تكـاد تختلـف عـن الـذات الإلهية إلا في أن هذه هي الوجود المطلق الذي لا تعين فيـه ، عـلى حـين أن الحقيقة المحمدية هي الذات مع التعين الأول الذين فـاض منـه بعـاء ذلـك بقية التعينات الأخرى ، سواء مـا كـان منهـا مـن عـالم الأرواح أم مـن عـالم الأجسام ، وأشرنا كذلك إلى أن لابـن الفـارض نظريـة في الحقيقـة المحمديـة التي لم يذكرها بفلظهـا صراحـة ، ولكنهـا تبـين مـع ذلـك مـن أسـباب التـي يتحدث فيها تارة بلـسان الحـائز لـصحو الجمـع ، وهـو مقـام محمـد عليـه

الصلاة والسلام الذي امتاز به على بقية الأنبياء عامة ، وعلى موسى خاصة ، والتي يتحدث فيها تارة أخرى بلسان القطب المعنوي الذي هو الحقيقة الأولية وليس محمدا المبعوث إلى الناس بشيرا ونذيرا ، ولا هذا القطب الدين هو موضع نظر الله في كل زمان ، والذي يكون على رأس المراتب الصوفية المعروفة من أوتاد الصوفية المعروفة من أوتاد وأبدال وغيرهم ، ولكنه القطب بمعنى الحقيقة المحمدية التي وجدت منذ الأزل ، وكان وجودها سابقا على وجود آدم وبقية الأنبياء ، وكانت منبعا فياضا بالوجود والعلم . وقد رأينا في الفصل السابق من هذا الكتاب المغزى الفلسفي الذي يمكن استخلاصه من شعور ابن الفارض بالاتحاد مع الذات الإلهية ، ونريد أن نعرض في هذا الفصل لاتحاده بالقطب ، وأن نحلل قطبيته إلى عناصرها الصوفية مبينين ما عسى أن تكون منطوية عليه من المعاني الفلسفية .

٢ - ولكي نتعرف حقيقة القطبية عند ابن الفارض ، لابد من أن نقف بادئ ذي عند لفظ " القطب " ومعناه في التصوف الإسلامي ، وما عسى أن يكون بينه وبين بعض الأفكار الإسلامية وغير الإسلامية من أوجه الشبه ، فقد ظهرت هذه اللفظة في تاريخ التصوف الإسلامي ، وكان لها عند الصوفية معنيان : أحدهما هو القطب هو أكمل إنسان متمكن في مقام الفردية . أو هو الواحد الذي هو موضع نظر الله في كل زمان ، عليه تدور أحوال الخلق . وهو يسري في الكون وأعيانه الباطنة والظاهرة سريان الروح في الجسد ، ويفيض روح الحياة على الكون الأعلى والأسفل ، فهو من الكائنات بمثابة المهيمن عليها ، المكلف بحفظها ورعايتها . وإنه ليظل

كذلك طوال حياته حتى يقبضه الـلـه ، فيخلفه واحـد مـن الأوليـاء الثلاثـة الذين دونه في المرتبة ، وهم الأوتاد الذين كانوا من قبل أبدالا يبلغ عددهم الأربعين . وقد يسمى القطب غوثا باعتبار التجاء الملهـوف إليـه ، فالقطـب هنا عبارة عن إنسان اخـتص بمـا لم يخـتص بـه غـيره مـن الكـمال في العلـم والقدرة على التصرف . هذا أحد معنيي القطب ، أما المعنـى الثـاني فهـو أن يكون القطب قطبا للأقطاب ، سابقا في وجوده على وجود هؤلاء الأقطـاب ، سابقا في وجوده على وجود هؤلاء الأقطاب ، وعلى وجـود كـل مـا في عـالمي الغيب والشهادة ، وهو بهذا المعنى لم يتلق القطبية عن قطـب آخـر سـبقه من قبل ، واستخلفه من بعد فصار قطبا بعد ان كان وتدا ، ولكنه واحد منذ القدم ، لم يتقدم عليه قطب آخر ، ولن يلحقه قطب آخر بهذا المعنى الـذي لا يدل إلا على حقيقـة واحـدة هـي " الحقيقـة المحمديـة " أو هـو بعبـارة أخرى عبارة عن قطب الاقطاب المتعاقبين الذين يظهرون على مر العـصور ، ويأخذ كل واحد منهم صورة نبي من الأنبياء ، أو ولى مـن الأوليـاء ، يتـولى المحافظة على العالم الظاهرة في زمان ، ويستمد علمه وقدرته على التـصرف من القطبية الكبرى التي هي باطن نبوة محمد عليه السلام ، لا ظاهر هذه النبوة الذي بعث به ، وأخذ فيه صورة النبي المرسل للنـاس يـشيرا ونـذيرا : فالفرق ظاهر بين القطب بمعناه الأول وبينه بهذا المعنـى : هـو هنـا قطـب معنوي قديم في حين أنه هناك قطب حسي حادث .

٣ - فمـن أي القطبـين كـان قطـب ابـن الفـارض ؟ الحـق أن شـاعرنا يذكر القطب ، ويصف اتحاده به ، ويتحدث بلـسان الجمـع معـه ، حـديثا

يظهرنا على أن القطب عنده إنما يراد به الروح المحمدي أو الحقيقة المحمدية، كما يظهرنا على مبلغ الفرق بين القطب الحسي والقطب المعنوي: فالقطب عنده ما تدور به الأفلاك التي تحيط بها ، وليست قطبيته من هذا النوع الذي يصير فيه الأنسان الكامل قطبا بعد أن كان وتدا . وهو من هذه الناحية قطب معنوي مختلف عن القطب الحسي ، إذ القطب الحسي ليس كالقطب المعنوي في إحاطته بما يدور عليه من الأفلاك ، ولكنه مركز لنقطة تحيط بها الأفلاك ، وتدور حولها . زد على ذلك ما يمتاز به القطب المعنوي على القطب الحسي من حيث الوجود الذي هو قديم بالنسبة إلى الأول ، وحادث بالنسبة إلى الثاني ، ومن حيث الوجود الذي هو قديم بالنسبة إلى الأول ، وعند من ظهر قبله من الأقطاب ، ومن حيث العلم والقدرة اللذان هما عند الثاني ، وعند من ظهر قبله من الأقطاب ، ومن سيظهر بعده منهم ، مستمدان من منبع واحد هو القطب الأول (المعنى) . وقد ضمن ابن الفارض هذا كله أبياته التي يذكر فيها القكب بلفظه تارة ، ويذكره بالروح تارة أخرى وبالمعنى تارة ثالثة ، فاسمع إليه حيث يتحدث عن الاتحاد بالقطب المعنوي فيقول :

في دارت الأفلاك فاعجب لقطبها الـ محيط والقطب مركز نقطة ٥٠٠

ولا قطب قبلي عن ثلاث خلفته وفطبية الأوتاد عن بدلية ٥٠١

وحيث يتحدث عن فيض الأرواح من روحه ، وفض الأجسام من جسمه فيقول :

وروحي لأرياح روح وكل ما ترى حسنا في الكون من فيض طيني ٣١٣

وحيث يتحدث عن معناه ، وأن الأنبياء على اختلافهم إنما صدروا عـن هذا المعنى السابق ، واستمدوا شرائهم من شريعته ، فيقول :

وكلهـــم عـــن ســـبق معنـــاي بـــدائري أو وارد مـــن شريعتـــي ٦٢٩

وهنا نتبين أن ابن الفارض حينما يتحدث عـن القطـب ، وعـما يجـري مجرى القطب من روح ومعنى ، فإنما يتحدث عن حقيقـة جامعـة قديمـة ، تذكرنا بما يقوله ابن عربي عن القطب من أنه الكون الجامع والعـالم الـصغير الذي تتجلي فيه الجمعية الإلهية النـي احـق مـن أجلهـا أن يـسمى حقيقـة اللـه وصورته . وروح العالم وعلته .

على أن ابن الفارض لا يستعمل وحده لفظ " القطب " بهذا المعنـى ، بل يشاركه في ذلك ابن عـربي والجلـيلي ، وإن كـان مختلفـين عنـه في أنهـما يطلقان على الإنـسان الكامـل الحـادث اسـم " القطـب " أيـضا : فالقطـب بمعنى الإنسان الكامل هو عند هذين الصوفيين اسـم عـام يطلـق عـلى كـل إنسان متحقق بالكمال . سواء في ذلك الأنبياء والأولياء . وقد أطلق الجـيلي بصفة خاصة لفظ " القطب " إطلاقا ، إذ جعله شـاملا للحقيقـة المحمديـة القديمة ، ولكل إنسان كامل حادث فقال إن الإنـسان الكامـل هـو القطـب الذي تدور حوله أفـلاك الوجـود مـن اولـه إلى آخـره ، وإنـه واحـد إلى أبـد الآبدين ، ولكن له تنوع في ملابس وظهور في كنائس ، على حد تعبير الجيلي نفسه ، ومن هنا نتبين أن القطب قد يكـون حقيقـة كليـة جامعـة قديمـة ، وهو بهذا المعنى لا بدل إلا على " الحقيقة المحمديـة " : وقـد يكـون فـردا جزئيـا حادثـا مـن أفـراد الإنـسان الكامـل ، الـذي وجـد منـذ آدم ، وظهـر

في كل زمان بصورة نبي أو ولي وهو بهذا لا يدل على اللقطب الحسي الـذي يختلف عند ابن الفارض وعند الجـيلي وابـن عـربي نفـسيهما ، عـن القطـب المعنوي ، فإذا طبقتا هذين المعنيين على محمد صلى الـلـه عليه وسلم ، رأينا أنه قطب حسي بمعنى الإنسان الكامل من وجه ، وقطب معنوى بمعنـى أنـه القطب الأولى ، أو قطب الأقطاب المتعاقبين من وج آخر : فهو قطـب حـسي من ناحية كونه نبيا مرسلا ظهر بـصورة النبـوة التـي ليـست إلا مظهـرا مـن مظاهر الإنسان الكامل الذي ظهر أولا في آدم ، ثن في بقية الأنبياء إلا مظهـرا من مظاهر الإنسان الكامل الذي ظهر أولا في آدم ، ثـم في بقيـة الأنبيـاء مـن بعده ، ثم زهر أخيرا في صورة محمد النبي ، ثـم ظهـر بعـد محمـد النبـي في صور الخلفاء والأولياء ، وهو قطب معنوي من ناحيـة أنـه أول المتعـاقبين في الأزمنه المختلفة ، سواء في ذلك الأنبياء الذين جـاءوا قبـل محمـد النبـي ، أم الخلفـاء والأوليـاء الـذين جـاءوا بعـد خـاتم الأنبيـاء . ومعنـى هـذا أن ابـن الفارض لا يجعل القطبية حظا مـشتركا بـين الحقيقـة المحمديـة وبيـت أفـراد الإنسان الكامل أي أنه لا يعني بالقطب ما يعنيه ابن عربي والجيلي في بعـض الأحيان . وهو أنه عبـارة عـن الإنـسان الكامـل الـذي هـو قطـب حـسي ، أو صورة ظاهرة في نبي من الأنبياء الذين كان محمد خاتمهم ، ولا في صورة ولي من الأولياء ، ولكنه يعني به دائما القطب المعنوي الـذي هـو حقيقـة محمـد وروحه ، وهما قديمتان كانتا قبل أن يكون الخلق ، وقبل أن يكـون الأنبيـاء ، وقبـل أن يبعـث محمـد النبـي إلى الخلـق بـشيرا ونـذيرا . وقبـل أن يكـون الخلفاء والأولياء الذين تعاقبوا في أزمنة مختلفة من بعـده . وبعبـارة أخـرة يمكن أن يقال إن القطب الحـسي مـن القطـب المعنـوي بمثابـة الظـاهر مـن

الباطن ، وإن ابن الفارض حين يتحدث عن القطب بلسان الاتحـاد معـه ، لا يعني إلا باطن القطبية الذي هو الحقيقة المحمدية ، لا ظاهرهـا الـذي هـو النبوة المحمدية ، أو نبـوة غـيره مـن الأنبيـاء الـسابقين ، او خلافـة الخلفـاء وولاية الأولياء اللاحقين . وهو في هذا متفق مع ابن عربي الذي يطلق مثلـه على الحقيقة المحمدية اسم " القطب " ويقصد به شـيئا آخـر غـير القطـب الذي هو الإنسان الكامل ، فابن عربي يـرى أن جملـة الأقطـاب الكـاملين في الأمم السابقة من عهـد آدم إلى إلى زمـان محمـد صـلى اللــه عليـه وسـلم خمسة وعشرون قطبا ، وأما القطـب الواحـد فهـو روح محمـد صـلى اللــه عليه وسلم ، الممد لجميع الأنبياء والرسل والأقطاب منذ النشأة الآدمية إلى يوم القيامة .

وهذا يعني أن القطب هنا عبارة عن المنبع الذي يستمد منه كل علم إلهـي الأنبيـاء والرسـل والأوليـاء الـذين كلهـم مـن الأقطـاب الكـاملين ، الظاهرين بصورة الإنسان الكامل في كـل زمـان ، المتلقـين علمهـم ووحـيهم وإلهامهم وقدرتهم على التصرف عن القطب الأول ، الـذي هـو واحـد منـذ الأزل ، والذي سيظل واحـدا أبـدا عـلى الـرغم مـن تعـدد صـوره . وتعاقـب أفراده .

وهكذا نرى أن للقطب عند ابن عربي معنيين ، يختلف في أحدهما عن ابن الفارض ، ويتفق معه في الآخـر . ويـأتي الخـلاف مـن أن ابـن عـربي قـد يطلق اسم " القطب " على " الحقيقة المحمدية " . وعلى محمـد الرسـول ، وعلى غير محمد من الأنبياء الـسابقين والأوليـاء اللاحقـين ، في حـين أن ابـن الفارض يقصره على " الحقيقة المحمدية " ولا يمكن أن يدل عنده إلا عليهـا

، أو يشترك معه فيه الأقطاب الآخرون الذيت ليسوا في الحقيقة غير صور معينة لهذه القطبية الجامعة الكلية القديمة . أما اتفاقهما ففي أن كلا منهما يطلق على " الحقيقة المحمدية " اسم " القطب " ، ويعني به ما يعنيه الآخر ، وهو هذه الحقيقة الازلية الفياضة بالوجود والعلم والقدرة ، على كل نبي أو ولي ظهر في هذا الزمان او ذاك .

على أن ابن عربي في حديثه عن " الحقيقة المحمدية " لم يقتصر كابن الفارض على تسميتها بالقطب ، بل إنه كان أغنى ألفاظا ، وأخصب اصطلاحا من شاعرنا : فهو يسميها بغير " القطب " من الأسماء التي لعلها أدل على حقيقتها وأمنع لوقوع الخلط بينهما وبين القطب الحسي عندما تذكر باسم القطب . كأن يسميها " الكلمة ، و " روح محمد " و " حقيقة الحقائق " . و " العقل الأول " و " الروح الأعظم " و " الحق المخلوق به" . ردد ابن عربي هذه الاصطلاحات وكثيرا غيرها ، ودل بها على " الحقيقة المحمدية " في حين أن ابن الفارض لم يستعمل في الدلالة عليها سوى لفظ " القطب " الذي ذكره صراحة ، وتحدث بلسان الجمع معه في البيتين ٥٠٠ و ٥٠١ ، وقد يفهم حديثه في بعض المواطن على أن لفظ " المعنى " (البيت ٦٢٩) ، مرادفان له .

ولعل وفرة الاصطلاحات التي يدل بها ابن عربي على " الحقيقة المحمدية " وقلتها عند ابن الفارض ، ترجع إلى سببين : أحدهما أن ابن عربي كان أعلم بالمذاهب الفلسفية ، وأعرف باصطلاحات الفلاسفة الإسلاميين وغير الإسلاميين ، وأقدر علة استغلالها ، وتغذية مذهبه بها

على نحو ما تظهرنا كتبه الكثير لاسيما " الفتوحات المكية " و " فصوص الحكم " : فالكلمة التي قال بها فيلون اليهودي وفلاسفة المسيحيين ، والعقل الأول الذي قال به أفلوطين والإسلاماعيلية الباطنية ، نجدهما ونجد غيرهما عند ابن عربي ، ونلاحظ أنه إنما يعني بذلك الحقيقة المحمدية ، وثانيهما أن ابن الفارض ، كان شاعرا بخضع لما يخضع له الشعراء عادة من قيود الشعر كالوزن والقافية وما إليها ، بخلاف ابن عربي ، الذي - وإن كان شاعرا يعتمد في بعض الأحيان على النظم في التعبير عن أفكاره - كان أغلب ما كان ناثرا يعالج المسائل الصوفية الخالصة ، أو الصوفية ذات الصبغة الفلسفية ، بأسلوب الناثرين لا بشعر الشعراء ونظم الناظمين ، فكان طبيعيا والحالة هذه أن يسبق مجال اللفظ والعبارة عند ابن الفارض ، على حين يتسع عند ابن عربي . ولو سلمنا جدلا بأن ابن الفارض كان كابن عربي على علم بالمذاهب والاصطلاحات الفلسفية ، لكاتن في تقيده بقيود الشعر حائلا يحول بينه وبين استغلالها ، ودافعا يحمله على ألا يصطنع منها إلا ما كان متمشيا مع وزن الشعر وملائما لحكم القافية ، ولما كان يعمد إليه ابن الفارض من محسنات بديعية فاض بها شعره ، ومن غريب المصادفات أن جاء أكثر ما يعبر به ابن الفارض عن الحقيقة المحمدية مستمدا من معجم التصوف ، في حين أن بعضه جاء حظا مشتركا بين معجم التصوف ومعجم الفلسفة ،

وليس أدل على ذلك من لفظه " القطب " وهي أظهر ما يدل به على الحقيقة المحمدية ، فهى لفظة صوفية خالصة . ومن لفظتي " الروح "

و " المعنى " اللتين ترادفان " القطب " عنده ، فإنهما شائعتان بين التصوف والفلسفة .

٤ - ومهما يكن من شئ ، فقد استطاع ابن الفارض - على الرغم من أنه كان شاعرا مثقلا بقيود الشعر وضيق مجال العبارة فيه - أن يقدم لنا نظرية في القطبية ، أو في الحقيقة المحمدية تنطوي في جوهرها على كثير من معاني الصوفية والفلسفية التي لا تقل في قيمتها عن نظرية ابن عربي المقابلة .

على أن نظرية ابن الفارض في القطبية ليست بالمعنى الذي يفهم عند الكلام على نظرية في العلم أو في الفلسفة ، وإنما نحن نسميها نظرية تجوزا ، وذلك لأنها لا تكاد تتفصل عن الحالة النفسية لصاحبها ، ولا عن شعوره بالاتحاد مع القطب الذي يعبر به عن الحقيقة المحمدية ، ويصف لنا تحققه بمقام الجمع معه ، فهي من هذه الناحية مثلها كمثل نظريته في الوحدة ، بل لعلها لا تختلف عنها إلا في أن شعور ابن الفارض بالاتحاد مع الذات الإلهية شعور بالاتحاد مع الوجود المطلق عن كل تعين ، في حين أن شعوه بالاتحاد مع القطب شعور بالاتحاد مع الوجود في تعينه الأول الذي هو الحقيقة المحمدية الجامعة لكل تعين فاض منها وصدر عنها بعد ذلك . ومع ذلك فإن حديث ابن الفارض عن القطب بلسان الجمع معه والاتحاد به مختلف في حقيقته : فهل هو ذلك مجرد معبر عن حقيقة القطب ومنزلته من الله ومن العالم ، أو هل هو مدع لنفسه وراثة مقام هذا القطب ، ومتحقق تحققا فعليا بما كان له من كمال العلم وكمال القدرة على التصرف ؟؟

فسعيد الدين الفرغاني ، وهو أحد شراح " التائية الكبرى " يرى أنه ليس من المسلم أن يكون كلام ابن الفارض فيما يتعلق بالحقيقة المحمدية على سبيل دعوى الوراثة ، لأن لذلك أمارات لم يظهر على ابن الفارض شئ منها أصلا طوال حياته ، ومن جملة هذه الأمارات أن يكون خاتم الولاية المحمدية ، وأن يكون له أتباع كثيرون أصحاب أذواق عالية ، واقفون في مكان الدعوة والتمكين ، وهو لم يظهر منه شئ من هذا ، فتعين إذن أن يكون مراده نقل صورة هذا المقام المحمدي بصورته هو ولكننا نخالف الفرغاني فيما يذهب إليه هنا ، فحياة ابن الفارض الصوفية وتقلبه في أطوار الحب هذا التقلب الذي انتهى به إلى الفناء عن نفسه والاتحاد بذات محبوبته المطلقة ، وما كان له من تحقق بالعلم اللدني ، وما صدر عنه من خوارق " وإن كانت أقل مرتبة من الكرامات ، كل أولئك شواهد صدق تدل على أنه ليس م يمنع من أن يكون الرجل قد تحققا فعليا بمقام الجمع مع الحقيقة المحمدية على نحو ما تحقق قبل ذلك بمقام الجمع مع الذات الإلهية .

وحسبنا أن ننظر في الأبيات التالية :

وكـــل الـــورى أبنـــاء آدم غـــير أني حـزت صـحو الجمـع مـن بـين إخـواتي ٣١١

فـــسمعي كليمـــي وقلبـــي منبـــأ بأحمـــــد رؤيـــــا مقلـــــة أحمديـــــة

وروحــــي لــــلأرةاح روح وكلـــما تــرى حــسنا في الكــون مــن فــيض طينــي

فــذر لي مــا قبــل الظهــور عرفتــه خـــصوصا وبي لم تـــدر في الـــذر رفقتـــي

وفي الأبيات التالية أيضا :

وقد جاءني مني رسول عليه ما	عنت عزيبي حريص لرأفة ٤٥٧
فحكمي من نفسي عليها قضيته	ولما تولت أمرها ما توالت
ومن عهد عهدي قبل عصر عناصري	إلى دار بعث قبل إنذار بعثة
إلى رسولا كنت مني مرسلا	وذاتي بآياتي على استدلت ٤٦٠

لنتبين أن ابن الفارض إنما يتحدث بلسان الجمع مع الحقيقة المحمدية ، أو بلسان الواصل إلى مقام صحو الجمع الذي اختص به محمد عليه الصلاة والسلام من دون بقية الأنبياء . فيظهرنا وكأنه يتحدث عن نفسه ، على أنه حائز لصحو الجمع . وأن روحه فياضة بالأرواح . وطينته فياضة بالصور والأشباح ، وعلى أنه أرسل من نفسه إلى نفسه ، أي أنه كان نبيا قبل أن يبعث إلى الخلق بالرسالة : وهو في هذا كله إنما يستند أو يشير إلى ماروي من الأحاديث التي تثبت قدم محمد من حيث الحقيقة . والتي لا ندري أهي ثابتة صحيحة . أم منحولة موضعة أجرها واضعوها على لسان النبي عليه الصلاة والسلام ، وكان منها قوله : " أنا أول الناس في الخلق"، وقوله : " أول ما خلق الله نور نبيك يا جابر " . وقوله : " كنت نبيا وآدام بين الماء والطين " .

وإذا كان ذلك فقد تبين إذن أن لابن الفارض مذهبا في الحقيقة المحمدية . وأن مثل مذهبه في هذه الحقيقة وجمعيتها لكل الحقائق التي فاضت منها ، كمثل مذهبه في الذات الإلهية ووحدتها التي استوعبت كل

الذوات الأخرى ، لاسيما أن الحقيقة المحمدية ، كما يتحدث عنها ابن الفارض بلسان القطب ، ليست إلا صورة ثانية من صور الوحدة ، تعبر عن معنى خاص من معانيها . وهو تجلي الذات الإلهية أولا في الحقيقة المحمدية الجامعة لكل شئ ، ثم فيض الموجودات المعينة بعد ذلك من هذه الحقيقة الجامعة : إذ الذات قبل تنزلها من حضرة الأحدية إلى حضرة الواحدية هي ، كما قلنا في غير هذا الموضع ، الوجود المطلق عن كل تعين ، والحقيقة المحمدية أو القطب المعنوي هو هذه الذات مع التعين الأول : فالذات الإلهية والقطب المعنوي هما إذن حضرتان جامعتان . تظهر الوحدة في إحداهما مجردة عن كل تعين ، وتظهر في الأخرى مع التعين الأول الذي هو أصل في كل تعين ، ومصدر لكل علم ، ومنبع لكل حياة في كل كائن . يضاف إلى هذا أن مذهب ابن الفارض في القطبية كمذهبه في الذات الإلهية من حيث إن كلا منهما يعد ثمرة من ثمرات حبه ، نفحة من نفحات ذوقه ووجده ، يتحدث في أحدهما عن القطب بلسان الجمع معه ، ويتحدث في ثانيهما عن الذات الإلهية بلسان الاتحاد بها والفناء فيها وهو في كلا المذهبين إنما يضفي عليهما هذا الثوب النفسي الجميل الذي نسجت خيوطه من خلجان نفسه ، ولمعات قلبه .

على أن الدكتور أبا العلا عفيفي قد ذهب في بحث له عن " نظريات الإسلاميين في الكلمة " إلى " أننا لا نجد قبل الإسماعيلية ولا بعدهم سوى ابن عربي من اعتبر القطب " الحقيقة المحمدية " مبدأ كليا عاما ساريا في الكون بأسره ، وأصلا لكل علم وكل حياة وكل خلق ، أو اعتبره والله عينا واحدة وحقيقة واحدة : فإن ابن عربي لا ينظر إلى " القطب " نظرة باقي

الصوفية إليه ، لأن قطبه ليس وليا من الأولياء ، ولا نبيا مـن الأنبيـاء ، بـل قوة عاقلة يظهر أثرها في العـالم أجمـع " . ولكننـا قـد رأينـا فـيما سـبق أن القطب في اصطلاح ابن الفـارض ومذهبـه لا يختلـف في منطوقـة ومفهومـة عما هو عليه عند ابن عربي . وسنرى مما سنورده بعـد مـن تفـصيل المعـاني الصوفية والفلسفية التي تنطوي عليها قطبية ابن الفارض ، أن للقطب عنـد شاعرنا وعنـد الـشيخ الأكـبر حقيقـة واحـدة قوامهـا فكـرة واحـدة هـي أن القطب مبدأ الوجـود وأصـل الحيـاة والتكـوين ، وواسـطة الخلـق ، ومنبـع العلم، ومفيض القدرة على التصرف الأمر الذي يترتب عليه أن تنتقي دعوى الدكتور عفيفي التي جعل فيها مـن ابـن عـربي بـدعا مـن الـصوفية ، وفـذا بينهم ، لم يسبقه أحد ، ولم يلحق به أحد في القول بشئ مما قاله في القطب بهذا المعنـى ، لاسـيما قبـل الإسـماعيلية وبعـدهم ، فـأنكر بـذلك مـا لابـن الفارض من كلام في القطبية لا يقل في قيمته الصوفية والفلـسفية عـن كـلام ابن عربي : فامتأمل في تائية ابن الفارض الكبرى ، يلاحظ أن وجـود القطـب قديم ، سابق على وجود آدم نفسه ، وأن هذا القطب علة الوجود هـو عـين ما يقوله ابن عربي إذ يعتبر الحقيقة المحمدية (وهي مرادف عنده للقطـب) مبأ للتكوين والحياة والتدبير في الكـون . وكـذلك يلاحـظ أن ابـن الفـارض يبين أن القطب و الأصل الذي يـستمد منـه كـل علـم بـاطني ، وكـل وحـي إلهي كما أنه المنبع الفياض بمعجزات الأنبياء السابقين في وجودهم الزمـاني عـلى وجـود محمـد الرسـول عليـه الـسلام ، وبكرامـات الأوليـاء وأهـلى الدعوة إلى طريق الحق ممن جاءوا بعده ، والقطبيـة بهـذا الوجـه لا تكـاد تعدوا ما يسميه ابن عربي " مشكاة خـاتم الرسـل " التـي لهـا في قلـب كـل

إنسان كامل شاع من النور ، وهذا الشعاع قد يكون لدى بعض الآخر قـدرة على التصرف في ظواهر الكون ، غير أن هذا الشعاع ليس إلا معجزة بالنسبة إلى الإنسان الكامل الظاهر بـصورة نبـي مـن الأنبيـاء المرسـلين، وإلا كرامـة بالنسبة إلى هذا الإنسان الكامل الظاهر بصورة ولي من الأوليـاء الـصالحين : فالمعجزة والكرامة على هذا النحو شعاعان من أشعة " مشكاة خاتم الرسل " كما يقول ابن عربي ، ومظهـران مـن مظـاهر " القطـب " كـما يقـول ابـن الفارض ، وكما سنتين هذا كله فيما يلي ، بحيث نضع نظرية ابن الفـارض في القطبية في موضعها اللائق بين النظريات الفلسفية والـصوفية التـي يمكـن أن يكـون بيـنهما وبـين نظريـة شـاعرنا أوجـه شـبه أو تقـارب في الفكـرة الجوهرية أو في التفصيلات المتفرعة على هذه الفكرة : فمـما لا شـك فيـه أن حديث ابن الفارض عن القطب وحقيقتـه ، ووصـفه لآثـاره في الوجـود وفي العالم والعمل ، فوق مـا ينفيـان مـن دعـوى الـدكتور عفيفـي أن ابـن عربي كان نسيج وحده بين الصوفية في وضـع نظريـة في القطبيـة ، فـإنهما يذكراننا بنظريات وعقائد فلسفية وغير فلسفية ، بعضها إسلامي وبعـضها الآخـر غريـب عـن الإسـلام كنظريـة فيلـون اليهـودي والمـسيحيين في " الكلمة " ونظرية أفلوطين في " الفـيض " عامـة ، وفـيض النفـوس الجزئيـة من النفس الكلية في " النور المحمدي " وعقيدة الإسماعيلية الباطنية في " الإمام المعصوم " : فكل أولئك نظريات وعقائد تتفق إلى حـد مـا ونظريـة ابن الفارض في القطبية ، التي تـدور مثلهـا حـول فكـرة رئيـسية واحـدة ، هي أن الموجودات الروحية والمادية على السواء قـد صـدرت عـن حقيقـة واحدة ، وفاضـت مـن قـوة واحـدة ، كانـت واسـطة بينهـا وبـين الوجـود

فكما أن للكلمة عند فيلون وفلاسفة المسيحيين ، وللعقل الأول عند أفلوطين ، وللنور المحمدي عند الشيعة ، وللإمام عند الإسماعيلية الباطنية وجودا سابقا على وجود الكائنات ، فكذلك للقطب من حيث هو حقيقة محمدية عند ابن الفارض وجود متقدم على وجود المخلوقات ، بل على وجوده هو كنبي مبعوث ختمت به النبوة الظاهرة بصورة الرسالة وإنذار الناس وهدايتهم إلى الإسلام .

ويتبين هذا كله من خلال التفصيلات التي تقدمها فيما يلي :

٥ - فابن الفارض يظهرنا في حديثه بلسان القطب وبلسان الحائز لصحو الجمع ، على أن الحقيقة المحمدية أزلية . وأقدم من الوجود كله ، ومنبع فياض بكل ما في عالم الغيب من أرواح ، وبكل ما في عالم الشهادة من صور وأشباح ، لولاها لما كان وجود أو شهود أو عهود . وهذا يعني أن هذه الحقيقة المحمدية هي المخلوق الأول الذي أبدعه الله ، أو هي الفيض الأول الذي فاض من ذات الله ، والذي خاطبه الله في الأزل بقوله: " لولاك ما خلقت الخلق " والكائنات الروحية إنما تصدر عن باطن هذه الحقيقة ، في حين أن الكائنات المادية تفيض من ظاهرها . وإلى هذه المعاني كلها يشير ابن الفارض بقوله :

وروحي للأرواح روح وكل ما ترى حسنا في الكون من فيض طينتي ٣١٣

وبقوله :

ولا فلك إلا ومن نور باطني به ملك يتهدى الهدى بمشيئي ٤٦٤

ولا قطر إلا حل من فيض ظاهري به قطرة عنها السحائب سحت ٤٦٥

وبقوله :

ولولاي لم يوجد وجود ولم يكن شهود ولم تعهد عهود بذمة ٤٦٤

ولا قطر إلا حل من فيض ظاهري به قطرة عنها السحائب سحت ٤٦٥

وبقوله :

ولولاي لم يوجد وجود ولم يكن شهود ولم تعهد عهود بذمة ٦٣٧

فلا حي إلا عن حياتي حياته وطوع مرادي كل نفس مريدة ٦٣٨

ويذهب ابن الفارض أيضا إلى الحقيقة المحمدية تظهر في عالم التركيب متخيلة في الصور . كما تظهر في عالم العقل متجلية في المعاني ، وكما تظهر أيضا في كل مشاهدة كشفية تحصل في عالي الملكوت والجبروت اللذين فوق عالمي المحسوس والمعقول ، واللذين تدق معرفتهما على الوهم ، وتجل عن الفهم ، وتكون من حظ الروح وحدها . وهو إنما يعني بهذا أن كل ما تشمل عليه عوالم الحس والعقل والروح ، ليس إلا نجليات تفصيلية حادثة صادرة عن حقيقة جامعة لها ، مشتملة عليها هي حقيقة القطب الواحدة القديمة ، الفياضة بهذه التجليات ، كما يدل على ذلك قوله :

وفي عالم التركيب في كل صورة ظهرت بمعنى عنه بالحسن زينتي ٦٤٢

وفي كل معنى لم تبنه مظاهري تصورت لا في صورة هيكلية

وفيما تواه الروح كشف فراسة خفيت عن المعنى المعني بدقة ٦٤٤

٦ - ونحن إذا أنعمنا النظرفيما يثبته ابن الفارض هنا من المعـاني التـي تدل كلها على أن حقيقة القطب قديمة فياضة ، وجدنا أن بينها وبـين بعـض الأفكار الفلسفية اليهودين والمسيحية والأفلاطونية الجديدة كثيرا من أوجـه الشبه :

فالفلسفة اليهودية القديمة تحدثنا بأن الـلـه قال كلمته فكان العـالم : أي أن العالم أثر صادر عن كلمة الـلـه . وفلاسفة اليهود المتأثرون بالفلـسفة اليونانية يصفون كلمة الـلـه بأنها حافظة للكون ، مدبرة له ، وبأنها مـصدر الـوحي والنبـوة والـشرائع : ففيلـون اليهـودي الإسـكندري يـذهب إلى أن العناية الإلهيـة لا تـصل إلى العـالم مباشرة ، بـل عـن طريـق وسـطاء ، وأن الوسيط الأول من هؤلاء الوسطاء هو " اللوغوس (logos) أو " الكلمة"، أو ابن الـلـه ، أو الكاهن الأعظم الذي تليه الحكمـة ، فـآدم الأول، فلملائكـة ، فنفس الـلـه ، فالقوات الكثيرة . والذي يعنينا هنا هو أن نلاحظ أن تـسمية ابن الفارض للحقيقة المحمدية باسم القطـب ، تقـرب مـن تـسمية فيلـون للكلمة باسم الكاهن الأعظم . وإن ما يقرره ابن الفارض أنه لولا القطب لما كان وجود أو شهود أو عهود ، ومن أن محمدا القطب ، وإن كـان ابنـا لآدم من حيث الصورة العنصرية ، إلا أنه أب من حيث المعنى الروحي القديم (البيت ٦٣٠ من التائية الكبرى)

ومن أن منبع فياض بكل حياة ، إنما يشير إلى ما قا لته الفلسفة اليهودية القديمة من أن العالم أثر صـادر عـن كلمـة الـلــه ، ومـا قالـه فلاسـفة اليهـود المتأثرون بالفلسفة اليونانية مـن أن كلمـة الـلــه هـي منبـع الـوحي والنبـوة

والشرائع ، وما قاله فيلون اليهودي من أن آدم الأول إنما هو أثر من الآثار الصادرة عن الوسيط الأول أو الكاهن الأعظم .

٧ - وقطبية ابن الفارض من حيث هي مبدأ للوجود ، ومنبع للشهود ، وأصل للعهود ، لولاها لما كان شئ من هذا كله ، تشبه " الكلمة التي يصورها " إنجيل يوحنا " على أنها مبدأ الخلق الذي عنه وبه كل شئ وبغير هذه الكلمة لم يكن شئ ليكون : فهي المشتملة على الحياة ، والحياة هي نور الناس ، وهذا النور هو الذي كون به العالم : فالكلمة المسيحية هي ابن الله وصورته ، والواسطة في خلق العالم ، والروح الساري في الكون ، المفيض للحياة والنور . وهي كذلك تظهر في أتباع المسيح ، وتمدهم بالعلم والمعرفة . ونحن إذا تدبرنا قطبية ابن الفارض والكلمة المسيحية ، ووازنا بينهما ، استخلصنا أن القطب الذي لولاه لما كان الوجود ، شبيه بالكلمة التي كانت واسطة في خلق العالم ، وأن القطب الذي هو منبع الشهود (العلم الباطن والمكاشفة الروحية) وأصل العهود (المواثيق والشرائع) ، يشبه الكلمة من حيث هي ابن الله ، في أنه ظاهر بروحه في أتباعه ، يفيض عليهم كل علم ومعرفة . ولعل كل ما هنالك من فرق بين قطب ابن الفارض وبين كلمة المسيحية ، هو أن هذه تعني بالكلمة كلمة الله التي تجسدت وتشخصت في المسيح ، في حين أن ابن الفارض يعني بالقطب الحقيقة المحمدية أو النور المحمدي .

٨ - ولا يقف الأمر في هذا التشابه عند هذا الحد ، بل هو يتجاوز إلى نظرية الفيض عن أفلوين : فقول ابن الفارض بأن روحه روح للأرواح ،

وطينته فياضة بكل ما هو حسن في الكون (البيت ٣١٣ من التائية الكبرى) ، وقوله بأن ما في العالم الباطن مستمد من باطن القطب ، وما في عالم الظاهر مستمد من ظاهره ، كل أولئك يذكرنا بنظرية أفلوطين التي تقرر أنه عن " الواحد " يصدر " العقل الأول " الذي هو صورة لهذا الواحد المطلق وأول فيض منه ، وأنه عن هذا العقل الأول تصدر " النفس الكلية " التي تصدر عنها الكائنات الروحية والمادية : فالقطب باعتباره عند ابن الفارض أول تعين فاضت منه الكائنات جميعا ، سواء ما كان منها في عالم الباطن أم في عالم الظاهر ، يمكن أن يكون مقابلا من هذه الناحية للعقل الأول هو في الأفلاطونية الجديدة أول فيض من الواحد . وما يعبر عنه ابن الفارض في البيت ٤٦٤ من تائية الكبرى " بنور الباطن " يمكن أن يكون مقابلا لما يسميه أفلوطين " بالنفس الكلية " كما أن ما يطلق عليه ابن الفارض ، في البيت ٤٦٥ من القصيدة نفسها ، اسم " فيض الظاهر " وفي البيت ٣١٣ " فيض لطينة " ، يمكن أن يكون مقابلا لما يعرف في سلسلة فيوضات أفلوطين باسم " المادة غير المصورة " . ومن هنا يمكن أن نقابل بين مراتب الوجود عند ابن الفارض ، وبين سلسلة الفيوضات عند أفلوطين ، على الوجه التالي : الذات الأحدية = الواحد ، القطب = العقل ، روح القطب أو نور باطنه = النفس الكلية ، طينة القطب أو فيض ظاهره = المادة غير المصورة ، غير أنه ينبغي أن نلاحظ هنا أن روح القطب أو نور باطنة وطينته أو فيض ظاهره ليسا فيضين صادرين عن القطب ، كما هو الشأن في النفس الكلية والمادة غير المصورة فإنهما عند أفلوطين فيضان يصدر كل منهما من الفيض الذي يتقدمه ،

وإنما روح القطب وطينته هما عند ابـن الفـارض عـين القطـب وحقيقتـه : تفيض من الأولى الأرواح ، وتصدر عن الثانية الـصور والأشـباح . ومـن هنـا نتبين أن منزلة القطب الفارضي من الذات الإهية ، ومن الكائنـات الروحيـة والمادية ، هي منزلة العقل الأول الأفلوطيني من الواحـد ومـما تحـت هـذا العقل من الفيوضات الأخرى ، لاسيما أن القطب الفارضي بحكـم كونـه أول مخلوق صدر عن الـذات الإلهيـة مبـاشرة ، يـشبه شـبها قويـا العقـل الأول الأفلوطيني في أنه أول فيض صدر عن الواحد .

٩ - وإذا كان القطب أو الروح المحمدي من حيـث هـو حقيقـة كليـة جامعة قديما ، وكان وجوده أقدم من وجـود العـالم الـذي ليـست الكائنـات فيه إلا تفصيلات لهذه الحقيقة الكلية الجامعة ، فقد كان طبيعيا أن يـصور لنا ابن الفارض ما كان عليه العـالم في حالتـه الأولى أي حـين كانـت حقائقـه ووجوداتـه مجتمعـه في حقيقـة القطـب ، وقبـل أن تخـرج هـذه الحقـائق والوجودات من التعين الأول الجامع لها ، إلى التعينات المتعددة التي تظهـر فيها ، وتتعين بها تعينا جزئيا بعد أن كان كليا . والحق أن ابـن الفـارض قـد قدم لنا في الـصدد كلامـا أقـل مـا يوصـف بـه أدنى مـا يكـون إلى نظريـة في الفلسفة الكونية منه إلى كلام الـصوفية المتحـدثين بلـسان الـذوق والوجـد : فالقطب أو الروح المحمدي كان عند ابن الفارض مطبوعـا عـلى العلـم ، أي أنه كان عالما بحقائق الأشياء التي في " عالم الذر " ، حين كان متحدا بالروح الأعظم ، وإن القطب قد اختص بهذا العلم فعرف كل شـئ في عـالم الأمـر ، في حين أن غيره من الأرواح لم تعـرف عنـه شـيئا . وانظـر إلى قولـه في هـذا البيت :

فذر لي ما قبــل الظـهور عرفته   خصوصا وبي لم تدر قي الذر فقتي ٣١٤

لتتبين أن القطب هنا كان عالما بالأرواح في عـالم الأمـر قبـل أن تتعـين هذه الأرواح في عالم الذر ، وأن الحقيقة الروحية لهذا القطب كانت جماعـا لتعينات الحقائق الروحيـة الأخـرى ، وأنـه عبـارة عـن وحـدة كليـة ، وروح جامع لكل الأرواح الجزئية الأخـرى . وهـذا ينبنـي عليـه أن يكـون القطـب مطلقا عن كل قيد ، مترفعا على كل حـد ، إليـه تتجـه كـل الجهـات ، وفيـه تلتقي جميع الاتجاهات . وانظر إلى قول ابن الفارض في هذين البيتين :

ومـن كـان فـوق التحـت والفـوق تحتـه   إلى وجهـه الهـادى عنـت كـل وجهـة ٤٦٨

فتحــت الــثرى فــوق الأثــير لرتــق مــا   فتقـت وفتـق تـالرتق ظـاهر سـنتي ٤٦٩

لتتبين منزلة القطب من العـالم ، وأي فـرق بـين حقيقـة هـذا القطـب الجامعة القديمة وبين جهات العالم المفصلة له تفصيلا حادثا . هذا من جهـة ، ولتبين من جهة أخرى أن ابن الفارض إنمـا يقـدم لنـا ، في هـذين البيتـين ، النظرية الإسلامية الواردة في القرآن عن خلق العالم ، وحالته التي كان عليها في البدء . وأي فرق بين هـذه الحالـة وبـين حالتـه التـي أصبح عليهـا بعـد ذلك ، فعند شاعرنا أن ما فوق الأثير عين ما تحت الثري ، أي أن كـل مـا في الكون من أجرام سماوية وأرضية ، وما بـين الـسموات والأرض ، كـان البـدء يؤلف وحدة جامعة لا فرق فيها بين الفوق والتحـت ، وهـذه الحالـة التـي كان عليهـا العـالم في بـادئ أمـره . هـي حالـة الجمعيـة في حقيقـة القطـب وروحه ، وهي التي يعبر عنها ابن الفارض بلفظة " الرتق " وقد ظـل العـالم على هذه الحال من الرتق الذي تنتفي معه الجهات وتلتقي فيـه الأضـداد ،

حتى خرج إلى حالة التفصيل ، وهي التي يعبر عنها ابن الفارض بلفظ " الفتق " . ففتقت السموات والأرض بعد الرتق ، وفصلت الجهات بعد الإجمال ، وفرقت الأضداد بعد الاجتماع . وظاهر هنا أن ابن الفارض يشير إلى قوله تعالى : " أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما " ، وهو ما ذهب المفسرون في تفسيره إلى السموات والأرض كانتا شيئا واحدا يوم خلقهما الله ، ثم فتقهما بالهواء الذي جعل بينهما ، وإلى السموات كانت سماء واحدة ففتقها الله إلى سبع سموات ، وأن الأرض كانت أرضا واحدة ففتقها الله إلى سبع أرضين . والغرض الذي يرمي إليه ابن الفارض من إظهارنا على انتقال العالم من حالة الرتق إلى حالة الفتق ، هو إثبات العلاقة بين القطب باعتباره أقدم مخلوق خلقه الله ، وبين العالم باعتباره حقيقة مشتملا عليها في حقيقة هذا القطب بادئ الأمر ، وباعتباره كاتنات حادثة وصورا متعددة بعد ذلك . ومن هنا يمكن أن يقال معه إن العالم وقد انطوت حقائقه واندرجت في حقيقة القطب كان في حالة الرتق ، فلما فصلت هذه الحقائق وبرزت . وتنوعت مظاهرها وتعينت ، خرج العالم من حالة الرتق إلى حالة الفتق : فكأنه يريد أن يقول إن باطن القطب يقابله في القدم الرتق ، في حين أن ظاهرة يقابله في الحدوث الفتق .

وإذا كان العالم على ما أبان ابن الفارض من الرتق أو الوحدة الجامعة التي تقابل باطن القطب ، فقد أظهرنا الشاعر على طائفة من الأصناف التي نتبين من خلالها ما كان عليه العالم في حالته :

١ - فقد كان العالم ولا جهات فيه ، لأن الجهة تستلزم الأين ، والأين يقتضي التشتت والتفرقة :

ولا شبــهة والجمع عين تيقن   ولا جهة والأين بين تشتتي ٤٧٠

٢ - وكان العالم وليس فيه أزمنة معدودة ، ولا مدد محدودة ، لأن المد حد، والحد مؤد إلى الشرك :

ولا عدة والعد كالحد قاطع   ولا مدة والحد شرك مؤقت ٤٧١

٣ - وكان العالم وليس فيه مع الـلـه ند ، إذ من شـأن النـد أن يخـالف نـده وينقض ما عقده ، كما أنه كان وليس قيه لله ضد ، إذ من شأن الـضد أن يجعل إلى جانب الـلـه إلها آخر قد يخلق مختلفا من الخلق الـذي خلقه الإله الحقيقي :

ولا نـــد في الـــدارين يقـــضي مـــا   بنيـت ويمـضي أمـره حكـم إمـرتي ٤٧٢

ولا ضـد في الكـونين والخلـق مـا تـرى   بهـم للتـساوي مـن تفـاوت خلقتـي ٤٧٣

وهكذا نتبين مع ابن الفارض أية صورة كـان عليهـا العـالم عنـدما كـان منطويا في هذه الحقيقة الكلية وهي حقيقـة القطـب التـي كانـت قبـل أن يكون أي تعين: وحدة في الزمان ، ووحدة في المكـان ، ووحـدة في الألوهيـة، ووحـدة في الحقيقـة الكليـة. وهـذه الوحـدة الجامعـة للأزمنـة المعـدودة، المستوعبة للأمكنة المحدودة ، المستهلكة لغـير ذلـك مـن ألـوان التعينـات ، هي أخص خصائص ذلك التعين الأول الذي أبدعه الـلـه منذ الأزل ، وأجمل

فيه كل التعينات الجزئية ، ثم فصلها منه بعد ذلك ، فكان ما كان مما يعد ويحد ، ومما له ند وضد .

١٠ - والقطب الذي هو أقدم من وجود العالم ، وأصل في تعيناته ، هو كذلك منبع العلم ومفيض العرفان . وقد سبقت الإشارة إلى أن محمدا من حيث هو قطب أو حقيقة قد عرف الذر وهو تعينات الأرواح الإنسانية ، وأن معرفته به قديما حقيقته وروحه ، أي أنها كانت قبل أن يبرز هذا الذر من عالم الأمر الخلق . ومن هنا نرى ابن الفارض يتسامى بقطبيته من حيث العالم ، فينهي عن وصف القطب بالمعارف ، أو نعته بأي نعت أو لقب أو كنية ، إذ أن هذا كله إن صح بالقياس إلى أتباعه ، فإنه لايصح بالقياس إليه وهو ما هو من علو وكمال وجمعية ، لا سيما أن أحد من أتباع هذا القطب لو سئل عن المعنى من المعاني ، لأتى في إجابته بما يحل عن الوهم ويدق على الفهم ، وهو في هذا إنما يصدر عن أصل الفطرة المحمدية ، ومنبع علمها ، ويجني ثمر العرفان من فرع الفطنة المحمدية ، كما يدل على ذلك قول ابن الفارض في الأبيات التالية :

وألغ الكني عني ولا تلغ الكنا	بها فهى من أثار صيغة صنعتي ٣١٦
وعن لقبي بالمعارف ارجع فإن ترال	تنابز بالألقاب في الذكر تمقت
فأصغر أتباعي على عين قلبه	عرائس أبكار المعارف زفت
جنى ثمر العرفان من فرع فطنة	زكابا تباعي وهو من أصل فطرتي
فإن سيل عن المعنى أتى بغرائب	عن الفهم جلت بل عن الوهم دقت ٣٢٠

وهنا يتشابه ابن الفارض وابن عربي : فكما أن القطب عند ابن الفارض هو الذي تفيض فطرته بكل وجود ، وتفيض فطنته بكل علم ، فكذلك ابن عربي يرى " أن كل نبي من لدن آدم إلى آخر نبي ، ما منهم أحد يأخذ إلا من مشكاة خاتم النبيين ، وإن تأخرت طينته في الوجود ، فإنه بحقيقته موجود " .

وما يقال عن العلم ، يقال عن الحب : فكل من العلم والحب متفقان في أنهما صادران عن القطب ، مطبوعان فيه . وليس أدل على ذلك مما يذهب إليه ابن الفارض من أن كل ما أودع في الذر (تعينات الأرواح الإنسانية) من الحب إنما هو فيض من هذا الحب القديم الذي استوعبه القطب في عالم الأمر ، وظهر عنه في عالم الذر ، وعبر عنه الشاعر " بالولاء " في قوله :

فعنى بدا في الذر الولا ولي لبان ثدي الجمع مني درت ٥٠٣

١١ - وإذا كان الروح المحمدي عند ابن الفارض سابقا على الوجود، وفياضا بالعلم والحب ، وجامعا لكل الحقائق ، فقد رتب شاعرنا على ذلك نتائج لها قيمتها من حيث العلاقة بين هذا الروح المحمدي وبين الأنبياء السابقين على محمد النبي ، والخلفاء والأولياء اللاحقين به ، فمحمد النبي ، إن كان من حيث الصورة العنصرية ابنا لآدم ، وإنه من حيث الروح أو المعنى أب له ، متقدم عليه وعلى أفراد الأنبياء الذين ليسوا في الحقيقة إلا فروعا لأصل واحد ، ومظاهر لحقيقة واحدة هي الحقيقة المحمدية التي اشتملت اشتمالا كليا على هذه الأفراد الجزئية ، كما يشتمل اللوح

المحفوظ على العناصر البسيطة قبل تركيبها . وهـؤلاء الأنبيـاء لا يـصدرون فيما دعوا إليه من الحق ، وما أوضحوا من الشرائع ، وما جرى عـلى أيـديهم من المعجزات ، إلا عن هـذا الـروح المحمـدي الـساري فـيهم ، الممـد لهـم ، المتجلي على كل منهم بصورة معينة من صور الكمال أو بمعجزة خاصـة مـن خوارق العادات ، فهـم في هـذا كلـه إنمـا ينهجـون ، ولا يتجـاوزون مـواطئ خطوه . وما يقال عن الأنبياء المتقدمين على محمد النبـي ، المتـأخرين عـن الروح المحمدي ، أحرى بأن يقال عن الداعين إلى الحق من الخلفاء والعلماء والأولياء الذين هم متأخرون طبيعة وجـودهم الزمـاني ، سـواء عـن وجـود الروح المحمدي أم عن وجود النبي ، فهؤلاء جميعـا لم يخرجـوا في دعـواتهم عن دائرته ، ولم يحاجوا الملحدين بغير حجته .

وإلى هذا كله يشير ابن الفارض بقوله :

وإني وإن كنـــت ابـــن آدم صـــورة	فـــلي فيـــه معنـــى شـــاهد بـــأبوَتي ٦٣٠
ونفـسي عـلى حجـر الـتجلي برشـدها	تجلـــت وفي حجـــر الـــتجلي تربـــت
وفي المهـــد حـــزبي الأنبيـــاء وفي عنـــا	صري لـوحي المحفـوظ والفـتح سـورتي
وقبـل فـصالي دون تكليـف ظـاهري	ختمـت بـشرعي الموضـحي كـل شرعـة
فهـــم والأولى قـــالوا بقـــولهم عـــلى	صراطـــي لم يعـــد مـــواطئ مـــشيتي
فـــيمن الـــدعاه الـــسابقين إلي في	يمينـــي ويـــسر اللاحقـــين بيـــسرتي
ولا تحـــسبن الأمـــر عنـــي خارجـــا	فـــما ســـاد إلا داخـــل في عبـــودتي ٦٣٦

ويبني على هذا أن تكون منزلة نبوة محمد كمنزلة نبوة نبي آخر من الروح المحمدي أو المعنى المحمدي ، إلا أن محمدا النبي يفضل غيره من الأنبياء في أنه كان مرسلا من نفسه أي من ذاته القديمة الجامعة ، إلى نفسه باعتباره نبيا مرسلا ، في حين أن غيره من الأنبياء كان صادرا عن ذات أخرى غير ذواتهم ، وهي هذا الروح المحمدي القديم الجامع . وبعبارة أخرى يقال مع ابن الفارض إن محمدا النبي كان رسولا مبعوثا من نفسه باعتباره معنى كليا وروحا جامعا ، إلى نفسه بإعتباره صورة عنصرية معينة ظاهرة بمظهر من مظاهر الكمال وهو النبوة ، كما يشير إلى هذا المعنى الحديث القائل : " كنت نبيا بين الماء والطين " والذي يضمنه ابن الفارض هذين البيتين :

ومن عهد عهدي قبل عصر عناصري إلى دار بعث قبل إنذار بعثة ٤٥٩

إلى رسولا كنت مني مرسلا وذاتي بآياتي على استدلت ٤٦٠

١٢ - هذه الفكرة الفارضية عن علاقة الروح المحمدي بمن تقدم على محمد النبي من الأنبياء ، يمكن أن نتبينها في وضوح إذا لاحظنا مع الشاعر الصوفي تفاصيلها التي أبان فيها عن حقيقة المعجزات وجوهر الشرائع . فكل أثر من آثار الكمال الظاهر على يد نبي من الأنبياء بصورة معجزة من المعجزات ، إنما هو في الحقيقة ناشئ عن سريان أثر من آثار الروح المحمدي الذي جمع منذ القدم أرواح الأنبياء وأشباحهم ، فالمعجات التي ظهرت على أيدي نوح وسليمان وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام ، ليست في الحقيقة إلا تفصيلات لهذا الكمال المطلق الذي

انطوى عليه الروح المحمدي . وأفاض أسراره على هـؤلاء الأنبيـاء نبيـا بعـد نبي . حتى كانت نبوة محمد نفسه فختم بها على هـذه النبـوات وعـلى مـا صدر عن أصحابها من معجزات كما يدل على ذلك قول ابن الفارض في هـذا البيت :

وجاء بأسرار الجـميع مفيـــضها علينا لهم ختما على حين فترة ٦١٤

ومعنى هذا بعبارة أخرى من عبارات ابن الفارض نفسه هو أن جميع الانبياء السابقين على محمد الرسـول عليـه الـصلاة والـسلام ، لم يكونـوا في أقوامهم إلا دعاة بما دعا إليـه مفـيض أسرار المعجـزات علـيهم وهـو الـروح المحمدي ، فكل نبي من لدن آدم إلى محمد لم يخرج في دعوته عـن تبعتيـه للروح المحمدي ، مثلهم في ذلك كمثل الذين جاءوا بعـد محمـد النبـي مـن أهل الحق ، ودعوا إلى اللـه عن تبعيتهم لـه تبعيـة زمانيـة ظـاهرة بـصورة متعاقبة . ولعل كل ما هنالك من فرق بين الأنبياء الـسابقين عـلى خـاتمهم ، وبين اللاحقين به من دعاة الحق ، هو أن الأنبياء السابقين يسمون رسلا ، إذ أرسل كل منهم ليـدعو قومـه إلى الحـق ، في حـين أن مـن أتى بعـد محمـد الرسول لا يسمى رسولا أو نبيا ، ولكنه عالم له منزلة النبي أو الرسول الذي كان قبل بعثة محمـد عليـه الـصلاة والـسلام ، أو عـارف مـن هـؤلاء الـذين يأخذون أنفسهم بالعزيمة ويعرفون باسم " أولى العزم " ، لاسيما أن النبـوة أو الرسالة قد ختمت بمحمد ، فلا محل بعد ذلك لنبي أو رسول .

وانظر إلى ما يقول ابن الفارض عن دعاة الحق في هذ الأبيات :

ومـا مــنهم إلا وقــد كــان داعيــا بــه قومــه للحــق عــن تبعيــة ٦١٥

فعالمنا منهم نبي ومن دعا إلى الحق منا قام بالرسلية

وعارفنا في وقتنا الأحمدي من أولى العزم منهم آخذ بالعزيمة ٦١٧

لترى أنه يقسم أفراد الإنسان الكامل ، المستدين كمالهم في العلم والعمل من روح الأرواح وقطب الأقطاب ، إلى ثلاثة أقسام : (١) نبي مرسل ، وهو من جاء إلى قوم من الأقوام برسلة قبل خاتم الأنبياء : (٢) عالم كالنبي ، وهو من دعا إلى الحق بعد خاتم الأنبياء ، وكان في دعوته أشبه بالرسول . (٣) عارف أو ولي ، وهو من هذب نفسه ، وأخذها بالرياضة والاستقامة ، حتى أصبح أعرف بالله ، وأقدر على التصرف ممن لم تكمل نفوسهم .

ومثل هذا العارف كمثل العالم في أن ظهور كل منهما بعد خاتم الأنبياء وشترك الأنبياء والعلماء والعارفون في المصدر الأول الذي يتلقى عنه الأنبياء وحيهم ، والعلماء علمهم ، والعارفون معرفتهم . ولهذا كانوا جميعا شخصية واحدة من حيث الحقيقة ، وشخصيات متعددة من حيث ظهور فريق منهم بصورة النبي ، وفريق آخر بصورة العالم ، وفريق ثالث بصورة العارف . وبعبارة أخرى يقال مع ابن الفارض إن الأفراد الكاملين ، على اختلاف صورهم ، وتعدد أشخاص الحادثة ، قد ورثوا كمال العلم والعمل عن الروح المحمدي ، إلا أن علماء الأمة المحمدية يمتازون بأنهم في مرتبة هي أدنى ما تكون إلى مرتبة الأنبياء ، كما يدل على ذلك قول ابن الفارض في البيت التالي :

فعالمنا منهم نبي ومن دعا إلى الحق منا قام بالرسلية ٦١٦

وهنا يقرب ابن الفارض من ابن عربي فيما يراه هذا الأخير من أنـه إذا ورث ولي الأولياء علم الباطن عـن نبـي مـن الأنبيـاء مثـل مـوسى وعيـسى علـيهما الـسلام ، فإنـه لا يـرث هـذا العلـم مباشرة ، بـل بواسـطة " النـور المحمدي " ، الأمر الذي من أجله يقول ابن عربي إن الولاية المحمدية تـشبه النبوة ، ويستدل عليه بالأثر القائل : " علماء أمتي كأنبيـاء بنـي إسرائيـل " لأن كلا من النبي والولي المحمدي يستمد علمه مـن منبـع واحـد هـو هـذا النور المحمدي . وقد أشار ابن الفارض إلى ذلك الأثر في البيت المثبـت آنفـا، كما استدل به ابن عربي .

ومثل الشرائع المختلفة في أصـلها الـذي صـدرت عنـه ، كمثـل الأنبيـاء المتعاقبين في المنبع الذي استمدوا منه : فابن الفارض يرى أنه ليس ثمة فرق بين شريعة محمد وبين شريعة غيره من الأنبياء ، وذلـك لأن هـؤلاء الأنبيـاء إنما استقوا شرائهم من شريعة محمد ، وساروا على نهجه . وبيـان ذلـك هـو أن الحقيقة المحمدية ، بحكم كونها أصـلا في كـل شـئ ، وسرا لكـل وجـود ، ومنبعا فياضا بكل علم ووحي ومعرفة ، فهى قد ظهرت في الأجيال المتعاقبة وعلى أيدي الأنبياء المتعددين ، بصور مختلفة تمثلت فيما دعـا إليـه هـؤلاء الأنبياء من أديان ، وما أتوا به من شرائع ، والحقيقة أن جميع هذه الأديان والشرائع مردود إلى أصله الواحد في الروح المحمدي ، لاسيما أن محمدا حين كان حقيقة أزلية وروحا قديما ، قد ختم بـشريعته كـل الـشرائع ، وإلى هـذا كله يشير ابن الفارض بقوله في الأبيات التالية :

وفي المهـــد حـــزبي الأنبيـــاء وفي عنـــا   صرى لـوحي المحفـوظ والفـتح سـورتي ٦٣٢

وقبـل فـصاليي دون تكليـف ظـاهري ختمـت بـشرعي الموضـحي كـل شرعـة

فهـم والألى قـالوا بقـولهم عـلى صراطـي لم يعـدوا مـواطئ مـشيتي

فـيمن الـدعاة الـسابقين إلى في يمينـي ويـسر اللاحقـين بيـسرتي

ولا تحـسبن الأمـر عنـي خارجـا فـما سـاد إلا داخـل في عبـودتي ٦٣٦

وهنا يتشابه ابن الفارض وابن عربي مرة أخرى : فقد ذهب هذا الأخير في توضيح الفكرة التي تثبت أصلا واحـدا للـشرائع المختلفـة ، إلى أن جميـع الأنبياء نواب لمحمد ، واستدل على ذلـك بقولـه النبـي عليـه أفـضل الـصلاة والسلام " لو كان موسى وعيسى حيين ما وسعهما إلا اتباعي " ، وذهب أيضا إلى أنه لو كان صلى اللـه عليـه وسـلم موجـودا بجـسمه مـن لـدن آدم إلى زمان وجوده ، لكان جميع نبـي آدم تحـت شريعتـه حـسا ، فجميـع شرائـع الأنبياء هي بالحقيقة شرعه صلى اللـه عليه وسلم ، وانتهى إلى أن اللـه قد ختم بشرع محمد جميع الشرائع ، فلا رسول بعده يـشرع ، ولا نبـي بعـده يرسل بشرع يتعبد به ، إنما يتعبد الناس بشريعة محمـد إلى يـوم القيامـة . وظاهر هنا أن كلا من ابن الفارض وابن عـربي فكـرة واحـدة تـتلخص في أن تعدد الأنبياء ، وتباين الشرائع ، ليس إلأ من حيث الصورة الظاهرة والشكل الخارجي ، فأمـا مـن حيـث الحقيقـة والجـوهر فكـل الأنبيـاء واحـد ، وكـل الشرائع واحدة ، لأنه ليس هناك إلا واحد وشريعـة واحـدة عـلى الحقيقـة ، وهذا النبي الواحد هو محمد كما أن هذه الشريعة الواحـدة هـي شريعتـه التي ختم بها اللـه جميع الشرائع على حد تعبير ابن الفارض .

١٣ - وإذا كان ذلك كذلك ، وكان أفراد الإنسان الكامل إما أنبياء أو علماء أو أولياء ، وكانت معجزات الأنبياء مظاهر معينة للكمال المطلق في الروح المحمدي ، كما سبق بيان ذلك ، فقد كان أكثر ملائمة لطبيعة الأشياء أن تكون كرامات الخلفاء والأولياء اللاحقين بمحمد النبي ، مستمدة من فيض ذلك الكمال المطلق : فنصرة أبي بكر للإسلام بقتال آل حنيفة الذين أضلهم مسيلمة الكذاب ، ومكاشفة عمر وهو في المدينة بحال سارية وهو في نهاوند ، وتمكن الإيمان من قلب عثمان ، وأخذه نفسه بالعزم والثبات واشتغاله بتلاوة القرآن الكريم مع ما أخذه به الجناة من عنف وشدة عند قتله .

وعلم على الذي أوضح به المشكل ، والذي تلقاه بالوصية عن محمد. كل أولئك آثار من آثار ذلك الكمال المطلق الذي ورثه الخلفاء الراشدون عن الورح المحمدي فضلا عن محمد النبي ، وصور من فيضه الذي تجلى في كل واحد منهم ، بجهاد رائع ، أو كشف باطن ، أو علم ظاهر ، أو عمل نافع .

على أن ابن الفارض ، وإن كان يسوى بين الخلفاء الأربعة من حيث إن ما صدر عنهم من الكرامات ليس إلا كمالات مستقاة من منبع واحد، إلا أن لما يقول عن علي من أنه أوضح المشكل بعلمه الذي ناله بالوصية . قيمة خاصة :

وأوضح بالتأويل ما كان مشكلا   علي بعلم ناله بالوصية ٦٢٤

فهو هنا يقرر ، أو يشير على أقل تقدير ، إلى ما تعتقده الشيعة في إمامة علي وخلافته ، وهو أن النبي عليه الصلاة والسلام جعل من علي وصية وقائما مقابلة بقوله " من كنت مولاه فعلي مولاه " ، وأن عليا كرم الله وجهه قال : " وأوصاني النبي على اختياري لأمته ، رضا منه بحكمي . وأوجب لي ولايته عليكم رسول الله يوم غدير خم " ومع هذا فإن ابن الفارض لا يميز عليا من بقية الخلفاء ، بل إن شأنه عنده كشأنهم في أنهم جميعا مشتركون في كمال واحد ، وموروثون لتراث محمدي واحد ، ولا يكاد يختلف أحدهم عن الآخر إلا في المظهر الذي تعين به ذلك الكمال ، والجزء الذي اختص به هذا الخلفية أو ذاك من هذا التراث : فكلهم كالنجوم كما يقول عليه الصلاة والسلام " أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديم اهتديتم " ، وكما يضمن ابن الفارض هذا الحديث فيقول :

وسائر مثل النجوم من اقتدى بأيهم منه اهتدى بالنصيحة ٦٢٥

ولا يقف الأمر عند حد الخلفاء الدين عاصروا النبي ورأوه ، بلا يتجاوزهم إلى طبقة الأولياء الذين إن لم يعاصروا النبي أو يروه ، فإنهم متصلون به اتصالا روحيا ، قريبون منه قربا معنويا ،أي أنهم إخوة للنبي من حيث الصورة المعينة الظاهرة فيه باعتباره نبيا ، والظاهر في كل منهم باعتبارهم أولياء ، ومن حيث يشتركون معه في ذلك الأصل الواحد الذي صدرت عنه صورته كنبي ، وصورهم كأولياء ، وهو الروح المحمدي . ومثل أخوهم له من هذه الناحية الصورية الحادثة ، كمثل أبوته لهم من الناحية المعنوية أو الروحية ، فإن قرب الأولياء من محمد المعنى الأول القديم ،

واشتياق محمد النبي الحادث إلى صور الأولياء ، متشابهان كما يشير ابن الفارض إلى ذلك بقوله :

وللأولياء المؤمنين به ولم يروه اجتنا قرب لقرب الأخوة ٦٢٦

وقربهم معنى له كاشتياقه لهم صورة فاعجب لحضرة غيبة ٦٢٧

١٤ - وهكذا يتضح أن لابن الفارض نظرية في الحقيقة المحمدية وأن هذه النظرية تنتهي إلى إثبات أن الروح المحمدي أو محمدا المعنى أو القطب، قديم أزلي ، سبق وجوده كل الموجودات ، وتقدمت حقيقته على كل الأنبياء والخلفاء والأولياء ، وأفاض من نور باطنه على أولئك وهؤلاء ، فظهر ما ظهر على أيدي الأنبياء من المعجزات ، وعلى أيدي الخلفاء والأولياء من الكرامات . ونحن إذا تأملنا هذه الأفكار ، وجدنا أن لها نظيرا عند الإسماعيلية والحلاج والأب كليمان (Clément) الإسكندري ، بل في الديانة الزرادشتية التي هي أسبق في ظهورها من المسيحية والإسلام :

١ - فالإسماعيلية يقولون إن القديم هو أمر الله وكلمته ، والمحدث خلقه وفطرته : أبدع بالأمر " العقل الأول " الذي هو تام بالفعل ، ثم بتوسطه أبدع النفس الثاني الذي هو غير تام ، وما كان في العالم العلوي عقلا ونفسيا كليا ، وجب أن يكون في هذا العالم عقلا شخصيا ، حكمه هو حكم الشخص الكامل البالغ ، وهو ما يعرف باسم " الناطق " وهو النبي . وابن الفارض يقول إن الروح المحمدي قديم أزلي ، جمع في حقيقته الكلية حقائق الأنبياء التي تفرعت منه فظهرت بعد ذلك بصور الأنبياء

المتعاقبين في الأزمنة المختلفة . وهذا يعني أن الروح المحمدي يشبه العقل الأول في قدمه وكليته ، وفي أن كلا منهما كان واسطة بين اللـه والعالم في الخلق ، ويعني أيضا أن ظهور المحمدي أو القطب الفارضي بصورة نبي من الأنبياء ، يشبه تشخص العقل الأول الإسماعيلي في ناطق من النطقاء .

٢ - ويقول الحلاج في " طاسين السراج " ، وهو القسم الذي أفرده من كتابه " الطواسين " لبيان حقيقة النور المحمدي : " ليس في الأنوار نور أنور وأظهر وأقدم من القدم ، سوى نور صاحب الكرم (محمد) ، همته سبقت الهمم ، ووجوه سبق العدم ، واسمع سبق القلم ، لأنه كان قبل الأمم " . فنور محمد ، في نظر الحلاج ، هو ذلك النور الأزلي القديم الذي تنبعث منه أنوار جميع أصحاب الهمم من الأنبياء والأولياء ، وهو من هذه الناحية أظهر وأنور وأقدم من نور الأنبياء على الإطلاق . وهذا هو ما يثبته ابن الفارض لروح محمد من سبق معناه على كل الأنبياء ، واستقاء هؤلاء الأنبياء شرائعهم من شريعته .

٣ - ويقول الأب كليمان الإسكندر إنه " ليس في الوجود إلا نبي واحد ، وهو الإنسان الذي خلقه اللـه على صورته ، والذي يحل فيه روح القدس ، والذي يظهر منذ الأزل في صورة جديدة في كل زمان " ، وهذا لا يكاد يختلف عما يقوله ابن الفارض من أن حقيقة محمد قد وجدت منذ الأزل ، واجتمعت فيها حقائق إخوته من الأنبياء الذين تعاقب وجودهم الزمني ، إلا في أن كليمان كان يعتنق الحلول الذي هو عقيدة مسيحية ، في

حين أن ابن الفارض ، كان يرفض الحلول ، وينزه عقيدته عنه ، كما بينا ذلك في موضعه من الفصل السابق .

٤ - على أننا نستطيع أن نرد ما قاله ابن الفارض في قدم الروح المحمدي وجمعيته ، وما قالته الإسماعيلية في قدم العقل الأول وكليته ، وما قاله الحلاج في سبق وجود النور المحمدي ، وما قاله كليمان الإسكندري في وجود نبي واحد على الحقيقة ، إلى مصدر زرادشتي هو أقدم عهدا من هذه الأفكار كلها : فقد ورد في أحد كتب الديانة الزرادشتية وهو " زندأڤستا) أن الصفى والولى والكلمة الذكية ، كل أولئك كان قبل أن تكون السماء والماء والأرض والأنعام والأشجار والنار . وهذا يعني أن " هرمز " وهو إله الخير في هذه الديانة ، لم يخلق الأشياء الروحية والمادية التي يتألف منها الكون خلقا مباشرا ، وإنما هو قد خلقها بواسطة الكلمة الإلهية . وواضح هنا ما يوجد من أوجه الشبه بين هذه العقيدة الزرادشتية في الخلق بواسطة الكلمة السابقة في وجودها على كل شئ ، وبين نظرية ابن الفارض في القطب أو الروح المحمدي ، ونظريات غيره ممن أشرنا إليهم . ومن يدري . فلعل هذه العقيدة الزرادشتية قد انتقلت فيما انتقل من تراث الفرس القديم ، إلى المسلمين. وإلى النصارى الذين أظلهم حكم الإسلام، فعملت عملها وآتت أكلها عند الشيعة قولا بالنور المحمدي . وعند الإسماعيلية قولا بالعق ، وعند المسيحيين قولا بالكلمة ، وعند الصوفية قولا بالقطب أو الروح المحمدي أو الحقيقة المحمدية .

وهكذا أن لابن الفارض نظرية في الخلق يعبر عنها اتحاده بالقطب أو بالروح المحمدي . كما نرى أن هذه النظرية ليست إلا صورة أخرى لهذه الوحدة التي إنتهى إليها شاعرنا في آخر أطوار حبه ، وانتهى منها إلى إثبات أن كل ما

يبدو في الظاهر متكثرا متعددا ، إنما هو الحقيقة واحد : فـالوجود الحقيقـي واحـد ، ومنبـع الـشهود والعرفـان والحيـاة واحـد ، ومـصدر المعجـزات والكرامات واحد ، وأصل النبوات والشرائع واحد ، ومهما يكن مـن اصـطباغ هذه الأفكار عند ابن الفارض بالصبغة النفسية ، وخـضوع صـاحبها لـسطان الوجد وغلبة الحال ، فإننا لا نستطيع أن ننكر عليها قيمتهـا الفلـسفية ، ولا أن نزعم أنها مجرد ثمرة من ثمرات الذوق الـصوفي ، دون أن يكـون لهـا مـن المعاني الميتافيزيقية ما يجعل لها خطـر أعظـم ، وشـأنا أجـل ، وهنـا نحـن أولاء قد تبينا إلى أي حد يمكن أن نتـشابه نظريـة ابـن الفـارض في القطبيـة وغيرها مـن النظريـات الفلـسفية الخالـصة ، والـصوفية المـصطبغة بـصبغة فلسفية ، وتبينا بنوع خاص أنـه يمكـن أن نـضع هـذه النظريـة في القطبيـة ونظرية ابن عربي في الحقيقة المحمدية جنبا إلى جنب .

الفصل الرابع

الحب ووحدة الاديان

وحدة الأديان نتيجة منطقية للحب ومبدأ الوحدة العامة - الأديان مختلفة في ظاهرها متفقة في جوهرها : ابن الفارض والحلاج وابن عربي - الأديان ومقتضيات الأمساء الإلهية (الجبر) : ابن الفارض والحلاج عند ابن الفارض والجبرية - نقد ابن تيمية والمقبل لوحدة الأديان - القرآن وأصول الأديان - البحث الحديث وأصول الأديان (مكس مولر) - دين الحب عند ابن الفارض وابن عربي : الاستسلام في الحب ومعنى الإسلام - وحدة الأديان والمثل العليا في حياة الفرد والجماعة .

١- انتهى ابن الفارض فيما انتهى إليه من نظريته في القطبية ، إلى أن للأنبياء جميعا حقيقة جامعة واحدة هي حقيقة القطب أو الروح المحمدي التي صدرت عنها ما صدر من نبوات الأنبياء ومعجزات وشرائعهم . ولهذا الكلام الذي له قيمته الخاصة في نظرية القطبية ، قيمة أخرى أعم من تلك وأشمل وأشد اتصالا بالمذهب العام للشاعر في الحب الإلهي ، فالحب الإلهي الذي ملك على ابن الفارض حياته الروحية كلها ، لم يقف به عند حد شهود الوحدة بين ذاته وبين ذات الله تارة ، وبين ذات الله والعالم تارة أخرى ، وبين حقيقة القطب القديمة وأشخاص الأنبياء ، والأولياء الحادثة طورا ، وإنما هو قد ذهب به إلى النظر إلى الأديان المختلفة والعقائد المتباينة على أن تباين هذه واختلاف تلك . ليسا إلا من حيث الظاهر ، أما من حيث الحقيقة والجوهر فلا تباين ولا اختلاف ، فكل ما هنالك من ملل ونحل ليس في حقيقته إلا مجرد وسائل يتوسل بها

إلى غاية واحدة هي عبادة إله واحد هو خط مشترك بينها جميعا . وتلك لعمري نتيجة لا غبار عليها إذا نظرنا إليها من ناحية منزلتها في منطق الحب والوحدة ، وهو ذلك المنطق الذي شهدنا مبادئه في الفصلين الأول والثاني من الكتاب الثاني ، وفي الفصول الثلاثة المتقدمة من هذا الكتاب : فإن قلبا يستوعبه الحب على نحو ما استوعب قلب ابن الفارض ، ونفسا تسيطر عليها النزعة الواحدية كما سيطرت على نفس ابن الفارض . لابد من أن تنتفي الكثرة عندهما ، وألا يكون للتفرقة مكان في حسابهما . ولعلنا إذ نفرد هذا الفصل الأخير من بحثنا للتحدث عن وحدة الأديان كنتيجة منطقية من نتائج الحب الإلهي عند ابن الفارض ، لا نفعل أكثر من أن نساير الشاعر الصوفي في سلسلة النتائج التي ترتبت على حبه ، والتي تتصل حلقاتها اتصالا وثيقا لا تنحل ربطته ، ولا تنفصم عروته ، وها نحن أولاء قد رأينا مع ابن الفارض في نظريته في القطبية كيف كان للنبوات والشرائع منبع واحد فياض بها على تعاقب الأزمنة ، ولعل ابن الفارض فيما أجمله من حقيقة النبوات والشرائع في نظريته في القطبية ، قد أحس أن المسألة في حاجة إلى زيادة شرح وإيضاح ففصل في القسم الأخير من تائيته الكبرى ، ما كان قد أجمله في سياق حديثه بلسان الجمع مع الروح المحمدي أو الحقيقة المحمدية ، وبين لنا كيف ينبغي أن ينظر الإنسان بعين الجمع إلى الأديان المختلقة فلا يفرق دين ودين ، وإلى الكتب الدينية المتباينة فلا يؤثر كتابا على كتاب ، وإلى الفرق المتعددة فلا ينحاز إلى فرقة من دون فرقة ، إذ الأديان كلها من الله ، والمقصود بها هو الله ، والذين يعتنقون دينا من الأديان لم يعتنقوه اختيارا منهم ، بل الله هو الذي قضى

عليهم باعتناق هذا الدين دون غيره من الأديان الأخرى ، وإذا كـان توحيـد الأديان نتيجة منطقية من نتائج الحب الإلهي في مذهب ابن الفارض فلابـد إذن من نحلل هذه المسألة إلى عناصرها ، ونبين ما عسى أن يكـون لهـا مـن نظير عن ابن الفارض من الصوفية ، وما تنطوي عليه من المنـازع الفلـسفية والمعاني الأخلاقية والاجتماعية ، وهل هي ملائمة لشئ مما ورد في القـرآن أو منافية له .

٢ - والمتأمل في الأبيات التي يقرر فيها ابن الفـارض توحيـد الأديـان، يلاحظ أن الشاعر الصوفي قد أقام هذا التوحيد على أسس ثلاثـة: أولهـا أن الأديان مختلفة في ظاهرها ، متفقـة في جوهرهـا ، لأنهـا جميعـا تـدعو إلى عبادة إله واحد ، وإن اختلفت صور هذه العبـادة في كـل ديـن عـما هـي عليه في الأديان الاخرى ، وثانيها أن إرادة الإنسان ليست حرة ، ولا اختيـار لها فيما يصدر عن الإنسان من أفعال الخير والشر ، ولا فيما ينعم بـه مـن الإيمان أو ما يغرق فيه مـن الكفـر ، بـل إن مـشيئة اللـه وحكمتـه هـما اللتان تقضيان بأن تكون هذه الأفعال الإنسانية أو تلـك خـيرة أو شريـرة ، وتقدران على هذا الإنسان أو ذاك أ، يكون من المؤمنين أو من الكـافرين ، وثالثها أن توحيـد الـذات الإلهيـة عـلى الوجـه الـذي يجعـل منهـا مـصدرا للهدى والخير وما يجري مجراهما ، ليس توحيدا بـالمعنى الـصحيح ، وإنمـا هو أشبه مـا يكـون بالإلحـاد ، إذ مـن شـأنه أن يجعـل إلى جانـب الـذات الإلهية الأحدية التي هي مصدر حقيقي لكل مظاهر الهدى والخـير ، ذاتـا أخرى تصدر عنها صور الضلال والشر ، وهذا شرك ، ولم يكن ابـن الفـارض فـيما أقـام عليـه مذهبـه في توحيـد الأديـان مـن هـذه الأسـس الثلاثـة ،

بدعا من الصوفية ، أو فذا بينهم ، وإنما هو هنا يذهب مذهبا ذهب إليه كثير من الصوفية المتقدمين عليه والمعاصرين والمتأخرين عنه ، على نحو ما سنبينه في مواضعه من هذا الفصل .

فأما أن كل الأديان مختلفة في ظاهرها ، متفقة في جوهرها ، فذلك ما نتبينه إذا لاحظنا مع ابن الفارض أن كل دين إنما يكشف عن ناحية معينة من نواحي الحق ، ويقصد على وجه ما إلى عبادة إله واحد أحد ، وأنه ليس ثمة فرق بين الأديان التي تدعو إلى وحدانية الإله ، والأديان التي تدعو إلى تعدده أو تنويته ، فالإيمان والكفر لا يختلفان اختلافا جوهريا ، واليهود والنصارى والمسلمون والمجوس وعبادة الأصنام ، كل أولئك إنما يتفقون في أنهم يعبدون إلها واحدا ، ولا يكادون يختلفون إلا في شكل من الأشكال الخارجية والصور الظاهرية التي تأخذها العبادة عند كل فريق . وإذن فليس ثمة ما يوجب أن يكون بعض الأديان أفضل من بعض ، أو أن ينظر الإنسان إلى بعضها نظرة تقديس وإجلال ، وإلى بعضها الآخر نظرة تحقير وازورار ، وأن يعتقد المسلم أن القرآن بنزوله قد أبطل حكم التوراة والإنجيل : فالقرآن ، إن كان قد نزل بعد التوراة والإنجيل ، فإن هذه الكتب الثلاثة ما تزال مع ذلك منتظمة في سلك واحد هو سلك التنزيل الإلهي ، بمعنى أنها كلها صادرة عن مصدر واحد هو الذات الإلهية ، ومعبرة عن حقيقة واحدة هي الحقيقة العلية ، وداعية إلى سبيل واحدة هي سبيل الحق والخير . يضاف إلى هذا أن عباد الأصنام ليسوا ملومين في نظر ابن الفارض على عبادتهم هذه ، واللذين يلومونهم عليها أو ينكرونها عليهم إن كانوا في ظاهرهم منزهين عن شرك الوثنية ، فإنهم في حقيقتهم مغرقون في

الشرك ، لأنهم لا يعبدون اللـه وحده لا شريـك لـه ، بـل هـم يجعلـن إلـة جانب اللـه معبودل آخر هو الدينار ، الأمر الذي يترتب عليه ابـن الفـارض أن يكون عابد الأصنام أقل شركا ، وينزه عقيدته عن الشرك تنزيها ظاهريـا ، والحقيقة أنه مشرك ممعن في الشرك . وفوق هذا كله فإن ابن الفارض يـرى أن المجوس لم يعبدوا النـار عـلى الحقيقـة ، وإنمـا هـم قـد رأو نـور الـذات الإلهية مرة فتوهموه نارا فعبـدوها وضـلوا في الهـدى بنـور الهـدى ، وهـذا تأويل عجيب لاعجب في أن يصدر عن ابن الفارض وهو ما هـو مـن المهـارة الفائقة النادرة على التأويل وتخريج المعاني التي تلائم ما هـو بـصدد إثباتـه من الحقائق . وقد عبر ابن الفارض عن هذه الأفكار كلهـا في شـعره الرمـزي البديع حي يقول :

فبـي مجلـس الأذكـار سـمع مطـالع ... ولي حانـة الخـمار عـين طليعـة ٧٣١
ومـا عقـد الزنـار حكـما سـوى يـدي ... وإن حـل بـالإقرار بي فهـي حلَـت
وإن نـار بالتنزيـل محـراب مـسجد ... فـما بـار بالإنجيـل هيكـل بيعـة
وأسـفار تـوراة الكلـيم لقومـه ... ينـاجي بهـا الأحبـار في كـل ليلـة
وإن خـر للأحجـار في البـدء عـاكف ... فلاوجـه للإفكـار بالعـصبية
فقـد عبـد الـدينار معنـى منـزه ... عـن العـار بالإشـتراك بالوثيقـة
وقـد بلـغ الإنـذار عنـي مـن بغـي ... وقامـت بي الأعـذار في كـل فرقـة
ومـا زاغـت الأبـصار مـن كـل ملـة ... ومـا راغـت الأفكـار في كـل نحلـة
ومـا احتـار مـن للـشمس عـن غـرة صبا ... وإشراقهـا مـن نـور إسـفار غـربي
وإن عبـد النـارالمحبوس ومـا انطفـت ... كـما جـاء في الأحبـار في ألـف حجـة

فما قصدوا غيري وإن كان قصدهم سواي وإن لم يظهروا عقدنية

رأوا ضوء نوري مرة فتوهموه نارا فضلوا في الهدى بالأشعة ٧٤٢

فهذه الأبيات ، على ما فيها من نلويح هو أخص خصائص شعر ابن الفارض في تائية الكبرى ، تظهرنا على أن الأديان المختلفة والكتب الدينية المتباينة إنما تنطوي كلها على جوهر واحد ، وتعبر كلها عن حقيقة واحدة ، وعلى أنه إذا كان من هذه الأبيات والكتب ما ظهر بعضه بعد بعض ، فليس معنى ذلك أن ما أتى بعد قد نفى أو أبطل حكم الذي جاء قبل ، كما أنه إذا اختلفت المظاهر والشعائر في هذا الدين عما هي عليه فى ذاك ، فإن هذا لا يطعن في أن غاية هذه المظاهر والشعائر ، وهي التقرب من ذات واحدة محجوبة وراء الصور الحسية في بعض الأديان كالإسلام والمسيحية واليهودية ، وممثلة في بعضها الآخر في صورى حسية كالأصنام عند الوثنيين ، وكالنار عند المجوس وهذا الكلام يذكرنا بما سبق أن بيناه في الفصل السالف من أن الشرائع المتعددة التي جاءت على أيدي الأنبياء المتعاقبين ، إنما ترد إلى أصل واحد قديم ، وجد قبل أن يوجد الأنبياء ، ألا وهو الحقيقة المحمدية .

ويتفق ابن الفارض هنا مع غيره من الصوفية المتقدمين عليه كالحلاج، والمعاصرين له كابن عربي : فالحلاج ولعله أول قائل بوحدة الأديان من صوفية المسلمين - يرى أن الأديان كلها لله ، شغل بكل دين طائفة كما يرى أن الإسلام والمسيحية واليهودية وغير ذلك من الأديان إن هي إلا ألقاب مختلفة أسماء متغايرة ، والمقصود منها لا يتغير ولا يختلف . وقد

شاعت فكرة الحلاج هذه بين من جاء بعده من الصوفية الذين أخذوا يردودنها ، وألبسهما كل منهم الثوب الذي يلائم طبيعة مذهبه ، وبتمشى مع منطق الذوق والعاطفة ، حتى أصبحت وحدة الأديان ، وما يتصل بها من جبر ، نتيجتين منطقتين لذلك المبدأ العام الذي يعد أساسا لكل فلسفة تصوفية ، وهو مبدأ الوحدة في كل شئ . وإن الشبه بين هؤلاء الصوفية وبين الحلاج ليقوى في بعض الأحيان حتى يتجاوز الفكرة العامة إلى الألفاظ والعبارات ، فيخيل لنا أنهم استقوا مقالاتهم من الحلاج ، والواقع أن تقرير الوحدة في الأديان ، وإثبات اتفاقها في الجوهر برغم ما بينها من اختلاف في التفاصيل ، وإنما هو نتيجة لازمة عن مبدأ الوحدة الذي يقضي بنفي الكثرة والتعدد ، ويسيطر على نفوس الصوفية سيطرة قوية لا يكادون يجدون معها مخرجا منها ، أو منصرفا عنها .

وكما يتفق ابن الفارض والحلاج ، فهو يتفق أيضا وابن عربي : فقد ذهب هذا الأخير إلى أن الدين كله لله ، وأن كله منك لا منه إلا بحكم الأصالة وشرح القاشاني ما يعنيه الشيخ الاكبر بهذا الكلام فقال ما مؤداه أن الدين كله لله لأن الانقياد ليس إلا له ، سواء انقدت إلى ما شرعه اللـه ، أو إلى ما وضعه الخلق من النواميس الحكيمة ، لأنه لا رب غيره ، ناهيك بأن الانقياد إنما هو منك لا منه ، إذ أن أصل الفعل منه لا من المظاهر ، والمنقاد إليه ، سواء كان مأمورا به من عند اللـه أو من عند الخلق ، مأمور به في الأصل من اللـه واللـه .

ولا يقف اتفاق ابن الفارض وابن عربي عند هذا الحد . بل هو يتجاوزه إلى بعض التفاصيل التي ينطوي عليها مذهبهما في وحدة الأديان :

فعبادة الأصنام ، وغيرها من المظاهر الطبيعية كالـشمس والنـار ، قـد نظـر إليها ابن الفارض كما سبق أن رأينا ذلك عـلى أنهـا ليـست أقـل مـن عبـادة الـلـه الواحد الأحد الذي قال به الإسلام وغير الإسلام مـن الأديـان المنزلـة . وما يقرره ابن الفارض هنا لا يكاد يخرج في مفهومه ومدلوله عما يعبر عنـه ابن عربي بقوله : " إن العارف المكمل هو من رأى كل معبـود مجـلي للحـق يعبد فيه ، ولذلك سموه كلهـم إلهـا مـع اسـمه الخـاص بحجـر أو شـجر أو حيوان أو إنسان أو كوكب أو ملك ، فهذا اسـم الشخـصية فيـه، و الألوهيـة مرتبـة تخـل العابـد الخـاص المعتكـف عـلى هـذا المعبـود في هـذا المجـلى المختص... وأما العارفون بالأمر على ما هو عليه فيظهرون بصور الإنكـار لمـا عبد من الصور ، لأن مرتبتهم في العلم تعطيهم أن يكونـوا بحكـم الوقـت ، لأنهم علموا أن الوقت مجلى عظيم من مجالي الحق ، يـتحلى الـصور أيانـا ، وإنما عبدوا الـلـه فيها بحكم سلطان التجلي الذي عرفوه منهم وجهله المنكر الذي لا علم بما تجلي ، وستره العارف المكمل من نبي ورسوله ووارث عنهما ... " فواضح هنا أن ابن عربي إنما يعبر تعبيرا مفصلا مستفيضا عما ذكره ابن الفـارض مجمـلا في الأبيـات ٧٣٥ - ٧٤٢ مـن تائيتـه الكـبرى ، وأن الفكـرة الأساسية عند الصوفيين واحدة لا تكاد تختلف إلا في الصورة الخارجية التي صورها فيها كل مـنهما ، وإلا في أن ابـن عـربي كـان أقـدر عـلى بـسط هـذه الفكرة وشرحها ، إذ يعالجها بأسلوب النثر الذي لا يضيق فيـه مجـال اللفـظ والعبارة ، على نحو ما يضيق في أسلوب الشعر الذي اصطنعه ابن الفـارض ، وكان مقيدا فيه بما يفرضه الشعر من قيود الوزن والقافيـة ومـا إلـيهما مـن القيود الأخرى .

٣ - وأما الأساس الثاني أقيم عليه مذهب ابن الفارض في وحدة الأديان ، فيدور حول مسألة الجبر ، ويتخلص في أن الذين ضلوا سواء السبيل ، ولم يهتدوا إلى معرفة اللـه على حقيقته ، ليسوا بأقل إيمانا ، ولا بأكثر زيغا ، من الذين عرفوه واهتدوا أليه : لأن اللـه هو الذي يهدي من يشاء ، ويضل من يشاء ، ولأن هدايته لأولئك وإضلاله لهؤلاء ، إنما يسيران على مقتضى قانون إلهي أزلي دائم ، وضعه اللـه ، وكتب في ما قدر لكل من سعادة أو شقاء ، ومن هدي أو ضلال : فكل كائن في هذا الوجود خاضع للمشيئة الإلهية ، ومسير بها ولا يستطيع خروجا عليها ، أو فرارا مما كتب اللـه لـه ، وقدر عليه ، وإذا كان ذلك كذلك ، فما عسى أن تكون إذن هذه الأديان المختلفة ، وهذه الشعائر المتعددة ، وهذه الأفعال التي تختلف حظوظها من الخير والشر عند الناس ؟ هل كل هذا عبث وسدى أو أن له ما يسوغه ويفسره ؟ يجيب ابن الفارض بأن الخلق لم يخلقوا سدى ولا عبثا ، وأن ما يصدر عنهم من أفعال ليس لهوا ولا هزلا ، ولو أن هذه الأفعال تبدو في ظاهرها غير سديدة . إنما لكل شئ حكمى أوجده اللـه من أجلها ، ولكل فعل من أفعال الإنسان قانونه الإلهي الذي يقضي بأن يصدر عنه هذا الفعل أو ذاك من أفعال الخير أو البشر . وهذا القانون الإلهي لكل فعل من الأفعال الإنسانية ، هو عند ابن الفارض اسم من أسماء الذات الإلهية : إذ حقيقة الذات الإلهية سارية في كل أسمائها ، بمعنى أن كل اسم ليس في حقيقته إلا عين الذات متصفة بصفة من الصفات : فالهادي والمضل ، والمعز والمذل ، والمنعم والمنتقم ، والقابض والباسط " .. إلخ ، كل أولئك أسماء تنطوي على صفات ، ولها مقتضياتها،

وأحكامها التي تجريها على الخلق فيما يعتقـدون ويفعلـون . ومعنـى هـذا بعبارة أخرى أن ما يصدر عن الإنسان من عقيدة أو فعل ، يبـدو في ظـاهره كأنه أثر من أثار حريته واختياره ، والحقيقة أن الإنـسان لا يـصدر في شئ إلا عن المشيئة الإلهية ممثلة في اسم من أسماء الذات التي تصرفه ، وتقضي عليه بأن يكون فعله خيرا أو شرا ، على مقتضى ما ينطوي عليه كل اسم مـن صفة تختلف عن الصفة التي تنطوي عليها غـيره ، وقـد رتـب ابـن الفـارض على هذا أن الإنسان ليس ملوما عـلى اعتناقـه دينـا دون آخـر ، أو عـلى مـا يغرق فيه من كفر وضلال ، لأنه ليس له من نفسه دافـع إلى هـذا أو ذاك ، وإنما هي مقتضيات الأسماء الإلهية التي أجرت حكمها على أفراد الإنسان ، فجعلت فريقا من المؤمنين ، وفريقا من الكافرين ، وطائفـة مـن الـسعداء ، وطائفة أخرى من الأشقياء . وقد أشار ابن الفارض إلى هذا كلـه في الأبيـات التالية :

ولـولا حجـاب الكـون قلـت وإنمـا	قيـامي بأحكـام المظـاهر مـسكتي ٧٤٣
فـلا عبـث والخلـق لم يخلقـوا سـدى	وإن لم تكـــن أفعـــالهم بالـــسديدة
عـلى سـمة الأسـماء تجـري أمـورهم	وحكمـة وصـف الـذات للحكـم أجـرت
يـــصرفهم في القبـــضتين ولا ولا	فقبـــضة تنعـــيم وقبـــضة شـــقوة

وكما تشابه ابن الفـارض والحـلاج وابـن عـربي في الفكـرة الأولى ، فقـد تشابه هنا معها ومع جلال الدين الرومي وعبـد الكـريم الجـيلي ، فـالحلاج يرى أن اللـه شغل بكل دين طائفة لا اختيارا مـنهم ، بـل اختيـارا علـيهم ، فمن لام أحدا ببطلان مـاهو عليـه ، فقـد حكـم بأنـه اختـار ذلـك لنفـسه ،

وهذا مذهب القدرة (والقدرة مجوس هذه الأمة) وقد فصل ابن عربي ما أجمله الحلاج ، وأشار إليه ابن الفارض ، فقال إن المؤمن في هذه الدنيا إنما هو مؤمن على الحقيقة مذ كانت نفسه فكرة من الأفكار الموجودة في العلم الإلهي ، كما أن الكافر إنما هو كافر منذ الأزل ، ويزيد ابن عربي الأمر إيضاحا فيميز بين المشيئة الإلهية وبين الأمر التكليفي . فالمشيئة الإلهية عنده هي التي تقضي بكل ما يجري ، ولا يمكن مخالفتها أو الخروج على ما قضت به ، في حين أن الأمر التكليفي يمكن مخالفته والخروج على أحكامه. ولهذا كانت الخطيئة في نظره عصيانا للشرع الذي هو الأمر التكليفي ، وليست عصيانا للمشيئة الإلهية . ولهذا أيضا كان ابن عربي يعتقد كما كان يعتقد الحلاج أن معصية إبليس وفرعون (للذين كان يقول عنهما الحلاج إنهما من أهل الفتوة) كانت بمقتضى المشيئة الإلهية ، بالرغم من مخالفتها للأمر الإلهي ، وأن دعوى فرعون في قوله " أنا ربكم الأعلى " أتت مطابقة لمشيئة الله كدعوى الحلاج في قوله : " أنا الحق " . وإلى مثل هذا ذهب جلال الدين الرومي إذ رأى أن الكفر أمر لا مدخل لإرادة الإنسان فيه ، بل قضت به المشيئة الإلهية عليه . وقد أفاض عبد الكريم الجيلي في تفصيل هذه الفكرة وشرحها بما لم يخرج في جملته عما قال ابن الفارض من أن الأديان المختلفة والأفعال المتباينة ، ليست في حقيقتها إلا من مقتضيات الأسماء الإلهية ، فما أشار إليه ابن الفارض في الأبيات ٧٤٤ - ٧٤٦ من تائيته الكبرى يمكن أن يعد بحق جرثومة لما عبر عنه الجيلي بعد ذلك بقوله : " إن الله تعالى إنما خلق جميع المودات لعبادته : فهم مجبولون على ذلك ، مفطورون عليه من حيث الأصالة ، فما في الوجود شئ إلا

وهو يعبد اللـه بحاله ومقاله وفعالـه ، بـل بذاتـه وصـفاته ، فكـل شـئ في الوجود جميع مطيع لله تعالى ... ". أما من أين أتى الاخـتلاف بـين الأديـان ، فذلك ما يجيب عنه الجيلي بما يطابق مذهب ابن الفارض في الأبيات الثلاثة المشار إليها آنفا ، فيرى " أن العبادات تختلف لاختلاف مقتـضيات الأسـماء والصفات لأن اللـه متجل باسمه المـضل كـما هـوو متجـل باسـمه الهـادي: فكما يجب ظهور أثر اسمه " المنعم " كذلك يجب ظهور اسـمه " المنـتقم " واختلف الناس في أحوالهم لاختلاف أرباب الأسـماء والـصفات . قـال اللــه تعالى : " كان الناس أمة واحدة " يعني : عباد اللــه مجبـولين عـلى طاعتـه من حيث الفطرة الأصلية ، فبعث اللـه النبيين مبـشرين ومنـذرين ليعبـده من اتبع الرسل من حيث اسمه " الهادي " ، وليعبده من خالف الرسل من حيث اسمه " المضل " فاختلف النـاس ، وافترقـت الملـل ، وظهـرت النحـل ، وذهبت كلل طائفة إلى ما علمته أنه صواب ، ولو كان هذا العلم عند غيرها خطأ ، ولكن حسَنه اللـه عندها ليعبـدوه مـن الجهـة التـي تقتـضيها تلـك الصفة المؤثرة في ذلك الأمر ، وهذا معنى قوله : " ما من دابـة إلا هـو آخـذ بناصيتها " : "فهو الفاعل بهم على حـسب مايريـده مـراده ، وهـو عـين مـا اقتضته صفاته، فهو سبحانه وتعـالى يجـزيهم عـلى حـسب مقتـضى أسـمائه وصفاته.. " فظاهر هنا أن الجيلي إنما يفصل ما أجمله ابن الفارض ، وأنهـما يعتنقان مذهبا واحدا ، وينتهيان إلى نتيجـة واحـدة هـي أن الملـل والنحـل المختلفة ، وما يتصل بهـا مـن هـدى أو ضـلال ، ومـن نعـيم أو شـقاء، إنمـا مرجعه إلى المشيئة الإلهية ، والفطرة التي فطر اللـه بها كلا من عباده عـلى ملة من الملل، أو نحلة من النحل ، وليس لإرادة الإنسان أو حريته وإختياره أي عمل فيه.

٤ - وهكذا نتبين أن ابن الفارض وغيره من الصوفية الذين عرضوا للأديان ، وانتهوا في أذواقهم إلى وحدتها ، قد آثروا الجبر ، وأسقطوا كل حرية واختيار للإنسان ، ووجودا في ذلك مذهبا ملائما كل الملائمة لمذهبهم في إثبات التوكل ، وإسقاط التدبير ، ورد كل شئ إلى مبدأ واحد لايقبل الثنوية أو الكثرة إلا في أعين المحجوبين الذين يقفون عند الظواهر ، ولا يتجاوزونها إلى ما ورائها من حقيقة خفية ، وحكمة دقيقة ، فقد اعتقد الجبرية عامة ، والجهمية خاصة ، أن أفعال الناس واقعة بقدرة الله تعالى وحدها ، وليس لقدرة الناس تأثير فيها ، كما أن الإنسان ليس إلا محلا لما يجريه الله على يديه ، فمثل الإنسان كمثل الجماد في أن كلا منهما مجبر جبرا مطلقا ، ولا يختلف الإنسان عن الجماد إلا في المظهر ، فالإنسان يبدو في الظاهر مختارا ، والحقيقة أنه ليس كذلك ، ومن هنا قال جهم بن صفوان إن الإنسان مجبورا ، وليست له إرادة حرة ، ولا قدرة على خلق أفعاله ، وإنما يخلق الله الأعمال على يديه . وهذا المذهب في الجبر مقابل ومعارض لمذهب المعتزلة في الحرية والاختيار : فإرادة الإنسان عن المعتزلة حرة ، وقدرته تختلق ما يفعل وهو مستطيع لأن يفعل وألا يفعل ، كما أن ما يفعله هو ما يختاره . وقد أيد

كل فريق مذهبه بكثير من آيات القرآن : فاستند الجبرية إلى الآيات التي تثبت الجبر ، وتنفي حرية الإرادة الإنسانية في حين استغل المعتزلة الآيات التي تنفي الجبر ، وتثبت حرية الإنسان واختياره . على أن الصوفية لم يأخذوا إلا بمذهب الجبرية ، ولم يستغلوا إلا الآيات التي تؤيده ، وذلك لأنهم وجدوا في هذه الآيات ، وفي ذلك المذهب ، ما يلائم طبيعة مذهبهم

في الوحـدة المطلقـة ، ومـا تنطـوي عليـه مـن معـاني الاسـتـسلام والتوكـل والخضوع ، والإيمان بأن كـل شـئ في هـذا الوجـود مـردود إلى أصـل واحـد، وصادر عن علة واحدة هي الذات الإلهية التي يرجع إليها كل الأمر ، والتي تقضي على هذا الإنسان بالإيمـان الـصحيح والعقيـدة الـسليمة ، وعـلى ذاك الإنسان بالكفر الصريح والانحراف عن جادة الصواب . ولكي نتبين مبلـغ مـا لقيه مذهب الجبرية من قبول عند الصوفية ، وموافقة لمذهبهم في الوحـدة بصفة عامة ، وفي رد التصرفات الإنسانية إلى ما تقتضيه المشيئة الإلهية مـن حكمة بصفة خاصة ، يكفي أن نستعيد أبيات ابن الفارض التي يقول فيها :

فـلا عبـث والخلـق لم يخلقـوا سـدى — وإن لم تكـن أفعـالهم بالـسديدة ٧٤٤

عـلى سـمة الأسـماء تجـرى أمـورهم — وحكمـة وصـف الـذات للحكـم أجـرت

يـصرفهم في القبـضتين ولا ولا — فقبـضة تنعـيم وقبـضة شـقوة ٧٤٦

لنتبين أن شاعرنا إلى جانب اتفاقه مع الجبريـة ، إنمـا يعـبر عـن معـاني بعض الآيات القرآنية التي تجعل من المشيئة الإلهيـة مـصدرا لكـل الأفعـال و~العقائد ، وتنفي عن إرادة الإنسان اختيـار الكفـر أو الإيمـان : فقـد قـال تعالى : " أفحسبتم أنما خلقنـاكم عبثـا وأنكـم إلينـا لا ترجعـون " ، وقـال " كذلك يهدي اللـه من يشاء ، ويضل من يشاء " وقال : " هو الذي خلقكـم فمنكم كافر ومنكم مؤمن واللـه بما تعملون بصير " .

٥ - ويتصل بمبدأ الجبر الذي هو عند ابن الفـارض ثـاني الأسـس التـي يقـوم عليها مذهبه في وحدة الأديـان ، المبـدأ الثالـث القائـل بـأن توحيـد الـذات

الإلهية على الوجه الذي يجعل منها مصدرا للهدى وحده ، ويجعل من غيرها مصدرا للضلال وحده ، إنما يعني الانسلاخ من آي الجمع وإشراك ما هو من صنع الله بالله على حد تعبير ابن الفارض نفسه ، والتوحيد بهذا المعنى إلحاد ، فابن الفارض ينتهي إلى أن رد المظاهر في الملل والنحل المختلفة ، وفي كل الأفعال الإنسانية المتباينة ، إلى حكمتها القديمة التي اقتها أسماء الذات الإلهية ، وانطوت عليها ، وضم هذه الملل والنحل على اختلافها في إطار واحد تأتلف فيع وتتسق ، هو الطريق الوحيد الذي ينبغي أن تسلكه النفس لمعرفة الحقيقة على ما هي عليه في ذاتها ، لا كما تظهر لنا . أما أن يعتقد أن الله مصدرا الخير والإيمان والنعيم ، دون الشر والكفر والشقاء ، فأمر يؤدي في نظر شاعرنا إلى الإلحاد لا إلى التوحيد بمعناه الصحيح ، إذ التوحيد الحق ليس عنده في أن تعتقد أن الله مصدرا الخير والإيمان والنعيم فقد ، دون الشر والكفر والشقاء ، فإن اعتقادا كهذا من شأنه أن يجعل إلى جانب الذات التي يصدر عنها مظاهر الخير والإيمان والنعيم ، ذاتا أخرى يصدر عنها مظاهر الشر والكفر والشقاء ، وهذا هو عين الشرك والإلحاد . وقد أشار ابن الفارض إلى هذه المعاني في الأبيات التالية ، وفي البيت الأخير منها بنوع خاص فقال :

ألا هكذا فلتعرف النفس أو فلا	ويتل بها الفرقان كل صبيحة ٧٤٧
وعرفانها من نفسها وهي التي	على الحس ما أملت مني أملت
ولو أنني وحدت ألحدت وانسلخ	ت من آي جمعي مشركابي صنعتي ٧٤٩

وهنا نلاحظ مرة أخرى تشابها قويا بـين ابـن الفـارض والجبريـة : فـما يقول الشاعر الصوفي في البيت ٧٤٩ من أن التوحيـد بـالمعنى الـذي يـرد إلى الذات الإلهية أمورا ، ولا يرد أمـورا أخـرى ، إلحـاد وشرك لا يكـاد يخـرج في جملته وتفصيله عن الحجة التي يوردها الجبرية تأييدا لعقيدتهم في الجـبر ، وبيانـا لمـذهبهم في التوحيـد ، فيقـول : إذا كـان الإنـسان موجـدا لأفعالـه ، وخالقا لها ، فقد وجب أن تكون هناك أفعال لا تجـرى عـلى مـشيئة اللـــه واختياره ، وأن

يكون هناك خالق غير الـلـه . ولعل كل ما هنالـك مـن فـرق بـين ابـن الفارض والجبرية هو أن الـشاعر الـصوفي كـان يقـيم مذهبـه في الجـبر عـلى أساس من الشعور النفسي والذوق الروحي ، وعلى مبدأ الوحدة الذي انتهى إليه في آخر أطـوار حبـه ، في حـين أن الجبريـة قـد أثبتـوا مـذهبهم بطريـق العقـل والنقـل ، وحـاولوا أن يتـأولوا النـصوص عـلى وجـه يؤيـد فكـرتهم ، ويدحض فكرة خصومهم المعتزلة .

٦ - عـلى أن مـذهب ابـن الفـارض وأشـباهه مـن الـصوفية في وحـدة الأديان على ما تبينا فيه من موافقة لبعض آيات القرآن الكـريم ، وعـلى مـا ينطوي عليه من المعاني السامية والمثل العليا الأخلاقية والاجتماعية كالإخـاء والمساواة بيين المعتنقين للأديان المختلفة ، لم يرق في عين ابن تيمية والمقبلي ، وشأنهما في ذلـك كـشأنهما في كـل النتـائج التـي انتهـى إليهـا الـصوفية في أذواقهم ومواجيدهم : فقد أورد ابن تيمية بيتا ينسب عـادة إلى ابـن عـربي الذي يقرر فيه وحدة العقائد والتسوية بينها فيقول :

ونظـر ابـن تيميـة في هـذا البيـت ، وحـاول أن يجرحـه مـن الناحيـة المنطقية ، فرأى أن فيه تناقـضا ، لأن الجمـع بـين النقيـضين في الاعتقـاد في غاية الفساد ، ولأن القضيتين المتناقضتين في السلب والإيجاب على وجه يلزم مـن صـدق إحـداهما كـذب الأخـرى ، لا يمكـن الجمـع بيـنهما . والـصوفية يزعمون أنه يثبت عندهم في الكشف ما ينـاقض صريـح العقـل ، ويقولـون بالجمع بين النقيضين وبين الضدين . ومن سـلك طـريقهم يخـالف المعقـول والمنقول . ولا ريب عند ابن تيمية في أن هذا من أفسد ما ذهب إليه أهـل السفسطة . وقد زاد ابن تيمية الأمر تفصيلا وإيـضاحا فعـرض لمـذهب ابـن عربي في الاعتقاد بكل ما وردت به الأديان المختلفـة كـما يـدل عليـه البيـت المثبت آنفا ، فإذا هو يقرر أن القائلين بهذا القـول مـشركون ، لأنهـم عـدلوا باللـه كل مخلوق ، وجوزوا أن يعبد كل شئ ، ومع أنهم يعبدون كـل شـئ فإنهم يقولون : " ما عبدنا

إلا اللـه " ، وهذا في نظر ابن تيمية مخالف لـدين المرسلين ، ولـدين أهل الكتاب ، وللملل جميعا ، بل لـدين المـشركين أيـضا ، ولمـا فطـر اللـه عليه عباده مما يعقلونـه بقلـوبهم ، ويجدونـه في نفوسـهم ، وهـو في غايـة الفساد والسفسطة والجحود لرب العالمين . ويستدل ابـن تيميـة عـلى ذلـك كله بأن الرسل كانوا يعتبرون ماعبده المشتركون شيئا غير اللـه ، وينظـرون إلى عابده على أنه عابد لغير اللـه ، مشرك به ، جاعل لـه نـدا كـما يـستدل

بأن الرسل دعوا الخلق إلى عبادة الـلـه وحده لا شريك لـه ، وهـذا الإسـلام العام الذي لا يقبل الـلـه من الأولين والآخرين غيره .

ويشارك ابن تيمية في نقده وتجريحه لمذهب الصوفية في الجمـع بـين العقائد المختلفة ، ناقد آخر من الذين نعوا على الصوفية ، وهـو صـالح بـن مهدي المقبلي الذي عرض لمذهبي ابن عربي وابن الفـارض في هـذا الـصدد ، ووازن بينهما ، وانتهى من موازنته إلى مثل ما انتهى إليه ابن تيمية ، فقـال: إن صح ما دعا إليه ابن الفارض وابن عربي من عـدم التفرقـة بـين الأديـان ، ووجوب الاعتقاد بأنها فروع لأصل وحـد ، فإنـه ينبـي عـلى ذلـك ألا يكـون الأنبياء منصفين حين أنكروا على الكفار عبادة غير الـلـه .

٧ - وجـماع القـول في موقـف ابـن تيميـة والمقـبلي مـن مـذهب ابـن الفارض وابن عربي وإضرابهما من الصوفية المعتنقين لوحدة الأديان ، هو أن هذا المذهب مخالف للعقل والنقل بصفة عامة ، ولما ورد في القـرآن بـصفة خاصة ، ولكن نقد ابن تيمية ، على ما فيه من منطق سليم وحجـة معقولـة في حدود وجهة نظره التي نظر منها إلى المسألة ، وهي أنه نظر إلى الـشرائع باعتبارها مختلفة في الواقع ، لا إلي أصلها باعتبـاره واحـدا ، يمكـن دحـضه ، وإظهار ما فيه من أوجه الخطأ ، إذا لاحظنا أن في القـرآن كثـيرا مـن الآيـات الكريمة التي حفلت بالمعاني الدالة على أن الدين في اصله واحد ، وفي فروعه متعدد . وحسبنا أن نثبت بعض هذه الآيات فيما يلي :

١ - " إن ذلك الكتـاب لا ريـب فيـه هـدى للمتقـين . الـذين يؤمنـون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . واللذين يؤمنون بمـا أنـزل

إليك وما أنزل من قبلك وبالأخرة هم يوقنون . أولئك على هدي مـن ربهـم وأولئك هم المفلحون " (سـورة ٢ ، البقـرة : آيـة ١ - ٤) : فواضـح هنـا أن المتقين الذين هم على هدى من ربهـم والـذين هـم مفلحـون ، هـم الـذين يؤمنون بما أنزل إلى النبي ، وبما أنزل من قبله إلى الرسل ، وهـذا مـن شـأنه أن يسوى بين الإسلام وبين غيره من الأديان السابقة عليه ، إذ الكـل مـشترك في أنه تنزيل من عند الـلـه .

٢ - " إن الذيين آمنـوا والـذين هـادوا والنـصارى والـصابئين مـن آمـن بالـلـه واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خـوف علـيهم ولا هم يحزنون " (سورة ٢ ، البقـرة ، آيـة ٦٢) فهـذه الآيـة تـدل عـلى أن القرآن إذ يخبر عن أتباع ديـن محمـد بـأنهم الـذين آمنـوا ، إنمـا يـسوى في الأجر بينهم وبين اليهود والنصارى والصابئين ، ما دام الكل يؤمنـون بالـلــه واليوم الآخر ويعملون صالحا .

٣ - " قل آمنا بالـلـه وما أنزل علينا وما أنزل عـلى إبـراهيم وإسـحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفـرق بـين أحد منهم ونحن له مسلمون " (سورة ٣ . آل عمران : أية ٨٤) فهذه الآية الكريمة تفصيل لما ذكرته الآيات السابقة مجملا ، وتأييد له . وآية ذلك أنه لا فرق عند المؤمنين بين أحد وأحد من النبيين ، بل إن ما أوتي هؤلاء النبيـون واحد .

٤ - " شرع لكم من الدين ما وصى بـه نوحـا الـذي أوحينـا إليـك ومـا وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كـبر عـلى المشتركين ما تدعوهم إليه ، الـلـه يجتبي إليه مـن يـشاء ويهـدي إليـه مـن ينيب . وما تفرقوا

إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ولولا كلمة سـبقت مـن ربـك إلى أجل مسمى لقضي بينهم وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب " (سورة ٤٢ . الشورى : آية ١٣ - ١٤) : فالآية الأولى من هاتين الآيتين تدل على أن الدين الذي وصى به الـلـه أنبياءه لا يختلـف في الأولـين والآخرين : فقد قال مجاهـد في معنـى هـذه الآيـة : " أوصـيناك يـا محمـد وإياهم دينا واحـدا " ، وقـال الـرازي : " المـراد شرع لكـم مـن الـدين دينـا تطابقت الأنبياء على صحته " ، وقال البيضاوي : " أي شرع لكم من الدين ، دين نوح ومحمد ومن بينهما من الأنبياء عليهم السلام من أرباب الـشرع ، وهو الأصل المشترك فيما بينهم المفسر : " ولا تتفرقوا فيه " : أي لا تختلفـوا في هذا الأصل ، أما فروع الشرع فتختلف . وهذا كله يبـين أن القـرآن يقـرر أن الدين واحد لا اختلاف فيه على لسان جميـع الأبيـاء ، وأن الـذي يتعـدد ويختلف هو الشرائع أي الأحكام العملية . وبعبارة أخرى يمكن أن يقـال إن أصل الـدين واحـد لا اخـتلاف فيـه ، وإن مـا يختلـف فيـه هـو التفريعـات العملية ، والتشريعات التطبيقية على هذا الأصل .

٥ - " يأيها الرسل كلو مـن الطيبـات واعملـوا صـالحا إني بمـا تعملـون عليم . وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنـا ربكـم فـاتقون . فتقطعـوا أمـرهم بينهم زبرا كل حزب بما لديهم فرحون " (سـورة ٢٣ . المؤمنـون : آيـة ٥١ - ٥٣) : يعني ملتكم ملة واحدة ، أي متحدة في العقائد وأصول الـشرائع ، أو جماعتكم حماعة واحدة متفقة على الإيمان والتوحيد في العبادة .

٦ - " وأنزلنا إليك الكتاب بـالحق مـصدقا لمـا بـين يديـه مـن الكتـاب ومهيمنا عليه فاحكم بما أنزل الـلـه ولا تتبع أهوائهم عما جـاءك مـن الحـق . لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا . ولو شاء لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلـوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الـلـه مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنـتم فيـه تختلفون " . (سورة ٥ المائدة : آية ٤٨) : قـال الطـبري : " ... ثـم ذكـر نبينـا محمد صلى الـلـه عليه وسلم ، وأخبره أنه أنزل الكتاب مصدقا لمـا بـين يديـه من الكتب ، وأمره بالعمل بمـا فيـه والحكـم بمـا أنـزل إليـه دون مـا في سـائر الكتب غيره ، وأعلمه أنه قد جعل له ولأمته شريعة غير شريعة الأنبياء والأمم قبله ، الذين قـص عليـه قصـصهم ، وإن كـان دينـه وديـنهم في توحيـد الـلــه والإقرار بمـا جـاءهم بـه مـن عنـده ، والانتهـار إلى أمـره ونهيـه واحـدا : فهـم مختلفون فيما شرع لكل واحد منهم ، ولأمته فيما أحل لهم وحرك علـيهم " ، وروي الطبري عن قتادة قوله : " لكل جعلنا مـنكم شرعـة ومنهاجـا ... سـبيلا وسنة ، والسنن مختلفة : للتوراة شريعة ، وللإنجيل شريعة ، وللقرآن شريعة ، يحل الـلـه فيها ما يشاء ويحرم ما يشاء بلاء ، ليعلم من يطيعه ممن يعصيه ، ولكن الـدين الواحـد الـذي لا يقبـل غـيره التوحيـد والإخـلاص لله الـذي

جاءت به الرسل " . وروي الطبري عن قتادة أيضا قوله : " ... والدين واحد والشريعة مختلفة "

٧ - " وتللك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم . ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلا هدينا ونوحا هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين . وزكريا وويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين . وإسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين . ومن آبائهم وثريتهم وإخوانهم واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم . ذلك هدى اللـه يهدي به من يشاء من عباده ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون . أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين . أولئك الذين هدى اللـه فبهداهم اقتده . قل لا أسألكم عليه أجرا إن هو إلا ذكرى للعالمين " . (سورة ٦ . الأنعام: " آية ٨٣ - ٩٠) : ففي هذه الآيات ذكر للرسل من إبراهيم إلى لوط وبيان لأن حظهم من الهداية إلى الصراط المستقيم واحد وأنهم أوتوا الكتاب والحكم والنبوة وأنهم الذين يقتدي بهم في هداهم . قال الزمخشري : " فبهداهم اقتده ، اختص هداهم بالاقتداء ، ولا تقتد إلا بهم .. والمراد بهداهم طريقتهم في الإيمان باللـه وتوحيد وأصوله الدين دون الشرائع فإنها مختلفة . وإنها هدى مالم تنسخ ، فإن نسخت لم تبق هدى بخلاف أصول الدين فإنها هدى أبدا " .

فإن صح فهمنا لهذه الآيات الكريمة من ناحية ، ولمذهب ابن الفارض في وحدة الأديان ، وأها مختلفة في المظهر متفقة في الجوهر من

ناحية أخرى استطعنا أن نالتمس لمذهب شاعرنا هنا مصدرا قرآنيا لا غبار عليه ، ولا شبة فيه : وها هي ذي أقوال المفسرين لما أوردنا من الآيات ، تدل على أن القرآن قد اشتمل في تضاعيفه على العناصر الرئيسية التي يتألف منها مذهب بن الفارض وأشباهه من الصوفية في أن الدين من حيث أصله وجوهره وجد ، وأ، الغاية المقصودة منه واحدة ، وإن تعددت الملل ، واختلفت النحل ، وتباينت الشرائع والشعائر . وأكبر الظن أن ابن الفارض إذ ينظر إلى التوراة والإنجيل والقرآن ، وإلى اليهودية والميحية والإسلام وغيرها من الأديان ، هذه النظرة التي توحد بينها ، وتردها جميعا إلى أصل واحد ليست هذه الأديان المختلفة إلا فروعا له ، ولا تلك الكتب إلا تعبيرات متنوعه ، عنه ، لم يتجاو حدود ما رسمته هذه الآيات البينات التي أثبتناها وبينا معانيا آنفا ، من معالم الوحدة في أصل الأديان ، وجوهر الشرائع .

ولا تكن مسرفين أو غالين إذا قلنا إنه لم يفعل أكثر من التعبير عن مدلول هذه الآيات في أسلوبه الشعري الرمزي الذي يغلب عليه روح المبالغة ، أو إن شئت فقل روح الشطح ، إلى حد يبدو معه كلامه للمعقول والمنقول ، كما ظن ذلك ابن تيمية والمقبلي وغيرهما من خصوم الصوفية ، والواقع أنه ليس كذلك .

٨ - وما تنطوي عليه آيات القرآن التي أوردناها من معنى الوحدة في أصل الدين وجوهره ، ويقرره ابن الفارض في شعره ، ويعبر عنه أضرابه من الصوفية نظما تارة ونثرا تارة أخرى ، وكلهك في ذلك مصطنع للذوق

ومتأثر بالوجد وخاضع السلطان العاطفة ، قد أثبته البحث الحديث في مذهبه في اليدن وأصله ، وهو مذهب قوامه وأداته المنهج العلمي القائم على المشاهدة والاستقراء والتحليل والتعليل والموازنة والتفسير والاستدلال : فمكس مولر (   ) يتناول في كتابه " محاولة في تاريخ الأديان " الصور المختلفة للأديان ، ويوازن بينهما وبين الصور المختلفة للغات ، وينتهي من هذه الموازنة إلى هذه النتيجة التي انتهى إليها ابن الفارض ، وكان القرآن أشمل لها ، وأدل عليها ، وأسبق إليها من مكس مولر وأشباهه من العلماء الحدثين ، ومن ابن الفارض وأمثاله من الصوفية المتقدمين والمتأخرين . ولكي يتبين هذا التوافق الغريب بين نصوص القرآن وأذواق الصوفية ، وبين مذهب العلم الحديث ونتائج بحثة في أصل الأديان ووحدتها ، يحسن أن نورد هنا ما انتهى إليه مكس مولر في هذا الصدد إذ يقول : " .. ويمكن أن يقال في الدين ما قيل في اللسان من أن كل جديد فيه فهو قديم ، وكل قديم فهو جديد ، وأنه منذ بداية العالم لم يوجد قط دين كله مبتدع . وإنا لنجد عناصر الدين وجراثيمه مهما سمونا في تاريخ الإنسانية إلى أبعد مدى مستطاع . وتاريخ الدين كتاريخ اللغة يرينا في كل مكان ألوانا متتابعة من التأليف المستحدث بين عناصر أصلية قديمة " .

فإذا تدبرنا ما يقول مكس مولر هنا ، ووازنا بينه وبين ما انتهى إليه ابن الفارض في قطبيته من أن الشرائع كلها مستمد من منبع واحد وهو روح القطب وحقيقته ، أو الروح المحمدي وشريعته من ناحية ، وما قرره أخيرا في الأديان من أنها مختلفة في الظاهر متفقة في الحقيقة والجوهر ، مشتركة في الأصل والمصدر من ناحية أخرى، رأينا كيف وصل البحث

لحديث في تعقبه لتاريخ الأديان وتحليلها إلى عناصرها المختلفة ورد هذه العناصر إلى أصل واحد ، معتمدا على المنهج العلمي ، إلى ما وصل إليه ابن الفارض من قبل سواء في قطبيته أم في نظرته إلى الأديان هذه النظرة التي تسوى بينها ، وتجعل منها فروعا لأصل وحد ، وكان سبيله إلى ذلك ذوقه ووجده وحبه .

٩ - والحب الذي استوعب حياة ابن الفارض النفسية هذا الاستيعاب الذي شهدنا نتائجه فيما قدمنا من صور الوحدة عنده ، سواء فيما يتعلق بالذات الإلهية أم بالحقيقة المحمدية والأديان والشرائع ، قد انتهى بهذا الشاعر الصوفي إلى أقصى ما ينتهي إليه من خضوع لسطانه ، واتخاذه منه دينا ومذهبا لم يكن ليخلص منه أو ينصرف عنه : فهو قد سوى بين كل الأديان ، ووحد جميع العقائد ، وجعلها مستغرقة في هذا الحب الذي جعل منه لنفسه مذهبا لا يفارقه ، ولا يميل عنه ، ويرى أ، مفارقته لهذا المذهب معناها ارتداده عن دينه وانحرافه عن ملته ، كما يدل على ذلك ما يخاطب به محبوبته الحقيقة في قوله :

وعن مذهب في الحب مالي مذهب ‏ ‏ ‏ وإن ملت يوما عنه فارقت ملتي ٦٤

ولو خطرت لي في سواك إرادة ‏ ‏ ‏ على خاطري سهوا قضيت بردتي ٦٥

وفي قوله :

وما احترت حتى اخترت حبك مذهبا ‏ ‏ ‏ فواحيرتي إن لم تكن فيك خيرتي ٨٣

وفي قوله :

وحيــاتكم ي أهــل مكــة وهــي لي	قــسم لقــد كلفــت بكــم أحــشائي
حبــيكم في النــاس أشــحى مــذهبي	وهـــواكم دينـــب وعقـــد ولائي
يــالأمي في حـــب مـــن مـــن أجلـــه	قــد جــد بي وجــدي وعــز عــزائي
هــلا نهــاك نهــاك عــن لــوم امــرئ	لم يلـــف غـــير مـــنعم بـــشفاء
لـــو تـــدر فـــيم عزلتـــي لعـــرتي	خفـــض عليـــك وخلنـــي وبـــلائي

ألا ترى كيف تمكن الحب من نفس ابن الفارض هنا ، ومـل عليـه كـل قلبه ، فإذا هو يتخذ منه مذهبا لا يعد له مذهب آخر ، ودينا يؤثر على أي دين آخر ، ويؤثر أن يحبا في ظل الدين مع ما يقتضيه من مـشقة وتكليـف وبلاء . ولعل ما انتهى إليه ، وعبر عنه ابن الفارض في هذه الأبيـات لا يكـاد يختلف عما نتهى إليه ، وعبر عنه اب عربي في قوله :

لقــد صــار قلبــي قــابلا كــل صــورة	قمرعـــى لغـــزلان وديـــر لرهبـــان
وبيـــت لأوثـــان وكعبـــة طـــائف	وألـــواح تـــوراة ومـــصحف قـــرآن
أديـــن بـــدين الحـــب أني توجهـــت	ركائبـــة فالـــدين دينـــي وإيمـــاني

ونحن إذا تدبنا ما ينطوي عليه اتخاذ ابن الفارض وابن عربي من الحب مذهبا أو دينا ، رأينا أم كلا منهما إنما يجعل مـن ديـن الحـب مرادفـا لـدين الإسلام ، أو يجعل من الإسلام دينا دعامته الحب ، وما ينطـوي عليـه الحـب من معاني الخضوع والإذغـان والنقيـاد لإرادة المحبـوب : فكـل أولئـك معـان يشترك فيها وينطق بها كل من الحب والإسلام ، فـابن الفـارض لا يفهـم مـن

الحب إلا خضوع المحب لإرادة محبوبه ، وفنائه عن إرادته الفردية ، ورضاه بكل ما تقتضي به المحبة من تكاليف ، وابتهاجه بكل ما يصيبه في سبيل هذه المحبة من أذى ومحنة . وهو في هذا كله لم يكن إلا معبرا عن معنى من معاني الإسلام التي يدل عليها بعض آيات القرآن كقوله تعالى : " ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفا ، واتخذ الله إبراهيم خليلا " (سورة ٤ النساء : آية ١٢٥) ، وكقوله : " ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم " . (سورة ٢ البقرة : آية ١٢٨) .

١٠ - وليس منشك في أن ما انتهى إليه ابن الفارض وأشباهه من الصوفيه من وحدة الأديان ، واتخاذه من الحب دينا ، واعتبارا انحرافه عن هذا الدين مفرقة الدين الإسلام وارتدادا عنه ، قد اشتمل في ثناياه على كثير من المعاني الراقية والمثل العليا التي إن أخذ الناس أنفسهم بتحقيفها ،صفت نفوسهم ، وخلصت قلوبهم ، وسمت مشاعرهم ، فإذا هم ينظرون بعضهم إلىى بعض على أنهم إخوة متساوون متآخرون ، لا فرق فيهم بين إنسان وإنسان ، ولا بين معتنق لدين وعتنق لدين آخر ، لأن الأديان كلها من الله ، قضي بكل دين منها على فريق من الناس ، بحيث لم يختر أحد لنفسه ما يعتنه من هذا الدين أو ذاك . وهذا من شأنه أ، يؤدي إلى نزول الحواجز بين أفراد الأنسان وتحل الوحدة والألفة محل الكثرة والتفرقة ، ويمحو نور التسامح والإخاء ظلمة التعصب والشقاق ، فتألف القلوب وتتحاب النفوس ، ويصبح الناس جميعا إخوانا متحابين ، لا أعداء متنابدين . وعندي أن الذين ينظرون إلى التصوف وأذواقه ونتائجه نظرة

ازورار أو ازدراء مسرفون على أنفسهم وعلى الصوفية ، جاهلون أو متجاهلون لما بنت في تضاعف الأذواق الصوفية من مثل عليا قوامها معرفة الحق وتحقيق الخير والجمال على وجه لو حققه الناس لصلحت حالهم ، وسعدت حياتهم ، وكانوا بمنجاة من كثير من الفتر والشرور . وما هو ذا حب ابن الفارض قد بينا من خلال تحليله إلى عناصره ، والكشف عن نتائجه ، كيف عبر فيه عن مذهبه في وحدة الأديان ، واتخاذه من الحب دينا ، تعبيرا صادقا عن أرقى معاني الإخاء والمساواة بين المعتنقين للأديان المختلفة . ألا ينتهي مبأ الوحدة الذي قرره ابن الفارض وغيره من صوفية المسلمين وبالغوافية ، إلى أن توضع مل المظاهر الوجودية والتعبدية في إطار واحد أخص خصائصه التآلف والانسجام بين عناصره ؟ أليست نظرة ابن الفارض وأشباهه إلى الأديان المختلفة على أنها مظاهر متعددة لجوهر واحد إلا سبيلا إلى تحقيق المثل الأعلى في الحياة الفردية والاجتماعية تحقيقا يعم معه السلام أرجاء العالم ، ويرفرف فيه الحب والإخاء والمساواة بأجنحتها على بني الإنسان جميعا ؟

الحق أن ابن الفارض ، ومن نهجه ، وانتهى إلى ما انتهى إليه من هذه النتائج قد قدموا إلى الإنسانية أجمل عطاء ، وأسدوا أحسن خير ، وكانوا بذلك من دعاة الحرية والمحبة والإخاء والمساواة وما إليها من الدعائم التي أقيمت عليها الديموقراطية الحديثة .

خاتمة البحث

١ - أما وقد فرغنا من دراسة حياة ابن الفارض ومذهبه في الحب ، وما ينطوي عليه هذا الحب من المعاني الصوفية والمنازع الفلفية ، يحق لنا أن نتساءل عن قيمة هذه الدراسة من النواحي العلمية والروحية والعلمية ، وأن نلم في هذه الخاتمة بأهم النتائج التي انتهينا إليها ممن بحثنا ، فحياة ابن الفارض التي حللناها وصورناها ، وعرضنا معها لآثار الصوفية ، ولما أنتجه هذه الآثار في البيئات الصوفية والدينية من ثمرات في الكتاب الأول ، حبه الذي درسناه وبينا حقيقته من الناحيتين النفسية والصوفية ، وحللناه إلى أطواره المختلفة في الكتاب الثاني ، والمناع الفلسفية لهذا الحب التي كشفنا عنها ، وأظهرنا قيمتها الميتافيزيقية إلى جانب قيمتها الصوفية في الكتاب الثالث ، كل أولئك قد انتهى بنا إلى النتائج التالية :

(١) إن حياة ابن الفارض ، وسيرته التي سارها ، ورياضاته ومجاهداته التي أخضع نفسه لها ، وأذواقه ومواجيده ، وما لها من علاقة بحياته العاطفية ، كل أولئك من شأنه أن يظهرنا على الرجل قد حقق كل ماينبغي أن يحققه الإنسان الراقي في حياته الروحية والخلقية من مثل عليا قوامها التجرد عن شوائب الحس ، والتحرر من سلطان الشهوة ، والانصراف عن عالم المادة ، والإقبال على عالم الروح .

(٢) إن آثار ابن الفارض الشعرية عامة ، وتائيته الكبرى وخمريته خاصة قد أظهرتنا بما شملت عليه من المعاني الرقيقة ، والإشارات العميقة ،

على أن الشعر أداة صالحة للتعبير عن أشد الحقائق خفـاء ، وأكـثر المـسائل دقة ، وأنه من هذه الناحية ليس أضيق مجالا ، ولا أقل قـدرة عـلى التعبـير من النثر .

(٣) إن ابن الفارض قد استوعب في تائيتـه الكـبرى وخمريتـه ، فـضلا عن غيرها من قصائد ديوانه ، مـسألة الحـب الإلهـي منـذ ظهـرت في عهـود التصوف الإسلامي الأولى ، عند رابعة العدوية ، وعنـد غيرهـا مـن متقـدمي الصوفية ، حتى الثلـث الأول مـن القـرن الـسابع الهجـري ، فهـو مـن هـذه الناحية قد جمع في ديوانه أينع وأروع الأزهار الت ازدان بها بستان الحـب الإلهي ، والتي أخذ الصوفية منبعده يقطفونها من حيث إلى حين ، ويؤلفون منها هذه الباقـات الجميلـة الفاتنـة التـي تحفـل بهـا قـصائدهم المنظومـة ومقالاتهم المنثورة ، وأكبر الظن أنهم في ذلك عيال على شاعرنا ، يرتاضون في بستانه ، ويقطفون من أزهاره ، وينهلون من مورده . ومعنـى هـذا بعبـارة أخرى أن ديوان ابن الفارض تحفة أدبية في الحـب فحـسب ، بـل هـو دارس أيضا لمذهب غيره من الصوفية . وهذا من شـأنه أن ينتهـي بنـا إلى أن ابـن الفـارض هـو شـاعر الحـب الإلهـي غـير منـازع في تـاريخ التـصوف العـربي الإسلامي .

(٤) إن السواد الأعظم من الناس يقرأ شعر ابن الفارض ويفهمه عـلى أنه شعر غزالي نظمه الشاعر تغنيا بحب معشوقة آدمية ، وقليل مـن قرائـه من يأخذ هذا الشعر على أنه إنما نظم تصويرا لعاطفة الحـب الإلهـي التـي تتخـذ موضـوعها مـن الـذات الإلهيـة . وهـا نحـن أولاء قـد حللنـا حـب

شاعرنا في الكتاب الثاني من هذا البحث ، وأبنا فيه عما عسى أن يكون في هذا الحب من عصر إنساني إلهي ، وانتهينا إلى أنه مهما ذهب الآخذون بظاهر الألفاظ والمعاني إلى أن ابن الفارض كان شاعرا غزلا كغيره من الشعراء الذين يتغنون حب ليلى أو بثينة أو سعاد ، فإن ذلك لا يمنع من أنه كان في أحد أطوار حياته صوفيا بكل ما في الكلمة من معنى ، ولا من أن يكون شعره مرآة صادقة تنكس على صفحتها أذواقه ومواجيده التي خضعت لها نفسه في سبيل الحب الإلهي . وليس أدل على ذلك من تائيته الكبرى وخمريته فإنهما ليستا مجرد أبيات منظومة تترجم عما في نفس ناظمها من عاطفة نحو هذه أو تلك من المعشوقات ، بل إن ما تشتملان عليه من المعاني والحقائق والإشارات والاصطلاحات ، شواهد صدق ، وأدلة حق ، على أن الحب الذي تعبر عنه هاتان القصيدتان ليس حبا من نوع حب مجنون ليلى أو جميل بثينة أو غيرهما من العذريين ، وإنما هو حب موضوعه الذات الإلهية ، وغايته الفناء في هذه الذات ، والاتحاد بها ، وشهودها في كل شئ ، وشهود كل شئ فيها .

(٥) وقد أسلمتنا هذه النتيجة إلى نتيجة أخرى هي أن حب ابن الفارض - مع أنه عاطفة نفسية ذاتية - قد اشتمل في ثناياه على كثير من المعاني الصوفية المصطبغة بصبغة فلسفية : فمذهبه في كل من الوحدة والمعرفة ، وأصل الخلق ، وجوهر الشرائع والأديان ، يحملنا على القول بأن الرجل لم يكن شاعرا فحسب ولا صوفيا فحسب ، ولكنه شاعر صوفي أسبغ على مذهبه ثوبا فلسفا ، ولعله كان في بعض مواضع من مذهبه

أسبق إلى بعض الأفكار من بعض الفلاسفة الأوربيين أمثال مالبرانش واسبينوزا وسويدنبرج وغيرهم ممن ذكرناهم في موضعهم من بحثنا .

(٦) وإذا كان ذلك كذلك ، فقد ترتب عليه أن تكون حياة ابن الفارض مذهبه في الحب الإلهي سبيلا إلى أن تضع الآداب العربية رأسها جنبا إلى جنب وأرقى الآداب الأوربية والشرقية لاسيما الفارسية من هذه الأخيرة . وها هي ذي أذواق شاعرنا في حبه ونتائج هذا الحب التي يصورها شعوره بالاتحاد ، ونظره إلى كل شئ بعين الوحدة ، من شأنهما أن يدحضا الزعم الذي يذهب أصحابه إلى أن القدرة على رد الكثرة والتفرقة إلى الجمع والوحدة ، إنما هي خاصة من خصائص الجنس الآري من دون الجنس السامي ، مما سبق أن أشار إليه الأستاذ براون (Brown) وأخذنا فيه بوجهة نظره .

(٧) وعلى هذا كله تترتب نتيجة أخيرة هي أن أذواق الصوفية ومواجيدهم مهما بلغت من القوة والعنف ، ومهما انتهت بالخاضعين لها إلى الإغراب والشطح ، فهي ليست مع ذلك ضربا من أضرب الهذيان ، أو لونا من ألوان الاضطراب العصبي أو المرض العقلي ، أو مجرد ألفاظ لا معنى لها ولا غناء فيها ، وإنما هي على العكس من هذا كله صور لما احتدم في نفوس أصحابها من عاطفة قوية ، ومرآة صادقة ، ينعكس على صفحتها ما أخذبه الخاضعون لها أنفسهم من رياضة ومجاهدة ، وترجمان عما جال في قلوبهم ، وكشف لبصائرهم ، وانبثق في أعماق باطنهم من أنوار الحق والخير والجمال .

٢ - تلك هي أهـم النتـائج التـي انتهينـا إليهـا مـن بحثنـا لحيـاة ابـن الفارض وأذواقه ومذهبه في الحـب الإلهـي مـن حيـث هـي صـور مختلفـة لتصوف هذا الشاعر الصوفي في ذاته . أما من حيث المـصادر التـي يمكـن أن يكون ابن الفارض قد استقى منها بعـض عنـاصر تـصوفه عامـة ومذهبـه في الحب الإلهي خاصة ، فإننا نرى أنفسنا في هذا الصدد بـين أمـرين : فإمـا أن يكون ابن الفارض في حياتـه وأذواقـه وحبـه بـدعا مـن الـصوفية ، ومبتكـرا لأشياء جديدة لم يسبقه إليها أحد ، وإما أن يكـون متـأثرا بمـن تقدمـه مـن الصوفية ، آخذ عنهم بعض العناصر التي يتألف منها مذهبه ، والحق الـذي لاشك فيه هو أن شأن شـاعرنا هنـا كـشأن غـيره مـن المفكـرين والفلاسـفة وأصحاب الأذواق والأدباء لابد مـن أن يكـون لكـل مـنهم ناحيـة تـأثر فيهـا بغيره :

فالفكرة الجوهرية التي وجهت حياة ابن الفـارض الروحيـة ، وانطـوى عليها مذهبه في الحب الإلهي ، وأعني بها فكـرة حـب اللـــه لذاتـه بـصرف النظر عما أعده للمتقين مـن ثـواب الجنـة ، وللكـافرين مـن عـذاب النـار ، نجدها عند كل من رابعة العدوية وإبراهيم بن أدهم ، فقد أجابـت رابعـة عندما سئلت عن حقيقة عبادتها لله بقولها : " ما عبدته خوفا من ناره ، ولا حبا لجنته ، فأكون كالأجير السوء ، بل عبدته حبا له وشـوقا إليـه " . وقـال إبراهيم ابن أدهم مخاطبا ربه : " إلهي ، إنك تعلم أن الجنة لا تزن عنـدي جناح بعوضة في جنب ما أكرمتني من محبتك ، وآنستني بذكرك ، وفرَغتنـي للتفكر في عظمتك " . فإذا استعدنا إلى أذهاننا هذه الصورة التي تمثل فيهـا ابن الفارض وقد تمثلت له الجنة احتضاره فإذا هو يبكي ويتـبرم قـائلا إنـه لم

يقصد من وراء حبه وسلوكه إلى أن يثاب بالجنة ، بل كل ما يرومه هو نظرة من وجه محبوبته الحقيقية ، وإذا رجعنا إلى أطوار الحب الإلهي عند شاعرنا ، وما أخذ به نفسه في بعض هذه الأطوار من تجرد عن شوائب الأثرة وإعراض عن حظوظ العاجلة والآجلة ، وزهد في كل ثواب أو مكافأة ، رأينا إلى حد يمكن أن يقال إن ابن الفارض لم يزد في هذه الناحية شيئا على ما قالته رابعة وابن أدهم . وقد أظرتنا الموازنات الكثيرة التي عقدناها في مواضع عدة من فصول هذا البحث ، على أنه كان متأثرا بغير رابعة وابن أدهم في تفاصيل مذهبه في الحب : فهناك مثلا وجه لتأثرا بذي النون المصري في المعرفة ، ووجه لتأثره بالحلاج في استعمال لفظتي اللاهوت والناسوت ، وفي الكلام عن الحقيقة المحمدية وقدمها ، وفي وحدو الأديان وائتلافها ، كما رأينا أنه كان متأثرا بغير أولئك وهؤلاء من الصوفية والفلاسفة والفرق الإسلامية ، مما أشرنا إليه في مواضعه .

(٢) ولا يقف تأثر ابن الفارض عند هذا الحد ، ولكنه يتجاوز إلى القرآن والحديث قدسيا كان هذا الحديث أم نبويا : فقد أظهرتنا أبيات كثيرة من تائيته الكبرى على ماله من مهارة فائقة ، وقدرة عجيبة ، على إدخال عنصري القرآن والحديث إلى شعره ، وتغذية مذهبه الصوفي بهما ، على وجه لم يتهيأ لكثرة غيره من الصوفية لاسيما الشعراء منهم ، فهو قد يذكر في بعض الأبيات ألفاظ الآية أو الحديث وعبارتهما صريحة ، وقد يشير إليهما في بعض الأبيات الأخرى تلميحا أو تضمينا ، كأن يذكر من الآية أو الحديث لفظا من ألفاظهما وكل ذلك في براعة ولباقة وحسن أداء : فهو قد أشار مثلا إلى قوله تعالى : " لقد جاءكم رسول من أنفسكم

عزيز عليه ما عنم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم " ، وإلة قوله : " إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون . وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن . ومن أوفي بعهده من الله . فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم " ، وإلى قوله : " أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما " ، وهو قد أشار بعد هذا كله إلى الحديث القدسي القائل : " .. وما تقرب إلى عبدي بشئ أحب إلى من أداء ما افترضته عليه ، ولا يزال يسمع به ، وبصره الذي يبصره به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها .. إلخ " . فكل أولئك شواهد صدق على مبلغ تأثر ابن الفارض بالقرآن والحديث ، واستغلاله لهما ، وتغذية مذهبه بهما ، على الوجه الذي يجعل من هذا المذهب شيئا ملائما لتعاليم الكتاب والسنة .

(٣) على أن هناك أبياتا من شعر ابن اللفارض قد حملت البعض على أن يعتقد أنه لم يكن متأثرا بمن سبقه من الصوفية فحسب ، ولا مستغلا للقرآن والحديث فحسب ، بل كان كذلك متأثرا بالشيعة وبالإسماعيلية الباطنية ، مستغلا لبعض عقائد أولئك وهؤلاء ، الأمر الذي ذهب معه بعض المؤرخين والشراح إلى أن شاعرنا كان شيعيا ، فقد ذكر عباس رضا القمي فيما ذكر من ترجمة ابن الفارض أن الجماعة صرحت بتشيعه . وزعم الفرغاني في شرحه للتائية الكبرى أن من ألفاظ الشاعر وإشاراته ما يمكن أن يرد إلى أصل شيعي ، على نحو ما يظهرنا عليه قوله في البيت التالي :

وخذ بالولا ميراث أرفع عارف غدا همه إيثار تأثير همة ٢٩٩

فالفرغاني يرى أن المقصود " بالولاء هنا هو حب أهل البيت على اصطلاح الشيعة القائلين بالولاء ، وأن المراد " بأرفع عارف " هو على رضي الله عنه : لأنه صاحب المعرفة الحقيقية بالأصالة وغيره صاحب هذه المعرفة بالتبعية ، ويستدل على ذلك بالحديث الذي قال فيه عليه الصلاة والسلام : " أنا مدينة العلم وعلى بابها " . ولكن القاذاني يرى أن ما يعنيه ابن الفارض بأرفع عارف هو محمد صلي الله عليه وسلم : لتفرد بكمال هاتين الصفتين ، وأن ما يعنيه بميراثه هو العلم والمعرفة ، وذلك وفقا لما ورد في الخبر : " العلماء ورثة الأنبياء " .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإننا نقرأ بعض إشارات لشاعرنا ، فنحس أن بينها وبين بعض أقوال الإسماعيلية شبها ما ، كما هو الشأن في البيت الذي يصور فيه ابن الفارض كيف حصل له الشهود العرفاني الذي تبين فيه أن مصدر المعرفة هو النفس فقال :

قتلت غلام المفس بين إقامتي ال جدار لأحكامي وخرق سفينتي ٧١٥

فهذا البيت يذكرنا على الأقل بما قاله راشد الدين سنان زعيم الإسماعيلية في الشام وهو : " ... ثم ظهرت في دور إبراهيم على ثلاث مقالات ، كوكب وقمر وشمس : فخرقت السفينة وقتلت الغلام ، وأقمت الجدار ، جدار

الدعوة ، فنجا بلطفي ورحمتي من آمن بدعوتي " على أننا ، برغم هذا الشبه الذي يبدو بين بعض أبيات ابن الفارض وبين بعض عقائد الشيعة والإسماعيلية ، لا نميل إلى أن نجعل من هذا الشاعر الصوفي شيعيا أو إسماعيليا ، يعتقد ما يعتقده أولئك وهؤلاء ، أو يرمي إلى ما يرون إليه : وإنما هي آثار باقية من تراث العصر الفاطمي ، ظلت كامنة في أعطاف العصر الأيوبي الذي عاش فيه ابن الفارض ، ولكنها مع كمونها كان ما يزال لها صدى يتردد في بعض الآذان ، وإن كان تردده خافتا خفيا ، إلا أنه مع ذلك كان يسمع من حين إلى حين ، وكان أثره يعمل عمله في بعض النفوس والعقول التي عاش أصحابها إبان العصر الأيوبي ، فإذا هم يدخلون في قصائدهم ومؤلفاتهم بعض العناصر الشيعية أو الإسماعيلية دون أن يكونوا شاعرين بها أو عامدين لها . ومن هنا كان ما كان من هذه العناصر التي أشرنا إلى بعضها في البيتين المثبتين آنفا . واللذين - على ما في أولهما من تشابه مع عقيدة الشيعة في أن عليا هو الإمام بعد رسول الله ، وعلى ما في ثانيهما من تطابق في اللفظ والمعنى مع نص لأحد زعماء الإسماعيلية لا يؤديان مع ذلك إلى أن شاعرنا كان شيعيا ، ولم يكن سنيا .

فطبيعة العصر الذي عاش فيه ابن الفارض وهو العصر الأيوبي الذي كان سنيا بكل ما في الكلمة من معنى ، لم تكن لتمسح بأن تذاع عقائد الشيعة أو تنتشر أقوالهم في وضوح وصراحة . وحياة ابن الفارض ، وما خضع له من العوامل في تنشئته ، وتربيته وتهذيبه ، وما ظفر به من إقبال الملك الكامل عليه وإجلاله له ، كل أولئك من شأنه أن يحملنا على اعتقاد أن الرجل قد نشأ نشأة سنية ، وكان في حاله ومقاله متمشيا مع

روح العصر الذي قضى حياته ، ونظم شعره فيه . ليس أدل على ذلك من أن أباه قد شغل منصب الفارض بين يـدي الحكـام الأيـوبيين الـسنيين ، وعـرض عليه أن يكون قاضيا للقـضاة ، ولكنـه رفـض ، وآثـر الـتخلي عـن المنـصب والعزلة عن الناس ، فلو قد كان أبوه شيعيا ، لنفـث في روع ابنـه شـيئا مـن تعاليم الشيعة ، لما تهيأ له أن يشغل منصبا في دولة سنية ، ولما حظـي ابنـه بهذه المكانة الممتازة التي أحله فيها الملك الكامل ومن عـاصره مـن الـوزراء والحكام والفقهاء ، وكلهم من أهل السنة .

ولعل معترضا يقول : إذا كان ذلك كله صحيحا ، فـبماذا تفـسر " أرفـع عارف " الـذي ذكـره ابـن الفـارض في البيـت (٢٢٩) مـن تائيتـه الكـبرى ، وفسره الفرغاني بأن على رضي الـلـه عنه ، وفسر ميراثه بأنه العلم والمعرفة ؟ وعلى أي وجه تفهم هذا التقارب في اللفظ والمعنى بين قول راشد بن سـنان الإسماعيلي وبين قول ابـن الفـارض في البيـت (٧١٥) مـن تائيتـه الكـبرى ؟ الحق أن البيت الأول ، وإن كان يحتمل في تأويله الإشارة إلى عـلى ، إلا أنـه ليس لدينا في غيره من بقية شعر ابن الفارض ما يثبت أن لعلى عند شـاعرنا مكانة خاصة تميزه من بقية الخلفاء ، فابن الفارض لم يذكر عليـا صراحـة إلا مرة واحدة على نحو ما ذكر أبا بكر وعمر وعثمان ، إذ أراد أن يثبـت لعـلي اختصاصه بالعلم ، كما أثبت لغيره اختـصاصه بكـمالات أخـرى ناهيـك بـأن تسويته بين الخلفاء الأربعة هذه التسوية التي تجعلهم كالنجوم من اقتدى بأبيهم اهتدى ، وذلك في قوله :

وسائرهم مثل النجوم من اقتدى   بأبيهم منه اهتدى بالنصيحة ٦٢٥

من شأنها أن تجعلنا نعتقد أن أرفع عارف الذي يعنيه في البيت (٢٩٩) لا يمكن أن يكون عليا ، إنما هو محمد الذي فاضت حقيقته بكل كـمال في العلم والعمل ، وكان على أحد المتحققين بهذا الكمال في العلم ، في حين كان غيره متحققا به في مظهر آخر من مظاهره ، على نحو ما بينا ذلك مفصلا في موضعه من الفصل الثالث من الكتاب الثالث . هـذا فـيما يتعلـق بالـسؤال الأول ، أما فيما يتعلق بالسؤال الثـاني ، فلـسنا نـرى في التـشابه الواقـع بـين البيت .(٧١٥) من تائية ابـن الفـارض الكـبرى وبـين نـص راشـد بـن سـنان الإسماعيلي ، ما يقوم دليلا كافيا على أن شاعرنا كـان إسـماعيليا ، أو متـأثرا بالإسماعيلية مصطنعا لألفاظهم على أقل تقدير : إذ مـا الـذي يمنـع مـن أن يكون شاعرنا قد استقى إشارته في هذا البيت من ألفاظ القرآن وعباراته ، لا من أقوال هذا الزعيم أو ذاك من زعماء الإسماعيلية . وها هـي ذي الآيـات ٧١ - ٨٢ من سورة الكهف ، يمكن أن تعد مصدرا استقى منـه ابـن الفـارض ألفاظه وإشاراته في البيت المذكور ، على نحو ما اسـتقى مـن آيـات أخـرى ، وضمنها بعض أبياته التي ضربنا الأمثال بها فيما سبق . وما الذي يمنـع مـن أن يكون كل من الـشاعر الـصوفي والـزعيم الإسـماعيلي قـد رجـع إلى هـذه الآيات ، واعتمد عليها في تصوير مذهب يختلف عند أحدهما هو عليه عند الآخر .

٣ - والآن وقد انتهينا من بحثنـا لحيـاة ابـن الفـارض وآثـاره الـصوفية وأذواقه الروحية ومذهبه في الحب الإلهي ، والمصادر التـي يمكـن أن يكـون قد استقى منها بعض العناصر ، نرجو أن نكـون قـد وفقنـا فيهـا قـدمنا مـن فصول هذا البحث وفيما استخلصنا من النتـائج المتقدمـة إلى الكـشف عـن

شخصية ابن الفارض وفلسفته الصوفية في الحب الإلهي على وجه يمكن القارئ من تكون صورة واضحة لهذا الشاعر الصوفي الفذ ، ومن الاقتناع بأن حياة الصوفية وأحوالهم ، ومذاهبهن وأقوالهم ، ليست كما يزعم خصومهم أمورا غير خلقية بالبحث والدرس ، ولا جديرة بأن يعني بها هذه العناية التي توجه أو التي ينبغي أن توجه فقط إلى النظريات العلمية والمذاهب الفلسفية . ولعلني إذ أرجو ذلك فإنما أرجو أيضا أن يكون هذا البحث حلقة أولى من سلسلة بحوث مقبلة أتناول فيها غير ابن الفارض من الشخصيات التي ظهرت في تاريخ الحياة الروحية الإسلامية ، تناولا لا يخضع إلا لمنهج البحث العلمي الذي هو وحده سبيل الباحث إلى كشف الحقيقة لذاتها ، فكم في تاريخ هذه الحياة الروحية من النواحي التي ما تزال مجهولة أو غامضة على أقل تقدير ، ومن الشخصيات التي ما تزال مغمورة أو معروفة على غير حقيقتها ، مما لو عنى به الباحثون ، وأقبلوا عليه في أمانه وإخلاص وتجرد عن الهوى والتعصب ، لانتهوا فيه إلى نتائج قيمة لا شك في أن يكون لها أثرها في حياة الفرد والجماعة ، وصداها الذي يتردد في نفوس الذين يقفون على ما تنطوي عليه الأذواق الروحية والمعاني الصوفية من المثل العليا والمبادئ السامية التي إن أخذوا أنفسهم بتحقيقها والخضوع لها ، سلموا من كثير من الفتن والشرور ، وكانوا بمنجاة مما تتأذى به الإنسانية من المحن والخطوب التي تولدها الخصومات والحروب . وها هي ذي حياة ابن الفارض ومذهبه في الحب ، أكبر الظن أن الرجل قد حقق فيهما هذه المثل العليا سواء من الناحيتين الروحية والعملية ، فهل هناك حياة روحية أرقى من هذه التي يدأب فيها الإنسان على تصفية

نفسه، وتنقية قلبه ، وجلاء عين بـصيرته ، وعـلى التأمـل المتـصل في الكـون ، والاتصال الدائم بمبدع هذا الكون ، ومفيض الوجود والحياة والجمال عليـه! وهل هناك مهذب أعمق أثرا في نفس الذي ينتهي إليه ، وفي توجيـه حياتـه العملية ، من هذا المذهب الذي أقيم على دعائم قوية من الحـب الـصادق والرضا الخالص والاطمئنان إلى كل شئ ، والقبول الحسن لكل شـئ ، بحيـث تصبح اللذة والألم ، النعيم والعـذاب ، الغنـي والفقـر، الـسعادة والـشقاء ، كلها لديه سواء ! وهل هناك حياة أنعم حالا ، وأوفر كمالا من هذه الحيـاة التي يبسط عليها الحب والإخاء والمساواة أجنحتها عـلى هـذا الوجـه الـذي يصوره لنا مذهب ابن الفارض في الوحدة : وحدة المحب والمحبوب ، وحدة الخلق والحق ، وحدة الأديان والشرائع ، إذ تـزول كـل مظـاهر التفرقـة بـين أفراد النوع الإنساني ، فينظر المعننقون للأديان المختلفـة بعـضهم إلى بعـض على أنهم إخوة متحـابوا متـساوون ، لا عـلى أنهـم متباغـضون متنـافرون ! الحق أنـه لـو لم يكـن في حيـاة ابـن الفـارض ومذهبـه في الحـب غـير هـذه النواحي الروحية والعمليـة ، لكفـى بهـا دلـيلا عـلى أن حيـاة الـصوفية بمـا يختلف عليها من الأذواق ، ومذاهبهم بما تنطوي عليه من المبادئ ، خليقـة بأن نقبل عليها باحثين محللـين مفتـشين عـن مثلهـا العليـا ، متـأثرين هـذه المثل ، وجديرة بأن يقف منها الناقدون لها ، الناعون على أصـحابها ، موقفـا جديدا يتجردون فيه عن أهـوائهم ويقبلـون معـه عـلى مـا خلـف الـصوفية من آثار ، وما روي عنهم مـن اخبـار ، يحللونهـا ويحققونهـا ويلتمـسون في ثناياها الحقيقيـة العليـا التـي إذا انكـشفت لهـم رقـت مـشاعرهم، وصـف ضـمائرهم ، وانجلـت سرائـرهم ، وحققـوا في حيـاتهم الروحيـة والعمليـة

كثيرا من المبادئ الراقية التي بتحققها يخلص الإنـسان مـن عوائـق المـادة ، وعلائـق الحـس ، وشـوائب الأثـرة ، ويـصبح قـادرا عـلى الاتـصال باللــه ، والاستمتاع بما في الكون من مظاهر عظمته وجلاله ، وآيات كماله وجماله .

مراجع البحث

المراجع العربية

(ا) حياة ابن الفارض وديواتنه ومذهبه :

١ - ابن الألوسي البغداوي : جلاء العينين . القاهرة ١٢٩٦ هـ .

٢ - ابن إياس : بدائع الزهور في وقائع الذهور . جزءان ، بولاق ١٣١١ .

٣ - ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة . نسخة فوتوغرافية بدار الكتب الصرية ، رقم ٥٦١٦ تاريخ .

٤ - ابن تيمية : مجموعة الرسائل - . خمسة أجزاء ، القاهرة : ١٣٤١١ - ١٣٤٩ هـ

٥ - ابن حجر العسقلاني : لسان الميزان ، ستة أجزاء ، الهند ١٣٣٠ هـ .

٦ - ابن خلكان : وفيات الأعيان . جزءان وذيل ، القاهرة ١٢٧٥ هـ .

٧ - ابن الزيات : الكواكب السيارة في ترتيب الزيادة . بولاق ١٣٢٥ هـ .

٨ - ابن العماد ' شذرات في أخبار من الذهب . ثمانية أجزاء ، القاهرة ١٣٥٠ هـ.

٩ - ابن الفارض : الديوان . نسخة خطية بدار الكتب المصرية تمت كتابتها سنة ٩٦٧ هـ ، رقم ٣٨٦٨ أدب .

١٠ - ابن الفارض : الديوان . بيروت ١٨٨٧ م .

١١ - ابن الفارض : الديوان . القاهرة ١٣٥٤٢ هـ .

١٢ - أحمد بن كمال باشا : شرح القصيدة الخمرية . نسخة خطية بدار الكتب المصرية رقم ٩٣ مجاميع

١٣ - بطرس البستاني : دائرة المعارف . مادة " ابن الفارض ومادة حماة "
١٤ - البقاعي : تنبيه الغبي على تكفير ابن عربي، نسخة فوتوغرافية بالخزانة الزكية .
١٥ - البقاعي : تحذير العباد ، من أهل العناد ، بدعة الاتحاد ، نسخة فوتوغرافية بالخزانة الزكية .
١٦ - البوريني والنابلسي : شرح ديوان ابن الفارض . مرسليا ١٨٥٣ م .
١٧ - البوريني والنابلسي : شرح ديوان ابن الفارض . جزءان ، القارة ١٣١٠ هـ
١٨ - حاجي خليفة : كشف الظنون . سبعة أجزاء ، لليبسك ١٨٤٥ هـ .
١٩ - داود القيصري : شرح التائية الكبرى المسمى " نظم الدر " . نسخة خطية بدار الكتب المصرية رقم ٢٣٤ أدب .
٢٠ - السيوطي : حسن المحاضرة ، في أخبار مصر والقاهرة جزءات ، القاهرة ١٣٢٧ هـ .
٢١ - السيوطي : قمع المعارض بنصرة ابن الفارض . نسخة خطية بدار الكتب المصرية رقم ٩٨ مجاميع .
٢٢ - صالح بن مهدي المقبلي اليمني : العلم الشامخ " في إيثار الحق على الآباء والمشايخ . القاهرة ١٣٢٨ هـ
٢٣ - عباس بن محمد رضا القمي : هدية الأحباب ، في ذكر المعروفين بالكني والألقاب والأنساب . النجف الأشرف ١٣٤٩ هـ .
٢٤ - على مبارك باشا : الخطط التوفيقية الجديدة (أربعة محلدات ، عشرون جزءا) بولاق ١٣٠٦ هـ .
٢٥ - الفرغاني : منتهى المدارك . جزءان ، إستامبول ١٢٩٣ هـ .

٢٦ - القاشاني : كشف الوجود الغر ، لمعاني نظم الدر . على هامش شرح ديوان ابن الفارض القاهرة ١٣١٠ هـ .

٢٧ - محمد أمين (الشهير يأمير بادشاه) : شرح التائية . نسخة خطية بدار الكتب المصرية رقم ٥١٢٢ أدب .

٢٨ - محمد بن محمد الغمري (سبط الموصفي) : الزجاجة البلورية ، في شرح القصيدة الخمرية . نسخة خطية بدار الكتب المصرية رقم ١٥٦٦ أدب .

٢٩ - محمد كرد على بك : خطط الشام ، خمسة أجزاء ، دمشق ١١٩٢٥ - ١٩٢٧ م .

٣٠ - المقريزي : الخطط . أربعة أجزاء ، القاهرة ١٣٢٦ هـ .

٣١ - المناوي : الكواكب الدرية ، في تراجم السادة الصوفية . نسخة خطية بدار الكتب المصرية رقم ٢٥٩ تاريخ .

٣٢ - النابلسي : كشف السر الغامض ، من شرح ديوان ابن الفارض . جزءان نسخة بدار الكتب المصرية رقم ٥١٢٢ أدب .

(ب) مراجع عامة :

٣٣ - القرآن الكريم .

٣٤ - الكتاب المقدس .

٣٥ - اب حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل . خمسة أجزاء ، القاهرة ١٣١٧ - ١٣٢١ هـ

٣٦ - ابن خلدون : المقدمة . المطبعة البهية بالقاهرة .

٣٧ - ابن سينا : الإشارات والتنبيهات . لندن ١٨٩٢ م ، والقاهرة ١٣٢٥ هـ .

٣٨ - ابن سينا : رسالة العشق في مجموعة الرسائل المسماه " جامع البدائع " . القاهرة ١٩١٧ م .
٣٩ - ابن عربي : فصوص الحكم ، شرح بالي أفندي . إستامبول ١٣٠٩ هـ .
٤٠ - ابن عربي : فصوص الحكم ، شرح القاشاني . القاهرة ١٣٢١ هـ .
٤١ - ابـن عـربي - الـذخائر والأعـلاق " شرح تـرجمات الأشـواق . بـيروت ١٣١٢هـ .
٤٢ - ابن عربي : مجموعة الرسائل الإلهية . القاهرة ١٣٢٥ .
٤٣ - ابن عربي : الفتوحات الملكية . أربعة أجزاء ، القاهرة ١٣٢٩ هـ .
٤٤ - ابن قيم الجوزية : مـدارج الـسالكين ، بـين منـازل إيـاك نعبـد وإيـاك نستعين ، ثلاثة أجزاء ، القاهرة ١٣٢١ - ١٣٣٤ هـ
٤٥ - ابو طالب المكي : قوت القلوب . أربعة أجزاء " القاهرة ١٢٥١ هـ .
٤٦ - أبو العلا عفيفي (الدكتور) : من أين استقى محي الـدين بـن العـربي فلسفته التـصوفية . مجلـة كليـة الآداب بالجامعـة المـصرية ، المجلـد الأول ، الجزء الاول ، مايو ١٩٣٣ م .
٤٧ - أبو العلا عفيق (الدكتور) ، : نظريات الإسـلاميين في الكلمـة . مجلـة كلية الآداب بالجامعة المصرية المجلد الثاني ، الجزءان الأول ١٩٣٤ م .
٤٨ - أحمد أمين : فجر الإسلام . القاهرة ١٩٢٨ م .
٤٩ - أحمد أمين : ضحى الإسلام . ثلاثة أجزاء ، القاهرة ١٩٣٣ - ١٩٣٦ م .
٥٠ - الجرجاني : التعريفات . إستانبول ١٣٢٧ هـ .
٥١ - جورجي زيدان: تـاريخ آداب اللغـة العربيـة.. أربعـة أجـزاء، القـاهرة ١٩١٣م.
٥٢ - جورجي زيدان : تـاريخ التمـدن الإسـلامي . خمـسة أجـزاء ، القـاهرة ١٩٠٢ - ١٩٠٦ م .

٥٣ - جول لابوم : تفصيل آيات القرآن الحكيم . (نقله إلى العربية محمد فؤاد عبد الباقي) القاهرة ١٣٤٢ هـ - ١٩٢٤ م .
٥٤ - الجيلي (عبد الكريم) : الإنسان الكامل . جزءان ، القاهرة ١٣١٦ هـ .
٥٥ - حسن رضوان : روض القلوب المستطاب . القاهرة (عموم الاوقاف المصرية) ، ١٣٢٢ هـ.
٥٦ - داود الأنطاكي : تزين الأسواق ، بتفصيل أشواق العشاق . القاهرة ١٣١٩ هـ .
٥٧ - زكي مبارك (الدكتور) . التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق . جزءان القاهرة ١٩٣٨ م .
٥٨ - السهرودي (أبو حفص عمر) : عوارف المعارف . على هامش إحياء علوم الدين ، القاهرة ١٣٤٨ هـ .
٥٩ - السهرودي (يحي بن حبش المفتول) : حكمة الإشراف وشرح الشيرازي عليه . إيران ١٣١٣ هـ
٦٠ - السيوطي : تأييد الحقيقة العلية ، وتشيد الشاذلة . نسخة خطية بدار الكتب المصرية رقم ٣٠١٤ تصوف .
٦١ - الشعراني : الطبقات الكبرى ، جزءات ، بولاق ١٢٨٦ هـ
٦٢ - الشعراني : اليواقيت والجواهر ، في بيان عقائد الأكابر ... جزءات ، المغامرة ١٣٥١ هـ .
٦٣ - الشعراني : الكبريت الأحمر . على هامش اليواتيت والجواهر المتقدم .
٦٤ - الشهرستاني : الملل والنحل . على هامش الفصل لابن حزم . القاهرة ١٣١٧ - ١٣٢١ هـ .

٦٥ - طه حسين (الدكتور) : حـديث الأربعـاء . جـزءان ، القـاهرة ١٩٢٣ - ١٩٢٥ م .
٦٦ - عبد اللطيف الطيباوي : التصوف الإسلامي العربي ، القاهرة ١٩٢٨ م .
٦٧ - الغزالي : إحياء علوم الدين . أربعة أجزاء ، القاهرة ١٣٤٨ هـ .
٦٨ - الغزالي : تافت الفلاسفة . القاهرة ١٣٢١ هـ .
٦٩ - الغزالي : الرسالة اللدنية . القاهرة ١٣٢٨ هـ .
٧٠ - القشيري : الرسالة . القاهرة ١٣٢٨ هـ
٧١ - القفطي : إخبار العلماء ، بأخبار الحكماء . القاهرة ١٣٢٦ هـ .
٧٢ - الكلاباذي : التعرف لمذهب أهل التصوف . القاهرة ١٩٣٣ .
٧٣ - مجلة نور الإسلام . المجد السادس ، العدد الثالـث . الحيـاة التعبـديام في الإسلام (عن بروكلمان)
٧٤ - مصطفى البكري ، السيوف الجداد ، في أعناق أهل الزندقة ولة لإلحـاد . القاهرة ١٣٥٠ هـ .
٧٥ - مصطفى عبد الرازق : ثلاث محاضرات عـن الـدين الإسـلامي وموقفـه بإزاء العلم الحديث ألقيا بالجامعة الأميريكية ببيروت ١٩٣٢ م ...
(أ) مذهب العلم الحديث في الدين وأصله . مجلة الهلال ، يوليو ١٩٣٢ م
(ب) الدين في نظر الإسلام . مجلة الهلال ، أغسطس ١٩٣٢ م .
(ج) الدين الإسلامي ووجهته . مجلة الهلال ، نوفمبر ١٩٣٢ م .
(ج) الدين الإسلامي ووجهته . مجلة الهلال ، نوفمبر ١٩١٣٢ م .
٧٦ - يعقوب صروف : رسائل الأرواح . القاهرة ١٩٢٨ م .

٧٧ - يوسف كرم : تاريخ الفلسفة اليونانية . القاهرة ١٩٣٦ م .

78 - Guyard : Fragments relatifs à la doctrine des Ismailiens , (paris , Nationale) . 1874 .

79 - Al Hallaj : Kitab Al Tawasin (texte arabe et commentaire par M.L. Massignon) , paris 1913 .

80 - Al Hallaj : Le Divân recueilli par L. Massignon - Journal Asiatique : Janvier - Mars 1931 .

81 - Al Hallaj : Quatre textes , (recueilli par L. Massignon and p. Kraus) , paris .

82 - Ibn Al-Arif : Mahasin Al-Majalis , (text arabe , traduction fran Çaise et commentaire par Miguel Asin Palacios .) . Paris . 1933 .

83 - Massignon (louis) : Recueil de textes Inédits , paris 1929 .

المراجع الأوربية

(ا) في الإنجليزية :

84 - Aly shah (Sirdar Ikbal) : Islamic sufism , London 1933 .

85 - Barret (W.F.) : psychical Research , London 1917 .

86 - Browne (E.G.) : Litterary History of Persia , 4 volumes , London 1902 .

87 - Encyclopedia of Islam : Articles ‘ Ayubidés ‘ , ‘ Hamat ‘ , ‘ Ibn Arabi ‘ , Umar Ibnu’l Farid ‘ , ‘Sufism ‘ , ‘ Itihad ‘ , ‘ Ismailia ‘ .

89 - Encyclopedia of Religion and Ethics : Articles ‘ Gili ‘ , Maracle ‘ , ‘ pantheism ‘ .

90 - Hughes (T.B.) : Dictionary of Islam , London 1935 .

91 - Al Hujwiri : The kashf Al Mahjub (English translation ny Nicholson) , London 1911 .

92 - Hussaini (S.A.) : Ibn Al-‘Arabi, the Great Muslim Mystic & Thinker , Madras 1931 .

93 - Ikbal (Dr. Mohamed) : The Reconstruction of Religious Thought in Islam , Oxford 1934 .

94 - James (William) : The varieties of Religious Experience , London 1925 .

95 - Journal of the Royal Asiatic society , (October 1906) : Biographies of Ibnu’l farid & Ibn ‘Arabi .

96 - lanepoole (Stanley) : History of Egypt in the Middle Ages . 1925

97 - Macdonald : Religious Attitude and life in Islam .

98 - Nicholson (R.A.) : Mystics of Islam , London 1914

99 - Nicholson (R.A.) : studies in Islamic Mysticism , Cambridge 1921

100 - 98 - Nicholson (R.A.) : literary History of the Arabs , Cambridge 1930 .

101 - 98 - Nicholson (R.A.) : ‘ Article Mysticism ‘ in ‘ The Legacy of Islam ‘ , oxford 1931 .

102 - Rumi (jalal Al Din) : Divani shamsi Tabriz , Cambridge 1898 (english translation by Nicholoson)

103 - smith (Marguerit) : Rabie the Mystic and her Fellow saints in islam , Cambridge 1928 .

Swedenborg (Emanuel) : The Divine love and wisdom , (Every man’s Edition) .

105 - whinefield : An Abridged Translation of the Mathnewi , (second edition) .

(ب) في الفرنسية :

106 - Blondel (Gh.) : psychanalyse , paris 1924 .

107 - Bouillier (frans.) : Histoire de la philosophie cartésienne , 2 volumes 1868 .

108 - Delbos (victor) : le spinozisme , paris 1926 .

109 - Dermenghem (Emile) : l'Eloge du vin , Al khamriya , poem Mystique de omar ibn El faridh , paris 1931 .

110 - De vaux (carra) : Ghazali , paris 1902 .

111 - De vaux (carra) : les penseurs de l'islam ; 5 volumes , paris 1923 .

112 - Dumas (George) : Thaité de psychologie ; 2 volumes , paris 1924 .

113 - fouillée (Alfred) : Histoire de la philosophie , paris 1920 .

114 - Goblot (Edmond) : vocabulaire philosophique , paris 1924 .

115 - Malebravche (Nicolas) : la Recherche de la vérité ; 2 volumes (Edit. Flamarion) .

116 - Massignon (louis) : la passion d'Al-Houssain ibn Mansour Al-Hallaj , 2 volumes , paris 1922 .

117 - Massignon (louis) : Essai sur les origins de lexique technique Musulman , paris 1922 .

118 - paulhan (fr.) : les Transformations sociales des sentiments , paris 1920 .

119 - platon : le Banquet , trad , l. Robin , paris 1938 .

120 - platon : la République , trad , E. chambray , paris 1932 - 1934 .

121 - plotin : Ennéades (Texte établi et traduit par Emaile Bréhier) ; 3 volumes . paris 1924 - 1925 .

122 - spinoza (Benoit) : l’Ethique (Texte étabi et traduit par Apputhn) ; 2 volumes , paris .

(ج) في الإيطالية :

123 - Di Matteo (ignasio) : Revista degli studi Orientali) ; vol. VIII , Roma 1919-1912 .

124 - Nallino (carlo) : II poema mistico arabo d’Ibn al al farid in une recente traduzione (Ibid) .

125 - Nallino (carlo) : Ancora su Ibn al farid sulla mistica mululmana (Ibid) .

الفهرس